أسماء لامعة في سماء المدينة

سيرة حياة الأديبة المصرية

هدى توفيق

إعداد

جمعة الكندي عبد الزهرة عمارة

منشورات أمارجي

أسماء لامعة
في سماء المدينة

سيرة حياة

الأديبة المصرية
هدى توفيق

أسماء لامعة
في سماء المدينة

سيرة حياة
الأديبة المصرية
هدى توفيق

أعداد

جمعة الكندي   عبد الزهرة عمارة

منشورات امارجي

عنوان الكتاب : أسماء لامعة في سماء المدينة
النوع الأدبي : سيرة حياة الأديبة المصرية هدى توفيق
إعداد : عبد الزهرة عمارة – جمعة الكندي
نوع الكتاب : ورقي قياس الورق : 21x14
الطبعة الأولى : ٢٠٢٣
عدد الصفحات : ٤٢٦
تصميم الغلاف : الرسامة الدكتورة فرح عبد الزهرة
التنضيد والتنسيق الداخلي : أمارجي
طباعة : دار أمارجي للطباعة والنشر_ العراق
الرقم الدولي: ISBN : 978-9922-9567-0-1

دار امارجي
للطباعة والنشر – العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

صدق الله العظيم

شكر وتقدير

بكل فخر واعتزاز نقدم شكرنا وتقديرنا للأديبة المصرية هدى توفيق على تعاونها الكبير معنا في إعداد هذا الكتاب نتمنى لها كل التوفيق والنجاح الدائم في مسيرتها الأدبية

عبد الزهرة عمارة

المقدمة

هذا الكتاب هو مشروع ثقافي برعاية مؤسسة أمارجي للثقافة والأدب والفنون بالتعاون مع دار أمارجي للطباعة والنشر إضافة الى الرابطة العراقية للقصة القصيرة جداً..

يتناول هذا الكتاب سيرة حياة علم من أعلام الساحة الأدبية ورمز مميز أثرى المكتبة العربية بمؤلفاته من الشعر أو القصة أو الرواية أو النقد .

كما أوردنا نماذج من نتاجه الأدبي ودراسات نقديه لمنجزاته الأدبية أضافة الى التكريمات التي حصل عليها طيلة فترة مسيرته الأدبية .

وخصصنا الفصل الأخير الى صور أغلفة الكتب والمهرجانات التي اشترك فيها الأديب .

كما راعينا في الاختيار الأديب الذي له إصدارات ورقية مطبوعة كشرط أساسي ثم نشاطه وتميزه ودوره الفاعل في الوسط الثقافي .

نأمل من الله عزوجل أن نكون قد أوصلنا رسالة طيبة في أنجاح هذا المشروع الذي يخدم كل الأدباء ومن الله التوفيق والسداد .

عبد الزهرة عمارة

الفصل الأول
السيرة الذاتية

.الاسم بالكامل: هدى حسن عباس توفيق
.اسم الشّهرة: هدى توفيق
.من مواليد محافظة بني سويف.مصر.
.ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية - جامعة القاهرة.عام ١٩٩٥م.
. مدير تحرير سلسلة (كتابات جديدة)، الهيئة المصريّة العامة للكتاب.مصر.القاهرة.سابقًا.
عضو عامل باتّحاد الكتاب.مصر.القاهرة.
صدر لها:
١- مجموعة قصصيّة: (أنَّى تصيرُ رجلًا)، عن الهيئة العامّة لقصور الثّقافة المصريّة - الجيزة. ط١: ٢٠٠٧ م.
٢- مجموعة قصصيّة: (عن عاقر وأحول)، عن مركز الحضارة العربيّة.القاهرة. ط١: ٢٠٠٧م.
٣- مجموعة قصصيّة: (كهفُ البطء)، عن دار نشر (الدار). القاهرة.ط: ٢٠٠٨ م.
٤- مجموعة قصصية: (مذاق الدّهشة)، عن دار نشر (شرقيّات). القاهرة.ط١: ٢٠١٠م.

٥- رواية: (بيوت بيضاء)، عن دار نشر (كيان) ط١: ٢٠١١م / ط٢: ٢٠١٢ م / ط٣: ٢٠١٦م، عن دارنشررو افد. القاهرة.

٦- مجموعة قصصيّة: (الأمنية الأخيرة)، طبعة محدودة عن مطبوعات (ورشة الزيتون). القاهرة. ٢٠١٢م.

٧ . مجموعة قصصيّة: (سلامتك يا راسي)، عن دار نشر (المحروسة) القاهرة. ط١: ٢٠١٥م.

٨ .رواية:)المريض العربي (، عن دارنشر(رو افد). القاهرة. ط١: ٢٠١٥م.

٩ . مجموعة قصصيّة: (عدوى المرح (، عن دار نشر (الأدهم) . القاهرة ط١: ٢٠١٥م.

١٠. متتالية قصصيّة: (رسائل لم تعدْ تُكتب)، عن دار نشر (الأدهم). القاهرة. ط١: ٢٠١٦م.

١١ . رُؤى ثقافيّة:(مصر للقراءة والمعرفة)، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠١٦م.

١٢. قراءات إبداعيّة وفكريّة في القصّة والرّواية المصريّة: عن (الهيئة العامة لقصور الثقافة). الجيزة . ط١: ٢٠١٦م. طبعة ثانية، مزيدة ومنقّحة. عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة، ٢٠٢٢م.

١٣. مجموعة قصصيّة: بعنوان (حذاء سيلفانا)، عن دار نشر (كتبي) للطباعة والنشر. القاهرة. ط١: ٢٠١٧م.

١٤. مجموعة قصصيّة: بعنوان (الوجه الآخر للوحدة)، عن المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ط١: ٢٠١٧م.
١٥. مختارات قصصيّة (١): بعنوان (الرقص على البحر)، عن دارنشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠١٧م.
١٦. كتاب (اقتحام الخلوة)، عن أ.د. الناقد الكبير (عبد المنعم تليمة)، عن دار نشر يسطرون. الجيزة. ط١: ٢٠١٨م.
١٧. مختارات قصصيّة (٢): بعنوان (خيال عن وطن مغاير)، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠١٨م.
١٨. مجموعة قصصية: بعنوان (بارقات قصصية)، عن دار نشر (لوتس) للطباعة والنشر. القاهرة. ط١: ٢٠١٩م.
١٩. رواية:(رقصة الحرية)، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠١٩م.
٢٠ . ناصية القراءة (١) . قراءات ثقافية في الأدب العربي، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠٢٠م.
٢١ . مجموعة قصصيّة: بعنوان (فاكهة بشرية)، عن دار نشرالنخبة للطباعة والنشر. القاهرة . ط١: ٢٠٢١م. ط٢: ٢٠٢٣م، عن دار نشر الشواهين – الجيزة.
٢٢. ناصية القراءة (٢) . قراءات ثقافيّة في الأدب العربي، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر. الجيزة. ط١: ٢٠٢٢م.
٢٣- مختارات قصصيّة (٣): بعنوان (نعناعة الفراق)، عن دارنشر يسطرون. الجيزة. ط١: ٢٠٢٢م.

٢٤- كتاب (الأنا ورؤية الآخر)، ط١: ٢٠٢٣م، عن دار نشر الشواهين للطباعة والنشروالتوزيع - الجيزة.

٢٥- رواية:(محطة الثقافة)، ط١: ٢٠٢٣م، عن دار نشر الشواهين للطباعة والنشروالتوزيع – الجيزة.

٢٦- هدى توفيق – الأعمال القصصية: (أنّى تصيرُ رجلًا – عن عاقرٍ وأحول – كهفُ البُطء)، طبعة ثانية، مزيدة ومنقّحة: ٢٠٢٣م. عن دار نشر الشواهين – الجيزة.

. تمّ نشر العديد من المقالات الأدبيّة والفكريّة، والقصص القصيرة في المجلّات، والصّحف المصريّة والعربيّة، وترجمة بعض القصص.

الجوائز:

١. جائزة القصّة القصيرة / عن أدب الحرب عام: ١٩٩٨م. من مجلة النصر(مصر).

٢. جائزة القصّة القصيرة / من أخبار الأدب عام: ١٩٩٩م. على مستوى الوطن العربى.

٣. جائزة القصّة القصيرة / من نادي القصة عام: ٢٠٠٣ م.(مصر).

٤. جائزة المركز الأوّل / عن رواية (بيوت بيضاء (. تحت اشراف الهيئة العامة لقصور الثّقافة . مصر. عام: ٢٠١٢م.

٥. جائزة النّشر الإقليمي / عن كتاب قراءات إبداعيّة وفكريّة في القصّة والرّواية المصريّة، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة . مصر. عام: ٢٠١٦م.

الفصل الثاني
دراسات نقدية

المسافة السردية في مجموعة "حذاء سيلفانا" لهدى توفيق
دراسة في بناء القصة القصيرة
إنجي محمود السعدني

مقدمة:

يتناول هذا البحث إحدى التقنيات التعبيرية التي حددها علم السرد المعاصر في الدراسات النقدية التي تعالج الصيغة التي يحدث بها الكلام في عملية الحكي من خلال صوت الراوي الذي يستطيع أن ينقل المتلقي إلى العالم الحكائي بصورة تجعله في قلب هذا العالم ومتحدا به بوصف الراوي ناقلا للتجربة من موقع الحدث ومشاركا فيها ومتحدا بدرجة كبيرة مع شخصياتها ومتحرك في أماكنها ومعايشا لزمنها، أو يقترب الراوي ويبتعد وفقا لمنظور يستخدمه يجعله أقرب إلى المحايد منه إلى المندمج في العالم الذي يصوره.

- أسباب اختيار الموضوع:

وقد اخترت أن أطبق هذه التقنية على مجموعة

قصصية معاصرة هي مجموعة حذاء سيلفانا للأديبة المصرية هدى توفيق لأن:

- النصوص المعاصرة تتعامل مع التقنيات السردية وفقا لرؤية حداثية متأثرة بالسياق المعرفي السائد وما يحتويه من مقولات عن التجديد في التعامل مع العمل الإبداعي.
- ولأن القصة القصيرة فن صعب من حيث دور الراوي في تكثيف رؤيته وتنويع صيغ سرده.
- ولأن المبدعة المصرية المعاصرة استطاعت أن تكتب خطابا سرديا متنوعا حافلا بالأساليب المعبرة عن صوتها الفردي وقضايا مجتمعها وهي حريصة بدرجة كبيرة على تضفير خطابها السردي بو اقع حياتها لدرجة تجعل كتابتها الإبدعية متقاطعة مع فن السيرة الذاتية - وإن كانت السيرة في العمل الإبداعي المتخيل تندرج بشكل غير مباشر بالطبع – لكن المسافة السردية يمكن أن تكشف لنا عن بعض أوجه هذا التقاطع.

- فرضية البحث:
- من هذا المدخل يمكن أن تصاغ فرضية البحث فيما يأتي:

- المسافة السردية تؤدي دورا مهما في صياغة القصة وتحدد طرق بنائها وتستخلص العلاقة بين الشخصية المرجعية للذات المبدعة والعالم الدرامي في الخطاب السردي.

- أسئلة البحث:
- تتحدد أسئلة البحث فيما يأتي:
- كيف تعاملت الكاتبة مع شخصياتها من خلال المسافة السردية؟
- كيف قدمت الكاتبة أجواء عالمها القصصي من خلال المسافة السردية؟
- كيف استطاعت المسافة السردية تقديم شخصية المؤلفة؟

هذا الطرح البحثي يتطلب ثلاثة مباحث مناسبة يسبقها تمهيد في التعريف بالمصطلح والمادة السردية موضوع التطبيق، وهذا ما سوف أقدمه في الصفحات الآتية.

- مبحث تمهيدي: المصطلح والمادة السردية:
- مصطلح المسافة السردية: المفهوم ومجال العمل:

نظر النقد البنيوي للأعمال القصصية بوصفها عملا قائما في ذاته معتمدا على عنصرين أساسيين هما الحكاية والخطاب.

وقد وقف جيرار جينت في كتابه خطاب الحكاية الذي خصصه لتحليل رواية البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست، في مقدمة هذا الكتاب وقفة طويلة أمام مصطلحي الحكاية والخطاب مناقشا مفهوم مصطلح الحكاية بين كونه "المنطوق الشفوي أو المكتوب الذي يضطلع برواية حدث أو سلسلة من الأحداث."[1] من جهة وكونه "سلسلة الأحداث الحقيقية أو التخيلية."[2] من جهة أخرى، فصار كتابه التطبيقي ذاك بحثا في ماهية المنهج البنيوي للنقد في مجال علم السرد.

واستقر الأمر مع جينيت وتودوروف على تخصيص مصطلح الحكاية للمستوى الدرامي، فالعمل القصصي "حكاية من حيث كونه يوحي بواقع ما."[3] والعمل القصصي "خطاب: فهناك راو يروي الحكاية، يوجد بإزائه قارئ يتقبّلها."[4]

وناقش جينيت مصطلح المسافة السردية في كتابه المنهجي خطاب الحكاية مصطلح المسافة السردية بوصفها تقنية تعبيرية تندرج في صيغة السرد من حيث طريقة الراوي في تقديم المعلومات: فالحكاية يتم تقديمها بما "يمكنها أن تزوّد القارئ

[1] - جيرار جينيت: خطاب الحكاية – ترجمة محمد معتصم – عبد الجليل الأزدي – عمر حلي – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – المشروع القومي للترجمة – ط ٢ – ١٩٩٧م – ص٣٧

[2] - جينيت: السابق نفسه: ص٣٧

[3] - تزفيتان تودوروف: مقولات الحكاية الأدبية – ترجمة عبد العزيز شبيل – مجلة العرب والفكر العالمي – بيروت – العدد ١٠ – ربيع ١٩٩٠م – ص١٠٤

[4] - تودوروف: السابق نفسه ١٠٤

بما قلّ أو جلّ من التفاصيل، وأن تبدو بذلك على مسافة بعيدة أو قريبة مما ترويه."[٥] ويضيف جينيت في هذا المقام مدخلين مهمين لدراسة القصة هما: "حكاية الأحداث وحكاية الأقوال."[٦] باعتبار أن:

- حكاية الأحداث هي العرض السردي الذي يمكن أن ينقل فيه الراوي الأحداث من مسافة تبتعد أو تقترب من التجربة الو اقعية أو المتخيّلة.
- أمّا حكاية الأقوال فهي التصاق الراوي بالشخصية تماما أو تخليه عن فعل الحكي – في الظاهر بالطبع – من أجل الشخصية، مع وجود منطقة "يتوسط فيها السارد، وتذوب فيها ردود الشخصيات."[٧] حين يكون الخطاب بالأسلوب غير المباشر في مشهد يستحضر فيه الراوي الشخصيات دون أن تتكلّم بالأسلوب المباشر. وهذه المنطقة – وإن لم تكن حوارا مباشرا فإنها درجة عالية من التداخل تعبر المسافة بين الراوي والشخصيات، ويطلق عليها الأسلوب غير المباشر الحر "وهو خليط قولي لعلامتين سرديتين تختص إحداهما

[٥] - جينيت: خطاب الحكاية ص١٧٧
[٦] - جينيت: السابق ١٨٠
[٧] - جيينيت: السابق ص١٧٨

بالسارد وتختص الثانية بالشخصية."[٨] وفي الأسلوب غير المباشر الحر يحدث تقارب كبير بين الراوي والشخصية.

لكن أعلى درجات تحقق الشخصية على حساب الراوي تحدث في المشاهد الحوارية التي تتحدث فيها الشخصيات بأصواتها في مواجهة الراوي أو في غيابه من المادة السردية الملفوظة وإن ظل في الفضاء النصي.

من هذا الطرح تأتي تقنية المسافة السردية في إطار منظومة تحليل الخطاب السردي لتصل بين مجموعة من المفاهيم هي الحكاية والخطاب والأحداث والأقوال والأسلوب السردي أيضا، مما يجعل مفهوم المسافة السردية مركزا مهما يمكن من خلاله تحليل النص السردي بدرجة كاشفة لبنيته.

لكن ما تضيفه المسافة السردية يتجاوز البنية التي تغلق النص على نفسه لأن المسافة السردية تفتح قناة بين المبدع والراوي والشخصيات وتنقل إلينا المبدع بصوته وعينه وعالمه وهو يبني عالمه القصصي، وتجاوز الانغلاق في التعامل مع النص الأدبي قضية مهمة لأن النص كائن لا ينعزل عن قائله أو كاتبه من جهة ومستمعه أو قارئه من جهة أخرى، لأن المتلقي "يفسّر ما يحدث على نحو يماثل كثيرا ما نفعله نحن في الحياة

---

٨ - جيرالد برنس: المصطلح السردي – ترجمة عابد خزندار – مراجعة محمد بريري – المجلس القومي للترجمة – القاهرة – ٢٠٠٣م – ص٨٧

الاعتيادية."[٩] وهذه هي الرؤية التي نتعامل بها مع المادة القصصية التي سيطبّق البحث تقنية المسافة السردية عليها بما يكشف عن تفاعل التقنيات في بناء النص واستحضارها لشخصية المبدع وتفهمها لشخصية المتلقي.

ولاشك أن الأطراف الثلاثة معا: الرسالة والمبدع والمتلقي هي منظومة مؤسسة الاتصال التفاعلي التي تولد منها الأفكار والرؤى، فالنقد الأدبي سيظل دائما مفسّرا لعلاقة الإبداع بالنفس الإنسانية ولن يستطيع أن ينعزل خلف مجموعة من المصطلحات التي تغلق باب التطبيق على عالم الأدب بصرف النظرعن العالم الو اقعي الذي يعيش فيه المبدع والمتلقي.

إن البحث العلمي في مجال الإنسانيات لا يقل بحال من الأحوال عن البحث العلمي في مجال علوم الطبيعة لأن الإنسانيات وفي مقدمتها علوم الأدب تتعلّق بالإنسان الفرد من جهة وجدله مع مؤسساته من جهة ثانية وتعامله مع طرائق تعبيره من جهة ثالثة فتتجلى أمامه صورة نفسه التي تستخدم تطبيقات العلوم المختلفة لدعم وجود ذاك الإنسان معنويا على المستويات النفسية والاجتماعية والحضارية، فالعلاقة بين الإنسانيات والعلوم الطبيعية والتتطبيقية جدلية.

[٩] - والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة – ترجمة حياة جاسم محمد – المشروع القومي للترجمة – إصدار المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ط ١ – ١٩٩٨م – ص٢٠٦

وكل العلاقات الإنسانية تجد لها حضورا في الأعمال الأدبية التي تساعدنا كثيرا على معرفة أنفسنا، فالدرس الأدبي له علاقة وثيقة بالإنسان الذي يبدعه والإنسان الذي يستقبله ويجد فيه تعبيرا عن أحواله ومرآة لسلوكه وتفسيرا لمسيرة الإنسان في الزمان والمكان.

في مجال تحليل النص السردي يمكن أن يستخلص الباحث في هذا المجال طرقا للتفاعل والتفاهم والتقارب تحقق للإنسان سياقا أفضل على المستويات النفسية والاجتماعية والحضارية، وهذا لا يحدث إلا بفهم الإنسان لأشكال تواصله وطرائق تعبيره ونتيجة أفعاله وفهمه لنفسه وللآخرين من خلال الأدب السردي الذي يعد مرآة للتجربة الإنسانية المتعددة الأصوات والغايات.

ومن أشكال السرد اخترت القصة القصيرة بوصفها "وحدة أدبية تنتمي إلى النثر مستخدمة السرد في التعبير عن حدث أو مجموعة أحداث مترابطة في حيز موجز يماثل الموقف الإنساني من حيث الأجواء الخاصة بالمكان والزمان وتنتهي بلحظة اكتشاف حقيقة إنسانية أو لحظة التنوير."[١٠]

وقد شاعت أشكال التعبير السردي في عصرنا الحاضر ولم يطغ الشكل الروائي على القصة القصيرة التي ظلت قادرة على

---

[١٠] - Dictionary Of Literary Terms – Rama Brothers India – P186 - Coles Editorial Board :

التعبير عن لحظات الأزمة الإنسانية في عصر كثرت فيه الأزمات، وقد رأى فيها محمد قطب - أحد النقاد المتحمسين من مبدعي القصة القصيرة والرواية - أنها أهم الأشكال التعبيرية قائلا "هي أصلح الأشكال الأدبية على التجسيد ومن ثم التوصيل."[١١] ويضيف يوسف الشاروني فيما يتعلّق بالتجسيد في العمل الأدبي بخاصة السرد إن هذا التجسيد "ميزة من أهم مميزات الانفعال الفني"[١٢] والانفعال لا يتحقق إلا إذا أحسن المبدع تمثّل العالم الفني بخاصة الحكائي بما يقنع المتلقي بمعايشته.

وفي مجال اختياركاتبة مصرية معاصرة لتطبيق إجراء البحث على مجموعة لها فقد شهدت الساحة العربية حضورا بارزا للقاصة المعاصرة ومصر تعبّر بدرجة كبيرة عن مسار الأدب العربي، وترى يمنى العيد أن القصة القصيرة في إبداع المرأة العربية تميزت بسمات منها "التنويع لجهة الموضوع، والأسلوب والشكل واللغة."[١٣] فاخترت القصة القصيرة ومنها اخترت مجموعة صدرت حديثا للأديبة هدى توفيق التي تعددت مجموعاتها القصصية.

---

[١١] - محمد قطب: قراءة في القصة القصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨١م – ص٣

[١٢] - يوسف الشاروني: دراسات أدبية – وزارة التعليم العالي – مصر – طبع مكتبة النهضة المصرية – د.ت – ص١١٠

[١٣] - يمنى العيد: القصة النسائية العربية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٠م –ص٨

وقد آثرت أن اتخذ من آخر مجموعة لها موضوعا للبحث، ولاشك أن الأدب المعاصر قد أفاد من مقولات الحداثة والمراجعات النقدية التي تتابعه.

من هذا الطرح سأتحدث عن مجموعة حذاء سيلفانا لهدى توفيق في العنوان الآتي للتعريف بها قبل أن يتخذ التحليل محاوره الثلاثية الخاصة بالعناصر الآتية:

- المسافة السردية وتقديم الشخصيات.
- المسافة السردية وأجواء القصة.
- المسافة السردية قناة بين الراوية والمؤلفة.

- المجموعة القصصية حذاء سيلفانا للأديبة المصرية هدى توفيق:

هدى توفيق أديبة مصرية معاصرة ولدت في بني سويف بصعيد مصر عام ١٩٧٢م ونشأت بها، وتخرّجت في قسم للغة الإنجليزية بكلية الآداب عام ١٩٩٥م ولها إبداع سردي متنوّع في مجال القصة القصيرة، فمن مجموعاتها القصصية:

- أن تصير رجلا – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة -٢٠٠٧م
- عن عاقر وأحول – مركز الحضارة العربية – الجيزة - مصر-٢٠٠٧م
- كهف البطء – دار الدار بالقاهرة -٢٠٠٨م
- مذاق الدهشة – دار شرقيّات – القاهرة - ٢٠١٠م
- الأمنية الأخيرة – إصدارات ورشة الزيتون – القاهرة ٢٠١٢م
- عدوى المرح – دار الأدهم – القاهرة – ٢٠١٥م
- سلامتك يا رأسي – دار نشر المحروسة – القاهرة ٢٠١٥م
- وفي الأدب الروائي لها:
- بيوت بيضاء – كيان – القاهرة – ٢٠١١م
- المريض العربي – رو افد – القاهرة – ٢٠١٥م
- رسائل لم تعد تكتب – دار الأدهم – القاهرة – ٢٠١٦م

وقد حصلت على جوائز متعددة في الإبداع القصصي من مجلة النصر وأخبار الأدب وهيئة قصور الثقافة ونادي القصة.

والمجموعة محل الدراسة هي حذاء سيلفانا – دار الكتبي للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٧م وتضم أربع وعشرين قصة قصيرة تدور في أجواء معاصرة من حيث الزمن والقضايا التي تعالجها إذ يظهر لديها جليا أزمة الذات العربية الممزقة بالمعاناة بخاصة بعد ٢٠١١م

وفي هذه المجموعة تعرضت الكاتبة لكثير من المشكلات التي تعج بها الساحة العربية من متغيّرات سياسية واجتماعية في ظروف عصيبة اضطرت الإنسان إلى الهجرة والاغتراب فضلا عن علاقة الإنسان بالزمن نتيجة معايشته لنمط حياة لم يكن يتوقعه وأصبح عليه مواجهته والتفاعل معه، من هذا الطرح يبدو السرد في القصة القصيرة لهدى توفيق نوعا من مواجهة الأزمة العربية.

وقد حاولت الكاتبة هدى توفيق في مجموعة من القصص القصيرة أن ترسم خريطة لمصاعب الإنسان العربي من جهة وإصراره على مواجهة الحياة بكل مشكلاتها من جهة أخرى، ليصبح السرد وسيلة للتعامل مع الواقع المحيط بالإنسان، وأحد الدعائم التي يستند إليها في إدراك أزمته وتجديد تصوراته.

ولاشك أن النماذج النصية التي سنتعتمد عليها في التحليل النقدي للمادة السردية التي كتبتها هدى توفيق في مجموعتها القصصية ستبلور محتوى المجموعة أمامنا بما يدعّم القراءة النقدية التي سندرس فيها المسافة السردية.

- المسافة السردية وتقديم الشخصيات في مجموعة حذاء سيلفانا:

المسافة السردية معيار في غاية الأهمية بالنسبة للمؤلف وهو يقدم شخصياته من خلال الراوي بخاصة إذا كان الراوي نفسه إحدى الشخصيات المشاركة في الأحداث القصصية، وتزداد أهمية هذا المعيار نتيجة اتصاله الوثيق بالمعايير الأخرى مثل الراوي وموقعه ومعرفته وعلاقته بالأجواء القصصية والأحداث التي تدور في عالم الحكاية التي يقدمها بصوته.

وتعتمد هدى توفيق على صوت الراوية الأنثى، ومعظم قصص مجموعة حذاء سيلفانا تشارك فيها الراوية بالفعل سواء في الأحداث أو الأقوال بما يفتح قناة بين الراوية في العالم القصصي والمؤلفة في العالم الو اقعي.

وتمضي الراوية في مجموعة حذاء سيلفانا في المدينة لتلتقط الشخصيات ليس بوصفها عينا ترى المأزومين والمهمشين فقط و إنما بوصفها صوتا يساعدهم على البوح واجترار ما بأنفسهم

مما يعود بخبرة إدراكية على الشخصيات والراوية المشاركة في الأحداث معا.

في قصة ملامح الوطن تبدأ القصة من مسافة ليست بالقريبة بين الراوية والشخصيات، فالراوية تعاني من الزحام يوم الانتخابات وتبحث عن مقعد في سيارات الانتقال الجماعي دون جدوى حيث يرفض أكثر من سائق مساعدتها وهي تعاني من ظروف صحية لا تسمح لها بحرية كبيرة في الحركة إلى أن يتاح لها مقعد بجوار سائق فتبدأ في وصفه وتقديم شخصيته: "ظللت أتأمل ملامح وجهة شديدة السمرة بعينين سوداوين سوادا لا معا غائرا في جرح دفين (لا أعرف من أين أتاه) وشعره أسود ناعم ومفلفل، ولامع من "جيل" كثيف أضفى على ملامحه غزارة وعمقا.. وقلت مباشرة بعد أن جلست وارتحت وأخبرته ألا يجلس أحدا بجانبي وسأدفع الأجرة كاملة:

- لماذا ترفض أن أركب إلى جانبك؟ ألا تري عرجي وعكازي أيها الشاب المصري الجدع؟ ألست مصريا جدعا..قل لي؟!

نظر إلى نظرة صارمة متبرما من عتابي وتهكمي، وقاد السيارة صامتا صمت القهر، لكني لم أسكت، وجاءني تحد داخلي أن أفتت هذا الحزن الذي يحاصر هذا الشاب الجميل لينشطر إلى كلمات وفضفضة لا ريب فيها.. فقلت وأنا أبتسم: هل ذهبت إلى الانتخابات؟...

لم يرد بغير نظرته الصارمة هذه، فقلت تمللا:

- طيب على راحتك

وفجأة ملأ دهشتي بنبرة هادئة وصادمة قائلا:

- أنا لست مصريا يا أستاذة... أنا من ليبيا."[١٤]

لم تدخل الراوية إلى العالم القصصي وهي تعرف شخصياتها مسبقا، على العكس تماما، فقد دخلت هذا العالم تاركة لحركة السرد أن تأتي بالشخصيات من الحكاية المتوارية في الأفق النصي إلى الخطاب السردي ليطالع القارئ معها ملامح الشخصية أولا بأول.

هذه البداية وضعت الراوية في قلب الأحداث فالمسافة بينها وبين العالم الحكائي تبدو قريبة للوهلة الأولى لكنها في الحقيقة بعيدة عن عالم الشخصيات، بعيدة عن معرفة مرجعيتها، إنها ترى للوهلة الأولى الملامح الحسية التي تظن من خلالها أن الشخصية مصرية فتخاطبه بأسلوب فيه من التهكم أكثر مما فيه من الرغبة في المعرفة، ثم تبدأ المسافة في الاقتراب حين تدخل الشخصية بصوتها فتعلن عن هويتها.

تظن الراوية في البداية أن كل الشخصيات مثلها في المرجعية أو تشاركها الاهتمامات نفسها وتؤدي السلوك

---

[١٤] - هدى توفيق: حذاء سيلفانا - دار الكتبي للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٧م – ص١١-١٢

نفسه، لكنها تكتشف في لحظة أن ما يعد سلوكا مهما لها لا يشاركها فيه الآخر في اللحظة نفسها، لكن هذه الحقيقة تكشف شيئا آخر هو أن شخصية الشاب تعاني ضغطا نفسيا واجتماعيا نتيجة الأحداث التي وقعت في منطقتنا العربية.

نلاحظ أن الخطاب توجه إلى الشاب بالصوت المباشر، وحطمت الكتابة المسافة حين وضعت الراوية صوتها الذي يحمل استفهامها التهكمي في سطر لكتابة وكأنه ضمن السرد ليبدأ المشهد الحواري من قريب، لكن عدم رد الشاب يقيم حاجزا بينها وبينه فينتقل خطابها في سطر مستقل بعد ذلك، وهذا يعني أن طريقة الكتابة لها دورها في تحديد المسافة السردية في المشهد الحواري السابق.

ومن الواضح أن الراوية بدأت حوارها مع شخصية الشاب بنوع من التهكم والتحدي، هذا يوضح أن المسافة على المستوى المرئي من ناحية محاكاة السلوك الاجتماعي في الدراما الحكائية تبدو قريبة لكنها على المستوى النفسي بعيدة.

وحركة المسافة السردية من الابتعاد إلى الاقتراب فرضت رؤية معينة على الصيغة السردية هي رؤية الراوي الذي يعرف أقل من الشخصية، فالسرد يبدأ بمعرفة خادعة عن

طريق رؤية الراوية وهي "رؤية ذاتية داخلية"[15] إلى "الرؤية الخارجية"[16] ذات الطابع الموضوعي الذي يتجاوز السرد الكلاسيكي والمعالجة الرومانسية للموضوع.

يستمر المشهد قائما على حضور الشخصيتين:

- شخصية الراوية التي تحاول الاقتراب من شخصية الشاب.
- شخصية الشاب الذي يتجه إليه الخطاب فتتركه الراوية مقتربة منه ليحكي بصوته شاغلا موقع الراوي في حكايته:

"فعاجلته:

- لكن لهجتك مصرية جدا، وأيضا.. ملامحك مصرية... نعم والله مصرية بلاشك... هذا غير معقول.

واستطرد يقول بنبرة مهزومة وحزينة:

- نعم، أنا هنا من بعد ثورة ٢٠١١.. لهذا لساني اتعود على اللهجة المصرية.

قلت وصوتي قد انخفض، وتسربت إليّ مشاعر طاغية بالانكسار:

- لك حق... لا تذهب إلى ليبيا، ربما يقتلونك."[17]

---

[15] - بوريس أو سبنسكي: شعرية التأليف – ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ١٩٩٩م – ص٩٣-٩٤

[16] - أوسبنسكي: السابق نفسه ص٩٣-٩٤

[17] - هدى توفيق: حذاء سيلفانا ص١٢-١٣

تتغيّر مشاعر الراوية وتزداد اقترابا من الشخصية متجاوزة المسافة السردية من الناحية النفسية فتتخلص من أسلوبها التهكمي الاستفزازي وتتجه مشاعرها إلى التعاطف مع الشخصية، ويدل تعبيرها "قلت وصوتي قد انخفض" على هذا الموقف الجديد الذي تزداد فيه اقترابا من الشخصية، وتستمر عملية الاقتراب في التحقق فينتقل السرد إلى الشخصية تماما في المشهد ويشغل الشاب موقع الراوي في حكايته كما أسلفت:

"فرد بحدة صارخا من حمل ثقيل جاثم على صدره وقلب ممزق:

- لكني أريد الذهاب إلى أخي... أريد أن أعود إلى عملي في طرابلس، ألا تعرفين أني متعلم وحاصل على شهادة جامعية، وتاجر سيارات وقطع غيار محترم في بلدي، حيث امتهنت مهنة أبي رحمة الله عليه... بينما أنا عندكم سائق... أهذا عدل؟ أهذا الربيع العربي؟!
- قلت اعتذار حقيقي: اهدأ... ما اسمك؟
- محمد... أعتذر يا أستاذة... أين سكنك حتى أوصلك إليه لو سمحت؟

- شكرا يامحمد... أنا معك لآخر الخط... فسكني في الحي العاشر."[18]

تدل تغيّر اللهجة على اقتراب الراوية من شخصية الشاب وبعد انفعال شخصية الشاب بدورها يحدث تطور في موقفه ويفترب هو الآخر من شخصية الراوية حريصا على التعامل الإنساني معها.

استطاعت هدى توفيق أن توظّف المسافة السردية توظيفا جيدا في اختيار الشخصية و إقامة حوار معها، ليس حوارا بالأقوال فقط وإنما إقامة حوار نفسي يحطم المسافة التي تقف حائلا في البداية بين تعارف الشخصيتين على نحو جيد، وتظهر تحولات الشخصية عند الراوية وعند الشاب من التهكم والتحدي بالنسبة للراوية ومن الانفعال المكتوم ثم الانفعال الصارخ عند الشاب إلى التقارب النفسي الهادئ الذي يشير إلى تجاوز الانفعال الأول بحدته لدى كلتا الشخصيتين.

لعله قد أصبح من الوضوح بدرجة كبيرة أن الأحوال السياسية التي تمر بها المنطقة العربية لها دور في اختيار المؤلفة للشخصية عن طريق الراوية، وأن الانفعالات تسيطر على الشخصية سواء أكانت شخصية الراوية أم شخصية الشاب، لكن السمات النفسية الأصيلة تتجاوز هذا الصدام الاجتماعي حينما يتاح للشخصيتين التحدث بإقامة حوار بينهما تذوب فيه

[18] - هدى توفيق السابق ص١٤

المسافة السردية الدالة على الظروف الاجتماعية التي بدت قاسية.

في قصة "عائشة من دارفور" تلتقي الراوية بشخصية عربية سودانية هذه المرة وتقدمها إلى المتلقي في النص من موقع عملها بوصفها موظفة إدارية بإحدى المدارس، وتبدأ القصة باستهلال ملفوظ من صوت شخصية عائشة هذه المرة: "كم هو مؤلم أن يقول لك الآخرون "كوني قوية" وليس لديهم أي فكرة عن صعوبة ما أمر به أو أتحمله."[١٩]

هذه المقدمة تزيح المسافة السردية تماما فتأتي الشخصية بصوتها ومشاعرها لتعلن عن نفسها، لكن القارئ لن يعرف لماذا قالت الشخصية هذه العبارة وهل ستظل في الحديث لتقوم بدور الراوية في القصة أو أن الصيغة السردية ستنتقل إلى صوت آخر ومن صاحب هذا الصوت؟!

لقد جاء عنوان القصة ليقول إن هناك شخصية اسمها عائشة من دارفور، لكن الاستهلال لم يخبرنا بشيء عن تلك الشخصية وإنما ذكر لنا عبارة بضمير المتكلمة عن شخصية امرأة في أزمة بلا تقديم من الراوي أو الراوية، فأصبح لزاما على القارئ أن ينتظر تشكّل النص ليعرف المزيد عن تلك الشخصية، وهذا ما سيفعله القص في المقطع الآتي:

---

١٩ - السابق ص٨٦

"بهذه العبارة المؤثرة تفوّهت عائشة السودانية لكي تمنع دموعها أن تنهار وهي تستحلفني أن أرحم ظروفها و أقف إلى جانبها، ولكن كيف لي أن أساعدها؟ فعائشة و افدة سودانية من دارفور، وعند قيام هذه الحرب البشعة في ٢٠٠٣ بسبب نزاعات قبلية وعرقية مات زوجها عام ٢٠٠٩ وأحرقوا كل شيء، وبالكاد استطاعت أن تهرب بأولادها الثلاثة محمد جابر لميح ، ومحمد شريف لميح ، ومحمد همام لميح ، دونما أي أوراق أو أغراض، ودخلت مصر عبر رحلة شاقة بمساعدة المفوّضية.. ولولا رحمة الله لمات الأطفال الثلاثة المقيدون لدينا في المرحلة الابتدائية في الصفوف الثالث والخامس والسادس، وظلت الأم المكلومة بغربتها وتشرّدها تكافح، فعملت كل الأعمال المتاحة لها، من خادمة في المنازل إلى بائعة في المحال، إلى عاملة نظافة في حضانة، حتى أبدعت وتفننت في فن التجميل، وفرضت موهبتها في أحد محال الكو افير في مدينة ٦ أكتوبر."[٢٠]

تدخل الراوية النص، فيبدأ القص يأخذ شكل الصورة المرئية التي تحافظ على درجة كبيرة من الاقتراب في المسافة السردية قبل أن تزيح الشخصية المتكلمة بعد تلك المقدمة الموجزة التي انزاحت فيها المسافة السردية تماما.

وحينما تعود المسافة السردية وتتسع المساحة بين الشخصية والراوية، وينغلق النص التصويري بطابعه الذي يقوم على

---

٢٠ ـ السابق نفسه ص٨٦

الحوار في السياق القصصي، تقوم الراوية بدور المؤرخة لبعض الوقت فتقدم بعض المعلومات الأساسية عن الشخصية لتساعد المتلقي على تصوّرها، وبالطبع تبدأ المسافة السردية في الاتساع.

حقا أتت المسافة السردية في بداية المقطع بدرجة فصلت بين الراوية والشخصية لوهلة قصيرة، لكن ظل المشهد القصصي في سياق مرئي بسبب الفعل المضارع "تنهار" الذي احتفظ بوجود الشخصية في إطار مسافة سردية قريبة.

بعد استحضار الراوية لشخصية عائشة أمامها بدرجة فيها نوع من الاقتراب لاعتماد النص على المشهد المرئي، حذفت الراوية شخصية عائشة الحاضرة الآن في القص لتقدم لنا المعلومات المتصلة بتاريخ شخصية عائشة ليرى القارئ البعد الاجتماعي للشخصية، وهو بعد يرتبط ارتباطا وثيقا بو اقع الوطن العربي، وهذا ما حدث في تقديمها لشخصية الشاب السائق الهارب من جحيم الو اقع في ليبيا، في هذا السياق نرى الراوية شخصية جاذبة لشخصيات من ضحايا المتغيّرات التي ضربت وطننا العربي في الفترة الأخيرة.

هذه الشخصيات تحتاج إلى تعريف، تحتاج إلى تقديم تاريخي، تقديم يمهد للقارئ رؤيتها في اللحظة الآنية.

وقد أجلت الراوية تقديم البعد الاجتماعي للشخصيتين في القصتين السابقتين، وبدأت بتقديم البعد الحسي، ومن خلاله

توغلت في البعد النفسي، ثم بدأ دخول البعد الاجتماعي بعد إثارة فضول القارئ لمعرفة الشخصيتين: السائق الهارب من جحيم ليبيا وعائشة الهاربة من جحيم السودان.

في تقديم شخصية السائق بدأت الراوية بمسافة سردية فيها إنكار، فابتعدت بدرجة ليست بالقليلة من الناحية النفسية عنه، ثم أخلت له المكان للحوار، فانزاحت شخصيتها لتؤكد حضوره، ثم حدث التقارب بينهما، وهذا البناء لم يستمر هنا فقد بدأت بالانزياح لتحضر شخصية عائشة في البداية، ثم أعلنت عن وجودهما معا، ثم أزاحت عائشة لتخبرنا عنها بأسلوب توثيقي، أقرب إلى العرض التاريخي، مستعيدة دور الراوي الذي يستخدم أسلوب الرؤية من الخلف"[٢١] أي الذي يعرف أكثر من الشخصية, وساعدها على ذلك الموقع الذي تشغله بوصفها موظفة في المدرسة التي يدرس بها أولاد عائشة الثلاثة الذين ذكرت الراوية أسماءهم وكأنها تقرأ هذه الأسماء من و اقع سجلات المدرسة التي تحتفظ بها بين يديها.

مع أن الراوية تشغل وظيفة في القصة، فهي موظفة إدارية بالمدرسة التي قبلت أولاد عائشة الثلاثة، فإنها لم تستطع أن تكون قريبة بالدرجة الكافية من شخصية عائشة، لأنها تتعامل بمنطق التوثيق، ولا تستطيع أن تقدم لشخصية عائشة

---

[٢١] - يمنى العيد: تقنيات السرد في ضوء المنهج البنيوي – دار الفارابي – بيروت – ط ١ – ١٩٩٠م – ص٩١

المساعدة حين أتت لتسحب أوراق أبنائها لتقدم لهم في مدرسة أقرب بعد أن عملت خبيرة تجميل في مركز بقلب العاصمة، فالأولاد لا يملكون أوراقا لأن أوراقهم احترقت في الفتن المحلية التي وقعت بدارفور، ولأن الراوية لا تستطيع التعبير عن الشخصية في هذا الموقف فقد بدأت بصوتها وأنهت القصة بصوتها لتلغي المسافة السردية بين الشخصية ومشاعرها وتتركها في الملفوظ القصصي تعبّر عن أزمتها بصوتها المباشر، بعد أن قدمتها الراوية بالمعلومات الوثائقية فقط من واقع وظيفتها الإدارية في المدرسة.

ويصبح صوت الشخصية إطارا لبداية القصة ونهايتها بشكل دائري يحقق الأثر النفسي لدى المتلقي، ويدل على دورة حياتها المغلقة لعدم قدرتها على التوفيق بين الواقع الذي لا يعترف إلا بالأوراق وظروفها التي احترقت فيها الأوراق فكأنها تجردت من هويتها مع احتراق أوراقها: "وانهارت أخيرا وبكت بكاء مريرا وهي تقول:

- ياربي.. كيف تصدقونني ياناس؟! ارحموني.. ألا تعلمون ما الحرب؟! أرجوكم ارحموني.. الحرب قتلت زوجي، وأحرقت الأوراق، وهدمت بيوتنا، وشردتنا، وفرقتنا عن أهلنا وحبايبنا ووطننا... وبالكاد أنقذنا أرواحنا وأرواح

أطفالنا."[٢٢] هذه الدائرة المغلقة اكتملت عن طريق غياب المسافة السردية بين الشخصية وصوتها.

يتكرر نمط العربي الذي جاء إلى مصر مرة ثالثة في قصة "أنا لاجئ من فضلك" والشخصية المحورية هذه المرة لأب سوري جاء يطلب إثبات قيد لابنه، وتشغل الراوية موقع موظفة الإدارة في المدرسة أيضا، ويتم التعارف بين الراوية والشخصية في مشهد تصويري قائم على الحوار المتغيّر من حيث المسافة السردية، فالمسافة قريبة بما يسمح بتصوير الشخصية، لكنها بعيدة من حيث فهم ظروفها، لذلك تقدم الراوية بمنظورها البعد الحسي للشخصية من خلال مسافة سردية تسمح بالرؤية، أمّا العمق النفسي فتترك للشخصية تقديمه بصوتها عن طريق إلغاء المسافة السردية فتتحدث الشخصية دون وسيط:

"كان يحاول التحدث بتهذب رغم صوته المكفهر بملامح الغضب الذي يشتعل من جوفه اشتعالا يطفو غرقا في عينيه وحركاته العصبية، قال:

- أريد إثبات قيد لابني...

---

٢٢ ـ السابق ص٨٨

قلت غير مهتمة كالعادة من كثرة ما يأتيني من الوافدين السوريين لأخذ إثبات قيد يثبت وجودهم ضمن الطلاب المصريين، دون أن أنظر إليه:

- لا مشكلة يا أستاذ، أريد جواز سفرك أنت وابنك، وتاريخ تجديد الإقامة الجديدة لعام ٢٠١٤.

ودون توقع من رد فعله... ضرب على مكتبي بصوت مرتفع:

- أستاذة... أنا لاجئ، لاجئ سوري ولست وافدا كالباقين... أن في بلدكم دائم...

فقلت وقد ارتفع صوتي أيضا من هياجه العصبي:

- يعني إيه يافندم... أنا لا يشغلني لاجئ أم وافد... أريد ختم تجديد الإقامة لهذا العام...

وزاد الموقف توترا وصرخ في وجهي بوقاحة:

- ألا تفهمين لست وافدا أنا لاجئ، لاجئ ياناس.

وأخرج جواز سفر وكارتا أصفر سميكا."[٢٣]

لقد أصبحت الشخصية شيئا، أصبح "الكارت" هو الشخصية نفسها في سياق اجتماعي يحوّل الإنسان إلى شيء وهذا هو مفهوم "الشيئية"[٢٤] في الأدب.

---

[٢٣] - السابق ص١٢٤- ١٢٥

[٢٤] - محمد عناني: معجم المصطلحات الأدبية – العالمية للنشر – لونجمان – القاهرة – ١٩٩٦م – ص٩٥

من الملاحظ أن الشخصيات المحورية تقع في طريق شخصية الراوية التي تشغل موقعا في القصة يمكنها من تقديم هذه الشخصيات بطرق متنوّعة عن طريق التحكم في درجة المسافة السردية أو إلغائها في أعلى تحقق للتصوير الذي يرسم المشهد ويزيده حضورا بالحوار.

وتستخدم الراوية اللغة الشعرية أحيانا للاقتراب من الشخصية قبل أن تسمح لها بالحديث المباشر لإعداد المسرح الذهني والنفسي للقارئ وهو يسمع صوتها المعبّر عن انفعالاتها النفسية في سياق معاناتها الاجتماعية كما في قولها: "كان يحاول التحدث بتهذب رغم صوته المكفهر بملامح الغضب الذي يشتعل من جوفه اشتعالا يطفو غرقا في عينيه وحركاته العصبية..." في القصة السابقة، فقد استطاعت اللغة الشعرية تصوير الشخصية من حيث البعد الحسي، واستكشاف أعماقها من حيث البعد النفسي، قبل أن تكمل الشخصية أزمتها بالحديث المنفعل عن بعدها الاجتماعي، وهذا يوضح دور المسافة السردية في تشكيل الشخصية من قبل الراوية في الفضاء القصصي الذي يتطلب حضور الشخصية دون مسافة سردية في أحيان ليست بالقليلة في هذا الموضوع الذي يعبّر عن أزمة الذات العربية المعاصرة.

اعتمدت هدى توفيق في مجموعتها على الحركة الجدلية للمسافة السردية اقترابا وابتعادا من جهة أو إلغاء تاما من

جهة أخرى في تقديم بعض النماذج القصصية لشخصية العربي القادم إلى مصر في أعقاب أزمة المنطقة العربية.

لكن استحضار الشخصيات إلى عالم الراوية وتصويرها من منطلق الاقتراب والابتعاد السردي أو التصوير الحواري استمر مع شخصيات من المجتمع المصري تتحرك في عالم الراوية من خلال المكان والزمان أو نتيجة الاجتماع في فضاء واحد مع كون تلك الشخصيات قادمة من أماكن أخرى.

فمن الملاحظ أن شخصيات مجموعة حذاء سيلفانا لهدى توفيق تتميز بالغربة والاغتراب بحكم كونها قادمة لأسباب اجتماعية كزواج المرأة مثلا في قصة "لقاء ووداع"[٢٥] من الإسكندرية، أو بسبب هروب الرجل من الثأر في قصة "أين وطني؟!" ليهرب مع ابنه من مدينة السادس من أكتوبر إلى بحيرة المنزلة، أو شخصية الأستاذ جوده المدرس المثالي الذي عانى من سوء تقدير المفتشة ليترك المدرسة والتدريس بعد خروجه على المعاش المبكر مبتعدا عن تعليم البشر ليزرع الأرض ويربي الحيوانات في مسقط رأسه بقريته الصغيرة في الصعيد الذي خرج منه إلى القاهرة ليعاني وعاد إليه مستمتعا بحياة تليق بعنوان القصة "أكثر من ممتاز"[٢٦] وتعتمد هدى توفيق على

---

[٢٥] - السابق ص١١٨

[٢٦] - السابق ص٦٦

وجود الراوية في أجواء القصة لتلقط الشخصيات وهذا المحور سنقدمه فيما يأتي.

- المسافة السردية وأجواء القصة:

في سياق تقديم الشخصيات من خلال المسافة السردية ينبغي أن نتحدث عن الأجواء التي يتم فيها استحضار الشخصيات من قبل الراوية.

تدور حركة الشخصيات في مكان، وهذا المكان يتشكّل بالكلمات التي تصوره وتضفي عليه مقومات جمالية وثقافية تثري النص وتثير الخيال كما يقول غاستون باشلار أهم من كتب عن المكان في النقد الأدبي: "إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لامباليا ذا أبعاد هندسية وحسب ، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيّز"[27] من هذا المتخيّل يستمد المتلقي شخصيات العالم القصصي، لكن المؤلف يستمد هذا المتخيّل نفسه من حركة جدلية مع الو اقع.

استحضرت هدى توفيق شخصياتها من ليبيا والسودان وسوريا والإسكندرية والبحيرة والقاهرة، لكنها اعتمدت على

[27] - غاستون باشلار: جماليات المكان – ترجمة غالب هلسا – ط٢ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٨٤م – ص٣١

مركزيتين محددتين هما مدينة السادس من أكتوبر ومحافظة بني سويف.

رأينا حركة الحياة في شوارع مدينة السادس من أكتوبر يوم الانتخابات في القصة الأولى ورأينا المدرسة في أكثر من قصة، وهذا يعني تحركها بين المكان المفتوح والمكان المغلق الذي يمكن أن ينفتح ليستحضر شخصيات تراها الراوية من مسافة سردية قريبة.

وتعد قصة أكثر من ممتاز نموذجا واضحا لربط المتخيّل القصصي في مدينة السادس من أكتوبر بالمتخيّل القصصي في محافظة بني سويف حيث تغادر شخصية الأستاذ جوده المدينة إلى القرية الأم في الصعيد في إشارة لكون الشخصية عانت اغترابا في عملها بالمدينة.

وقد صورت هدى توفيق عالم المدينة بأجواء مغتربة تلتقي فيها الشخصيات عن طريق مسافة سردية ثم تدخل في حوار فتبتعد المسافة، لكن وجود الشخصيات معا لايستغرق سوى لحظات هي الزمن في القصة القصيرة، وهذه اللحظات تحمل مادة قصصية تضم حياة الشخصية.

وتظهر المدرسة في قصص هدى توفيق بوصفها مكانا مثاليا للحديث عن الزمن أيضا:

"منذ عشر سنوات كانت هناك علاقة انتماء بين الطالب والمدرس، بين الطالب والأنشطة الفنية التي من أهمها المسرح

والموسيقى، حتى حصة التربية الرياضية، واليوم ونحن في عام ٢٠١٣ أصبح لا يوجد تقريبا أي أنشطة فعالة."[٢٨]

وقائلة هذا الكلام هي شخصية الأستاذة تماضر الموجه العام لمادة المسرح المدرسي المعلمة المثالية لثلاث سنوات في لقاء عن دور المسرح في التدريب على الانتماء، تحضر الراوية الندوة وتتأثر لكنها تتعرض لصدمة من سخرية زميلاتها لنستخرج من السياق المسافة السردية التي تصل بينها وبين الأستاذة المثالية وتفصل بينها وبين زميلاتها من المدرسات.

تظهر أجواء بني سويف بوصفها الملاذ الآمن للشخصيات سواء أكانت شخصية الراوية أم الشخصيات الأخرى، وتحرص الراوية على تقديم شخصيات بني سويف بما يمنحها جذورا في عالم القيم والهوية، فتختفي المسافة السردية بينها وبين شخصيات مسقط رأسها، كما أطلقت المؤلفة هذا التعبير في قصة "رحلة إلى مسقط رأسي" وتدخل شخصية الأم في هذه القصة ليحدث تضافر بين (الأم/ المكان) و(الأم/ الشخصية الحكائية):

"قبل أن رن جرس باب الشقة في الطابق الثالث، فتحت لي بابتسامتها الوديعة التي أفتقدها وتنساب بينها كل أوجاعي،

[٢٨] - هدى توفيق: حذاء سيلفانا ص٧١ من قصة التدريب على الانتماء

وتكاد تصرخ روحي: آه يا أمي الغالية، ليتني أعود طفلة في حضنك."[29]

في هذا السياق تذوب المسافة السردية على المستوى الدرامي حين تفتح شخصية الأم باب الشقة قبل رنين الجرس، وعلى المستوى النفسي حين تحدث الراوية الأم قبل أن تظهر في المشهد الحكائي.

وبعد أن تزور الراوية الأم تذهب من أجل الغرض الأساسي الذي دفعها للعودة إلى مسقط رأسها وهو جلسة محكمة للانفصال عن زوجها.

وفي السيارة التي تتجه بها إلى مقر انعقاد الجلسة تخاطب الأم بينها وبين نفسها في مونولوج تختفي فيه المسافة السردية لكنه ينقل إلى القارئ مشاعر الفقد والوحدة:

"تسمّرت نظراتي بالدهشة التي لاحظتها في مرآة التاكسي، وتساءلت في رعب صامت كيف ستفارقينني يا أمي؟"[30]

وبمهارة تربط بين الخاص والعام يواجه سائق السيارة الراوية بأن مكان المحكمة قد تغيّر مع ما حدث من تخريب في الأحداث السياسية قائلا: "تيجي أحكي لك تاريخ الثورة من ٢٥ يناير في المحافظة؟

قلت تبرما وغيظا من تهكمه اللاذع عليّ:

---

[29] - السابق ص٢٤

[30] - السابق نفسه ص٢٦

- لا... شكرا... الأجرة يا أسطى."[31] هذا الربط بين الأم والوطن أفاد من إلغاء المسافة السردية، فجعل الأم رمزا للبلاد دون أن تقول الكاتبة ذلك مباشرة.

تبدو بني سويف نقطة التقاء الأم بالوطن ومستقر الشخصيات بعد معاناة العمل في المدينة، وتقوم المدرسة في مدينة السادس من أكتوبر بدور محوري في تجمع الشخصيات المتناثرة، لكن الكاتبة لا تكتفي بذلك وإنما تتخذ من الأماكن البينية مثل السيارة – كما سبق – والأتوبيس – كما في قصة لقاء ووداع التي أشرت إليها – فضاء لالتقاط الشخصيات ورؤيتها من مسافة سردية قريبة تحدث فيها رؤية مباشرة بين الكاتبة والشخصيات ويؤدي فيها الحوار دورا مهما حديث الشخصيات بأصواتها دون مسافة سردية تلغيها لصالح حضور صوت الراوية، فظلت الشخصيات حاضرة أمام القارئ بصحبة الراوية في مشاهد تصويرية.

ولاشك أن حضور الراوية المثقفة التي تلتقط الشخصيات وتستخرج منها أزماتها يذكّرنا بشخصية الذات المبدعة التي تمثلها الكاتبة خارج النص.

- المسافة السردية قناة بين الراوية والمؤلفة:

---

[31] - السابق ص٢٨

من العرض السابق للمحورين اللذين تناول البحث فيهما دور المسافة السردية في تقديم الشخصيات ودورها في أجواء القصة أيضا تبين لنا أن الراوية شخصية حاضرة ليس في انتقاء الشخصيات فحسب وإنما في المشاركة في الأحداث، وأن هذه الأحداث ترتبط بمسقط رأس الراوية أو مكان عملها في المدرسة بمدينة السادس من أكتوبر أو في مدينة بني سويف أيضا كما نجد في قصة "أيوب المصري"[٣٢] حين تتحدث الراوية عن شخصية أستاذها مدرس الجغرافيا، الذي تعلمت منه المسافات في رسم الخرائط في دلالة على العلاقة بين الصورة التمثيلية التي نراها في الخريطة والعالم الخارجي.

هذا التناول يجعل شخصية الراوية قريبة كل القرب من شخصية المؤلفة، فالمؤلفة كما يقول التعريف بها في نهاية المجموعة من مواليد محافظة بني سويف وتخرجت في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة[٣٣] وفي قصة "أيوب المصري" يعاتبها أستاذها مدرس الجغرافيا لأنها التحقت بقسم اللغة الإنجليزية ولم تلتحق بقسم الجغرافيا لتكمل رسالته، لكنها اختارت أن ترسم العالم بأسلوب آخر، أو ترسم خرائط للنفس الإنسانية المعاصرة في سياقها الاجتماعي: "يداعبني بضحك: كيف حال الفنانة الموهوبة التي نقضت

٣٢ - السابق ص١٨

٣٣ - السابق بعد القصص، صفحة المؤلفة في سطور ص١٣١

العهد ودخلت قسم اللغة الإنجليزية؟"[٣٤] ليس هذا فقط ما يختزل المسافة بين الراوية في القصص والمؤلفة في الو اقع الخارجي و إنما السن أيضا فالراوية في قصة "المتمردتان" تتحدث عن نفسها بضمير المتكلم فنراها تبوح بعلاقتها بالزمن بعد الدخول في مرحلة الأربعينيات: "سأبدأ منتصف الأربعينيات، أعوام النضج، والصمت المرعب، تلك الحقائق المرعبة مثل أحلامي الملازمة لي."[٣٥] في هذا السياق لا توجد مسافة سردية و إنما يوجد البوح الذاتي الذي ينقل القص يكاد يجعل الراوية صوتا للمؤلفة.

فتقليص المسافة السردية وحرية الحركة من الراوية في قصص المجموعة لتمارس دورها في اختيار الشخصيات من خلال أجواء ترتبط بمسقط رأسها أو تشير إلى مرجعيتها يقارب كثيرا بين صوت الراوية ومرجعية الكاتبة في العالم خارج النصوص القصصية.

يضاف إلى ذلك أن الأحداث المعاصرة التي تعايشها الكاتبة هي نفسها المناخ الذي تحرص على تصويره، وقد رأينا ذلك في الانتخابات وتغيّر أماكن بعض المصالح في أعقاب يناير ٢٠١١ وأزمة الو افدين والأوراق المحترقة ومشاكل التعليم، بالإضافة إلى فشل العلاقات الاجتماعية كما في قصة "رحلة إلى مسقط

---

[٣٤] - السابق ص١٨

[٣٥] - السابق ص١٠٠

رأسي"[٣٦] أو عدم تحقق الحياة الاجتماعية لعدم وجود الرجل المناسب في حياة المرأة كما في قصة "حذاء الصغيرة التي لم تأت"[٣٧] الذي اتخذت منه المجموعة عنوانها بشكل غير مباشر فأصبحت "حذاء سيلفانا" لتضيف الكاتبة إلى المجموعة عنوانا يتصل بها وليس من داخلها مباشرة، والقصة رمزية لأن الحذاء هو الأمل في خطوة جديدة لحياة أكثر بهجة تتمناها الكاتبة لوطنها.

من التحليل السابق نستطيع القول إن هدى توفيق ترتبط بالراوية في المجموعة ارتباطا واضحا بحيث تركت جزءا من نفسها مع الراوية، أو فلنقل تركت نفسها المبدعة تعايش القارئ في مجموعتها القصصية، وأن المسافة السردية تقنية مهمة قدمت لنا صورة عن بنية المجموعة وعلاقتها بالكاتبة التي أبدعتها.

- خاتمة البحث:
- تقنية المسافة السردية ترتبط بمنظومة من المفاهيم والتقنيات يمكن من خلالها قراءة عمل قصصي أو روائي قراءة تحليلية تكشف عن سماته الفنية وعلاقته بالواقع.

[٣٦] - السابق ص٢٣
[٣٧] - السابق ص١٢٧

- تصوير الشخصيات في مجموعة حذاء سيلفانا اعتمد على اقتراب من تلك الشخصيات لتلتقط البعد الحسي.
- تقوم الراوية أحيانا بتقديم البعد الاجتماعي للشخصيات من خلال تحريك المسافة السردية بعيدا عن الشخصية وممارسة الراوية لدور المؤرخ الذي يتحدث بشكل توثيقي.
- يمكن أن نستشف البعد النفسي من البعد الحسي لأن المسافة السردية قريبة.
- تترك الراوية الشخصيات تتحدث عن نفسها بالأسلوب المباشر لتصوّر معاناتها النفسية والاجتماعية فتلغي المسفة السردية.
- تصوّر الكاتبة أجواء قصصها من مسافة سردية قريبة تجعل الراوية في قلب الأماكن التي تلتقط منها شخصياتها.
- يشغل مسقط رأس الكاتبة نفسها مكانا مهما في احتواء الراوية.
- تهتم الكاتبة بالأحداث المعاصرة مما يجعل المسافة السردية بينها وبين عالمها المرجعي قريبة وكأنها تصوّر الو اقع.

- تتصل شخصية الكاتبة بشخصية الراوية فيرى القارئ صورة الكاتبة من خلال الراوية.

- مصادر البحث ومراجعه:

- بوريس أو سبنسكي: شعرية التأليف – ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ١٩٩٩م –
- تزفيتان تودوروف: مقولات الحكاية الأدبية – ترجمة عبد العزيز شبيل – مجلة العرب والفكر العالمي – بيروت – العدد ١٠ – ربيع ١٩٩٠م
- جيرار جينيت: خطاب الحكاية – ترجمة محمد معتصم – عبد الجليل الأزدي – عمر حلي – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – المشروع القومي للترجمة – ط ٢ – ١٩٩٧م
- جيرالد برنس: المصطلح السردي – ترجمة عابد خزندار – مراجعة محمد بريري – المجلس القومي للترجمة – القاهرة – ٢٠٠٣م
- غاستون باشلار: جماليات المكان – ترجمة غالب هلسا – ط٢ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع – بيروت – ١٩٨٤م

- محمد عناني: معجم المصطلحات الأدبية – العالمية للنشر – لونجمان – القاهرة – ١٩٩٦م
- محمد قطب: قراءة في القصة القصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨١م
- هدى توفيق: حذاء سيلفانا - دار الكتبي للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١٧م
- والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة – ترجمة حياة جاسم محمد – المشروع القومي للترجمة – إصدار المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ط ١ – ١٩٩٨م
- يمنى العيد: تقنيات السرد في ضوء المنهج البنيوي – دار الفارابي – بيروت – ط ١ – ١٩٩٠م
- يمنى العيد: القصة النسائية العربية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٠م
- يوسف الشاروني: دراسات أدبية – وزارة التعليم العالي – مصر – طبع مكتبة النهضة المصرية – د.ت

- المراجع الأجنبية:

- Dictionary Of Literary Terms – Rama Brothers India –Coles Editorial Board

الكتابةُ حينَ يكونُ الوجودُ محتملًا

دراسة

د. مجدي أحمد توفيق

.١.

ماذا تريدُ تلكَ المرأةُ التي لا أعرفُ لها اسمًا، والتي تحكي عنها أولى قصصِ المجموعة: قصة " قصّ ولصق "؟

هي تبحثُ عن تلك الكلمةِ التي ظهرَتْ آخرَ النّصِّ: روحُ الحياة.

تريدُ أن تكتشفَ لحياتِها معنى بعدَ أن اغتربَت عن أحلامِها وآمالِها.

هذا الاغترابُ يجعلُ الحياةَ منفصلةً عن الذّات، ويجعلُها تبحثُ بحثًا محمومًا عن شيءٍ غيرِ محدَّدٍ لها، لا تستطيعُ أن تسمّيه لأنّه معنى عامٌّ يشملُ الحياة، وينتظمُ العمرُ، ولا سبيلَ إلى أن تحدّدَهُ ما دام المعنى المنشودُ قد نشأَ عن هوّةٍ واسعةٍ بين الحياة وأحلامِ الذّات.

الفنُّ ملجأُها، الفنُّ وسيلتُها لأن تكتشفَ معنى الحياة، هي لهذا تبدأُ بلعبةٍ فنيّةٍ، هي أوراقُ القصِّ واللّصْقِ الملوّنة. الفنّ نفسُه لعبةٌ تعيدُ ترتيبَ أوراقِ الحياة فتغدو منسّقةً في صورةٍ واحدةٍ مفهومةٍ، دالّةٍ، ذاتَ معنى، والأوراقُ الملوَّنةُ لا تختلفُ عن الصّورِ المعلَّقةِ على الجدار، لأحبّاءَ فقدتْهُم، وهذهِ الصّورُ لا تختلِفُ عن

صورٍ أخرى تحملُها الذّاكرةُ، تسمّيها الذّكرياتُ، ترتيبُ الصّور على الجدارِ يوازي ترتيبَ الأوراق الملوَّنةِ في لوحةٍ، ويوازيان ترتيبَ صوَرِ الذّاكرة في مخيّلةٍ، وما الخيالُ سوى لعبةِ ترتيب الصُّورِوالأوراقِ الملوّنة، وما الفنُّ إلاّ هذه اللعبةُ عينُها، وهو بهذا التقديرِ بحثٌ مستمرٌّ عن معنى الحياة.

تأتي لها الذّاكرةُ بهذا الحبيبِ الذي كان يملأُ لها جدار حياتِها بالصُّور الملوَّنة، ولكنَّها الآن تفتقدُهُ، لهذا تلوذُ بالفنِّ، وبيكاسو هو هذا الفنُّ المجرَّدُ الذي تدخلُ حجرتَهُ المغلقةَ فتتحرّرَ بصُورِها من صورِ العمرِ التي تسردُها عليها الذّاكرةُ فإذا بها صورُ الفَقْدِ وغيبةِ المعنى، وبفضْلِ الفنِّ استعادَتْ طمأنينتَها، وبهجتَها، وإحساسَها العميقَ بروحِ الحياة، وهنا يغدو معنى الحياةِ اتصالًا عميقًا بالحياةِ الواسعة، الحياة في ذاتِها، في خيرِها وجمالِها، في طهرِها وسُمُوِّها سُمُوًّا فوقَ الحياةِ الشّخصيّةِ التي تديرُها "سخرية القدر".

ما تفعلُه تلك المرأةُ تفعلُه المرأةُ الأخرى، أعني الراوي الغائبَ العليمَ الذي افتُرِضَ افتراضًا أنّه امرأةٌ كالمؤلِّفة، تلكَ التي تحكي لنا عن امرأة القصّة، وتخاطبُ القارئ مباشرةً في بعض اللّحظات متحولةً من ضميرِ الغياب إلى ضميرِ الخطاب؛ تفعلُه الراويةُ إذ تُحَوِّلُ قصّتَها إلى مفرداتٍ سرديّةً متواليةً، كأنّها وريقاتٌ ملوّنةٌ تُرتّبُها معًا في صورةٍ واحدة – لنحصرها: ١- القصّ واللّصق، ٢ – صور الجدار، ٣ – ذكرى الحبيب، ٤ – حجرة

بيكاسّو، ٥ – الموسيقى: قمّة الفنّ المجرّد الخالص . هي مفرداتٌ سرديّةٌ موجَزةٌ، تتطلّبُ الإشارةَ القصيرةَ لا التّفصيلَ المسهبَ، حتّى تكون وُرَيْقاتٍ صغيرةً ملوّنةً، أو صورًا صغيرةً مرتّبةً، لهذا أصبحَ النصُّ شديدَ القِصَرِ لأنّ الإيجاز يكمُن في تفصيلاتِه القليلة.

ينتظمُ هذهِ المفرداتِ خطابٌ سرديٌّ يبدأ من موقِع ضمير الغياب (راويةٌ غائبةٌ تتحدّث عن امرأةٍ مشهودةٍ للقارئ سرديًّا)، ثمّ تنتقلُ في إحدى اللّحظات إلى ضميرِ الخطاب (راوية متكلّمة تخاطبُ القارئَ، وربّما تخاطبُ المرأةَ كذلك)، وفي اللّحظةِ نفسِها انزلقَتْ إلى ضميرِ المتكلّمِ فصارَتِ الرّاويةُ تتحدّثُ عن همساتِ قلبِها المشتاقةِ لا همساتِ المرأةِ، فالتقَتِ الرّاويةُ بالمرأةِ، وتَوَحَّد شعورُاهما.

يدعمُ هذا كلُّه طبيعةٌ مزدوجةٌ للخطابِ السَّرديّ: لغةٌ وصفيّةٌ بصريّةٌ موجَزةٌ قليلةُ التّفصيلاتِ، وتعبيراتٌ انفعاليّةٌ متزايدةٌ: تَعجّبٌ، اندهاشٌ، حماسةٌ، إلخ، تبلُغُ قمّة تزايُدِها حيثُ تختلطُ الضّمائرُ وتتداخلُ الذّوات. هنا يصيرُ الخطابُ غنائيًّا أكثرَ ممّا هو سرديّ.

هذا كلُّه، في نصٍّ شديدِ القِصَرِ، يُيَسِّرُلنا أن نفهمَ أنَّ الفنَّ لعبةٌ نعيدُ فيها ترتيبَ الحياةِ ليَصيرَ لها معنى، وقد أصبحَ الفنُّ قصًّا ولصْقًا.

- ٢ -

ما كانَ قصًّا ولصقًا أصبح في ثانيةٍ قصصَ المجموعةِ رسومًا متحركةً ثابتةً.

لا بدّ أن نلحظَ التّناقضَ بينَ وصفِ الرّسومِ بأنّها متحرّكةٌ، ووصفِها بأنّها ثابتةٌ في آنٍ واحد، هي متحرّكةٌ لأنّها رسومُ الحياةِ التي تتوالى مع حركةِ الحياة، وهي ثابتةٌ لأنّ النصّ يُثْبِتُها معًا، وهي ثابتةٌ كذلك لأنّها لا تنطوي على حركةٍ حقيقيّةٍ ما دامَتِ الحياةُ مغتربةً عن أحلامِ الذّات.

هذا الاغترابُ تكشفُهُ إشاراتٌ لغويّةٌ متناثرة. فكوْنُ اللِّقاء عابرًا مبهوتًا، متوجّسًا، يحيطُ به الفزعُ، يمنحُ اللّقاءَ صفاتٍ تنفي التّحقّق والسّعادة عنه، كذلك تدلّ فهْلوَةُ الحديثِ، وآليّةُ الكذب، وتعدُّدُ الوجوهِ، على الاغترابِ نفسِه.

نحنُ أمامَ لقاءٍ بينَ اثنَيْنِ، يجمعُهُما الحبُّ، وبينَهُما لهفةٌ واضحةٌ على اللّقاءِ، ولكنَّ هوَسَ الفقدِ يكمُنُ في اللّقاء.

وأكبر تناقضٍ تشهدُهُ الذّات هو هذا التّناقضُ الملحوظُ بينَ إنسانٍ عاديٍّ لا ندري مدى صدقِه في مشاعرِه، وبينَ الحلمِ بفارسٍ حلمًا لا ينقضي بتغيُّرِ الزّمان، قد يُسمَّى سوبرمان، أو أيّ اسمٍ آخر، ولكنّه لا يزالُ حلمًا مغتربًا قائمًا لا يزول.

هذا الاغترابُ هو ما يدفعُ بالخطابِ السّرديِّ إلى غنائيّةٍ إذا حاولْتَ أن تتأمّلَها في ثالثِ نصوصِ المجموعةِ ألْفَيْتَ نفسَك أمامَ نصٍّ غنائيٍّ، لا يحملُ حدثًا واضحًا، ولا يومئ من قريبٍ أو

بعيدٍ إلى حدثٍ و اقع، أو و اقعٍ يقبلُ أن يحمل حدثًا، وإلى درجةِ أنّ الخطاب قد تحوّل إلى صورةٍ شعريّةٍ خالصةٍ، تُصرّحُ لنا بأنّ الرّاويةَ محصورةٌ داخلَ نفسِها، تحسُّ زحفَ الزّمن نحوَها، يحملُ إليْها الكُهولةَ، ولا يبقى لها إلّا أن تتذوّقَ ما تحملُه الحياةُ من لذّةٍ ومتعةٍ، وألمٍ، فصارَتْ بهذا سيدةَ التّذوق.

-٣-

بدايةً من هذا النصّ انفجرتِ الحالةُ الغنائيّةُ، وأصبحَتِ الكتابةُ منشوراتٍ، أو بياناتٍ تبوح فيها الذّات بهُمومِها. أدعوكَ إلى أن تهتمّ بالمنشورِ الثّاني منها اهتمامًا خاصًّا، ففيه بيانٌ بأهميّةِ الكتابةِ بوصْفِها فعلًا أساسيًّا تؤدّيه الذّات.

الكتابةُ فعلٌ مستحيلٌ تتكلّفُ عناءَهُ وإلحاحُه، وهو مستحيلٌ لأنَّ الذهنَ لا يحملُ شيئًا محدَّدًا ليكتبَهُ، فلا معنى مسبقًا تحاولُ أن تؤدّيه، بل هي تكتبُ لكي تستكشفَ معنى الحياةِ، وحقيقةَ الذّات الكاتبة حيث يدلُّ التّوقيع (التّوقيع: أنا) على التّماهي الشّديد في الخطاب الغنائيّ بين الكاتبةِ والرّاوية.

الكتابةُ صراعٌ مع الورقِ، مع الفراغِ الأبيض.

المكانُ هوَ الورقةُ لا رأسَ البرّحيثُ تكتبُ الكاتبة.

ولكنّ الكتابةَ تستطيعُ أن تستدعي القصصَ، والحكاياتِ، والتّواريخَ، والأحداثَ، والتّفصيلات، والصّغائر، والعلاقات.

هي الآنَ تمارسُ فيضًا متعاقبَ الأمواجِ من العباراتِ الغنائيّةِ، لكنَّها تعي أنّ هذه الكتابة، مهما أسرفت في غنائيّتِها، فهي تنهضُ

على هامشِ عالمٍ من العمرِ مليءٍ بالأحداثِ والشّخصيات، وهذا معناه أنّها على وعيٍ تامٍّ بأنّ الخطابَ الغنائيَّ، المسترسلَ في غنائيّتِه، سوف ينتهي عندَ لحظةٍ يعودُ فيها إلى عالم الأحداث، فليسَ من الممكنِ أن يظلَّ الخطابُ منفصلًا عن العالم إلى غير نهايةٍ ما لم ترغبِ الكتابةُ في أن تتحوّل إلى شعرٍ محضٍ، والشعر يحتملُ في أهمِّ صورِه أن يكونَ غناءً للذّات خاليًا من الإشارة المباشرةِ إلى حدثٍ أوو اقع.

هذا ما تحقّق بدايةً من "المسافرُ الأخيرُ يموتُ ببطْء"، واستمرّ إلى نهايةِ المجموعة.

- ٤ -

خذ مثلًا "عصا الشّيخ مصطفى".

تبدأُ بمخاطبةِ الرّاوية -أنوثتها صريحةً هنا- للقارئ، تسأُلُه إن كان يقرأُ قصّتَها، وإن كان يصدّقُها، هل يظنُّ أنّها معتوهةٌ، مجنونةٌ، أو كائنٌ غير موجود، وتضعُ خطابَ القصّة في مقابلِ خطابِ التّلفزيون الذي يقدّمُ أقوالَ الحياةِ، لا تناسبُ القارئ الذي يغدوويروحُ بغيرِ استقرارٍ بين الشّوارعِ والحاراتِ والبيوت.

تضعُ المقدّمة -إلى هذا الحد - استراتيجيةً لفَهْمِ القصّة في ضوءِ خبرةِ الحياةِ اليوميّة.

تنتهي المقدّمةُ بتصريح الرّاويةِ بأنَّها تعتقدُ أنّ كثيرًا من القرّاء سيشُكّونَ في القصّة، أو يشُكّونَ في صحّةِ بطلِها، لأنَّهم لن يُصدِّقوا حديثَ العفاريتِ والجان. ومن هنا يتكوّنُ أساسٌ لأفقِ

توقّعٍ يدورُ حول شابٍّ ممسوسٍ، سنعرف أنّ اسمَه مطر، وهو في أواخرِ الثّلاثين من عمرِه، يفيضُ بالعافية والعذوبة، وما إن تروي مشهدَ مولدِه وتسميتِه مطرًا حتّى يتغيّرُ ضميرُ الحديثِ، وينتقلُ إلى ضميرِ المتكلّم، على لسانِ مطر هذا، وهي نقلةٌ رأيْناها من قبلُ في نصوصٍ سابقة.

أخبرَنا مطرُ أنَّ أمَّه، منذُ مولدِه، كانت تراه كائنًا غريبًا، لا يتوافقُ مع عالم الأسرة، يحتاجُ إلى أن تحميه بتديُّنِها، فحاولَ أن ينتصر على أكذوبةِ غرابتِه بأن يُعمِّقَ ثقافتَه، فأصبحَ يساريًّا، وعمل مهندسًا معماريًّا. ولكنَّ خبرتَه السياسيّة اليساريَة آلت به إلى انطواءٍ مرضيٍّ أخفقَ في علاجِه الأطباءُ، وأصبحَ يسمعُ أصواتَ الأشباحِ وصراخَهم، وأخذَتْ أمُّه تلحُّ عليه في أن يزورَ الشّيخ مصطفى الذي برع في إخراج الجنّ ممّن يتلبّسهم الجنّ.

كان مطرُ يرقُب مجدي الكوماندة، شيخَ النّحاتين، الرّجلُ الذي يقود عمّالَهُ في صبِّ الأسمنت، كان مجرمًا سابقًا، وكان إمبراطورًا يُديرُ عالمَه. لم يستطعْ مطرُ أن يدخلَ عالمَ شيخِ النّحاتين وظلَّ على انطوائِه.

في مقابلةٍ كان الشّيخُ مصطفى يستطيعُ بفراستِه أن يسبرَ أغوارَ النّاس، إلى جوارِ زوجتِه حسناء المهاجرةِ من البوسنة لتصيرَ زوجتَه في رقٍّ عصريّ.

رآه وهو ينظرُ إلى امرأةٍ فلّاحةٍ، وأرقدَها على التّراب، وبعصاهُ السّحرية أدركَ داءَها، وأمرَرجالَهُ فأنزلوها في التّرعةِ، وهو يهشّمُ بعصاه الجنَّ، فإذا بملامحِها المتصلّبةِ تلينُ، وتبدو على وجهِها علاماتُ الرّضى والسّكون.

وإذا به يستديرُ نحوَ مطر، ويُشيرُ إليه بعصاه، ويحدّدُ لهُ موعدًا بعدَ صلاةِ الجمعة.

انتهى النصُّ عند هذا الموضِع.

مؤكَّدٌ أنّنا لسنا أمامَ حبكةٍ تسعى الكاتبةُ إلى أن تقدّمَها لكي نستمتعَ بها.

إنَّنا أمامَ الممارسةِ الغنائيّةِ للكتابةِ وقدِ اتّخذَتْ صورةً سرديّةً محضة.

لقد خرجَتِ السّاردةُ عن ضميرِها الأنثويّ، وتقمّصت ضمير المتكلّمِ الرّجل، فأصبحَتِ الكتابةُ استنباطًا لحياةِ الآخرينَ الذين يجسّدون و اقعَ الحياةِ اليوميّة.

نحن أمامَ عالمٍ من الأحداثِ رمزيٍّ، أو بعبارةٍ أخرى، نحنُ أمامَ أحداثٍ وشخصيّاتٍ تقومُ مقامَ جسرٍ نعبُرُ عليْهِ إلى أزمةِ البحثِ عن معنى.

إنّنا بين تناقضٍ واضحٍ بينَ خطابٍ سياسيٍّ ثوريٍّ محبَطٍ، هوَ الأحلامُ الضّائعةُ في و اقعٍ مغترب، وفي مقابلها نموذجُ شيخِ النّحاتين: الحياةُ اليوميّةُ المهمَّشَةُ التي تسترسلُ في مجدِها الوهميّ، بآثامِه، وإحباطاتِه، وقدرتِه المدهشةِ على المواصلة.

لم يستطعْ مطر أن يحقّقَ الأحلامَ، ولم يستطعْ كذلكَ أن يتكيَّفَ مع و اقعٍ يوميٍّ لعالمٍ مغمورٍ مهمَّشٍ، أصبح بينَ حدّيْنِ: الوعيُ الحادُّ العاجزُ عن أن يحقّقَ حلمًا، والخر افةُ المستبدّةُ التي تسيطرُ على الحياةِ اليوميّةِ. سيطرَتْ عليها بدايةً في صورةِ خطابِ التّلفزيون، وتسيطرُعليها الآن في صورةِ الشّيخ مصطفى وعصاه السحرية.

هذه كتابةُ أزمةٍ، تسألُ عن عالمٍ بغيرِ معنى، مغتربٍ، مهمَّشٍ، خرافيّ.

الكتابةُ إعادةُ ترتيبٍ للمفرداتِ حتى يتولّد عنها معنى.

حتّى يكونُ وجودُنا محتمَلًا.

مجموعة قصص

القاص/ محمود الديب

حين تعثر على الجمال في قلبك ستعثر عليه في كل قلب.

جلال الدين الرومي

سياج

على حياء وقف الكلب منزويًا، لكن عينه كانت لا تعرف الحياء، تر اقب كل قضمه في فم ذلك الرجل الذي انقض على قطع متناثرة من الخبز وبقايا طعام وكأنها دجاجة مشوية. كاد يطير الكلب في الهواء ليقطع رقبته قبل أن يصل الطعام إلى معدته ويصبح مجرد حلم. انطلقت صرخة من الكلب مع آخر لقمة تناولها، ففطن الرجل فاستخرجها من فمه وأعطاها له. لحظات وسكنت حركة المكان لكن الريح عاثت برودة، فانتفض الرجل فاقترب الكلب منه فأحس بالدفء. ظهرت أمارات الجزع على وجه الرجل رغم أن السكينة كانت رفيقته قبل ذلك، حادث نفسه قائلاً: الآن أصبحت هناك روح تتوقف حياتها عليّ. لم أكن أحمل هم الحصول على الطعام من القمامة. غلبه النوم وما أن بدأت الحياة تدب في الشارع حتى فتح عينه ليجد قطيعًا من الكلاب في انتظاره. كان يمشى بالساعات الطوال في هذه المدينة فلا يحصل على الفتات، فالمدينة هدمتها المليشيات

وسلبتها خيراتها وأمنها. وكلما تمر الأيام دون أن يجد ما يقتات عليه هو وكلابه كان يكبر الحزن والأسى داخله. لم يكن يمد يده ليستجدي فيما مضى لكن من أجل كلابه فعل. أركعته الحاجة إلى الطعام من أجل كلابه. لم يعد قلبه يتحمل لوعة آلام الجوع البادية عليهم. دب على الأرض بالساعات الطوال والأيام دون توقف عن البحث، وفي يوم مظلم سقط مغشيًا عليه مفارقًا الحياة. استغرب المارة من كسله، فقد اعتادوا أن يروه نشيطاً مع آذان الفجر، حاول البعض أن يقترب منه ليوقظه، لكن الكلاب ضربت سياجًا حوله.

مقام ملعون

لكي يصل إلى والده في زمن قياسي، كان عليه أن يعبر تلك الحارة الضيقة الملتوية، لكن الجميع كان يخاف من عبورها في الليل والنهار، منعه صوت ضربات قلبه التي وصلت إلى شعر رأسه فأوقفته من أن يجرؤ على أن يدلف بقدمه، لكن الفتي الصغير قرر أن يجتاز تلك الحارة، يريد الوصول إلى "الغيط" بأسرع وقت. حادث نفسه قائلاً: لن أنظر يميناً أو يساراً فقط سأمضي في طريقي، وعيني على ما يقف أمامي. اقتربت أنفاسه من المقام

الذي يتوسط الحارة قبل أن تصل قدمه، لقد أرسل أنفاسه لاستطلاع ما يجهله فشعر بقشعريرة. تعجب من خوف أهل القرية من هذا المقام، فيما كل المقامات الأخرى يستأنس بها ويقيمون الموالد بجوارها. سمع الفتي الكثير من الحكايات عن صاحب المقام، وهو المقام الوحيد الذي لا يقام له مولد ولا يتداول أي كرامات حوله، فقط لا يتذكر عنه سوى المصائب. فبعض من أهل القرية حاولوا إزالته فلاحقتهم لعنات ظلت تتعاقب في أسرهم أجيال وراء أجيال.

حبة

ندت حبة عرق على صفحة جبينه وبدأت تنسكب في خيلاء، ومالت في طريقها لتسلم على عينه، فإذا حبات عرق تترا تريد اللحاق بها، أسرعت الخطى، تريد الاحتفاظ بريادتها كأول حبة عرق. يكاد لهيب الشمس يحولها إلى قدر يغلي، ما اضطرها للهروب من سياط الشمس بالاختباء تحت الملابس. و أبطأت من حركتها عن عمد لأنها لا تريد أن ينتهي بها المطاف لتصبح بقعة في ثوب، تريد تحقيق حلمها في أن تلقي بنفسها فوق وردة لترويها. استكشفت المكان من حولها، وعلى البعد رأت بستان ورود. حمدت الله أن جاءت إلى ذلك المكان المورق وسط صحراء

نجد القاسية. تحينت الفرصة لتلقي بنفسها على بستان الزهور، لكن صاحبها انحرف عن البستان.

ناصية القراءة:

قصص للكاتب / محمود الديب بقلم الكاتبة المصرية / هدى توفيق

القصص: سياج / مقام ملعون/ حبة.

تتجسد تصويرالتعبيرية في هذه القصص الثلاث بجمع واحد، ليُبدع منها الكاتب بطولاته الحياتية الذاتية وسط و اقعه المأساوي. بين قصة سياج، ومقام ملعون، وحبة. حيث تزخر بحساسية المبدع التعبيرية الشديدة الرهافة، والحساسية الخلاقة لتجعل من إشارات الو اقع البسيطة تصورات وتخيلات تتجاوز منطق الو اقع، بتشكله المادي إلى محسوسات مجردة داخل (المتخيل السردي).(١) برؤى تخييلية منفتحة على دو ائر الو اقع الضيقة والمغلقة. لنتبعه في منهج محدد حتى نصل إلى ما يشغلنا من فنيات المخيال، والتخيل السردي القابع

خلف اطروحاته الفنية. كما طرحها لنا أ.د عبدالله إبراهيم في كتابه (المتخيل السردي). ونحن نستعين باستخدام شمولية تقديم النماذج المقترحة من جانبه دون تقيد مباشر منا بما طرح من نماذج، لنستعلم منها عن مخرج وتطبيق مناسب لتلك القصص الثلاث دون شرط أو تحسب بالطرح الأصلي للمصادر المستخدمة في النصوص الأصلية، التي قدمها المصدر السابق كما أشرنا في سابق القول في كتاب (المتخيل السردي). قائلاً: (يجد الناقد نفسه بمواجهة مادة قصصية إبداعية ملتهبة ، تتنازعها أربع مراحل أساسية ، تدور جميعها في أفق واحد، هو الأفق التعبيري ،إذ تبدو مكونات ذلك العالم على غير ما هي عليه ، إنما تمثل عبر وعي الرواة الذين يقدمون المادة القصصية ، وذلك بأن تضفي على تلك المكونات أحاسيس وانفعالات خاصة ، تصفى ضمن وعي خاص ، وتنأى عن جذرها، أي تبتعد عن مرجعها، وتؤسس لنفسها فعلاً دلالياً خاصاً، ونصطلح هنا على تلك المراحل ، بمصطلحات تطمح لتأثير خصوصية العالم الإبداعي للقاص... ، ولا نبغي من ذلك حصر ذلك العالم ضمن أطر ثابتة ، إنما يمكن القول ، أن تقسيم عالمه إلى مراحل فرضته طبيعة عالمه الإبداعي ، ومراحل التطورالتي شهدها: ١- التعبيرية الو اقعية ٢- التعبيرية الرمزية ٣- التعبيرية الشيئية).(٢) دون تفعيل المرحلة الر ابعة داخل القراءة من المرحلة الأخيرة المذكورة في المصدر الأصلي، وهي

التعبيرية التاريخية، والاكتفاء باتخاذ المراحل الثلاثة للتطبيق عل نماذج القصص الثلاث: (سياج _ مقام ملعون_ حبة).للكاتب محمود الديب. القصة الأولى (سياج) يستهل المؤلف قصته بمقولة شهيرة (لجلال الدين الرومي _ حين تعثر على الجمال في قلبك ستعثرعليه في كل قلب).وباستخدام ضمير الغائب تحكي القصة عن علاقة معقدة وشائكة بين رجل ضائع، ومشرد، وجائع، وبين كلبه الذي يماثله في الهيئة والتكوينات الظاهرية، والداخلية من ضياع وتشرد، وجوع، ليتحمل الفعل السردي القصصي مستويات دلالية ووظيفية في آن واحد. حيث : (ويتحول الفعل القصصي إلى وصف الشخصية والحدث بتعزيز/ أهم عنصرين فنيين في القصة القصيرة وهما: الشخصية والحدث ويولي اهتماماً استثنائياُ) / لهما. (٣) هذه الثنائية البارزة والمشتركة في القصص الثلاث أي (الشخصية والحدث). تجسد المعول الأساسي لبؤرة التكوين القصصي بوجه عام في القصص الثلاث، وهي قائمة على محور رئيسي شيدته متاريس الو اقع المروالقاسي. كما في قصة سياج التي تنفتح على تعبيرية و اقعية عصيبة، وهي تصورلنا لحظات مصيرية وحاسمة في حياة هذا الرجل ورفيقه الكلب..تتناول القصة حياة رجل ما يعيش في مدينة غيرمسماه، وغيرمحددة المكان مخربة ومهدمة. بعد أن دمرتها المليشيات الارهابية وسلبتها خيراتها وأمنها، ومن ثم أصبح هذا الرجل يتضورمن

الألم والعوز والحرمان والجوع القاتل ، ويصل به أن يبحث عن أي قطع متناثرة من الخبز وبقايا الطعام من فتات ، ويراقبه كلبه المشرد مثله بالطبع، وعيناه تصرخان من الجزع والجوع الفتاك التي تصل به للشعور بالفجيعة عندما تلتقط عيناه سيده، وهو سيضع اللقمة الأخيرة في فمه (كدجاجة مشوية). كما ذكر في النص بينما هي محض لقم وبقايا طعام من الخرابات أو القمامة.فيفطن الرجل لذلك الذعر، ويخرجها من فمه ليعطيها لكلبه المسكين. لتتحول تلك اللقمة الأخيرة لفكرة حاذقة غيرت مسار حياة الرجل الضائع. الذي يتمنى الموت في كل لحظة حتى ينجومن آلام الجوع المبرحة، وتلك الحياة البائسة. والتي لا فائدة ولا قيمة لها وسط الخراب، والدمار، والحطام التام لكل شئ. فماذا يتبقى له ليبقى على قيد الحياة؟! وأي حياة وهو يستجدي أبسط حقوقه في الحياة وهوالطعام.ولا يجده ، فيحادث نفسه قائلاً : (الآن أصبحت هناك روح تتوقف حياتها عليّ. لم أكن أحمل هم الحصول على الطعام من القمامة). ليتورط في منح نفسه هذا الدور البطولي. بأنه سوف يكافح ويحارب من أجل عيش كلبه المخلص رفيقه وأنيسه في ليالي البرد القارص، والوحدة القاتلة، والتشرد، وبذلك أصبح له هدف، وقد انتقلت العدوى إلى قطيع من الكلاب باتت في انتظاره كل يوم، لكي يحصلوا على الطعام مثل كلبه الرفيق الوفي . ويقبل التحدي رغم قسوة حقيقة

الو اقع الذي يواجهه، فتنبعث فيه جذوة الحياة والكفاح من أجل رفقاءه الكلاب، وهو يحاول بكل السبل أن يجد لهم وله ما يقتات عليه لسد الرمق لا أكثر، في ظل هذا القحط الكبير للمدينة بكاملها بعد حرب المليشيات اللعينة. لكنه للأسف يفشل في نهاية الأمر، ويشعر بالحزن والأسى لأنه لم يستطع رغم المقاومة وقد ظل: (والساعات الطوال والأيام دون توقف عن البحث). لكنه ينهزم وينكسر أمام قسوة الحياة ، (حتى سقط مغشياً عليه مفارقاً الحياة).وقد استغرب أهالي المدينة كسله في الاستيقاظ مبكراً كما اعتادوا منه كل يوم نشيطاً مع آذان الفجر.لكن أصدقائه الأوفياء وعائلته الحقيقية من الكلاب قد أدركوا موته ورحيله المباغت (وقد ضربت الكلاب سياجاً حوله). بعد معافرة ومنازعة مع جلب قوت الحياة (ولم يعد قلبه يتحمل لوعة آلام الجوع البادية عليهم).فرحل في يأس وقهر، وبدم بارد، وهدوء قاتل . يمثل عنوان القصة (سياج) الرمز التعبيري الو اقعي القوي الدلالة، والتوظيف السردي. والذي يشمل محتوى القصة كاملاً في اسم يناوئ فداحة أثمان الحرب، والخراب، والفقر، والجوع والموت المأساوي. في اطارالحكي عن رجل ما دون تعريف، وكلب ما يماثله كاسم النكرة، ليجسد الجميع دون تحديد أو تجنيس مؤطر الهوية، والجنسية، والقومية. هذان البطلان إشارة لكل شخص وحيوان يجتر أثارالحروب اللعينة والملعونة. فالسياج الذي

ضربته الكلاب حول الرجل البطل ترميز يضج بصرخة كبيرة، لهذا الحدث الجلل لهم، وهو موت عائلهم الوحيد الآت من حدث أشد ضراوة ومأساوية، وهي حرب المليشيات الضارية في هذه المدينة غيرالمعرفة بمسمى، وموقع جغرافي معين، وتلك إشارة عميقة، وفادحة المغزى، بتوظيف التعبيرية الو اقعية التي تشير بشكل غير مباشر لكل مدينة عربية في الشرق الأوسط. قد تدمرت وتهدمت بسبب الحرب والإرهاب وخفافيش الظلام، علي يد هؤلاء المجرمين فيما يمكن أن نطلق عليهم أوغاد الحروب، والدمار، والتطرف، والقتل، والسلب، والنهب ، والتجويع والذي يؤدي إلى اندثار حضارات عريقة. لذا لا تحتاج المدينة لمسمى وذكر مكاني محدد لها وسط ضحايا الجغر افيا والتاريخ. لأنهم ينتمون لأي مدينة عربية تتعرض لهجمات المليشيات اللعينة. دون ذنب لهم غير أنهم يعيشون في تلك المنطقة التي تلتهب على صفيح ساخن من الصراعات والحروب. لتقوم لفظة سياج بتجسيد الو اقع كرمزتعبيري و اقعي.

احتوى الحدث البارز داخل القصة، وهو عن رجل ما مجهول الهوية والمقام، لتتمة الثنائية الخطابية داخل المتخيل السردي داخل مدينة ما أيضًا، لا اسم لها تصويرًا لو اقع شديد البؤس، بالتعبير عن و اقع معاش بمفاتيح مهمة وشديدة الوطأة، ينفتح بها السرد بآليات فنية تعزز المتخيل السردي داخل العالم القصصي، وأمام ثنائية الرجل غير المسمى، والمدينة غير

المسماه، تواجهها ثنائية الرجل الضائع والكلب المشرد. أي بين الإنسان والمكان، والإنسان والحيوان . لتتكامل عناصر القصة في ثنائيات تستحضر دلالة وظيفة سردية نشطة وفعالة داخل مرحلة التعبيرية الو اقعية في (المتخيل السردي). بما أنتجه السرد من رؤية تفرز وتستوضح بناء المتن الحكائي، بثنائية تستنطق مآلات الو اقع التعبيري المتخم بالعجز والاحباط، والانكسار، والإنهيار التام. وسط حطام وأطلال وجوعى وموتى .أيضا جاء اختفاء الزمن والمكان في تقابل سيميائي يحسب لو اقع مفرغ من وجوده الحقيقي ومأزوم. وليس لخلل قصصي بل لإتمام البنية السردية للعمل القصصي المتشرزم في الو اقع الحقيقي المعاش. والمتقطع الأوصال من بداية العنوان سياج، ثم رجل وكلب ثم لا مكان مؤطر ولا زمان مؤرخ، لتتضافر كل تلك الإشكاليات الفنية من تبئير و اقع يعبر بإفاضة عن بطولاته الذاتية القائمة على الشخصية التي: (تتميز برؤية حادة تشحذها تناقضات الو اقع).(٤) أدت به في نهاية الأمر إلى الموت العبثي جراء دفاعه المستميت عن كلابه في الحياة والعيش. ولو ببقايا خبز والفتات و بالتضحية بنفسه ، وكرامته في استجداء الطعام لهم يوميًا، وكان اختيار الكلاب دون الحيو انات الأخرى اختيارًا موفقًا لما تتصف به الكلاب من وفاء واخلاص، وأنها رفيق الإنسان الحنون في ليالي الوحدة، والضجر، والدفاع عنه إذا توجب الأمر لحمايته. وبهذا : (يعطيها كيانًا بشريًا ينطوي

على رمز عميق).(٥) لذا جاء ضمور المكان والزمن في الحكاية، ليطرح بناءًا إبداعيًا أثرى تأويل الخطاب القصصي. بالتعبير عن و اقع بائس موجود بالفعل، ليس فقط في تلك القصة القصيرة بالذات بل هو و اقع موجود في كل بقعة في كل العوالم العربية. وربما غير العربية التي تجتر آثار الحرب ومظاهرها، ونتائجها البشعة. وقد تعززت هذه الرؤية داخل المتخيل السردي الذي أشار إلى ذلك المحك المهم حين أشار قائلاً: (أما الزمان فهو اطارغير محدد بتاريخ ، إنه الزمن الداخلي الحر الذي ينتقل بين جميع مستويات الزمن ، فيبدأ من الوهم لينتهي إليه فهو يبدأ من لحظة التخليق الخاصة حينما يقرر الراوية، أن يسوغ اسم).(٦) ليسوغ وبالتحديد في قصة سياج: قصته المعنونة اسميًا ومضمونًا بوعاء خطابي ذاتي وموضوعي في نفس الوقت، لأن السياج طال الجميع بالبؤس الو اقعي لكل العوالم البشرية، والحيو انية، والنباتية دون تجنيس أو تأطير زمني أو مكاني. وتحقق ذلك من خلال تخييل سردي مفعم بو اقعية تعبيرية حادة الرؤية، لكنها تمتلك شفافية عالية وقاسية، وهذا هو المناسب لو اقع مزري مثل و اقع سياج، الذي أتى في نهاية القصة كشكل جنائزي كتعبير من الكلاب على الحفاوة بالرجل، والحزن، والحسرة عندما مات الرجل الذي كان كل ما لهم في الحياة . بعد أن أتم مهمته التخييلية السردية في بداية ووسط القصة.

ملاحظة أخيرة في حضورإبداعي لقصة سياج. يوجد تعالق ولو ضمني إلى حد ما. بين دلالة الاستهلال، وبين التوظيف السردي داخل مقترحات المتخيل السردي، إذا ما جاز لنا هذا التأويل عن رؤى النص القصصي المفتوحة على انشغالات النص المنغلق على نفسه في بؤرة الشخصية والحدث، بينما الطرح ينسج وتيرة هائلة من التأويلات، مع ضبابية ظهورو اقع زمني أو مكاني بارز في أرضية و اقع المتن الحكائي. والذي به يستخدم قيمة التناص من عبارة (جلال الدين الرومي)_ (حين تعثر على الجمال في قلبك ستعثر عليه في كل قلب). والتي تفسر آلية استخدام ثنائية التضادات بين الجمال والقبح. و انتصار الجمال مهما بلغ سوء وشكل القبح، فالجمال موجود في كل قلب حتى وسط الدمار، والفقر، والجوع لأنه ينبع من قلوب لا زالت نابضة بالمشاعر، والحب، ورغبة العطاء حتى في أشقى حالاتها الو اقعية، التي فرضتها تعبيرية و اقع موجع، ومخرب تمامًا بسبب المليشيات الارهابية. وذلك عندما وهب هذا الرجل المثخن بجراح الحرب حياته، لإطعام الكلاب ومحاولة البقاء على حياتهم بكل السبل والطرق.فالفقر الحقيقي هو فقر الأرواح، وليس مظاهره الشكلانية من هيئة وملابس وخلافه من أشكال المظاهر الخارجية. فالجمال الحقيقي ينبع من الداخل من داخلك أنت. وعندما تعثرعليه ستجده في كل قلب، ولو كان في وسط الخراب، والدمار، والضياع والتشرد. أي بمعنى شامل

أن القبح التام الذي يواجهه الجمال بكل مقايسه واستعاراته الداخلية الصادقة والفاعلة والباقية باق وخالد. مهما تكالب عليه قبح الأشخاص، والمكان، والزمن أمام وعي عال بالمصداقية وتأمل الأمور. وتتوالى القيمة التعبيرية في قصة مقام ملعون لتندرج تحت مرحلة التعبيرية الرمزية كما أشرت في بدء القول.لنطرح سؤالاً إشكاليًا مهما عن: (كيف تكتمل الدائرة السردية التي تبدأ وسط العزلة واليأس وتنتهي فيها؟).(٧) هذا السؤال الفني في قصة مقام ملعون، التي تحكي عن فتي يحاول الوصول إلى والده في الغيط في قريته الصغيرة بأسرع وقت ، لكنه كان لا بد (أن يعبر تلك الحارة الضيقة الملتوية، لكن الجميع كان يخاف من عبورها في الليل والنهار). لأنه كان عليه أن يمر على هذا المقام الملعون الذي يُحكى ويقال أن لعنته أوغرت قلوب الجميع من أهالي القرية بالخوف والرهبة والخشية، حتى من مجرد المرور بجانبه : (وهو المقام الوحيد الذي لا يقام له مولد ولا يتداول أي كرامات حوله ، فقط لا يتذكر عنه سوى المصائب). ورغم إصرار الفتى محادثًا نفسه قائلاً: (لن أنظر يمينًا أو يسارًا فقط سأمضي في طريقي ، وعيني على ما يقف أمامي). إلا أن شعور قوي بالقشعريرة والوجل يأتيه كلما اقتربت أنفاسه من المقام الذي يتوسط الحارة. قبل أن تصل قدمه ليتذكر تلك اللعنه الذي تصاحبه ، وخاصة أنه حاول الكثير من قبل إزالته لكن (لاحقتهم لعنات

ظلت تتعاقب في أسرهم أجيال أجيال وراء أجيال). من عنوان القصة تبدأ تيمة التعبيرية الرمزية الذي يوحي بسرد يفصح عن لعنة ما. توجد في قرية ما غير مسماه أيضًا. كسابق العهد في القصة السابقة عن عدم ذكر أسماء أي كائن حي أو شئ مادي . وبدون تاريخ أو جغر افيا محددة. غير أن الحكاية تقص لنا عن وجود مقام ملعون في بقعة جغر افية ما، وفي زمن ما احتوتهما المتخيل السردي للقصة. ومن عنوان القصة مقام ملعون تبدأ تيمة الو اقعية الرمزية الذي يُوحي بسرد معبر عن مكان ما يوجد في قرية، وهو مقام ملعون. وفي وقت ما يتضمنه المتخيل السردي على لسان فتى صغير يحاول الوصول إلى والده في الغيط في أسرع وقت. ليقدم إجابة غير شافية داخل الدائرة السردية المنغلقة. وعن كيف تكتمل الدائرة السردية التي تبدأ وسط فتى منعزل حائر يشعر بالخوف، واليأس بمفرده، ويحاول عدم الاستسلام من أجل تحقيق مراده الطبعي، والمنطقي في دوران السرد التخييلي .. فقط وجوب الوصول إلى والده سريعًا لكنه: (أسير صوت داخلي يستنفر فيه عمل المخيلة، ويفرض عليه.) _ (ويلجأ أحيانًا أيضًا إلى "اختلاق" حالات خاصة به),في (محاولة يائسة للهرب من الو اقعي وتوغلاً أبديًا في المتخيل ومن هنا يلجأ إلى نسج حكاياته الخاصة).(٨) ومن ثم (فيتحول الافتراض السردي إلى حقيقة سردية).(٩) بمعنى أن القصة تفترض افتراضًا سرديًا أنه يوجد مقام ملعون يحاط بالحجب

والأسرار ، التي جعلت منه مقام مخيف يثيرالرهبة، والقشعريرة، ويتجاوز الأمر، بأنه يصب اللعنات لمن يحاول أن يزيله، أو حتى يتجرأ بالمرور بجانبه للامتثال أمامه، لأنه يخيف ويؤذي أي شخص مهما كان قدره، وهذا الافتراض السردي المغاير تمامًا عما هو مشاع ومعروف عن كل المقامات الأخرى، التي يستأنس بها أهل القرية، ويقيمون الموالد والاحتفالات بجوارها. (وهو المقام الوحيد الذي لا يقام له مولد ولا يتداول أي كرامات حوله ، فقط لا يتذكر عنه سوى المصائب) كما ذكرنا من قبل وقد (سمع الفتى الكثير من الحكايات عن صاحب المقام). وثنائية تناوب السرد هنا تأتي بين الشخصية، والمقام الملعون الذي يحدث غرابة من نوع ما تتسم ببعض الغموض، والإبهام أن يوجد في الو اقع هذا المقام الملعون غير المعتاد، والمتعارف عليه عن المقامات الأخرى المعهودة في و اقعنا الحياتي، ليستخرج لنا هذا التخليق الغريب، بتعبيرية رمزية واسعة الدلالة والتوظيف في آن واحد ، فربما هذا المقام الملعون إشارة إلى حاكم ملعون ، حرب ملعونة ، فكرملعون يختبأ في جوف هذا المقام، فيمنع البشر من الحياة والانطلاق في مسارها بحرية، وعدالة، وكرامة ،وخاصة ان بطل الحدث هو فتى نقي، وبرئ السريرة، نبيل الهدف. أن يريد اللحاق بأبيه في الغيط. وحينئذ: (وتتحول فيه الشخصية إلى عنصر مستلب إزاء عالم موحش). (١٠) (إذ يقدم الشخصية المتوحدة مع

همومها حد الانكسار، والمنطوية على أزمة روحية واجتماعية ، بسبب التباين بين ما تؤمن به وتطمح إليه وبين ما هو و اقع). (١١) فالفتى يؤمن أن المقامات هي أماكن مباركة من أجل الرزق، والبركة، وجلب الخير. بينما هذا المقام لا يجلب غير المصائب ، وحتى من حاول أن ينهي اسطورته أصيب باللعنة لذاته، ومن ينتمي إليه. حيث تلاحق أسرته جيل وراء جيل، وهذه الفكرة داخل المتخيل السردي الخلاق تأتي برؤية مقهورة مماثلة لفكرة علاقة المواطن بالوطن أو الحاكم .لأن الوطن هو مسقط الرأس، والذكريات، والنشأة وتاريخ الميلاد، الذي يعيش، ويحيا فبه الشخص حياته، وحياة من ينتموا إليه، ولكن كل هذا التاريخ يتحول في ظل حاكم ملعون، أو ظروف حروب ملعونة.التي بها كينونة كل شخص، وكل شئ تتحول إلى لعنات لا تجلب إلا المصائب، والأذى والخراب الذي لا يتوقف على مصير شخص واحد، وإنما تلاحق الجميع من جيل إلى جيل. لأنها باتت لعنة، وكتلة كاملة من الشر الخبيث الذي يقع تحت طائلة المر، والعلقم في تعميق روح الاستلاب ، وضحايا جميع ذلك الوجود الملئ باللعنات، بسبب حكايات صاحب المقام المقترنة بكل الشرور، والآثام المبرحة الفعل، والمستمرة الآثر في بث الخوف والقشعريرة والارتجاف عند الاقتراب من تلك الحارة التي يقبع بها هذا المقام الملعون.

تمثل المرحلة الثالثة من التعبيرية من أبرز عناصر تكوين هذه القصص الثلاث. وصولاً إلى القصة الثالثة بعنوان (حبة) عنصر التعبيرية الشيئية. البطل هنا حبة عرق تسقط على جبين شخص ما أيضًا، دون مسمى أو تعريف، وإن اختلفت هذه القصة بتحديد المكان وهو (صحراء نجد)، وربما هذا يؤازر شيئية التكوين القصصي. حيث أن المؤلف يحكي برهافة وحساسية عالية عن حبات العرق، والتي تشكل رؤية مختلفة عن رؤى القصتان السابقتان. وإن تشاركا الثلاث في التمكين من التعبير عن و اقعه الضيق بخطاب تعبيري متنوع بين (التعبيرية الو اقعية ، الرمزية، الشيئية). التي جميعها تسير في مسار السرد الذاتي الو اقعي، والمنغلق على ذات مأزومة داخل عوالم ضيقة ذات عناصر فنية ثنائية بين الشخصية والحدث . لذلك أي شحوب زمني أو مكاني يأتي بضرورات واستدعاءات إبداعية، ابتدعتها مكونات البناء الفني الداخلي للقصص، لتعمل في دورانها الإبداعي بين الشخصية والحدث، فأهملت الخلفية المكانية والزمانية إلى حد كبير. وهذا تأويله والحديث يشير بوجه عام عن القصص الثلاث ، التي تمثل وحدة تتجانس فيها حساسية عالية للمبدع والتعبير عن و اقعه برؤى متنوعة ، والتي تصب في ر افد واحد من التشكيلات التعبيرية. وهذا يؤكد التالي : (لقد شحبت الزمانية والمكانية ، وبدت عبارة عن حالة سر ابية بتجربتها الشخصية ، وهي تتضور ألمًا منها ، دون أن

تستطيع كشف حدود عالمها ، وهذه حالة مسوغة بالنسبة لشخصية ضبابية ترى ولا تفسر إلا بحدود ضيقة ، وهي تر اقب انحسار دورها ، وانعدام أهميتها).(١٢) تبدأ قصة (حبة باستهلال إبداعي : (ندت حبة عرق على صفحة جبينه وبدأت تنسكب في خيلاء ، ومالت في طريقها لتسلم على عينه، فإذا حبات عرق تترا تريد اللحاق بها، أسرعت الخطى، تريد الاحتفاظ بريادتها كأول حبة عرق).

في تلك الرحلة الذاتية لتلك البطلة المكافحة، لكي تبقى، وتحيا، وتحاول الصمود والصعود (لتحقيق حلمها في أن تلقي بنفسها فوق وردة لترويها). وهي تصعد السلم من بدايته أولاً : أن ندت على صفحة جبين شخص ما ، وتحتفظ في حقها بالريادة كأول حبة عرق ندت على جبينه . ثانيًا : تحاول الهروب من سياط الشمس اللاهبة بالاختباء تحت الملابس ، حتى لا تتحول إلى مجرد بقعة في ثوب ، وتفقد فرصتها في تحقيق حلمها الكبير أن تلقي بنفسها فوق أي وردة لترويها ، ثالثًا: تعيش حالة من التلصص، وهي تستكشف المكان من حولها حتى لمحت على البعد بستان ورود . فحمدت الله على هذه المفاجأة، والصدفة السعيدة وسط صحراء نجد القاسية . رابعًا: تأهبت، واستعدت، وتهيأت لالقاء نفسها على بستان الزهور.خامسًا وأخيرًا : بنهاية باردة وحاسمة أُهدرت كل كفاح، ومجهودات هذه الحبة المائية البطلة، بأن فجأة انحرف صاحبها عن البستان.

ولا ندري إلى أين ولما ؟! لنعود إلى السؤال الذي نطرحه من خلال المتخيل السردي (ماذا يكشف المسار المزدوج للسرد في هذه القصة) ؟(١٣). لتكن الإجابة التي منها سننطلق بالإجابة بالتطبيق على نموذج قصة حبة التي تُحكى من خلال (إطار سردي و اقعي مغلق / وينطوي هذا الإطار على بؤرة حكائية متخيلة تجهد بأن تتدفق وتتكون ضمن ذلك الإطار ، دون جدوى ، وتنتهي بأن تغلق هي الأخرى).(١٤) (ولذلك فإن كلا مساري السرد الو اقعي والمتخيل ينتهيان إلى النقطة التي بدأ منها ، مما يمكن القول أن المسار السردي في هذه القصة هو مسار دائري مغلق لأن العالم الذي يتكون فيه نسيج القصة ضيق لا يسمح بازدهارالمتخيل).(١٥) وهنا في قصة حبة: السرد الو اقعي الشيئي يسير في مسار مزدوج بين حبة العرق، والشخص الذي سقطت على جبينه تلك الحبة الر ائدة. في أنها أول حبة ندت على جبينه ليتحول هذا الشئ إلى بطل أي حبة العرق، وتواصل صعودها السردي لمحاولة البقاء، والفوز بالحياة على وردة ترويها. فهذا مجدها ورجاءها الأخير الجديرة به، وتستحقه، وتتمرد على أن تكون بقعة في ثوب هذا الشخص النكرة غير المعرف باسم أو صفة، وتزول مع الاغتسال داخل ماكينة تنظيف الملابس، وتندثر اندثارًا مجحفًا دون أي اعتبار وقيمة لها في حياتها القصيرة. لذا فمكانها الحق والمستحق هو بستان الزهور، لكن للأسف الرجل انحرف لمكان أخر عن

بستان الزهور، وحطم أحلامها وطموحها بكل برود وقسوة، وقضى عليها تمامًا ، بذلك يوضح البناء الفني للقصة أنه مسار دائري مغلق نسيجه حبة عرق تترقب الوصول إلى بستان الزهور، وتفشل في الوصول إلى ما تطمح إليه وينغلق مسار القصة بذهاب الرجل إلى مكان غير معلوم لنا، وحدث هذا بصدفة قدرية دون قصد أو تعنت من الرجل الذي لا يستوعب معاناة هذه الحبة المسكينة الطموحة، التي ندت على جبينه دون قصد في أول الأمر، وتطورت حياتها ورحلتها معه بالذات وازدهر تمردها وكفاحها، وهذا الأفول والفناء لحلمها المتعلق بوجود هذه الحبة، وبالتالي توقف نسيج المتن الحكائي عند انحراف الرجل فجأة، ولم يسمح بأي ازدهار للمتخيل السردي أن يستمر. وإن كان هذا لا يعوزه أو يحتاجه فالدائرة السردية اكتملت رؤيتها الداخلية العميقة، التي بها مكنت شيئية السرد الواقعي إلى تعبيرية شيئية يقظة، ومؤثرة داخل الوجدان القصصي، والتي بها ظهر (أسلوب السرد الذاتي ، الذي يعتمد على راوي يقدم الأحداث برؤية ذاتية داخلية).(١٦) بأن يقوم ب : (تضخيم جزء من العالم المعاش ، وتسليط ضوء حاد عليه).(١٧) ورغم ضمور الحكاية المعنية في القصص الثلاث ، فإن هذا لا يقلل من تنوع الرؤى الخطابية، التي تحتوي على وفرة فنية في الرؤية الداخلية في القصص الثلاث سواء للبشر، أو الحيوانات، أوالأشياء كما توضحت في قصة سياج بتلك

العلاقة الشائكة بين الرجل، والكلاب، وفي قصة مقام ملعون بين الفتى، والمقام الملعون، وفي قصة حبة بين الرجل، وحبة العرق تحت نير وعي سردي تعبيري و اقعي، ورمزي، وشيء داخلهم متخيل سردي حافل بالرؤية الداخلية المتعددة الرؤى والواضحة المسار السردي الذاتي، وقد تم تفعيل الكتابة الإبداعية بمشاعر و انفعالات حية، ومتأججة تنبض بحس إنساني، ورهافة حسية مفعمة بالهموم، والتوغل في إجادة عناصر بناء فني متماسك، ورشيق الحكي. في القصص الثلاث دون استثناء واحدة عن الأخرى . فيما يمكن أن نطلق عليه: (وهو حساسية الرؤى و انغلاقها على عالم ضيق تنطوي فيه مشكلات العالم الأوسع، أو بعبارة أخرى ، نموذج مصغر لذلك العالم).(١٨) لأن النظرة وتأمل العالم من مهمات المبدع، التي تؤدي به للحظات استكشاف العالم الذي حوله بنظرات مغايرة عن نظرة الإنسان العادي. الذي تسير أمورحياته دون ملاحظة أووعي كبير، لانشغاله بالقشور، والنزعة الاستهلاكية دون نظرة الفنان والمبدع، ليؤكد المتخيل السردي ذلك بقوله: (إن أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي إلى العالم لا يمكن أن يكون تامًا . فالنظرة إلى العالم هو الشكل الأقوى للوعي).(١٩) مما يفسر: (أن النظرة إلى العالم هي تجربة شخصية عميقة يعيشها الفرد ، وهي أرقى تعبير يميز ماهيته الداخلية ، وهي تعكس بذات الوقت مسائل العصر المهمة

عكسًا بليغًا).(٢٠) فالرؤية الداخلية داخل القصص الثلاث عكست عكسًا بليغًا مشكلات عصرية نماذج: الإرهاب على يد المليشيات، والوطن الملعون بسبب وجود المقام الملعون داخل القرية؛ التي هي نموذج مصغر للمقصد الحقيقي للأمم المتناحرة ، والتي تحكمها اللعنة جراء أفعال أشخاص ملعونة. وأخيرًا حبة العرق التي تصور رحلتها المليئة بالتعب والكفاح المرير، كرحلة كل إنسان بسيط ، وأي كائن حي في هذه الحياة الشقية. فتلك النظرات الثاقبة والمتأملة للعالم بتشكيل و اقعي تعبيري على لسان شخصيات أبطال القصص الثلاث براوي ضمني يبصر، ويتأمل، ويتشكك، ويقدم شكلًا قويًا، ومبدعًا للوعي بأرقى تمثيل ذهني ومتخيل سردي متوقد.

هوامش المصدر:

١. انظر المصدر: المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة). المؤلف : عبد الله إبراهيم . الطبعة الأولى ، حزيران ١٩٩٠ . الناشر: المركز الثقافي العربي . بيروت .لبنان.

٢.المرجع السابق: ص ٣٣

٣.المرجع السابق: ص ٣٦.٣٧

٤.المرجع السابق: ص ٦٦

٥.المرجع السابق: ص٦٧

٦.المرجع السابق: ٣٧

٧.المرجع السابق: ص ٥٢
٨.المرجع السبق: ص ٥٢
٩.المرجع السابق: ص ٥٣
١٠.المرجع السابق: ص ٦٧
١١.المرجع السابق: ص ٦٧
١٢.المرجع السابق: ص ٧٨
١٣.المرجع السابق: ص ٥٧
١٤.المرجع السابق: ص ٥٧
١٥.المرجع السابق: ص ٥٧
١٦.المرجع السابق: ص٦٤
١٧.المرجع السابق: ص ٧٥
١٨.المرجع السابق: ص ٧٢
١٩. المرجع السابق: ص ٧٥ / هامش داخلي:)٣٦) دراسات في الو اقعية، لوكاش ، ص٢٣.
٢٠.المرجع السابق: ص ٧٦.٧٥ / هامش داخلي: (٣٧) دراسات في الو اقعية، لوكاش ، ص٢٣.

الفصل الثالث
نماذج من نتاجها الأدبي

جزء من رواية (محطة الثقافة) صدرت عن دار نشر الشواهين، ط١: ٢٠٢٣م ،الجيزة.

الفاصل الثامن
كوكَبُ الأُنْسِ

بدأ التخطيطُ الثّلاثيُّ بين السّتّ والباشا والصّقرِ من أجلِ علاجِ المهندس وسيم الملبوس، وأوّلُ هذه الخطواتِ أن يثنيَه عنِ الذّهابِ إلى مقبرةِ أبيه والمبيت بها حتى لا تركبه العفاريت، لم يكنِ الأمرُ سهلًا، خاصّةً أنه لا يتجاذبُ الحديثَ مع أيِّ شخصٍ حتى أمِّهِ يكون الحوارُ مقتضبًا وللضرورة: "عامل إيه يا وسيم؟ أكلت؟ غيرت هدومك؟". وإذا تجرأت ودخلت غرفته للجلوس من أجلِ تجاذبِ أيِّ حديثٍ معه . ولو عادي عن ذهابه إلى الجامعة، لأن الامتحانات اقتربت مواعيدها، أو الذهاب لزيارة أختيه، أو الجلوس معهما حين زيارتهما في بيت الأسرة، للاطمئنان عليها ورعايتها والسؤالِ عنه . يتجاهلُ كلَّ شيءٍ ويأمرها أن تتركَهُ بمفرده، ويغلقُ على نفسه بالمفتاح.

أوغرَ الصَّقرُ التّفكيرَ، وقد أحضرَ نصفَ وقيّةِ حشيشٍ أصليٍّ و أفيون (على أبوه) يستحلبُه تحت لسانه بروقان، وظلّ في منزل الأنس جالسًا على طاولة السفرة، بكلِّ أدواتِ التّنفيسِ والإغراقِ في التّفكيرِ من أجلِ وضعِ خطّةٍ لا يسلمُ منها وسيم إلّا وخاضعًا لطاعةِ أمه، والعودة إلى حياته السابقة.

لكنّ السؤالَ المعضلةَ في ذهنِ الصّقر: كيف نأتى بوسيم إلى منزلِ كوكب الأنس يا أبو الصقور؟ دخلت كالعادة؛ لأطمئن على أحوال جيجي، وأصحبها معي لحضور حفل موسيقى كورال على المسرح، وعلى غرة، دون أن أنتبه أمسك بتلابيب الجاكت من كتفيّ، وصرخ عاليًا، وقد انفجر دخان سيجارته الملغمة في وجهي كاملًا قائلًا: نعم وجدتها قططي.. قططي هو الحلّ. ثم أجلسني وحيّاني بسيجارةِ مارلبورو أحمر مستورد، ثم ظلَّ يثنى على طيبتي وأخلاقي، ويطبطبُ على ظهري قائلًا بحنان: "والله راجل محترم يا قططي. لا شفنا ولاسمعنا أي وحش منك، أو عنك. يا فنان البندركله، وتوالت تحيّات السجائر الغالية، حتى وضعها أمامي بولّاعة، واستطرد: براحتك يا قططي هي سجائرك من دلوقتي. ولا يهمك. ونزع ورقة بيضاء من الكرّاسة التي يعملُ بها السّدادة (الكتينة) للفِّ السجائر، وأخرج قلَمًا من جيب في جلبابه عند مقدِّمةِ صدرِه يضعه دومًا بجانبِ محفظةٍ صغيرةٍ بها البطاقة ورخصة القيادة، أمّا سيّالة الجلبابِ فهي للتموين، هكذا يُسمّي ما يدخرُهُ من محفِّزاتِ نشاطه، تموين العقل

والنشاط، وبدأ يخطُّ ويشرحُ كمن يخطِّطُ لعمليّةٍ إجراميّةٍ صعبةٍ.

أجادت سالي المشهدَ الدّرامي بأن ذهبنا سويًّا إلى المقابرِ بحجّة زيارة أبيها المتوفِّي لزيارته والتأنُّس به، لأنه يوحشها وتفتقدُهُ، نفادي الأقرع المتزوّجُ من أربعةِ نساءٍ بأولادهم الثلاثة عشرة ينعمون بملذّاتِ الحياةِ بالصعلكة والفهلوة، والسرقة بين حرامية غسيل، ودلالة تضربُ الودعَ وتبين زين، وخاطبة تدخلُ البيوتَ لتوصِلَ حبالَ الزّواجِ والقسمة والمكتوب في الحلال، والرابعة فتاةٌ صغيرةٌ في دورِتُعلّم إحدى مهنِ ضرَّاتها الثلاث.

وإمعانًا في تمثيلِ الدَّور، أهداها الصقرُ حبةً منوّمةً حتى يكونُ الإغماءُ حقيقيًّا، وليس مفتعلًا فربما لا تتحمّلُ طولَ مدّهِ النوم، وتفيقُ ولا يدفعُ هذا وسيم بنقلها بسيّارته إلى منزلِ الأسرة، كان هذا بمثابةِ امتحانٍ في مدى قدراتي على فنِّ التّمثيلِ الذي أشاهده ليلَ نهارَ مع مطاريدِ الفنِّ أثناء البروفاتِ وصولًا إلى العرضِ النهائيّ، وقلت لنفسي: هذه فرصتُك يا قطقي ما دمت لا تحصلُ على الفرصةِ على المسرح، مثل على مسرحِ الحياةِ من أجلِ إنقاذِ هذا الشابِ الوسيم.

وقد وجدتني أصرخُ وأولولُ مثلَ النِّساءِ على سالي المغمَّاةِ عليها بجوارِ الحوشِ الذى يقطن به وسيم، في بدايةِ الأمرِ لم يهتمْ بالصياحِ رغم أن كان فضاءُ المكان خالٍ من البشر، فقد حضرنا في الصباحِ الباكرِ قبل أن يرحلَ إلى بيته، ويبدو أنه كان نائمًا،

فما كان لي إلّا أن أحضرت طوبةً، وظللتُ أطرقُ على البابِ الحديد، وقد لمحتُهُ نائمًا على إحدى الدككِ الخشبيّةِ أمام الشاهدِ مباشرةً، واستيقظ أخيرًا مفزوعًا مستفهمًا، وظلّت سالي نائمةً بعد أن حملناها سويًّا إلى داخلِ الحوش، نحاولُ إفاقتها دون أملٍ، حتى أقنعتَهُ أن يعملَ لي معروفًا، ونعيدَها إلى منزل والدتها.

ونجحتِ الخُطّةُ، ودخل المهندسُ وسيم الملبوس، منزل كوكب الأنس، ليتبدَّلَ مصيرُهُ نهائيًّا في الحياةِ، ويشهدُ ذلك اليوم ميلاده الجديد مع حياةٍ أخرى تمامًا، ويتحوّلُ قدرُ هذا الشابِّ الوسيم إلى مصيرٍ مختلفٍ بتاتًا عن كلِّ ما عاشه، ورسمتْهُ له أسرةُ عيّاد المبجّلة.

واستعاضَ بجلسةِ المقابرِعند مدفنِ أبيه، بالجلسةِ مع الصقر والباشا أحمد فريد أحد معارفه المقربين اللذين كانا في انتظاره، بينما سالي ظلّت نائمةً لعدّةِ ساعاتٍ من مفعولِ حبّةِ الصقرِ الجهنّميّةِ، ونصحت أمها بتركها نائمةً؛ لأنها تعرّضت لصدمةٍ من كثرةِ الحزنِ على أبيها المتوفّي، وتحتاجُ إلى الرّاحةِ والاسترخاءِ لا أكثر.

وانفتح مندلُ الأنس والفكاهة والتّعارف وطعام الإفطارِ الذي امتدَّ إلى الغذاء. حينذاك استيقظت سالي وبدأتِ الوصلةُ الثانيةُ بين الطرفان والشكرِ والتودّدِ على ما صنعه معها من جميلٍ بنقله بسيارته وإنقاذِ حياتها.

شعر وسيم بالإرهاقِ الشّديدِ من هذه المسرحيّةِ الطّويلةِ التي فجأةً قذفت به وسط أناسٍ غرباءَ يتحدّثون ويتعاملون معه بلطفٍ ومودّةٍ، وكأنهم على معرفةٍ به من سنواتٍ بعيدة، وقد تألّفتِ الأرواحُ وتقاربتِ الأمزجةُ و انسال أطرافُ الحديثِ من وسيم الحزينِ الصّامتِ المكفهرّ البارِدِ المشاعرِ تجاه كلّ شيءٍ من عاطفة أو جنوحٍ، وقد تولّى الصّقرُ وضعَ حبّةٍ أنعشته وفتحت مسامَ الأعصابِ، وأخذ يتحدثُ وينطلقُ ويضحكُ، وقد تحوَّلَ بها إلى شخصٍ آخرَ تمامًا، ثم جاءت سالي لتضيفَ النّعومةُ والرّقّةُ بمحيَّاها النضر، وملاكي جيجي بوجهها الباسمِ على الدّوام، تبتسم وتضحك على عودةِ الملبوس كما عادت هي من محنتها السابقة.

اعتاد وسيم الملبوسُ بالعفاريتِ جلسةَ الأنس وصحبةَ المنزل مع الصقرَ والباشا والست كوكب وسالي وجيجي بدلًا من جلسةِ المقابرِ بجوارِ مدفنِ أبيه، وقد انكشف المستورُ وأصبح واضحًا وهو يتبادلُ بكلّ فرحٍ و ابتهاجِ الحبّةِ الحمراء (الترامادول) وغيرها من البرشامات من الصقرِ بكلِّ خفَّةٍ ومرحٍ والفكاهةِ، والتنكيتُ لا يفارقهما، فلم يعد يعوزُه أن يسحقَها له في كوبِ الشّاي، وإن كان وسيم اكتفى بها دون تدخينِ سجائرِ الملوخيّةِ الناشفةِ أو المفرقعِ على رأي الست كوكب أو سجائر التّبغ المخلوطةِ بندفاتِ من الحشيشِ أو الأفيون أو احتساءِ الخمرِ أو البيرة التي كانت تخصُّ الباشا دون الدخان. فهو يرى في (المايه) أي الخمور

الغالية وجاهةً وهيبةً عن تلك الأدخنةِ المفرقعةِ أوالمخلوطةِ أوالبرشام بكلِّ أنواعه (الصراصير) كما يُطلِقُ عليه الصقرُ من مخدّرِ ابتريل، تريمادول، بورنكلاز، تمول، والباركنول، وغيرها من مختلفِ الحبوبِ المنتشرةِ مع أدويةِ الكحّةِ ووو....للعلاجِ وليس للإدمانِ، ولكن يُساءُ استعمالها، وتتحوّلُ لتّجارةُ رابحةً، ويُقالُ أن حوالى ١٦ مليار جنية تنفقُ سنويًّا على أدويةِ الكيفِ والجنسِ في مصر، وخاصّةً الحبّةِ الزّرقاءِ والحمراءِ، وإن كنتُ أجزمُ أنّ كلَّ الألوانِ تنتشرُ بكلِّ فجاجةٍ في هذا المجتمعِ المطحونِ والمقهورِعلى كلِّ المستوياتِ، ويشيرُالأطبّاءُ الأعزّاء. لامؤاخذة أصحاب الخط المستقيم عن الخط الأعوج، وهم مثل (كالأطرش في الزفة). الذين أعتذرُ لهم مني على سفاهتي، ولكنها الحقيقةُ، فأنتم يا أطبّائي الأعزّاء (تؤذِّنون في مالطة بعدما خربت)، فيقولُ التّحليلُ الطبيُّ:

(أن هذه الأدوية تسبب ضياعَ التّركيزِوفقدانَ السّيطرةِ الكاملةِ على السُّلوكيّات)، ويضيف آخر: (أنّ أدويةَ الجنسِ تعطى إحساسًا كاذبًا بالوقتِ، وتحدثُ خلَلًا بأجهزةِ الجسم، وتسبِّبُ أمراضًا خطيرةً بالكبدِ والشّرايينِ والقلبِ والذّاكرةِ ووو...) إخواننا الأطبّاءُ أصحابُ الخطِّ المستقيمِ يدعون ويتحاكَوْنَ طويلًا عن ضرورةِ السّيرِ على الخطوطِ المستقيمةِ، وهذا الإنسانُ الشّقيُّ الذي يخرجُ إلى الحياةِ بصرخاتٍ متشنِّجةٍ، ولا يتَّعِظُ أبدًا ويموتُ ضعيفًا ذليلًا.

هم يقولون كثيرًا كما هو مكتوبٌ على عُلبِ السّجائر: هاهاها (التدخين ضار بالصحة). هه هه هه. كما قرأتُ أنَّ (مليون طفل جائع في بنجلاديش. ونصف سكان البلاد يعيشون بأقل من دولار يوميًّا). هل يوجد ظلمٌ أكثرَ من ذلك؟!

أهذا ما يطلق عليه الفوضى الخلّاقة، بل مصطلحُ الفوضى الخلّاقةُ العفنُ الذي يفسِّرُ أنّ هناك نسبةً مئويّةً لا بدَّ أن نضحيَ بها كلَّ عامٍ، حتى الفيروسات والأمراض الوبائيّة مفيدةٌ لتنقيةِ عالمنا البشريِّ منَ الانفجارِ السُّكّانيّ أو من خلالِ المعاركِ التي تؤيِّدُ القتلَ والجوعَ والفقرَ جرّاءَ الحروبِ والمجاعاتِ في عوالمنا المتخلِّفةِ ويطلقون عليها العالم الثالث- العالم الأخير من بذورِ الإنسانيّة والرّحمةِ البشريَّةِ، يتصدرُها أسيادُ العالمِ ما يعني: أن لا بدَّ من فائدةٍ حتى تُخلِّصَنا من هؤلاء الحُثالة والمتخلِّفين من أرواحٍ تتكدّسُ، ليس لها من نفعٍ أو جدوى لحضورهم الوجوديّ، لكي تؤدِّيَ مهمّاتٍ ذات جدوى في العالمِ، هكذا يشيرُ لنا أسيادُنا أنّ هؤلاءِ البشرَ الملاعينَ الغوغاءَ ليس لهم فائدةٌ ولا قيمةٌ والأجنداتُ السياسيّةُ تتاجرُ بالسّلاحِ والمخدّراتِ وكلِّ الموبِقات لتخلّصَنا منهم وهم يربحون ويثْرُون على حسابِ هذه الأرواحِ الرّخيصةِ الثّمنِ بالنسبةِ لهم. يا لي من شرير! هل هذا منطقُ إنسانِ الغاب؟! أين الرّحمةُ التي زرعَها الإلهُ العظيمُ في نفوسنا، وهنا وهناك هذه العوالمُ التي تختزلُ كلَّ شيءٍ إلى بقاعٍ مظلمةٍ، بل سوداءَ قاتمة مثيرةٍ للغثيانِ

والقيء، و أنا تراودُني الأحلامُ البعيدةُ عن تلك الطُّيورِ التي تسبحُ في الهواءِ كالفراشاتِ والملائكةِ، كم كان هناك بشرٌ أسوياءُ، وكم كان هناك من أبقارٍ ترعى في المنحدراتِ وعند أسيجةِ المزارعِ الخضراءِ البريئةِ من دنسِ البشرِ عند مملكةِ الرّبِّ العظيم. يا لي من قذرٍ وحقيرٍ! يبدو أن هذا القانونَ يعجبُني من الفوضى الخلّاقة عن الحروب والمجاعات، لنتخلّصَ من هؤلاء البشرِ الهمجِ والحثالةِ التّافهين، ولن أنسى أيضًا ملاكي جيجي ستموتُ في قانونِ هذه الفوضى الخلّاقة، دومًا أتساءل لماذا؟ لماذا؟

لماذا كلُّ تلك الشّرورِ في العالم؟ لماذا كلُّ تلك السّخريةِ والاستهزاءِ بالنُّفوسِ البشريّة؟! هم يطلقون عليها الفوضى الخلّاقة وفى تلك القنواتِ الإعلاميّةِ والفضائيّةِ الجديدةِ العهدِ بعهرِها الجديد، يحجبون الصُّورَ لقتلى وجوعى وضحايا الحروبِ والانفجاراتِ وهذا الكابوس الطويل من متسوّلين ومرتزقة، ولا ننسى ألوانَ القتلِ المقصودة، مع سبقِ الإصرارِ والترصُّدِ كما يُقالُ في جرائمِ القتلِ البشعةِ مثل: حوادث الاغتصاب، ومدمني المخدرات، وفنّ التّهميش مثل فنّ الممكن في السّياسة، ومشاهد الانسحاق المُذرية بل الشنيعة.

يا لعبث ورياء ونفاق المجتمع البشريّ والعالمي! يا لسفاهة هؤلاء البشر حين يتعالون على مشاهدة البؤس الإنساني! هم يحرصون على عدمِ رؤيةِ تلك الصّورِ المقزّزةِ التي اختزلت في عقولهم إلى مجرّدِ صورٍ ولقطاتٍ شنيعةٍ، لكنها في حقيقتها

تُحرّض الفضولَ الإنسانيّ المعتوهَ على المشاهدةِ والمتابعةِ، رغم أنهم بكلِّ برودٍ يقدمون تحذيراتٍ لمراعاةِ مشاعرنا وأحاسيسنا المرهفةِ التي سوف تتأذّى لمجرّدِ مشاهدةِ هذه اللقطات والصّورِ الحيّةِ من موقعِ الأحداث، ولأن الإنسانَ فضوليٌّ بطبعه رغم القبحِ والبشاعةِ، فيظهر الوجهُ الحقيقيُّ لمشاعرِ هذا الإنسان المتطفّلِ، ونفتحها كمغارةِ علي بابا كي نشاهدَ مدى القسوةِ والعنفِ، ونصطدمُ بصمتٍ مروّعٍ أمام ما حدث، وكم تمعنا فيه بالحّسي والمادي.

هذا هو الإنسانُ الضّبعُ الخسيسُ والذّئبُ المفترسُ والثّعلبُ الماكرُ، بل وكلُّ تمثُّلاتِ الحيوا ناتِ المفترسةِ بصفاتها الثّعلبيّةِ الماكرةِ والدّنيئةِ والمتوحّشة. نعم.. كم تمنّيتُ أن أكونَ ذئبًا حقيقيًّا، لكن في نفس الوقتِ أحملُ قلبَ حملٍ بريءٍ وديعٍ مسالمٍ صافٍ، على أن تكون هيئتي ذئبيّةَ الشّكلِ، محتواها قلبٌ بشريٌّ إنسانيٌّ رحيمٌ وديعٌ كحملِ البراري وليس العكس كما للبشر العاديين المنافقين والمراوغين الذين يدّعُون البراءةَ من جوفِ الكذبِ والنفاقِ والشّراسةِ الفعليّةِ، وبداخلي إحساسٌ طاغٍ بمدى عبثِ الأقدارِ معي ومع ضحايا الفوضى الخلّاقة، أيُّ حياةٍ تلك التي منحتنا إيّاها تلك الحياةَ الملعونة!

نحن الضحايا والجناةُ في نفس الوقت، ننفِّذُ الجريمةَ الكبرى طبقًا لحيوا اتنا اللاواعية بإنجابِ أطفالٍ لا ذنبَ لهم غير أنّهم وُلِدوا بممارسةٍ شهوانيّةٍ رخيصةٍ، ولا قيمةَ لها ولا منفعةَ منها

غير تحقُّقٍ بليدٍ وإشباعٍ غريزيٍّ منحطٍّ، وفي تلك الدّقائقِ الملعونةِ حكمنا على وجودِ إنسانٍ؛ كي يعيشَ حياةً تعيسةً ومشرّدةً، ويموت لاجئًا أو رقْمًا في قائمةِ المفقودين لا أيَّ مدلولٍ له، ولمدّةِ ستّين عامًا في المتوسّطِ يعيشُ ويموتُ بلا أيِّ اختيارٍ، وذلك فقط لأننا أنذالًا وضائعين ، ولا نتبعُ غير غرائزِنا البوهيميّة غير إنسانيّةٍ بالمرّةِ، وربّما القدرُ يدخلُهُ مصادفةً قانون الفوضى الخلّاقةِ، وتنتهي حياتة إلى الأبد.

ووجدتُني جالسًا على الأرض في قبوي، وكنت أضحكُ بشدَّةٍ، حتى أنّ الدّموعَ فرّتْ من عينيّ، وملاكي جيجي، تنظر إليَّ باندهاشٍ واستفهامٍ، كانت تستغربُ وتلعبُ بالمكعّباتِ حتى أكفَّ عن هذه الثّرثرةِ العقيمةِ بالنسبةِ لها.

و أفقتُ لحالي البائسِ، وتساءلتُ من أين جاءت هذه الغماماتُ السّوداءُ والتي كأنها تسقطُ عليَّ مِنَ السّماءِ وكأنّها كُراتٍ ثلجيّةٍ، ولكنها حجريةٌ آتيةٌ من رؤوسِ كلِّ من حولي، والتقت عيناي مع ابتسامتها الوضّاءة، واحتضنتها برفقٍ وقلت: "حالًا، جيجي ساندوتشات (المكرونة) بالصلصة الحارّة. حالًا جيجي" فهبهبت تنكأُ الصّوتَ المذبوحَ: "قطة أبك.. أبك قطة.. فكدتُ أبكي من فرطِ حبّها لي، وناشدت الحيَّ القيومَ العالمَ بحالها وحالي المزري، أتوسّلُ إليه رجائي الباقي أن يبقيَها لي إلى الأبد.

نعم، هذا ما أحتاجُه الآن. أريدُ أن أهدأَ من كلِّ هذا العبث، أن أشعرَ بالسّلام، أن أتخلّصَ منكم أيُّها البشرُ المزعجون بفوضى

خلّاقة أو غير خلّاقة. هيا اتركوني في حالي.. بعيدًا عن أفكاري المنزعجةِ بكم أيُّها التافهون ... صدق سارتر "الجحيم هو الآخرون".

في جلسةِ الأنسِ اليوم انتعشنا جميعًا، وتفتّحتْ حواسُّنا والحوقلة للكابتن الصقر، وهو يجلسُ على مكتبٍ أسودَ اللّونِ من الخشبِ الزّان الأصليّ، شكلُهُ فخمٌ وعريضٌ بثلاثِ أدراجٍ عليه لوحةٌ خشبيّةٌ ببروازٍ معدنيٍّ، وضعَ عليه اسمَ كوكب الأنس، ومقلمةٌ جلديّةٌ بها أقلامُ باركر في نسختها المزيّفةِ. كان من تلك المكاتبِ القديمةِ الطِّرازِ الكلاسيكيّةِ التي لم تعدْ موجودةً، أحضره للست أحدُ تجّارِ الرُّوبابيكيا والخردة من معارفِ حبيبِ القلبِ نفادي الأقرع؛ لأنه لا حاجةَ له به فمساحةُ شقّته كاملًا لا تتعدّى السّتّين مترًا، واشتراه من مكتبِ محاماةٍ استبدلَ الديكورَ كاملًا في مكتبِهِ بطرازٍ أحدثَ.

وجلس الكابتن الصقر بكلِّ أدواتِ الدُّخانِ والكيفِ قائلًا بابتسامته الوقحةِ التي تشيرُ إلى وغدٍ حقيقيٍّ: "مبروك يا ست الكلّ" ثم يستطرد قائلًا بسخرية: "كنت كتبت اسمي يا ست كوكب، هذا بالضبط المكتب الذي كنت أتمنى شراءه منذ زمن". تردُّ بنصفِ ضحكةٍ واستهزاء: "ليه ها تعمل بيه إيه؟! ها تكتب عليه إيه يا كابتن؟" يردُّ بغطرسةٍ وحذلقة: "لأ، من أجل أن أمارس المحاماه بعد المعاش. أنا خريج حقوق. هل نسيتِ؟، ولولا تجارة أبي ما تركت المهنة يا ست يا عظيمه" وعندما نطق

الست العظيمه ردّت عليه بكلِّ وقاحةٍ بشخرةٍ طويلةٍ تصحبُها ضحكةٌ رنّانةٌ تهدرُ من صدرها وجوفها بحرقةٍ، وأشارت بهذه الحركةِ السوقيّةِ التي أصبحت ملازمةً لها في أيِّ حديثٍ جدّي أو فكاهيّ، فلا تعرفُ هل تمزحُ أم تقولُ الحقيقةَ في أيّ موقفٍ بالضّبط ؟، وهي تستدعي تلك الشّتيمةَ أوالإشارةَ بيدها بدون مبرّرٍ في بعضِ الأحيان، وربّما نما عن عادة لا أكثرَ دون قصدِ الإهانة، فالشّتيمةُ باتت طبيعيّةً في فحوى حديثها الدّارجِ للجميعِ، ومن طول العشرةِ والتّعوّدِ تشعرُ بعدمِ نيّةِ الإهانةِ منها.

وأخيرًا تحسمُ القولَ قائلةً له بتهكُّمٍ: "محاماة إيه يا صقر أفندي!" تراجع القهقري وقال بهدوء وتراخٍ: "خلاص، بلاها محاماةٍ يا ست كوكب يا عظيمه، أحضر أصحابي، وألف عليه سجائر ماكينه و(جيهات النشاط والمزاج) المعتبر. إيه اللي فيها؟! هذا مكتبٌ عظيمٌ لأصحابِ عقولٍ جبّارةٍ، وتوزن بالذّهبِ ويضحكُ مستطردًا بسخريّةٍ لاذعةٍ: "والفضّة والنّحاس والألومنيوم والبلاستيك، وكلّ اللي تحبيه ياكوكب، وكل كواكب الأنس في السماء والأرض. الكوكب الأحمر والأزرق والأخضر..." وينسابُ في ضحكٍ شديدٍ وصاخب.

تتراجعُ الستّ كوكب إلى الوراءِ على الجلسةِ العربيّ، وتقولُ بنصفِ ضحكة: "هو في كوكبٍ أخضرَ يا مهشتك. أي نعم.. كنت عايزاك تقول كدا يا كابتن يا جبار. على العموم يا عسلية ادفع

ثمنه يا روح أمك يا محامي.. و أنا أغير اليافطه باسمك يا عم الجبار، وتشرفنا يا سعادة الباشا المحامي، ونورت مصر يا عسل".

يتدخّلُ الباشا لينهيَ هذا المزاحَ الطّويلَ ويأمرَ الكابتن بحزمٍ قائلًا: "كمل حكايتك يا زفت وكفانا وجع راس، طيرت الكاسين من برج عقلي". فيردُّ سريعًا: "حاضريا باشا بعتذر منك يا غالي يا ولي نعمتنا" ويعودُ يحكي: "أمس حدث حادثٌ لا يتكرّرُ ولا يُنسَى في جميعِ أرجاءِ البندر. أذاعتِ القناةُ المحليّةُ التليفزيونيّةُ خبرَ بمليون جنيهٍ عن السيد معالي الأستاذ عاطف متولي صاحبِ محلِّ (بانسيه) المشهورِ للملابس الحريمي، وفساتين الزّفافِ الأبَّهَةِ على أحدثِ موضةٍ، ومدير عام في هيئةِ المياهِ العموميّة: "أن من فترة تشاجر ابنه الوحيد مع ثلاثة أولاد من الجزيرةِ المرتفعةِ في منطقةِ العشوائيّاتِ، وقتل ولدًا منهم بمسدّسٍ مرخّصٍ كان يحملُهُ عند مئزرِهِ في البنطالِ من الخلفِ بعد أن سرقَه من درجِ مكتبِ أبيه، وقُبضَ على الجميعِ حتى استطاعَ محامو أبيه أن يصلوا له بحكمِ ثلاثِ سنواتٍ سجنٍ فقط، وبعد المداولةِ والمتابعةِ بين ترصدُ أهل الولد المقتول، حتى إصدارِ الحكمِ النهائيّ الذي لم يقنعْهم بتاتًا، وأمس صدرَ فيه الحكمُ النهائيُّ على ابن المديرِ العام. ليلًا قتلوا أباه بعدَّةِ طعناتٍ من أربعةِ أشخاصٍ مبيّتي النِّيّةِ كما أشار التّقريرُ الجنائيّ، ويحزقُ بشدّةٍ ويكرّرُ على قولِ مبيّتي النِّيَّةِ والقصدِ، وقد قاموا بطعنه

جميعهم، حتى يوزّعُ عليهم الحكمَ بعد أن أخذوا الثّأرَ لابنهم المقتول. وماذا أيضًا، وأشارت التحقيقاتُ أن المديرَ العامَّ في زمنِ الحادثِ عقدَ مجلسًا عرفيًّا من عائلته مع عائلةِ القتيل، وقام بدفعِ فديةٍ كبيرةٍ حتى لا يثأروا، لكنهم نقضوا العهدَ وقاموا بأخذِ الفديةِ والثأرِ بكلِّ فجورٍ، وبُغْضٍ ونحن في انتظارِ ردِّ فعلِ عائلةِ القاضي؟ على قتلِ سعادةِ معالي الأستاذ / عاطف متولي.

منذ أمس تغيّبتُ عن عملي؛ لأجهّزَ مع السّتّ عملَ زارِ كوكب الأنس بنكهةِ ووصفةِ السّتِّ من أجل تحضير الأسياد وصرفهم عن العزيزِ وسيم الملبوس، الذى لا زال مربوطًا في هدفه، ولا يستطيع أن يفكَّ ربطه وسطَ جلسةِ الأنسِ رغم تحسُّنِ حالته بتجاذبِ أطرافِ الحديث، والسهرِوالونس مع صحبةِ آل كوكب الأنس بين الكابتن والباشا وسالي بسكويت وجيجي وكوكب، وكلّ من يأتي من الفتيات، حتى كريمة الحيوانة التي من حينٍ لآخرَ تلقي بلمحةٍ ساخرةٍ عن ضعفه، وعدمِ قدرته على دخولِ المحظورِ، وتزجرها الست كوكب بالبحلقةِ حتى تلزمَها الأدبَ وإسكاتها والرجوع عن أيَّةِ محاولةٍ للإستهزاءِ بالفتى اليافعِ الذي تلبسه العفاريتُ وتربطه. وبإيعازٍ من الصقرِ والست كوكب أخذا قرارَ فكَّه، وإزاحة الأذى عن روحِ وجسدِ الملبوس وسيم، باسترضاءِ الأسيادِ وتطييبِ خاطرهم، من يوم أن ذهب وسيم إلى قبرِ أبيه، وكان لا زال حديثَ الدفن، وقد استشارت السّتّ الحاجة نعيمة الشيخة في عملِ فكِّ الأسحارِ بحفلاتِ العفاريتِ

الأسياد، فأخبرتها أن العفاريتَ لبسته ولا فكاك إلّا بعملِ زارٍ له لاسترضاءِ الأسياد، و إقناعهم بالرحيل، لكن الست كوكب (الكاريزما) لم تقبلْ باستئجارِ هذه الفرقةِ المعروفةِ في مركز (بوش) المشهورة بأعمالِ الزار وفكّها وإزاحتها عن أصحابها. أو غيرها من المراكز المنتشرةِ في الصعيدِ، وقالت: "أنا كوكب الأنس كلّه أعمله أمّ الزار و أبوه، وأصرف عنه عفاريت الدُّنيا كلّها، وأصرف أمها واللي جابوها. واد زي القمر، ويركبه عفريت في بيتي".

وخطّطت هي و ابنتها التي استهواها هذا الشابُ الأنيقُ العذريُّ بعد، والبريء من أيّة تجاربَ سابقةٍ، وقد اعتادت حديثه المهذّب ورقته، وذوقه العالي حتى وهو يمزحُ أو يسخرُ من شيءٍ تكونُ بتلميحاتٍ لطيفةٍ، وطوال رحلة عملها في منزلِ أمّها، لم تقابلْ هذا الصِّنفَ من الرّجالِ الذين يتعاملون مع العاملة في الرّذيلة بكلِّ بجاحةٍ واستقواء، ومجرّد فتاةْ من أجلِ الإمتاعِ والمؤانسة، ثم تركها كأيّ شيءٍ لا قيمةَ له بعد ذلك، إلّا القلّة منهم.

ولاحظتِ الستّ كوكب الودَّ والانسجامَ والتآلفَ بين ابنتها بسكويت وبين وسيم التي تعايرها بأنها ليست من نسلِ عائلةِ كوكب المشهورةِ بالفحولةِ والقوّةِ، لكنها في النهاية ابنتها الوحيدةُ السّليمةُ، ولا نتيجةَ مرجوةً من ملاكي جيجي المعاقةِ في نموِّها العقليّ والجسديّ، فاستعانت بها لإحرازِ الهدفِ بالدّخولِ إلى حياةِ وسيم الجديدة، والبكر من هذه العوالم، ومن أسرةٍ

كبيرةٍ وسليلِ عائلةِ آل عيّاد، المعروفةِ بين العائلات، ولا ضير بضربِ عصفورين بحجر، شفاء وسيم وحب سالي الذى بدأ يتّضحُ بتأفُّفها بأيِّ عملٍ يأتيها، واختلاقِ الأعذارِ لعدمِ الذّهابِ لأحدِ الزّبائنِ الذى يطلبها بالاسم، وتمادت بادّعاءِ المرضِ، حتى أنها تشاجرت في أحدِ الأيّامِ مع أمِّها بأنها لن تستقبلَ أحدًا في ذاك اليوم؛ لأن وسيم سيحضرُ وسيذهبان معًا للغذاء في محلٍّ جديدٍ فُتح في وسطِ المدينة، وقد تبدّلت بسكويت وأصبحت لا تتكلّمُ أو تخرجُ أو تسيرُ خطوةً غير بالمشورةِ والمداولةِ مع العاشقِ الملبوس.

كانت طقوسُ زار كوكب ستتمُّ في خلالِ ثلاثةِ أيّامٍ- اليوم الأول: اسمه طاسة الخضّة، اليوم الثاني: صرف العفاريت، الثالث: الحنّة والدخول (فك المربوط)، والعريس: وسيم، والعروسة: سالي.

أقنعت سالي وسيم دون أن تخبرَهُ بأيَّةِ تفاصيلَ، و أنه لا بدَّ أن يخضعَ لعملِ زار كوكب، حتى يشفى وينسى حزنه الشّديدَ على أبيه المتوفّي في حادثٍ صادمٍ ويعودُ إلى الجامعةِ وإلى حياته، وأصرّت واستماتت في إقناعِهِ بالقبولِ لأنه مقتنعُ بأنها خر افاتٌ ويرفضها، و أنه من يومِ دخولِهِ منزل الأنس، قد تحسَّنَ، وأصبح يلتقي الجميع، ويستقبلُ أمَّهُ وأختيه بكل أريحيّةِ و انفتاحٍ، ولم يعدْ يشكو من شيءٍ، وأن بسكويت ومنزلها أعادت له بهجةَ الحياة، أمّا عن الذهابِ إلى الجامعةِ يعلِّله بأنه فاته امتحاناتُ

الفصلِ الدّراسيّ الأوّل وسيرجئُ الذّهابَ والمذاكرةَ حتى العام الجديد، حتى تتحسنَ أمورُهُ النفسيّةُ والمزاجيّةُ، ويستطيعُ مواصلةَ الدّراسةِ عن كثبٍ واجتهادٍ؛ لأنه من البدءِ لم يكنْ يرغبُ في الالتحاقِ بكليّةِ الهندسةِ، لكنه نفّذ رغبةَ أبيه المتوفّي وسيتحملُ مشقّةَ الوفاءِ بعهده، رغم جنوحِهِ لدراسةِ اللُّغاتِ أو السياحة، فهو يعشقُ السّفرَ ومعرفةَ الآخرين، لكنه سيلزمُ واجبَ العهدِ لأبيه وأمنيته أن يصبحُ مهندسًا مثله، ورغم كلِّ هذه المبرِّرَاتِ أقنعته سالي لا بدَّ من ليالي زار كوكب الأنس من أجلِ حبّهما الغالي، فوافقَ بعد إصرارِها، واستعدَّ لليالي الملاح في زارِ كوكب الأنسِ مع أصحابِ الجلسةِ وحبيبته سالي بسكويت.

بدأ العملُ على قدمٍ وساقٍ من أجلِ الزار، وكانتِ الستّ هي الكُدية أي تجسدُّ دورَ الوسيط بين الأرواح (الجن والأسياد)، وبين الشخص المسوس. ومن قريحةِ الكودية المختوم والمخطّط له من عقلها دون عوَزٍ لفرقةِ زارٍ حقيقيّةٍ أو استدعائها فعليًّا، فهي الشيخةُ والمحرّكُ والدّينامو لعفاريتِ الإنسِ والجنّ لاستبعادِ وطردِ قرناءِ وسيم الممسوس في العالمِ السّفلي، وإزاحتهم عنه وصرفِ الأذى وفكِّ المربوطِ كما تعتقد الست كوكب، وقد أحضرت كلَّ ما طلبته مني لعمل صينية (الرضوة).

أولًا: قامت سالي بتنظيفِ غرفتها جيّدًا، وتغيير الملاءاتِ والأغطيةِ وكلِّ المفروشات، ورشتِ الملح (ملح الرشيدي) في

جوانبِ الخشبِ وتهويتها بعد مسحِها بماءٍ معطّرٍ، ثمّ وضعت بخورًا فوّاحَ المسكِ على أعلى قوائمِ جانبي السّريرِ والكمودينو والتسريحةِ قائلةً: "شهدتك بالمايه والملح تصرفهم صرفه بلا عوده".

وأمرتِ السّتّ الجميعَ الخروجَ من المطبخ، وأنهت دخولَ أحدٍ عليها، وهي تحضّرُ الصينية (الرضوة) التي تهدفُ إلى استرضاءِ العالمِ الأرضيّ (الأسياد) وإزاحةِ الأذى ممّن يغضبون عليه وأن هي من يجبُ أن تقومَ بتجهيزها لأنها بلغت سنَّ اليأسِ، و انقطع عنها الحيضُ فجأةً في سنٍّ مبكرةٍ؛ فدمُ الطمسِ نجاسةٌ يصيبُ بالمسِّ أوِ المشاهرةِ. لغيرِ المرأةِ التي لا زالت تأتيها الدورةُ الشّهريةُ، وتتمتم: "دستوريا اسيادنا، دستوريا اسيادنا" نهيًا عن ذكرِ الله أو البسملة، وتكتفي بتكرارِ قولِ:"دستور يا اسيادنا، دستور يا أسيادنا" وبعد أن أغلقت بابَ المطبخِ عليها جيّدًا، أحضرت كرسيًّا خشبيًّا من الحمّامِ، وجلست على الأرضِ بعد أن قمتُ برصِّ وترتيبِ الأشياءِ بجانبها كاملًا، وذهبت راحلًا عنِ المنزلِ كلّه، وهكذا فعلت سالي وجيجي، ورفعت حرارةَ التليفونِ الأرضيّ، وتعطّلُ رنينَ جرسِ البابِ ، وبدأت في إعداد الصينيّةِ العلاجيّةِ، لتضعَها في غرفةٍ ينامُ فيها الممسوسُ ليلةً كاملةً والتي جهزتها سالي في غرفةِ نومِها الخاصّةِ، وتكونُ الصينيّةُ موضوعةً تجاه رأسِهِ مباشرةً، فوضعتها على الكمودينو المجاورِ لنومته بعد أن أزاحته حتى يأخذَ المساحةَ الكبيرةَ للصينية المجهَّزةَ العامرةَ،

وكان هذا في ليلة الثلاثاء، هكذا حدّدتِ اليوم، وجعلته يحضرُ شيئًا من أتره، واختارت له أن يحضرَ (فانلة داخلية وسروال) مغسولًا ومزهرًا بعطْر اللافندر.

ثم بدأت بوضع كلِّ شيءٍ بالترتيب: "طبق الفاكهة، أرز معمر، أرز بلبن، خبز، طبق عسل أبيض، ٣ قطع حلويات، سكر، شاي، سجائر، فول سوداني، ٣ شمعات، ديك أبيض، وآخر أحمر، إبريق به لبن، برّاد مياه به قطرات من ماء الورد، زجاجة بها ملح، فوطة وش، صابونة ريحة، صابونة غسيل، أوراق نقدية من فئة الربع جنيه وخمسين قرشًا ورقية بما يساوي عدة جنيهات لا تتجاوز الثلاثة، وعلى طرف الصينية وضعت الفانلة والسروال الداخلي النظيف والمزهر من (الأتر) للملبوس."

ثم تأهَّبَتْ بكلِّ جدِّيَّةٍ ووقارٍ تتلو نصَّ الاستحضار- أي استحضارُ الجان، بعد أن تأكّدت أكثر من مرّةٍ أن الصينيةَ استوفت شرطَ الصّرفِ- أي كاملة دون أن تنسى أيضًا أن تشعلَ الشمعات الثلاث حول الصينيةِ المليئةِ بالهبات والعطايا من أجلِ الرُّواد والأسياد لإرضائهم، وزوَّدت عليها ما يشبه المكحلة النسائيّة بالبخورِ المشتعل، والموجود من أمسِ وقت انتهاء سالي من تنظيفها وتهيئتها لوسيم الملبوس، بينما هي تنتقلُ للمبيتِ في غرفةِ نومِ أمِّها، حتى لا تزعجَ الأسياد، وحضورهم.

وجلستِ السّتّ باستقامةٍ على السرير، وبدأت تتلو النّصَّ الذي تحفظه: (يا سكان العرش/ يا سكان البيت/ يا جعير يا مرات

الغفير/ تحضره وتجيبوه لفلان بن فلانه/ داعيناكم لمرضاته... ترضوا عليه/ تاخدوا عافيتكم.. وتدوه عافيته/ تجيبوا عميانكم وتشيلوا مكسحينكم/ تحضروهم وياكم لفلان ابن فلانه/ تجيبوهم من مصر من الكويت ومن أي بلد/ وانتو جايين تحضروهم/ ويا عمدة ويا شيخ تكون مراعيهم ومحاميهم/ يا اخوانه يا اللي زيه ارضوا عليه/ تاخدوا عافيتكم وتدوه عافيته).

أخذت أنفاسها وشربت بعضَ الماءَ من إبريقِ ماءِ الوردِ. كانت أحضرته حتى لا تأخذَ من إبريقِ الصينيةِ المعبَّأِ للأسيادِ ويغضبوا، وأغلقتِ الحجرة، وانتظرت حضورَ سالي التي سوف تحضرُ وسيم، ليقضيَ اليوم بكامله إلى صباحِ اليومِ التالي مثبتًا في النومة على طرفِ السّرير، والصينية في اتجاه رأسه. وقد أمرته أن يحضرَ ملابسَ داخليةٍ وجلبابًا نظيفًا يرتديهما بعد الاستحمام وتجفيف جسده جيدًا، ثم يأخذ كوزًا به بعضُ من الملح (الرشيدي) ويرشُّهم على كاملِ جسدِهِ ويرتدي ملابسه، وينامُ في الغرفةِ، ينتظرُ حضورَ الأسيادِ، ويتناولون من مائدة (الرضوة) حتى يرضخوا ويحضروا إخوانهم.

وفي الصباحِ بعد مرورِ ليلةٍ كاملةٍ على بقائِهِ في الغرفة، دخلتِ الست كوكب بمفردها دون أيِّ جلبةٍ حتى لا يستيقظَ أحدُ من بناتها، وكان وسيم لا زال نائمًا وقامت تتلو نصَّ الانصراف وطرقت بخفّةٍ على وجه وسيم بالصّمتِ والهدوء، حتى تصرف

الأسيادَ، وتذهبُ معه إلى مدفنِ أبيه، ثم جلست بجواره على السرير، وبدأت تتلو نصَّ صرفِ الأرواح: (انصرفوا ... انصرفوا / يا جعير يا غفير.. يا مرات الغفير/ يا رحاله... يا عُمي، يا مكسحين، انصرفوا يا نسوان يا بنات يا صبيان، شيلوعميانكم وياكم، وتعودوا وعميانكم وياكم، زي ماجيبتوهم تاخدوهم، وشيلوا مكسحينكم، وتداووا كبيركم ... وترضو صغيركم، وان معاكم أعمى دلوه على الطريق، وتصرفوهم مكان ماجيبتوهم، وزعوهم على مصر ....، جبتوهم توزعوهم على المطار، على الكويت، على السعودية، على أي مكان، ويا عمدة ويا شيخ ويا قاضي، إنتو احكموا بينكم وبينهم بالعدل، احكموا بين الحي وبين اخواته المخفيين، واظهروا الحق، تصرفوا لهم عافيتهم، وانتو تاخدوا عافيتكم، من إخواتكم... من أولادكم... وانصرفوا.. انصرفوا).

وأنهتِ التعويذةَ وأخذت نفسًا عميقًا، وشربت من إبريقها أيضًا دون أن تلمسَ إبريقَ الأسياد، ثم أخرجتِ الصينيّةَ ووضعتها على السفرة، وارتاحت قليلًا، ثم أمرتِ ابنتها بالاستيقاظ والاغتسال لتناول الإفطار من صينية الرضوة بعد أن أزاحت على الجانب علبةَ الملحِ الزجاجيّةَ وبعضَ الخبز، وطبقَ اللّبنِ وإبريقَ المياهِ المليءِ بماءِ الورد، وتناولوا ما تبقّى من مشهّياتٍ وأرزٍ وفاكهة.

وبعد الإفطار أمرتهم جميعًا بتنفيذِ الأوامرِ بصمتٍ وهدوءٍ تامّ، وقد تلبّستهم حالة من الخضّة والخوف أن الأسياد من أرواح الجن، حضروا وتناولوا، وانصرفوا هكذا بدون أن يشعروا بشيء.

ثم ارتدوا الجميع ملابسهم استعدادًا للذهاب إلى مدفن والد وسيم، وضعت الست كوكب طبق اللبن في زجاجة بلاستيكية حتى لا ينسكبُ، وأخذت الخبز المتبقي، وزجاجة الملح. وماء الورد في حقيبة بلاستيكية ومرت عليّ بعد أن وضعت صينية الرضوة أمام باب البدروم الذي أعيش فيه، وأخبرتني أن أتناول منها ما أريد، وأتركها هكذا لمن يريد أخذَ شيء، لكنني رفضت تناول شيء.

فانطلقنا بسيارة وسيم ، بعد أن ألححت على الذهاب معهم إلى المقابر باعتباري اليد المنفذة لكل التعليمات ، والوصايا من الست كوكب ، والصقر؛ فكيف يفوتني هذا الحدث الجلل ، وهناك قمت بفتح المدفن ثم شربت الست كوكب قليلًا من ماء الورد، ودفنت زجاجة الملح إلى جوار رأس الميت، ثم أفرغت زجاجة اللبن في الطبق الذى كان فيه في السابق ، وأرغفة الخبز المتبقية ، وقامت بوضعهم بجوار القبر، للقطط وغيرها تلتهمها قائلة: (خذوها هدية، وامنعوا الأذية)، ثم وقفت على قبر المتوفّي بعد أن أغلقته مرّةً ثانيةً، لتعتذرَ عمّا كان من ابنه من إقلاقِ نومته أثناء الحزنِ والبكاء والتحسُّرِ، وهو متكأ على قبره

الحديثِ قائلةً بجانبه :(يا فلان أنا اتهيألي هنيات / و أنا جيت بيني وبينك الملح / تصفى وترضى عليًّا / أنا ما أقصدش الزعل بينا / أنا جيت أزورك ... تسامحني / تديني صحتي وعافيتي).

ثم نثرت مياهَ الوردِ على القبرِ، واحتفظت بجزءٍ من ماءِ الرضوةِ؛ ليستحمَّ به وسيم في الموضوعاتِ التي يستشعرُ بها آلامًا في جسده. مر اليوم بكامله ونحن جميعًا تحت طوعِ وسيطرةِ الستِّ كوكب دون حديثٍ أو تعليقٍ على أيِّ شيءٍ، كما أمرت بقلّةِ الكلامِ وتنفيذِ ما تطلبه بهدوءٍ وسلاسةٍ، حتى وصلنا إلى المنزلِ، وعدت أنا إلى عملي في الكائنِ العملاقِ، وعاد وسيم إلى الاستحمامِ بما تبقّى من ماءِ الرّضوةِ والاستجمامِ والنّومِ حتى ميعادِ الحفلِ الكبيرِ الذي سيعقدُ بقيادةِ المايسترو الصقر في الجلسةِ الصيفيّةِ الموجودةِ في السُّطوحِ التي بدأت بمجرّدِ أن عادت سالي وجيجي، وصعدا لتنظيفها وترتيبها و انتظارِ الصقرِ لجلبِ آلاتِ الحفلِ التي تعهّدَ بإحضارها، وتهيّأتِ الجلسةُ بمقاعدَ طوليّةٍ من الوسائدِ المبطّنةِ بالقطن والمغطّاةِ بمفارشَ مصنوعةٍ من الخيوطِ المحاكةِ يدويًّا تشبهُ الكليمَ البلديَّ المنسوجَ من الأليافِ المتداخلةِ الألوانِ من الأحمر والأسود والأبيض والذهبيّ، وسجادةٍ كبيرةٍ و اثنتين من النرجيلة، ومنقد المعسّلِ والفحمِ والأحجارِ لدفسِ الدُّخانِ بها وكاسيت وسمّاعاتٍ كبيرةٍ حديثةٍ أحضرها الصقر، أمّا آلاتُ الحفلِ استأجرها، وكانت تحتوي على طبلة وثلاثة دفوف ، ورقَّين وشخليلة.

قمت يتجهيزِ طبليّةِ الزّار بها أطباقٌ فارغةٌ ودورقُ مياه وأربعةُ أكوابٍ كبيرةٍ وحزمتي شموعٍ من النّوعِ الكبير، تحتوي كلَّ حزمةٍ على ثلاثِ شمعاتٍ طويلةٍ وسميكةٍ، و إبريقٌ به ماءٍ مخلوطٍ بماء الوردِ، وباكو من البخورِ الجيّدِ الغليظِ والكثيفِ في رائحته الفوّاحةِ مستوردٌ من بلده الأصليّ هديةٌ منَ الباشا مع توصيةٍ من جنابه العالي المقام بوليمةٍ باذخةٍ من عند أشهرِ حاتٍ في البندر (بو هاشم) من كباب وطربٍ وأرزٍ وخضارٍ ومخلّلاتٍ وسلطةٍ وخبزٍ محمّصٍ وخبزٍ طريٍّ وأربعِ أزواجِ حمامٍ محشيّ أرزٍ، وكفتة مشوية وكوارعَ مخصّصةٍ للاحتفالِ بالعريسِ والعروسةِ، وأوصى صاحبُ المحلّ بإرسالها مع الصبيّ في موعدٍ محدّدٍ إلى العنوانِ الفلاني.

وأحضر الصقرُ كهربائيًا؛ ليوصّلَ سلكًا طويلًا ممدّدًا باللمباتِ الحمراءِ والخضراءِ والصفراءِ، وأحاط بها السقفُ الخشبيُّ بشكلٍ ملتوٍ لكلِّ عامود، وارتدى الجميعُ حتى جيجي الجلبابَ سواء للرِّجالِ والعباءة السوداء للسيدات ماعدا الكودية المزعومة الست كوكب فقد ارتدت جلبابًا أبيضَ واسعًا وذا أكمامٍ واسعةٍ، وعلى رأسها طرحةٌ بيضاءُ ملتفّةٌ عريضةٌ وطويلةٌ تغطّي الوجهَ والصدرَ بالكاملِ، وكذلك الملبوس جلبابٌ أبيضُ مربوطٌ عند وسطه بحزامٍ أبيضَ عريضٍ، وعلى رأسه لاسةٌ بيضاءُ ملفوفةٌ ومعقودةٌ من الخلفِ بعقدةٍ يتدلّى منها لفّاتٌ بذيلٍ قصيرٍ.

بدأ الحفلُ تقريبًا بعد أذانِ المغرب، وأخذ كلُّ واحدٍ آلته، كريمة الحيوانة اختارتِ الشخليلة، والصقر والباشا و أنا الدُّفوفَ، واختارت الطبلةَ نشوى التي كانت عميلةً قديمةً وفتحت محلَّ كوافير، لكنها مازالت على الودِّ والمحبّةِ وزيارةِ بيتِ كوكب الأنس، وسالي بسكويت وجيجي الرّق، أمّا الصاجات وهي موجودةٌ بالأساسِ لدى الست كوكب التي تشارك كونو المختلَّ عقليًّا في بعض الأحيان، وهي تدّعِي أن هذه الصاجاتِ الغليظةَ والمكتومةَ هي من ميراثِ ورثته عن المعلِّمةِ الكبيرةِ الأم كوكب صاحبة الاسم الأصليّ، الذى استحوذت عليه لقبًا وشهرةً بين الجيران والجميع؛ تمردًا على اسمها نعمات، وهى تكرّرُالسُّخريةَ كلّما تذكّرته قائلة: "الله يكسفك ياما نعمات، يعنى مش نعمة واحدة ذى فتكات، رجوات، زفتات، الله يسامحك ياما". المهمُّ أنها تتباهى بالقول: أن هذه الصاجاتِ المعتبرةَ والنّفيسةَ القيّمةَ كانت من ممتلكاتٍ تناثرت وبيعت لفرقةِ الستّ المشهورة (بديعة مصابني) وقد اشترتها الأمُّ من أحدِ تجّارِالغوريّةِ في القاهرة، وقد أكدَّ لها أنّها صاجاتُ إحدى راقصاتِ بديعة مصابني اللّاتي تعلّمن ورقصن عندها في الكازينو الذي كانت تمتلكه وتديره في زمانها الأنس، فكانتِ الصّاجاتُ لعبةَ الست كوكب، واختصاصَها المدرّبةَ عليها.

مرّةً أخرى حتى لا يلهينا حديثُ صاجاتِ كوكبِ الأنسِ المُدَّعَى عليها بالأصالةِ من زمنِ الرّاقصةِ والفنانة الشاملة (بديعة

مصابني). نعودُ لبطلِ الحفلِ بعد أن استحمَّ الملبوسُ ببقيّةِ ماءِ الوردِ الذي تبقّى من زيارةِ مدفنِ أبيه، وتناول الحبّةَ الحمراءَ حتى يشعر بهدوءٍ شديدٍ وتنميلٍ في جسده، و انسابت أعصابه، و انطرح جسده في استرخاءٍ لذيذٍ وراحةٍ مستدامةٍ؛ فأغرق نفسه في نومٍ عميقٍ لم يجدْ له مثيلًا من قبل، حتى استيقظ على وجهِ سالي بسكويت بابتسامةٍ عريضةٍ، ويستحمُّ مرّةً أخرى ويتعطّرُ ويحلقُ ذقنه ويرتدي ملابسَ الاحتفالَ البيضاءَ المكويّةَ والمعطّرةَ والمعزّمَ عليها بالبخورِوالطّيبِ والمسكِ من يومِ أمس في غرفتها.

وتولّى المايسترو الصقر البرنامجَ الموسيقىَّ، وقد أحضر حقيبةً سوداءَ مدرجةً في ثلاثةِ أدراجٍ من شرائطِ الكاسيت، وجهاز توشيبا ريسيفر لوضعِ شرائطِ الفيديو التي قام بتأجيرهما من أحدِ محلّاتِ الفيديو المنتشرةِ للأفلام والحفلات وكلّ المناسبات وتليفزيون صغير ١٦ بوصة من منزله، يستعيده بعد انتهاء الحفل.

جلس الجميعُ على الركنةِ العربي، بينما فقط الكودية والملبوس جلسا على كرسيّين من أنتريه شقتها لزوم ما يلزم من أجل تهيئته وتدليله للراحة، وبدأ الحفلُ بموسيقا افتتاحيّة هادئة وأغانٍ خفيفة، رقصت عليها فتياتُ الحفلِ الأربع، وبدأ إشعالُ أحجارِ المعسّلِ والفحم ولفِّ (الجيهات). وتناوب الأنفاس الملغومة بالمفرقع وغير المفرقع ، وظلت هذه الموسيقا التمهيديّة والهادئة

لأكثر من ساعتين، حتى أمرني الباشا أن أهاتفَ محلّ الحاتي من شقّةِ الست كوكب، ليحضرَ الوليمةَ ولا يتأخر، وإذا تأخَّرَ أذهب لإحضارها، وبعد هبوطي للطابق الأسفل واجهني صبيُّ الحاتي باللّفائف، وأكملت فرشَ الطبليّة بعد أن وضعت لفائف العريس على صينيةٍ في أسفلِ الطبليّةِ دون فتحها ، قمت بتوزيعِ الأطباق الفارغةِ للوليمةِ الخاصّةِ بمدعوِّي الحفل، وأشعلت الشموعَ حول أطرافها، والبخور وزعتها في أوعيةٍ صغيرةٍ ملأتها بالرّملِ والتُّرابِ حتى تثبت، وصينية بها سبعةُ أباريقَ صغيرةٍ بماءِ الورد. واستمرت الموسيقا الرتيبةُ مدّة ساعةٍ أخرى، كانت فيها الكودية تتلو نصوصًا معهودةً حول الملبوس في لفّاتٍ منتظمةٍ وبطيئةٍ قائلة: "كان ياما كان في زمان ومكان / كانوا تلاتة من التلاتين / جمع شين على زين الدين عمله مأمره على الباقيين / أصل الشلو بيشبه للوه حتى حمار الزبالين / بعد ما شالو حطو وغطو ناموا وغطوا ومش خايفين / قامة قومة في عز النومة لا خلى كاف / ولا شين ولا زين / توتة توتة دي الحدوتة وادي التوتة والسامعين".

وبينما هي تتلو عليه تعويذتُها. بدأتِ الموسيقا تتصاعد بعد أن قام المايسترو بتشغيلِ أناشيدَ (الشيخ التهامي). التي بدأها بقصائدَ معروفةٍ للحلّاجِ وغيره أشهرها (يا رفاق الصبر- والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسي).

وبدأ الجميع في حمل آلته الإيقاعية، وجميعنا ينظر لبعضه، حتى نحاول الانسجام والتناغم بين القرع والطبلِ والشّخليلةِ والصّاجات والرّقِ، حتى أخذتنا حالةُ الأناشيدِ التهاميّةِ الجذّابةِ والموحيةِ بالإندماجِ كُليًّا، والرقص والاهتزاز الذي بدأ بهزِّ الرأسِ على حركةِ تفقيرِ مع الطبلة ، وتدرُّج نغمي مع الآلات الأخرى بين الغناءِ والرّقصِ، ثم الانسجام التّامّ مع الموسيقا حتى بدأنا نتمايلُ بأجسادنا يمينًا ويسارًا في حركاتٍ بسيطةٍ، والصقرُ يتولّى تبديلَ أغانٍ لحفلاتٍ أخرى لأحدِ المنشدين (أقسم بالله ليلة لن يكررها الزمان)، ووسيم يجلس في الوسط وكلهم يدورون حوله، والأبخرة في الأجواءِ المفعمةِ بالضّجيج والحركة تملأُ المكانَ بظلالٍ كثيفةٍ، وكلُّ حينٍ يختارُ المايسترو أغاني وحفلاتٍ أخرى وتتنوع الأناشيد والمنشدين، ويتصاعدُ الإيقاعُ بيننا دون وعيٍ، حتى ازداد سرعةً وعلوًّا عن سابقه، وتحوّلتِ الحركاتُ إلى اهتزازاتٍ هستيريّةٍ بيننا دون نظراتٍ واستقاماتٍ كما كنا نفعلُ في بدء الزار، والقصائدُ تهافتُ على أسماعِنا بسحرٍ ومتعةٍ جنونيّةٍ لهذه الأناشيدِ الشّجيّةِ، كأنما تطهر الأرواحَ والقلوبَ بنشوةٍ عارمةٍ لتنفلتَ الأجسادُ متحرّرةً من كلِّ القيودِ في انفصالٍ تامٍّ من أجلِ الوصولِ إلى ملكوتِ النّشوةِ العاليةِ تسبحُ في فضاءِ الأنسِ والشّبقِ الرُّوحي الملهمِ، وصولًا لقصيدةِ (ذاب الفؤاد) وينشدُنا شيخُنا: (لا النفس تبكي على الدنيا، وقد علمت أن السلامة ترك ما فيها)، ثم انتقل المايسترو لحفلةٍ

أخرى، وأخرى من طهور وزار وسبوع، وفجأةً هبَّ الملبوس وخطف الدُّفَّ مني، و انضمَّ إلى الحلقةِ في الاهتزازِ الشّديد، وقد تزايدت سرعةُ الدُّفوفِ والطّبلةِ في حالاتٍ جدليّةٍ بين الشّخليلة والرِّقِّ والصّاجاتِ، ممّا استدعى تصاعدَ الإيقاعِ للجميعِ بأداءاتٍ شديدةٍ وسريعةٍ وصاخبةٍ، حتى أسقطَ الملبوسَ أرضًا.

فما كان من الست كوكب إلّا أن صرخت فيه بشدة ليخرجَ، ثم حملته وسالي إلى غرفتها التي من قبل استدعت بها الجنَّ ليتناولوا صينية الرضوة، وينصرفوا بعد إرضائهم عن أخيهم الإنسي، بينما الآخرون عادوا إلى الافتتاحيَّةِ الموسيقيّةِ الهادئةِ، وبدأنا في تناولِ مأدبةِ الأسيادِ الفاخرةِ بالمشويَّات والأضاحيّ اللّذيذة.

الفاصل التاسع

قططي

في ليلةٍ جديدةٍ بعد ليلةِ زار كوكب الأنس، حيث كان زفافُ العروسين وتحقيق الهدفِ و انسيال ليالي العشقِ والحبّ، وقد قامت سالي التي تحوّلت إلى باكو شيكولاتة بنّي داكنٍ بدفئِهِ وحنانِهِ يسيحُ بالهيامِ والغرامِ تبثُّ عسليّتَهُ ومذاقَهُ الحُلْو في

مسامِّ وجسدِ الملبوس، وقد تحرّرَ وتهيّأَ لحبِّ فتاةٍ لم تعرفِ الحبَّ من قبل، وما عاشته ومارسته كان مجرّدَ ارتواءٍ جسديٍّ يكادُ يكونُ شيئًا أشبه بالزُّهورِ الجميلةِ، وتشرحُ الصّدرَ، إلّا أنها لا تشبعُ الجوفَ ولا تملأُ الرُّوحَ بالفتنة ولذّةِ الارتواءِ الحقيقيّ، بل هو أشبهُ بالمرأةِ البلاستيكيّةِ، أو البلاستيك على عمومه يحوى حركاتٍ آليّةٍ لأردافٍ بلاستيكية ، وتلك المرأةُ العاملةُ بالمتعةِ تتصنّعُ النّشوةَ والتأوُّهاتِ بافتعالٍ واضحٍ بين الأهدافِ على رأي كريمة الحيوانة (اقلب الزبون واخلص)، ويخلفُ ارتعاشةَ الجماعِ لينسابَ إكسيرُ الحياةِ في أوضاعٍ ركيكةٍ وقصيرةِ المدى تستهينُ بقيمةِ الحبِّ عند فراشتي سالي بسكويت المميّزةِ عن كلِّ الفراشاتِ السّاحرات، إنها أيضًا مثلُ الزّهرةِ البرّيَّةِ الغريبةِ عن تلك الأجواءِ الجاحفةِ لأنوثتها البريئةِ من طغيانٍ واستبدادِ العملِ في منزلِ كوكب الأنس، فكانت كزهرةٍ من أزهارِ الصعيدِ المهمّشِ والجائر، عيناها فاحمتا السّوادِ لامعةً ببريقٍ لؤلؤيٍّ يخصُّها عن كلِّ اللّبواتِ اللّاتي قابلتهن في منزلِ الأنس، كعيونِ هرةٍ وديعةٍ منزوعةٍ من كلِّ خصائصِ الشّراسةِ الحيوانيّةِ، وبريقُها يشعُّ أطيافٍ من خيالاتٍ مذلّةٍ مظلومةٍ من روحٍ شقَتْ بقدرِ وجودِها في ذاك الأنس الماجنِ، فتتدثرُ بغطاءٍ سميكٍ يُظلمُ على الباقي من حياتها الآتية، وهي تدَّعِي أنها نائمةٌ تغوصُ في أفكارها الحزينةِ والذكرياتِ السّوداءِ، وتشعرُ باغترابٍ حتى عن هذه الوِسادةِ القابعِ رأسها فوقها، وكأنّ

الظّلامُ بات هروبًا ونعشًا يدفن الأسرارَ الصّغيرةَ والكبيرةَ. يحتضنها من أجلِ أن تطردَ هذه الذكرياتِ السوداءَ، وتتمتمُ بغضبٍ؛ كي تزيحَها بكلِ قوّةٍ قائلةً: لا بأس، لا بأس معي وسيم الآن. معي وسيم الآن. والعاهرة البلاستيك أظنها تشبهُ تلك الشخصياتِ البلاستيك التي نراها منضبطةً في كلِّ شيءٍ الحديث المهذب، عدم الابتسام إلّا اضطرارًا، الضحكات الوقورة، التصرُّفات المتزنة، لا يرتكبون أيّةَ حركاتٍ عفويّةٍ أو تصرُّفاتٍ غيرمحسوبةٍ أو مشينة، وغالبًا ما تكون ناجحةً ومثاليّةً من وجهةِ نظرِ الآخرين في هذا المجتمعِ القائمِ على النفاقِ والرِّياء، ما الذي يشفي غليلك يا قططي في هذا المجتمع الجائر، القتل أم النجاح؟!

ولكن ماذا إذا كنت لا أستطيعُ القتلَ أو حملَ السّلاحِ لكائنٍ صعلوكٍ مثلي، إذًا حاول أن تنجحَ لأن النجاح أحيانًا يكون الوسيلةَ الوحيدةَ للهروب من الحزنِ والألم، أوِ الأجدرُ أن نقولَ من فقرِ المال، ويتحوّلُ لغايةٍ أيضًا في حدِّ ذاته، أي كرسالةٍ وليس مجرّدِ وسيلةٍ، فالفارقُ مختلفٌ من محضِ عملٍ إلى رسالةِ تحرّرٍ بها نفسك وأحزانك وبؤسك الشديد من خذلانِ البشرِوخيباتِ المجتمعِ المحليِّ والإقليميِّ والدوليِّ.

أنا أصرخُ فيكم جميعًا: أنقذوني أيُّها البشرُ الملاعين، هل من منصتٍ؟! هل من واعٍ؟! أنقذوني، إني بائسٌ و أتألّم. إذًا حاول أن تنجح ياقططي، أو مت غيظًا، وكمدًا بغبائك. نعم، أكرّرُها مرّةً

أخرى. إذًا حاولْ أن تنجحَ يا قططي، أو مُتْ غيظًا وكمدًا بغبائك، وشخصيتك الغريبة يا فلسفة.
قالت: تعرف يا حبيبي بتمنّى إيه؟
قال: إيه يا مريم؟
قالت: إني أكونَ بنت، و انتَ تفرشني.
يضحك ويقول: تقولين بنت ها.. ها.. ها، وأنا أكون الفاتحَ المقدامَ لك في ليلةِ دخلتك، وتصرخين، وتضحكين، تبكين.. ها.. ها.. ها.. ثم يصمت فجأةً، ويطرفُ في رعشةٍ مفاجئةٍ ويقول بصوت خافض: هل تتذكرينها يا سالي؟
سكتتِ للحظاتٍ وأشاحت بوجهها إلى الجهةِ الأخرى، وتولّت عنه كأنها تفرُّ إلى أفقٍ مخيفٍ، فأخذ وجهها بين كاملِ راحتي يديه، ونظر في عينيها المبلّلتين بالدموعِ وقال: لن يحدثَ، ولم يعدْ يهمُّني أيّة بناتٍ أخرى، وجذبها إلى أحضانه واستطرد قائلًا بحنوٍّ: أنا أنام مع سيدات جميلات مثلك يا سالي، أخرجوا العفاريت، والأسياد المتسلِّطة التي لبستني من حزني على أبي، وأصبحتِ أنتِ العفريتة الوحيدة التي تلبسني الآن.
قالت: أيوه يا حبيبي بالضبط، إنت بتقرا أفكاري، وجسمي. مش عارفة، وكأنك أول واحد في حياتي. فاهمني يا يا مشمهندس.
قال: لأ يا عفريته.
قالت: يعني و أنا معاك، بحس إني نسيت ولو للحظات، إني كنت بنت، وبتمنى إني أكون بنت، وتطرقعُ بيدها وهي تضحك: ما

رأيك أحضرت التايهه. بس مفيش مشكله على رأي كريمة الحيو انه: طنش تعيش تاكل قر اقيش، وعلى رأي الست كوكب، الست الكامله، والعاقله، وتضحك بشدة وهي تقلد أمها وهي تتلمز بحاجبيها وتضحك: مفيش مشكلة، ما دام لا مرض ولا موت، ولا فراق يا عسلية، ونورت مصر يا سكر مكرر قشدة عليك.

يضحكان ويجذبها إلى السرير: تعالي احكيلك عن حلم نظري، والتطبيق عليك (يا كودية) حياتي.. ها.. ها.. ها.

ويسترسلُ بصوتٍ منخفضٍ وحنونٍ كفارسٍ حقيقيٍّ:

.حلمت أنني في حجرة أثيرة بلونِ الذّهبِ اللّامع بها سريرٌ ملكيٌّ من عصرٍ قديم، تلك العصورُ المصريّةُ القديمةُ من إحدى الأسرِ الفرعونيّة، و أنا في كامل وجاهتي الملكية، أرتدي ثيابًا بيضاء وقلادةً بنقشٍ فرعونيٍّ يطوّقُ رقبتي وحزامٍ مذهّبٍ يلفُّ خِصري، وخفٍّ ذهبيٍّ بإصبعٍ عند إبهامي، و أنت كالملكة وترتدين أيضًا ملابسَ بيضاءَ محلاةً بعقدٍ بها ذلك الجُعَران الأزرقُ الذي يلفُّ عنقك بجمال الأزرق، وخفٌّ ذهبيٌّ يشبه ما أرتديه في قدميّ، نتمدَّدُ على سريرٍ هائلٍ بعمدانٍ مذهّبةٍ تحوطه ستارةٌ مخمليّةٌ بيضاءُ حو افُّها ذهبيةٌ أيضًا، وأمامنا طبقٌ كبيرٌ مزخرفٌ بتلك الرسومِ الفرعونيةِ الملوّنةِ بالألوانِ الزاهيةِ، ينفصلُ كلَّ رسمٍ ونقشٍ بخطٍّ ذهبيٍّ عن الآخر، بداخله بسكويت محشوٌّ بالشيكولاته والمكسّرات، و أنتِ بجانبي فرحة وسعيدة،

وتتعجّبين من هذا البسكويتِ المستديرِ المحشوِّ بالشيكولاتة والفانيليا والمكسّرات التي تعشقينها يا سالي، بل ولشدَّةِ الغرابةِ أنّ الشيكولاتة لم تكنْ فقط باللون البنّي الدّاكنِ والفاتحِ، إنّما بكلِّ الألوان الأخرى.

وتسمّرت نظراتُ عينيكِ أمام هذا الطبقِ السّحريِّ، وتبدأ رحلةُ الشّبقِ والإثارةِ، فتبدئين أنت بالتهامِ البسكويت المحشوِّ بالفانيليا والمكسّرات، ثم أَهُمُّ وألتقطُ الآخرَ باللون الأحمر، وأنت الأزرق، وأنا الأخضر، وأنت البني، وألوانُ اللّذّةِ تعصفُ بنا إلى حافّةِ الجنون، وأمسك يديك المصبوغتين بكلِّ ألوانِ هذا البسكويت العجيب، وأقبّلهم إصبعًا إصبعًا، ثم ألتهِمُ بقاياه من فمك الصغير، ووجهك ورقبتك وصدرك حتى أصلَ إلى تلك الحلمتين الناعمتين الأقحوانيّتين، النافرتين من تأجُّجِ الشّهوة، وأفركهما برقّةٍ، تتأوَّهين من الألمِ النّاعمِ، سخونةٌ دافئةٌ تسري في أوصالي، فأتلقّفُ بفمي استدارةَ ثدييك المتكوِّرين، ويرتفع الأنينُ حتى تكادي أن تبكي، فأحتضنك وتهمسين في أذني بولَهٍ وحزنٍ عميقٍ: ياه منذ متى وأنا أنتظرك. مرت سنواتٌ طويلةٌ وأنا أنتظرك يا حبيبي؛ لأعودَ بنتًا مرة أخرى، فأقولُ بولَهٍ، وأسفٍ عليك: أحبّك أحبّك يا أوّلَ فتاةٍ في حياتي، وآخرُ امرأةٍ في حياتي.. تقولين: قلها لي مائة مرّة، أريد أن أسمعها مائة مرّة، عشرين مرّة في اليوم، وخمس مرّاتٍ في الساعة كلّ يومٍ ، حتى أنسى اسمي، اسمي سالي إلى أن يموتَ، وأعودُ مريم مريم فقط .

إن من طبيعةِ المرءِ أن يبحثَ عن الحبِّ، كما أنّ من طبيعته أيضًا أن يحاولَ لفتَ أنظارِ الآخرين خاصّةً الجنس الآخر، وهذا ما يميّزُهُ عن حلفائه في الكونِ من الحيوانات والطيور بكلِّ أنواعها، والنباتات، وموضوعنا عن خاصيّةِ جاذبيّةِ الأشخاصِ التي تشملُ أيضًا الشّخصيّةَ الكاريزما. إنه نوعٌ من هؤلاء الأوغادِ، لكنه المستقرُّ والمستفزُّ في نفسِ الوقتِ، هناك بشرٌ لديهم حسٌّ بالكاريزما عالٍ مهما حاولتِ الهروبَ منهم، يلازمُك هذا الإحساسُ مهما حاولت الهروب والتّغاضي عنهم سواء كانوا رجالًا أو نساء ، فأنا ديمقراطيٌّ وليس لديّ أيُّ تحيُّزٍ لأحدٍ من الجنسين، وعندما أُلْقِي على شخصٍ ما كلماتِ استحسانٍ أو مديحٍ لشخصه بالذات، يقولُ بكلِّ تعالٍ: العفو هذا من ذوقك الطيب، فأصرخُ فيه بغضبٍ: يامغفّل أعتذر، هو ليس مدحًا ها ها ها، فهمت خطأ من غرورك الأحمق؛ لأنّ هذه الكاريزما ممكن أن تكونَ مدمّرةً، وتهلك كلَّ حياتك ومعهم كلُّ من عرفوك بقدرٍ عبثيٍّ وحظٍّ سيّئٍ . يتغاضى هذا المغرورُ المتعجرفُ قائلًا بفذلكةٍ: لا يهم، لا يهم، المهمُّ- أنا شخصيَّةٌ أستحقُّ الثّناءَ والمدحَ، وأنت صديقي وصديقٌ من نوعٍ خاصٍّ بالنسبة لي، تراني بعيونٍ مختلفةٍ، وأتقبّلُ منك كلِّ شيءٍ، فأقولُ له وما زال هذا الحسُّ المسيطرُ على مشاعري في تلقِّي هذه الشخصية الكاريزمية: أعترفُ لك أنك ذكيٌّ ومراوغٌ كبيرٌ.

ولكن ماذا عن قانونِ لفتِ الأنظارِ الذي أشرْتُ إليه في بدءِ حديثي، ومتى يحدثُ هذا؟! أظنُّهُ يحدثُ في كلِّ الفتراتِ الزّمنيّةِ من عمرِ الرَّجُلِ والمرأة؛ لأنه مرتبطٌ في الأساسِ بمدى شعورِ هذا الرّجلِ أو تلك المرأةِ بقيمةِ لفتِ الأنظارِ والإعجابِ، وأظنُّ هذا ينبعُ من مدى الإحساسِ بالشِّبعِ والامتلاءِ، وليس الرضا الكامل، وإن كان يشوبُهُ درجةٌ من درجاتِهِ حتى لا يشعرُ بالنّقصِ أو الغيرةِ والحقدِ والتّطلعِ لما في حوزةِ الآخرين بنظراتٍ من التّوجُّسِ والتلصُّصِ إلى التربُّصِ بهم.

لكن حين يكونُ هذا الشّخصُ ممتلئٌ ويشعرُ بوجوده، وأنّ له مكانًا في هذا الوجود، ولو في قلبٍ واحدٍ ومتحقّقٍ بعض الشيء، لا أظنُّهُ يحاولُ أن يسعى لتلك النظراتِ المفعمةِ المقدوحةِ بالبغضِ والحسدِ، أو أقلّها من لفتِ الأنظار والتّعالي والعجرفةِ على البشرِ و.و.و... إنه حديثٌ يطولُ، وربما يتفاقمُ عند بعضهم وبعضهن كسمومِ العقاربِ التي تلدغُ وتشعلُ نيرانَ الحقدِ والكراهية، ولا يستطيع إطفاءها وقد تمكّنت منه، حتى لو حاولَ الفِكاكَ أو الهروبَ منها، فيصبحُ الغباءُ التّامُّ الذي يشعل النار، ويصيبُ الأذى الجميع. إنها في النهايةِ تصرُّفاتِ البشرِ المشينةِ، وأظنها ترتبطُ وتأتي كلَّ أصولِها من الطفولةِ وسط نشأته الأولى في مسقطِ رأسه.

الصقرُ والملبوسُ والست كوكب لديهم جميعًا حسٌّ عالٍ بالكاريزما مهما حاولتَ التّغافُلَ عنهم أو تجاهلهم، ويلازمني هذا

الحسُّ نحوهم، وهل أدخل أنا قططي البهلول في زمرةِ هؤلاء الأوغاد؟! وكما سألت نفسي أجيبُ على نفسي، وهذا مجرّد وجهةِ نظر أنّني من أولئك، لكن بالطّبعِ لستُ من زمرةِ هؤلاء الذين يحملون صفاتِ الأوغادِ المستأسدين على بني البشر. هل هذا مدحٌ لنفسي: ها.. ها.. ها.. لا لا، فالشّخصيّةُ الكاريزما في فيلقِ الأوغادِ أو غير الأوغاد لديها دائمًا سوءُ تفاهمٍ وخطأ؛ لأنَّ هذه الكاريزما ممكن أن تكونَ خيّرةً وجيّدةً أو مدمّرةً ومهلكةً، مثل أمورِ الحبِّ المهلكةِ التي كان باطنُها العذوبةُ والرّقّةُ والانجذابُ العاطفيُّ الأخّاذ، واستخدام كلِّ أساليبِ المراوغةِ والذّكاءِ من أجلِ الإيقاعِ في الغرام، ودون مبالغةٍ إذا قلتُ إنّ ما يخصُّني من الكاريزما ما هو إلّا نوعًا خاصًّا جدًّا بالنسبة لي.

اليوم كنت أقومُ بعملي الرّسميِّ الذي أتلاهى عنه؛ لإخلاصِ ودأبِ كونو في الحراسةِ ومعاونيه، الذي اتفقنا من قبل أنه مختلٌّ عقليٌّ في بعض الأحيان. كونو الظريف- ظريف الذي ما زال يخطئُ في اسمه، ويستبدلُ حرفَ الظّاءِ بحرفِ الزّاي، ويقوله ويكتبه (زريف)، ومدمن أكلِ الأيس كريم (الكونو) القرطاس المغلّف بالبسكويت الدّاكنِ اللّون بالشيكولاته والكريمة، ويمزحُ معي ويقولُ لي إفّيهًا جنسيًّا كالمتعارفِ عليه بين العامّةِ مثل (الماكينه) و(ولعه)، وغيرها من الألفاظِ السُّوقيّةِ المعنيّةِ بالإشارةِ إلى مربطِ الفرسِ في الأنثى الجميلة، ويقهقه قهقهة منقبضة قائلًا بتحذلُقٍ: "ألا يذكرك يا قططي هذا الكونو

السّاحر بحلاوةِ وجمالِ الشعلةِ، وأنت تلحسُهُ بلذّةِ الكونو القِرطاس؟ قل الحقيقة بذمتك يا قططي. ألا يشبهك هذا بذاك يا أخي الفيلسوف؟ ألست أنت من تفلسفُ كلَّ الأمور؟ اعترف وقل يا أخي. تعبت منك يا فلسفه".

ابتسمتُ باشمئزازٍ وقلت: فعلًا زريف أنت وليس ظريفًا... ظريف صحيح ينطحُ ويشطحُ مثل جحشٍ أعمى، ويشبه الأنثى (بالكونو) الذي يستلذُّهُ ويدمنه.. ما هذا التخلُّفُ لشعبي العظيم؟! أم هي سخريةُ الأقدارِ بي أن يكون كونو زميلي في العمل، دعني من هذا السخف، وهذا المعتوه البسيط.. عليَّ أن أنصتَ لأغنية اللّيلِ أفضل؛ حتى لا ينفجرُ عقلي من هذا المتخلِّفِ، ثم هدفي من الكبت والحرمان، وتتمرّرُ روحي من الغيظِ والقهر.. (الليل.. الليل.. آه الليل.. الليل.. بدمومه قاسي.. يا ويلي من ساعاته والصبر وعدني بفرحتي.. وارجع تاني و اقولك.. ريحني الله يخليك علشان المركب تقدر تمشي بيا وبيك). أغنية عظيمة (للفنان سيد مكاوي) أحبها جدًا.

آه منك يا فراشتي الرقيقة، سالي بسكويت وملامح غيابك، تصيبُني بالرجفةِ وتهزُّني وتقهرُني، وتضيعُ مني ملامحي، بل وجودي كلُّهُ ويخنقني الشّوقُ واشتياقُ هدفي، بتوجّعٍ شديدٍ، و أنا أدفنه بين فخذَيَّ، حتى لا ينتفضُ متمرِّدًا على قهري، وأستأسدُ سطوتي عليه. فما قيمةُ اللّيلِ و أنا وكلُّ الوجودِ كاملًا بالنسبةِ لي بدونكِ يا فراشتي السّاحرةَ (أكاد أرتجفُ يا ميلينا).

لا، لا أقصد سالي محبوبتي، وليست محبوبة كافكا، نعم إنني أخاطبُ محبوبتي، أنا قططي البهلولي، وأخاطبُ فراشتي السّاحرة، وأراها الآن جيدًا تبتسمُ لي.. نعم صدِّقوني أراها جيدًا، والليلُ يدهسُني بذكرياته.. أيُّها الليلُ التَّعِسُ تأتي لتنقدحَ شرارةُ اشتهاءِ هدفي المظلومِ في هذه الأيّامِ، وفي هذه البلدةِ، بل وفي العالمِ كلّه بجنايةِ كنيتي الكاركتر قططي فلسفة، ألا يشعرون بالخزي وبشجوني وآلامي، وأمنياتي الضّائعة مني، ومع أغنيةِ الليل ...الليل ... أقصدُ ليلَ حياتي الذي تحوَّلَ إلى ليلٍ دامسِ الدّيمومةِ بعد عشقِ فراشتي للملبوسِ فجأةً.

سأسهرُهُ مع كونو الأهطلِ الذي يتمنّى أن يكونَ خطيبًا جامعًا، ويدمنُ على استحياءِ أنفاسِ السّجائرِ الملغومةِ بالمفرقعِ من حينٍ إلى آخرَ، ويعترفُ بذنبِهِ ويدعو ربَّهُ في فرائضِهِ الخمسة التي يواظبُ عليها إلى حدٍّ ما حسبَ اتجاهاتِ توجيهِ عقلِهِ بعد استنشاقِ الدُّخانِ أو قبله مع الالتزامِ بتأديةِ صلاةِ الجمعة، ويدعو بخشيةٍ وندمٍ أن يتوبَ عليه من المفرقعِ و(الصراصير) من برشامٍ وأدويةٍ تختصُّ بحالاتِ الصّرعِ والعصابِ وغيره، وله رأيُهُ الخاصُّ عن هيئةِ ومحتوى الخطابةِ، وكيفية إلقاءِ خطيبِ الجامعِ الذي اعتادَ الذهابَ إليه، ويقسِّمُ قائلًا: صدِّقني يا قططي أنا الأجدرُ يا أخي ويثرثرُ في تفاصيلِ ما قاله وما يقولُه وما سوف يقولُهُ بتشفٍّ وحقدٍ، وابتساماتِ انتصارٍ بها كرهٌ شديدٌ لهذا الخصمِ الضَّعيفِ كما يراه.

كان الجميعُ من مطاريدِ الفنِّ يهجعُ هنا وهناك، و أنا وحدي مع كونو أشعرُ أنَّ نارَ جهنمَ آتيةٌ مع هذا العاشقِ الملبوسِ، و أبوابُ الجحيمِ تفتحُ أبوابَها على مصراعيها لقلبي المذلِّ، واستطرد كونو بضربةٍ خفيفةٍ على ساقي: أنت معي يا قططي، ألا تصدِّقُني؟! تعالى معي مرّةً واسمع ما يقولُ، واشهد على صدق ما أحكي لك. نظرتُ إليه بعدمِ اهتمامٍ، ولم أنصتْ لأيّةِ كلمةٍ قالها، كأنه مذياعٌ مفتوحٌ، ويدورُعلى الفاضي، وسألتُ بقلقٍ أين جيجي؟
فقال بحنقٍ: في المسرحِ تشاهدُ بروفاتٍ للفنونِ الشّعبيّة، لديهم عرضٌ جديدٌ، واتّكأتُ برأسي على خلفيّةِ الكرسيِّ، وقلتُ بحسرةٍ: أسألُك للمرّةِ الألف، كيف تنسى الألمَ يا كونو؟
قال أيضًا بنفسِ شعورِالحسرة:
وأجيبُك للمرّةِ المائةِ بنفسِ الإجابةِ. لا أعرف، الهدايةُ إلى اللهِ.. نعم، أشياءٌ كثيرةٌ تنسينا الألمَ يا قططي.. هه.. هه، وبعدين بعد الشرِّعليك من الألمِ يا صاحبي.
- ربّما يا صديقي، هناك تأويلاتٌ واحتمالاتٌ عدّة للنسيان، تتوقّفُ على مدى قدرتِنا على اتخاذِها، ومدى مفعولِها ومصداقيتِها، ربّما كلُّ شيءٍ.. ربّما، كلُّ شيءٍ محتملٍ، لا علمَ لي بشيءٍ ثابتٍ، لأني أنا نفسي لا أستطيعُ نسيانها.. لا أستطيعُ، يقولون "إذا أردت أن تسيطرَ على شخصٍ ما، اجعله يعاني". و أنا أزيدُ على تلك المقولةِ أنك إذا كنت تحبُّ وتعشقُ ذاك الشّخصَ فإنك ستستعذبُ تلك المعاناة، وترغبُها وتستزيدُ فيها

بكلِّ كيانِك؛ لأنها ستبقيك على شواطئِ الانتظارِ والتمنّي، وستملأُ روحَك بقوّةٍ خفية، حتى لو كانت خيالًا، أوأحلامَ يقظةٍ مبهمةٍ عن التفسير، وهذا الشخصُ المحبوبُ ينخرُ في عُبابِ تفكيرك، دون إرادةِ التّخلّي، دون وعي أنه لا وجودَ له، إنه أشبهُ بالسّطوِ المسلَّحِ؛ لكنه سطوٌ محببٌّ بعجزِهِ لأنك تدركُ تمامًا أنه بعيدٌ عنك للغاية، بل يا أحمقُ إنها مع شخصٍ آخرَ تمامًا، ولا تفكِّرُ فيك، بتاتًا، لكنّها رحلةُ الشّعورِ والأحاسيسِ اللّا إرادية في منطقةِ عقلي اللّاواعية التي لا تصلُ إلى الهدفِ الحقيقيِّ بتحقيقِ مبتغاها من الهدفِ الأساسيّ، و أنا هنا أقصدُ القصدَ والنيَّةَ للمعنى الأشملِ والأعمِّ من حبي الكبيرِ والمثالي، وليس هدفي الاستعاريّ عن ذكوريّتي.

فهذه المعاناةُ ولذّةُ الشّبقِ ومتاهاتُ الافتراضاتِ والتّخيُّلاتِ هو ما نتذكّرُه، فعندما يمرُّ الوقتُ، ويذهبُ هذا الآخرُ أو نرحلُ عنه تأتى اللحظاتُ المميتةُ والمفجعةُ، ونتمنّى ولو قضينا مع من نحبّ وقتًا أكثرَ وأكثرَ حتى نعوِّضُ ما فاتنا منه بعد الفراقِ والحنينِ، واختبار الذكرياتِ التي تهفو على الذّاكرةِ الواعيةِ، وتذبحنا بخنجرِ الحنينِ والشّوقِ والنّدمِ والحسرةِ، وتبدو أمام عيوننا كماردٍ خرج من القمقم، تدمّرُ كلَّ الجديدِ والآتي، إنه كالوحشِ الذى يكادُ أن يطحنَك بأسنانِهِ المفترسةِ؛ ولا أحدَ يشعرُ بي إلّا نفسي البائسة، وقد جفّت روحي من العزاءِ والسّلوانِ برحيلِ

فراشتي. ألا تشعرين بقلبي الذي يحتضرُ احتضارًا بطيئًا كسريانِ السُّمِّ في الأوصال.. يابسكويت.

وانفتحَ المذياعُ الظّريفُ مرّةً أخرى قائلًا بهلوسةٍ وهو يُخرِجُ دخانا كثيفًا من أنفه وفمه:

.ما رأيك في كوب شاي ثقافي يا قططي.

ثم أحضر قالبين من الطوب الأحمر، ورصّهما بالطولِ مع تركِ مسافةٍ بينهما، ألحقها بكوزٍ كبيرٍ (من مقالح الذرة الجافة) المغموسةِ بحشيةٍ خرقةٍ مبلّلةٍ بالجازِ مشتعلةً، ثم وضعَ قطعةَ صاجٍ مربّعةٍ عليه برّاد شاي أزرقُ صدئٌ مصنوعٌ من الألومنيوم، وأحكم غطاءه بورقةِ جورنال داخله ماءٌ وشاى العروسة، مثبّتٌ بالغطاءِ المعدنيّ، ويطلق عليه المخبول شاي ثقافي؛ نسبةً إلى الكائن العملاق، فقد تمّ اختراعُهُ وسط حراسةِ الثّقافةِ والفنِّ ومطاريدِ الفنّ، وظلّ يتفوّهُ عن عالمه الجديد، وقد اختاره أهلُ الحيِّ بعد طولِ انتظارٍ خطيبَ جامعٍ على سنٍّ ورمح، وأنا في عالمي أتحدّثُ عن فراشتي؛ لأستكملَ حواري الدّاخليَّ النّفسيَّ العميقَ عن نظريّةِ لفتِ الأنظارِ مثل نظريّةِ المؤامرةِ التي يتقنُها البشر، ويتفانون في تمريرها على خريطةِ كلِّ شيءٍ في حياتهم.

ورغم كلِّ هذا الشّقاءِ عندما نتذكّرُ هذه الأشياءَ نضحكُ بشدَّةٍ. ما أجملَ تلك الذكرياتِ! لأنّ وقتها كنا نتحدّثُ بعفويّةٍ وبراءةٍ حقيقيّةٍ؛ لتبقى تلك الأشياءُ الجميلةُ تتنفّسُ داخلنا، حتى ولو

تزاحمت في أعماقِنا أجواءَ التّذمُّرِ والضّيقِ والنهاياتِ الضّائعةِ والخيبات، وتلك الثُّقوبُ العميقةُ في قلبي وروحي المهشّمةِ، أكادُ أرتجفُ.. يا "ميلبنا" أهكذا قالها (كافكا).. أكادُ أرتجفُ يا فراشتي السّاحرةَ، فأنا أخاطبُ محبوبتي.. نعم محبوبتي سالي بسكويت. ألا تتذكّرُ! لقد قلتها من قبل يا قططي المسكين: "آه ياربي من هذا العذاب الشديد الذي ألمَّ بي بعد حبِّ بسكويت للملبوس المتعفرت، يارب قف بجانبي أرجوك".

اليوم حكتْ لي الستّ كوكب عن حادثةٍ عجيبةٍ كأحلامها العجيبةِ مع الفنّانين والفنّانات المشهورين والرؤساء أنّ في يومِ أمس استيقظت فزعةً على حريقِ التليفزيون فجأة، رغم أنها كانت نائمةً باسترخاءٍ في قيلولةٍ خفيفةٍ على سريرِ الرّئيس، وهو بجلالةِ قدره يغطُّ في النّوم بجانبها، وأنّ الفرحةَ لا تسعها، وكانت تستمتعُ جدًّا بمشاهدته وهو نائمٌ، وتصفُ شعورها الجنونيَّ بهذا الحلمِ العجيبِ قائلةً بفرحةٍ شديدةٍ: "ولا أصدق روحي، وأنا بتفرج عليه وهو نائم وأطرقع بأصابعي، وأسد بها فمي، حتى لا تعلو ضحكاتي ويستيقظ سيادته، من فرحة أذهلتني بالخبل أنه بجانبي على السرير، وبعد ذلك.. ذهب للسباحة في مسبح منزله الفخم الكبير، ودعاني معه للسباحة وكدت أجن من الانبساط معه". وعلى بغتةٍ تطرقع سالي ونشوى بضحكاتٍ عاليةٍ ماجنةٍ وهن يصرخن: "يا لهوي والنبي إنتِ كبرتِ وخرفتِ" وتستطرد نشوى: "الريس مره واحده يا ست يا

قاهره" وتسترسل في سخرية لاذعة: "طيب ومشفتيش في الحلم أن التليفزيون غضب عليك، واشتعل دون سبب يا وليه يامجنونه". بينما سالي تقول باستهزاء: "إن شاء الله ياخدوكي الصحراء ويغتصبوكي". فتضحك الست كوكب قائلةً بضحكةٍ مغناجةٍ: "ها.. ها.. آه.. آه يا سالي بسكويت، والنبي يا اختي يا ريت، أرحم من نوم العفاريت مع حبيبك الملبوس يا بنت العبيطه".

وتستطردُ العميلةُ القديمةُ بوقارٍ، وقد أصبحت كو افيرةً، لكنها لا تنسى العشرة وشلة الأنس قائلة بهدوء: "لأ صحيح يا ست كوكب.. التليفزيون احترق من غير سبب.. لا بد تشغلي القرآن.. دي إشاره من ربنا إنه غضبان على البيت وأصحابه.. لازم يا ست كوكب تحضري شيخ يقرا على البيت وأصحابه، علشان يباركه، ويبخر البيت لأجل يحصنه، ويحفظه بآياته الكريمة.. يفرّج الكرب، ويزيح العين، ويحميه من الخبائث".

"ها.. ها.. ها.. ما أجمل العاهرات، حين يحتكمن إلى الهدايةِ من وحي الإيمانِ وتلاوةِ كلماتِهِ عزَّ وجلّ، ولكن ماذا نقول؟ ربنا يهديهم بجد."

نحن نتألَّمُ من الأخطاءِ الفادحةِ، ولا سبيلَ غير الغفران، حتى نتطهّرَ، ولو للحظاتٍ؛ فالإيمانُ يجعلنا نتوسّلُ ونترجّى ونتألّمُ إلى رغبةِ حمّى البكاء، كي نهربَ من ذاك الضجيجِ الدّاخليّ الذي يعصرُ أحشاءنا على سؤال: ما لغزُ هذه الحياةِ التي نحياها؟ لماذا

يحدثُ كلُّ هذا؟ لماذا وُلدنا داخلَ هذه الجغرافيا؟ لنصبح ضحايا الجغرافيا! لماذا كلُّ هذا العراكِ العدوانيِّ بين البشر؟ يا إلهي إنّي أتمزّق.. أشعرُ بمن ينتزعُ أعضاءَ جسدي ويشطرُني إلى أجزاءٍ متناثرةٍ، والعبثُ يلهو بأيّامي الحاضرةِ والقادمةِ.. إنها في نهايةِ الأمرِ كخفافيشِ الظّلامِ التي تطبقُ على الأنفاس. ياربّي إنّني أتمزّقُ.. أتمزّقُ هل تسمعُني؟! هل تسمعُني؟! إنّني أتمزّقُ من أجلِ فراشتي التي هجرتني! أرجوك اسمعني.. فراشتي هجرتني، أكادُ أموتُ من الوجعِ والحسرة، أنا على أبوابِ جهنّمٍ ونيرانها آتيةٌ أعلم ذلك. أرجوك أنقذني. أنصتْ إليّ. أنقذني.. أرجوك بأيّة وسيلةٍ ممكنة.. بسكويت تعشق الملبوس.

يتحدّثون عن الضّربةِ القاتلةِ بدمٍ باردٍ طبقًا للمثلِ الشّعبيّ المثاليّ لي في كلِّ الأحاديث: (نقتل القتيل ونمشي في جنازته). والضربة القاضية أنجبت ضرباتٍ قاضيةً.. هم يقولون، ويشيعون، ولا يعلمون كم تألّمت، وتعذّبت إلى أن أدميت روحي، وشعرت أن هؤلاء القتلةَ المجرمين يكادون يمتصُّون دمي قطرةً قطرةً؛ ليسحبوا مني دماءَ الحياة، دماءَ الرُّجولةِ بالسخريةِ، والتلفُّظِ على شخصي الكريم: بهلول .. القططي.. الفلسفة التي لا تجني فائدة، حتى تتجرّدَ من حسيَّةِ الأشياء، وتصبح ذات ملمسٍ ساكنٍ، كالجماد ليس له وقعٌ أو شعورٌ أو إحساسٌ بالمودّةِ الإنسانيّةِ سواء بالفرحِ أو الحزن، أو أيّة ردودٍ للأفعال، تلك التي تغمرُ الجميعَ دون حسابٍ أو تحديدٍ أو تمييز، وتدفعهم للطموحِ

أو السُّقوط، للحماسةِ أو الرّتابةِ، أي أنّ الفعلَ وعكسه نابعٌ من فكرةٍ متسلِّطةٍ لا تقفُ أمامها أيُّ عائق، لكن هؤلاء الأوغادَ يريدونك أن تموتَ.. نعم تتمنّى الموتَ.. نعم هم يجعلونك تتمنّى الموتَ من أجلِ ألّا تتألّم.. ألّا تتعذّب.. و أقاومُ بالنّجاةِ بنفسي الضّائعةِ من خلالِ العدم، وتجريفِ الشّعورِ بتلك المشاعرِ والأحاسيس التي عصرت قلبي وروحي عصرًا مهلكًا، حتى أتقنَ الدّورَ المقرَّرَ لي، رغم عدمِ القدرةِ على التّجاوزِ والتّعاطفِ والرِّفقِ بحالي الميئوسِ منه، وأهيم بعينين شاردتتين زائغتين لا تبصران الطّريق، أو أيُّ الطّرقِ أصحّ عن الآخر، وأشعرُ بالإنهاكِ والتّعبِ من أفخاخٍ أوقعتني في براثنِ المعرفة والاكتشاف والتضحية، وكل تلك المعاني التي تؤدّي بي لأمورٍ كفيلةٍ للشعورٍ الطاغي بالبؤسِ والتّدميرِ الذّاتي، وكانت أولى هذه الضرباتِ القاضيةِ حريقَ الكائنِ العملاقِ- حريقًا كارثيًّا وَثَّقَهُ التّاريخُ عن أمجادِ الفنونِ المسرحيّةِ والموسيقيّةِ والشّعبيّة.

الفاصل الأخير

إنهاءٌ مسرحيٌّ

أريدُ أن أموتَ مثل الأفيالَ، تلك الأفيالُ الكبيرةُ الحجم والعقل، بأحساسيها الرهيفةِ، ومشاعرها الصادقةِ، تذهب إلى كهفِ

الموت، مثلما كان يفعلُ أسلافُها، وتنتظره عندما يصيبُها الوهنُ والضّعفُ، وتشعرُ بدنوِّ أجلِها. تلملمُ أشتاتَها، وتذهبُ إلى قبرِها بأقدامٍ ثقيلةٍ، وقد أصابها الخذلانُ، ولكن تعافرُ، وتزحفُ وتثبِّطُ همَّتَها، حتى تصلَ إلى المحطّةِ الأخيرةِ وحيدةً، أو بعيدًا عن كلِّ الأنظار، حتى لا نشاهده ضعيفًا، خائرَ القُوَى، تختار الاختفاءَ والاحتجابَ في كرامةٍ، وجلال الموتِ الذي تستحقه، وتراه جديرةً به دون رفقةٍ أو عزاء أو دفءِ اللّحظةِ الحاسمةِ وسط من أحبّتهم، وعاشت معهم عمرَها كلّه، أريدُ هذه الميتةَ، و أنتظرها بفارغِ الصّبرِ بعد توالي الضرباتِ القاضيةِ في حياتي.

مرّت أكثر من ثلاثِ سنواتٍ الآن على وفاةِ ملاكي جيجي في محرقةِ بني سويف الشهيرة. حيث كان العرضُ في قاعةٍ مغلقةٍ تُسمّى قاعةُ المعارضِ للفنونِ التشكيليّةِ بنفسِ المُسَمّى الجديدِ بعد بدءِ ترميمِ القصرِ كاملًا وعودته إلى الحياةِ من غير المسرحِ الكبيرِ تحت عنوان "المسرح مغلق للتحصينات والإنشاءات". وكان هذا العرضُ المسرحيُّ داخل هذه القاعةِ التي تم استخدامُها عوضًا عن خشبةِ المسرحِ الكبير، كشكلٍ من أشكالِ مسرحِ الجرن، ولأنها تناسبُ طبيعةَ النّصِ المسرحيِّ المقدّمِ حينذاك لعرضٍ لفرقةٍ مسرحيّةٍ من محافظةِ الفيوم، وكان هذا العرض المأساويُّ ضمن مهرجانٍ كبيرٍ للأقاليم وهواةِ المسرحِ من جميعِ أنحاءِ جمهوريةِ مصرَ العربيّة، وكانت ملاكي مع كونو الظّريف

تحضرُ العرضَ بالداخل، بينما أنا منهمكٌ في مساعدةِ الفرقِ المسرحيّةِ الآتيةِ لعروضِ المهرجانِ الكبير.

جميعنا لم يستطعْ فعلَ شيءٍ.. جميعنا كنا نصرخُ فقط، والمسرحُ المغلقُ مغلقٌ على فنّانيه ومبدعيه وحضورِه الكرامِ يلتهُم أرواحهم من إحدى الشّمعاتِ التي كانت بجانبِ العديداتِ منهم بصفٍّ طويلٍ، كجزءٍ من ديكورِ العرضِ المسرحيّ سقطت سهوًا، وأدت إلى انفجارٍ داخل قاعةِ العرضِ فجأةً، وقد التحمت بالأوراقِ والأخشابِ ضمن ديكورِ العرضِ الذي كان منسوجًا ومتشابكًا عند مدخلِ القاعةِ الخشبيّةِ، بينما الجميعُ عالقٌ في الداخلِ دون أيّ منفذٍ للخروج. والديكور المبتكرُ أحكمَ الإغلاق، وقد تمَّ تجهيزُه بعد إغلاقِ البابِ الخشبيّ جيّدًا، وكان يشبهُ المغارةُ التي يتكوّنُ مِنَ الشّموعِ والأوراقِ والرّملِ ومكوّناتٍ بدائيّةٍ قابلةٍ للاشتعالِ لأتفهِ الأسبابِ، وشاركتِ الأسلاكُ الكهربائيّةُ في ذلك أيضًا.

وكأنّ كلَّ العواملِ تآزرت في لحظاتٍ عجيبةِ الصدفةِ تشبهُ اللّحظاتِ القدريّةَ الحاسمةَ لا رجوع لها، أو حتى بصيص أملٍ للنجاةِ واحد بالمائة، لتحترقَ فراشاتُ الفنّ، وقد اشتعلت نيرانُ جهنمَ كالجحيمِ تعصفُ بالجميعِ دون رحمةٍ، والدقائقُ في عمرِ هذه المأساةِ لا تُقدَّرُ بثمنٍ، عندما تتأخّرُ قوّاتُ الدّفاعِ المدنيِّ للإطفاء، وعندما تتعاركُ سياراتُ الإسعافِ وسط الشّوارعِ من أجلِ الحضورِ في الوقتِ المناسبِ؛ لأنّ كلَّ دقيقةٍ في عمرِ هذه

اللحظاتِ الفارقةِ تحصدُ كائنًا حيًّا في تصارعٍ شرسٍ مع النّيرانِ المتأجّجةِ اللّاهبةِ بالجمراتِ المتوهّجةِ، وهي تندفعُ بموجاتٍ هائلةٍ من اللّهبِ، وقد تسيّدتِ المشهدِ من فوّهةِ الإهمالِ والتّغافلِ عن تأمينِ القاعةِ أمام شمعاتٍ مضيئةٍ أساءت فهم دورِها داخلَ العرض.

هذا السّؤالُ الوجوديُّ البحتُ أيُّ عالمٍ نريدُ أن نعيشَ فيه حتى يتحوّلَ بالتّدريجِ إلى خيارٍ راديكالي؟! وقد أصبح هذا الخيارُ بالذّاتِ هو مصدرُ وجودي في هذه الحياةِ القصيرة.

هناك قاعدةٌ مهمّةٌ في الحياةِ، وهي يجب ألّا يفوتَك الوقتُ عن تحقيقِ ما تريد؛ لأننا عندما نعودُ لبدايةِ الحكايةِ، لا تعودُ أرواحنا كما كانت، ولا تعودُ الأشياءُ كما بدأت إطلاقًا، ولكن ماذا لو فات الوقتُ؟ ماذا لو ساءتِ الأمورُ أكثر وأكثر كما حدث لي؟ والضرباتُ المتتاليةُ تسقطُ على رأسي كأحجارٍ سوداءَ تكبرُ وتتضخّمُ حتى تتحوّلَ إلى صخورٍ ناتئةٍ حادّةٍ تقتلني وتنزفُ دمي، وهل للفقراءِ حسابٌ للزمنِ مثل فئةِ هؤلاء الأغنياء، حتى يحزنوا عليه ويتحسروا؟! ما الفرقُ بين زمنِ هؤلاء وهؤلاء، ونحن الصعاليكُ والمهمّشون الضائعون؟ ما الفرقُ بيننا نحنُ وبين هؤلاء الآخرين المترعين بالجاهِ والنّعمةِ والسّلطةِ، وماذا لو فاتَ الوقتُ فعلًا يا قططي يافلسفة؟ ماذا ستفعلُ بكلِّ هذا الحسابِ العسيرِ والامتعاضُ يغصُّ حلقَك، والاشمئزازُ يدفعُك للضّياعِ التّامِّ، ولماذا كلُّ هذا الألمِ وأنت مجرّد بقعةٍ متّسخةٍ في هذا

العالمِ المتوحّشِ مع ذلك الإنسانِ العدوانيِّ، مع هؤلاء البشرِ الوقحين الأوغادِ والمجرمين؟!

تعذّبتُ كثيرًا، تعذّبتُ بما يفوقُ حدَّ احتمالي وطاقتي، والأهمُّ من كلِّ ذلك، بِمَ ستفيدني تلك الاعترافاتُ من التُّرَّهاتِ والخُزَعْبلاتِ التي أردّدها وأحكيها عن نفسي وعن آخرين؟ ماذا سأجني من كلِّ هذا، وقد فات الوقت؟! ولا يصلحُ بكاءٌ على ما أخذته الأتربة، وبات كالغبارِ عالقًا في الهواء، أو تحت الرّمادِ والانتهاء مع مشوارِالأمنياتِ الضّائعةِ من عمري الذي تسرّبَ كالسّرابِ، بينما أنا قابعٌ الآن بجوارِ مدفنِ ملاكي جيجي، أنتظرُ الموتَ كموتِ الأفيالِ المهيبِ بكلِّ عزّةٍ وشموخ. ماذا يعني لي المستقبلُ؟ هل لديَّ حاضرٌ سيختلفُ كثيرًا عنه، وقد كان الماضي هو مادةُ الحاضرِ الذي أعيشُ فيه في الوقتِ الحالي! لا شكَّ في ذلك، ولكن هل مثلًا ينتصبُ لي مستقبلٌ باهرٌ عن هذا الماضي والحاضر سويًّا؟!

هل مثلًا من الممكنِ أن يتغيّرَ هذا القبوُ إلى منزلٍ كبيرٍ بحديقةٍ فيحاءَ وكلبٍ وفيٍّ يحرسُني، ويجلسُ على قامته يخرجُ لسانه وينبحُ لأيِّ غريبٍ، أمام أيِّ مكروهٍ يأتي بجانبي. إذًا.. إذا كان الماضي في السّابقِ هو ما ساقني لهذا الحاضرِ، وبالتّالي يتنبأُ بمستقبلي. النتيجةُ أنّ في الحقيقةِ لا يوجدُ أيُّ مستقبلٍ؛ لأنّ الماضي أفرزَ ذلك الحاضرَ، ومستقبلي لن يتغيّرَ، وسينتصبُ بكلِّ بلاهةٍ دون أفقٍ أو تجاوزٍ، كي يمنحَني المبالاةَ أو الجدوى منه. إنه أشبهُ

بسائلِ البرازِ الأصفرِ الباهتِ، بل هو خراءٌ في خراءٌ مقزِّزٌ وقيء بحاضرٍ تعيسٍ وشقيٍّ ومستقبلٍ هزيلٍ ومزرٍومهانٍ، و أقولها بكلِّ صراحةٍ وصدقٍ: "أنت لا مستقبلَ لك يا بني".

لكن رغم كلِّ هذا الخذلانِ، وأن الوقتَ فات والزمنَ انفلت من عقالِهِ المتّزنِ، لكن أعترفُ بكلِّ قوَّةٍ أنني استطعتُ أن أتبصّرَ ذاتي بوضوحٍ قبل أن يفوتَ أوانُ حتى ذلك، وإن كان ما حدث، وما كان يجبُ أن يحدُثَ ألّا يفوتَ الوقتُ مني، وسيظلُّ مبدأُ كلِّ حياتي، حتى في تلك اللّحظاتِ الواعدةِ منَ التّبصُرِ: "أنا أحبُّ إذًا أنا موجود" وأعودُ لسؤالي مرّةً أخرى: "ما هو الخيارُ الراديكالي الملائمُ لي؟ في أيِّ عالمٍ أريدُ أن أكونَ فيه الآن بين الأحياءِ أم الأمواتِ؟ وماذا تريدُ من هذه الحياة يا بهلول الآن أيضًا؟ وإلى أين تأخذُنا هذه الحياةُ القصيرةُ لتتحولَ كلُّ تلك الإجاباتِ إلى مصيرٍ حاسمٍ أقرّرُه و أفعلُه بكاملِ إرادتي.. نعم.. نعم. لا بدَّ من إجاباتٍ بعد فراقِ الجميع، والباقي من أرواحِ هذا المكانِ بجوارِ قبوي (البدروم) خلف الذي أمسى وأصبح من أطلالِ الذي كان الكائن العملاق، ويشعُّ ويتلألأُ بكلِّ الفنونِ ومطاريدِ الفنّ والثقافة، وقد سكنته أرواحُ من احترقوا من هؤلاء الشهداءِ من ضحايا الحادثِ المشؤوم، وعادت مملكةُ الأرواحِ و أقرانهم من العالمِ السّفليِّ يخرجون، ويتلمَّزون على موتهم هكذا فيطيس في عتابٍ عنيفٍ عن كيف تدحضُهم هذه

النيرانُ هكذا من سهوٍ بسيطٍ لشموعٍ كانت تضيءُ روحَ العرضِ الفنّيِّ بكلِّ عفويةٍ ونبلٍ؟!

أغلق المارِدُ العملاقُ لسنواتٍ بسياجٍ من الأخشابِ واللاصق الورقيِّ والسّتائرِ السّميكةِ تغطِّي هيكله البنائيَّ من كلِّ الجوانبِ كالعارِ الذي يختبئُ خلفَ الخطيئةِ الكبرى، وقد بات مقبرةً تشتعلُ في أعماقِ اللّيلِ بأرواحِهِمُ التي تفحّمتْ وتقدّدتْ منَ النِّيرانِ اللّاهبةِ، وهم يصرُخون، وجميعُ من يقطنُ بجواره أصبحوا يخشَوْنَ الجلوسَ أمام بيوتِهم، أو في المحلّاتِ المجاورةِ لساعاتٍ متأخّرةٍ منّ اللّيل، أو حتى المرور من أمامه في اللّيلِ الذي كان سابقًا، في كلِّ لياليه يعجُّ بالمظاهراتِ الفنّيَّةِ منَ الصّوتِ والرّقصِ والحركةِ بين فرقةِ الفنونِ الشّعبيّةِ وفرقةِ الموسيقا العربيّةِ والفرقةِ القوميّةِ للمسرح، وكواليس المسرح، والمعارضِ التّشكيليّةِ، والأطفالِ الموهوبين...إلخ.

يربضُ الآن صامتًا صمتًا مرعبًا بأنينِ أشباحِ النّيرانِ الغاضبة التي تلعنُ الجميعَ والإهمالَ والحظَّ السيّئ، وهم يستغيثون بالصُّراخِ والعويلِ في محاولاتِ الهروبِ، والجنوحِ في أحضانِ آخرين أمامهم يتوسّلون أن ينقذوهم، ويطفئوا أمشاجَ النِّيرانِ الملعونة، وقد سكنت أرواحُ هؤلاء الفنّانين والفنانات، وباتت كالفراشاتِ المضيئةِ تجوبُ وتتلاهى وتتسامرُ ليلها فيه.

في عام ٢٠٠٦م صدر حكمُ محكمةِ جنحِ بندر بني سويف ضدَّ المتّهمين في حادثِ حريقِ قصرِ الثّقافةِ على ثمانيةِ متّهمين

بالسجنِ عشر سنواتٍ مع الشُّغل وكفالةٍ عشرة آلاف جنيه، ثم بعد عامٍ تقريبًا برّأت محكمةُ جنحٍ مستأنف أربعة من المتّهمين، وخفّفتِ الأحكامث الصّادرةُ عن محكمةِ أوّل درجةٍ ضدّ أربعةِ متّهمين آخرين إلى السّجنِ ما بين عام، وثلاثةِ أعوام أيضًا، ومدير عام فرع ثقافة بني سويف ثلاث سنوات ومدير قصر الثقافة سنتان، ورئيس قسم المسرح قصر الثقافة سنة مع الشغل، وأخصّائي أمن بالقصر سنة مع الشغل، والباقي عادوا إلى عملهم الرُّوتينيّ في مقرّاتٍ مؤقّتةٍ في مبنى خلفِ الاستادِ الرّياضيّ عند شارعِ البحرِ الأعظمِ في الجهةِ المقابلةِ للماردِ العملاق، حين افتتاحه رسميًّا بعد ذلك.

كل هذا عاديٌّ وربّما أقلّ منَ العادي أمام هولِ ما حدثَ من كارثةٍ ليست في الحسبان، لكن ما كان غير عادلٍ بالمرّة وفاةَ رائدِ الفنِّ الشّعبيِّ الفنانُ الشُّعلة الأسمرُ الوحشُ وفاةً عبثيّةً، ولا يتصوّرُها أيُّ عاقلٍ أو مخبولٍ، بعد وفاةِ ظريفٍ وملاكي وخروجي من السّجنِ كعادته بعد الانتهاءِ من البروفات التي استمرَّ في أدائها وتنفيذِ العروضِ الخارجية؛ ليقاومَ الإغلاقَ وما هو أشبهُ بالتّهجيرِ عن وطنه الأمِّ بعيدًا عن الكائنِ العملاقِ بعد أن قضى حياته فيه لسنواتٍ طويلةٍ تشهدُ كلّ حياتِه وطموحِه وآمالِه، حتى يصلَ أحيانًا للمبيتِ على خشبةِ المسرحِ، أو كراسي المتّفرجين. كعادته ذهب يجلسُ ويتسامرُ مع مطاريدِ الفنِّ على قهوةِ الفنّانين، يحتسي الشّاي، وينفسُ من النرجيلة الخاصّة

له.. فجأةً هكذا نفث دخان المعسّلِ بزفرةٍ حادّة، ووضعها على طاولةِ المقهى، ثم سقطت رأسه لأسفل، ويداه ترنّحتا في هبوطٍ ارتجاليٍّ، ورحل هكذا في صمتٍ مرعبٍ كصمتِ الماردِ العملاقِ الذي يوحي بكلِّ الشّرورِ، وأشباحه تطلقُ لعناتهم، وغمامات المحترقين تنفثُ روائحَ الاحتراقِ، والتفحُّم البشعة الرّهيبة، وهي تتلظَّى وتطقطقُ وتفجّرُ جروحًا غائرةً في الذّاكرة، وتصبُّ لعناتِ الفراقِ الجاحفِ من كلِّ مطاريدِ الفنّ، بل والأحياء جميعًا.

تعرفين يا ملاكي جيجي، أنت من معجزاتِ الحياةِ الصّغيرةِ، لكنها مفيدةٌ ومهمّةٌ جدًّا في لحظاتٍ بعينها، وأنّ هذه المعجزاتِ المتناثرةَ في حياتنا، لا نشعرُ بوجودها وقيمتها إلّا عندما ترحلُ عنا، ونشعرُ بها أننا لسنا بقادرين تمامًا على العيشِ بدونها، بل وربّما تأتينا كوابيسَ، ويملؤنا حطامٌ داخليٌّ عميقٌ للغايةِ نكونُ به أقربَ إلى الانتحار.

تعرفين ماذا أحضرتُ لك اليوم؟ الساندوتشات المحشوّة بالمكرونة والصلصة الحارّة. أعرف أنك في قبرك، ولكنهم يقولون أن الميّتَ يشعرُ بزيارةِ أحبائه؛ لأني أظنُّ أن الأعداءَ ليس لديهم قدرةٌ على الوفاء، وتذكُّر الموتى، حتى ولمن كان لهم أحباءٌ وهم على قيد الحياة، فالموتُ عند الأعداء شماتةٌ ونكران وهجرٌ ونسيانٌ متعمّدٌ، بينما عند الأحبّاء وفاءٌ وإخلاصٌ وذكرى لا تزول أبدًا، وتتجدّد بالزيارة والثرثرة والفضفضة عند شواهدهم، كما

أفعل ذلك الآن ولا أجد سلوى لكبح حزني وألمي ولو بعض الشّيء.

المهمُّ يا ملاكي جيجي، حتى لا أخرج عن الموضوع الأساسيّ لحضوري اليوم، والذي أدرك ولو مجازيًّا بعض الشيء أنك تشعرين بوجودي معك، وسنأكلُ سويًّا الساندوتشات أو هكذا سأتخيّلُ ذلك يا ملاكي. منذ سنواتٍ طوال وأنا أريدُ أن أخبرَك بتلك الحقائقِ المؤسفة، ولكني لم أكنْ أرغبُ أن أضايقَك ياسعاد، لكن لابد أن تعرفي الحقيقة ياجيجي، لابدَّ هذا من حقّك، هل تدرين ماذا حدث في تلك اللّيلةِ المشؤومةِ؟! تلك التي أضرمت بها النيرانَ في صالةِ عرضِ (المسرح المغلق) أثناء انهيارِ الستّ كوكب، وهي تصرخُ وتولولُ من أجلِ البحثِ عنك وسط النيرانِ المشتعلة؛ حتى وجدتك مدسوسةً تحت إحدى كراسي المتفرّجين متفحّمةً في أحضانِ ظريف المسكين، وقد تخيّلت مدى فزعك وأنت متسمرّةٌ في مقعدك، والنيران تشتبكُ في الجميعِ في ذهولٍ وفزعٍ لا يتصوَّره أحدٌ مهما حاول وصفه، غير قادرةٍ على أبسطِ حقوقِ المستغيثِ والمنتفضِ من الكارثةِ التي تحوطه من جميعِ الجوانبِ في مسرحٍ مغلقٍ، فقط تهبين بعجزٍ، وأنت في أشدِّ الحاجةِ لصوتك في تلك الليلةِ بالذّات. إن مجرد التعبيرِ عن مشاعرك المفزوعة بالصُّراخِ العالي.. الصُّراخُ من الألم، من الفاجعةِ حتى لو كانت محاولاتٍ فاشلةً، ولكن الصّراخَ من أجلِ الصُّراخِ، من أجلِ التّعبيرلا أكثر.

وإليك الآتي: لقد هربت سالي بسكويت فراشتي الساحرة يا جيجي، نعم.. هربت مع المهندسِ وسيم الملبوس بعد عشقِهِ لها، وقد حرّرته من مسِّهِ العفريتيّ الذي كان يلبسه بعد حفلةِ زار كوكب الأنس، ودخلت به سالي لتفضَّ بكارته، وتفكَّ الهدف، ويدخلَ جنَّةَ العشق وخدرَ الحبِّ، و تلاقت روحه و اندمجت في روحها، ربما هذا الجانبُ المفرحُ أنّ روحَ سالي الخلاسية قد عالجت وسيم الوسيم من لبسه بالعفريت وحرّرته بالعشق، لكنّ المحزنَ أكثرَ من أيّ شيءٍ أنها سرقت كلّ ذهبِ أمها حوالي أربعين جرامًا ذهبًا، و أيضًا تحويشة العمر حوالي ثلاثين ألف جنيه أثناء فزع الست وركضها بهرولةٍ وجنونٍ من أجلِ البحثِ عنك، حتى تأكّدت من وفاتك.

رقدت الست كوكب رقدةً طويلةً، وقد أصابتها جلطةٌ في الجهةِ اليسرى من وجهها إلى أخمُصِ قدميها في شللٍ حادٍّ نتيجةَ صدمةٍ عصبيّةٍ قويّةٍ جرّاء ما حدث لابنتها، ماتت سعاد وهربت مريم، وسرقت كلَّ شيءٍ من أمها.

أما والدةُ وسيم التي كانت تتمنّى شفاءه والإقلاعَ عن المبيتِ بجوارِ مدفنِ أبيه، باتت هي من تفعلُ هذا الآن، وتذهبُ جالسةً بالسّاعاتِ تبكي بحرقةٍ، وتشكو زوجها المتوفّي ورفيقَ عمرها عمّا فعله ابنه بها بدايةً من مرضِهِ وهروبِهِ مع تلك العاهرةِ بنت العاهرةِ كما تطلقُ عليها، وضياع مستقبلِ وسمعةِ العائلةِ بالزّواجِ من بنتِ القحبة هذه. هكذا قالت في سريرتها المحزونةِ،

في الحقيقةِ يا ملاكي أقدِّرُ شعورها ومدى ألمِها وعدمِ قدرتِها على عدمِ استيعابِ عقلِها أن يتزوجَ ابنها الوحيدَ سليلَ عائلة (آل عياد) من فتاةٍ سيّئةِ السّمعةِ، ولكنهم لا يفطنون الحقيقةَ الكاملةَ: أن معشوقتي سالي كم هي كائنٌ رقيقٌ وساحرٌ في كلِّ ما لديها من ملامحَ وسماتٍ بين رقّتها العفويةِ والتّلقائيّةِ الطّبيعيّةِ، وبها طيبةٌ وبراءةٌ متناهيةٌ، ولم تكنْ تجيدُ فنونَ العهرِ حتى يطلق عليها ماهرةٌ وكفءٌ مثل كريمة الحيوانة مثلًا، أو على الأقلِّ نشوى أوريم وغيرهن من الفتيات، حتى أنّ أمَّها كانت تحتقرُها، وتقلِّلُ من شأنها بأنها مثل البسكويتِ الهشِّ، لا تحتملُ شيئًا، وينكسرُ ويذوبُ في الفم سريعًا، وهى مثالٌ رديءٌ لما أنجبته عائلةُ الست نعمات ابنة المعلمة الكبيرة الست كوكب الأنس، مصاصّة الدّماء، أمًا عن جدّةً و أبًا عن جد.

ماذا في حياةِ هؤلاء الفقراءِ والمجانين غير الميلادِ والموت، أهمّ حقيقتين في تلك الحياةِ القصيرة، وبينهما الألمُ الذى لا يكفُّ عن ملاحقةِ البشرِ، كما أنني البهلولُ الذي كنتُ أعيشُ بين الفاصلين من مطاريدِ الفنِّ، وكوكب الأنس بوجهين لعملةٍ واحدةٍ البهلول وقططي فلسفة على رأي الست، ولم أعدْ أعيشُ بينهما، وماعدا ذلك كوابيسُ وأحلامٌ بعضها محبطٌ وبعضها مفرحٌ، ويلاحقني الاكتئابُ بداخلي كالبقعةِ المظلمةِ المحفورةِ في سراديبِ كلِّ أسطورتي الحياتية.

أنا البهلول، أنا قططي، أنا لم أعدْ أيَّ شيءٍ بعد موتِ ملاكي جيجي التي احترقت مثل مطاريدِ الفنِّ فجأةً وخداعًا، وفراشتي سالي هربت مع حبيبها، وأغلق الكائنَ العملاقَ، وأغلقتِ الست كوكب بيتها حزنًا ومرضًا.

نعم: هؤلاء الفقراءُ والمجانين، الله كفيلٌ بهم، ويفقدون حياتهم بكلِّ نذالةٍ دون مساسٍ بالأشرارِ والطيبين، بينما هم يتحوّلون إلى صعاليكَ ومهمّشين بالإجبار. كم أنا مغرمٌ الآن بقراءةِ روايةِ الفقراءِ لـ (فيسكى)! فاسمُه يا ملاكي طويلٌ، وأنا أمطُّ شفتيّ للأمام كمن يزومُ في ضمتي لشفتيّ.. (ديستويفيسكى) علىَّ أن أختصرَهُ، فهو ما يستهويني قراءته في تلك الآونةِ من حياتي، أشعرُ أنه يكتبُني، كلما تماديت في قراءته وأنهلُ من الصّفحاتِ، كأنّي ألتهمُ البطاطسَ اللّذيذة التي أعشقُ طهوُها بكل مذاقها في تنوع مختلف. هل تذكرين يا جيجي شرائحَ البطاطسِ التي كنت أحمِّرُها لك؟ هل تذكرين محشي البطاطس المرهق جدًّا في عمله؟ هل تذكرين ساندوتشات المكرونة الحارّةِ التي سنأكلُها الآن سويًّا؟ هل تذكرين أميرة القلوب؟

بعد غلقِ الماردِ العملاقِ والمكتبةِ الكبيرةِ، أحاولُ الحصولَ على بقيّةِ مجلّداتِ (فيسكي) من المكتبةِ العامّةِ في شارعِ المدارسِ، أو من صديقي بائعِ كشكِ الصّحافةِ بالتّقسيط، لِمَ لا أفعلُ مثل الست كوكب التي تبيعُ الملابسَ بالتّجزئةِ والتّقسيطِ للسيداتِ، أليستِ الكتبُ أيضًا لها هذا الحقُّ يا حقراء، فيسكي أم

فايسكي؟ ها ها.. هكذا أحبُّ أن أنطقَهُ ملاكي.. ها.. ها. كلب أنت وغبيٌّ ياقططي. كيف تحرفُ اسمَ الرّجلِ هكذا يا أبله؟ لا أقصدُ بتاتًا، أنا فقط أبحثُ عن الرّاحةِ في النُّطقِ، لكني أعشقُ قراءته، أقسمُ بالله أنني بريء من أيِّ ظنونٍ نحو هذا الكاتبِ العملاق.

حبيبتي سالي بسكويت أريدُ أن أبكيَ و أبكيَ وبعد ذلك أموتُ بهدوءٍ وسلامٍ، وأدفنُ بجانبِ ملاكي، حتى أرتاحَ من كلِّ هؤلاء البشرِ الأوغادِ التافهين. كم أشمئزُّ منهم يا جيجي!

بينما أنا أجلسُ بين حنايا الذّكرياتِ أرتشفُ نميمتهم وخبثهم بقدرٍ عالٍ من الحزنِ والأسى والرّصيدِ الإنسانيّ هذا الذي يبقى مغرّدًا في سماءِ الوحدة، والامتعاض داخل ذاكرةٍ خربِة، تبتهجُ لحظاتٍ ببعضِ الرّصيدِ الحنونِ ولو كان بسيطًا، ملوحًا كالفراشات التي تطيرُ فوق أحلامي وأمنياتي البسيطةِ عساها أن تتحقّقَ يومًا ما... سأخبرُك يا ملاكي عن هذا الحلمِ الوحيدِ والأمنيةِ الباقيةِ لي من عفار هلاك مشاوير الحياةِ الصّعبةِ والخيباتِ والضرباتِ القاضية.

لقد كتبت كلماتٍ ليست شعرًا أو ما شابه ياملاكي، سأقرأُ لكِ رسالتي إلى فراشتي السّاحرةِ، لكن قبل أن أنسى أريدُ أن أخبرّك بخبرٍسعيدٍ عن أمِّك، و أنقل لك بعض الفرح. أنها شفيت بعد علاجِ أخذ بعضَ الوقت، وأحضرت لها تفيدة محلّلًا اسمه نزهي الأقرع، حتى تعودَ لأبيك حبيبها الأوحد، وهو أحدُ أقرباءِ تفيدة سنجاب الغرابة، لكن خذي بالك جيجي حتى لا تختلطَ عليك

الأمور، وتزغرين إليَّ بعينيك كما تفعلين عندما تستغربين أمرًا ما في حالةِ استفهامٍ، هذا المحلِّلُ اسمه نزهي الأقرع ليس كأبيك الذي استاق لقب الأقرع؛ لأنه يحبُّ قرعَ العسلِ ويجيدُ طهيَه، بل أقرع لأنه خالٍ من الشّعرِ تمامًا أي أصلع بالفعل، ولكن المحلّلِ أُعجبَ بها ولم يطلّقْها، فملَّ أبوك الأمرَوطولَ الانتظار، فتزوّجَ مرّةً أخرى الرّابعة، ورفض أن يطلّقَها، وتلاهى عن موضوعِ الرُّجوعِ إلى الست كوكب، كما أنّ أمّك أحبّتِ المحلّلَ فعليًّا، وليس كالمحلِّلِ السّابقِ الذي طردته من بيتها أشرَّ طردةٍ كما تذكرين عزيزتي.

نعودُ للرّسالةِ هيّا أنصتي، وأخبريني ما رأيك؟

رسالةُ الى حبيبتي التي أصبحت مثل القديمةِ عصرانة ذات الرّقبةِ الزّرافيّةِ السّامقةِ، ومنه إلى الجديدةِ فراشتي السّاحرة، واللتين أصبحتا في عدادِ ماضٍ مؤلم.

لماذا رحلتِ يا سالي؟ لماذا لا تعودين إليَّ مرّةً أخرى؟ ألا يكفيك ما قلته وما فعلته ألا يكفيكِ؟! لِمَ كلُّ هذا العنادِ معي، وما هذا الوسيم الملبوس المعفرت، وصديق الجنِّ حتى تهربي معه، ألا يكفي كلُّ ما عشته من عذاباتٍ وآلامٍ في حياتي منذ أن أطلقَ عليَّ جميل البهلول ثم قططي فلسفة؛ لأنّي إنسانٌ كلُّ ذنبه أنه فُطِرَ على الإحسان، أنّ فعلَ الخيرِ بتلقائيّةِ المحبِّ لصنعِ الخيرِ لوجهِ الله الكريم، وأعطيت الشحّاذَ فردةَ حذائي عن طيبِ خاطرٍ وشفقةٍ، لِمَ يا ربِّي كُتِبَ عليَّ تحمّلَ كلِّ هذا؟! ما ذنبي؟ ما ذنبي يا

سالي في كلِّ ما مرَّ بي وحدث لي ويحدث لي، ولا زال إلى وقتنا هذا الذي أخطُّ فيه رسالتي الأخيرةَ حتى الموت الذي أتمناه مثل تلك الأفيال العملاقة، و أنتظره منذ رحيلكما أنتِ وملاكي وظريف الكونو، ولا يأتِ ليزداد أفعوان الحزن ئسداخلي، كالأفعى تبث السمومَ في حياتي العابثةِ مع كلِّ أمورِ الحبِّ التي دمّرتني، يا رب ارحمني برحمتك الواسعة.

هل ظهرتِ في حياتي أنتِ الأخرى؛ لتتمِّمي قهري وحسرتي عن كلِّ ما فاتني من عمرٍ وأحلامٍ وأشخاصٍ، كيف لي أن أصبرَ؟ كيف لي يا بسكويت؟ هل نسيت أنني كنت المخلصَ والوفيَّ لكِ؟! كنت صديقتي وحبيبتي وأحب حمايتها ومرافقتها؛ خشيةَ حدوثِ أيِّ سوءٍ لها، فهي كما تعلمون سالي بسكويته، وتشعرُ بالقلقِ عندما تسافرُ خارجَ المحافظةِ للعملِ بمفردها دون فتياتٍ أخرياتٍ في صحبتها.

هل تجاهلت كلّ هذا- أنّني حارسك الأمين، والراعي لملابسك وحاجياتك وحافظةِ نقودك، حتى لا تصرفيها على ملذّاتِك الطّفوليّةِ، كما أوصتني الست كوكب، فمرّةً حين رجوعنا من إحدى انتهاكاتِ المتعةِ والرّغبةِ الإنسانيّةِ هكذا أفلسفها، وكان هذا في مدينةِ القاهرة، دخلت سالي السّوبر ماركت، واشترت كلَّ ما تشتهيه بأكثر من نصفِ ما تقاضته من أجرةِ عملٍ في إحدى الشُّققِ الفاخرة، هاها...ها. وأخذنا أنا وهي علقةً ساخنةً بفردةِ شبشب (زنوبه) ذي الإصبع الإبهام للست كوكب.

هل نسيت أنني أنقذتُك من هذا العجوزِ المتصابي المتوحشِ الذي ينفخُ هدفه، ولا تتحملين ولا تطيقين حتى أنفاسَه، وكاد أن ينفجرَ من مفعولِ الحبّةِ الزّرقاء، لكن أزحته بكلِّ قوتي حتى لا تأتين إليه، حيث كان ينتظر بسيارته أمام قبوي، ألا تذكرين؟ ألا تذكرين؟ هل تنكرين مثل القطط التي لا أحبُّها. تأكلين وتنكرين أيتها الجاحدةُ القاسيةُ القلب، وتهبين قلبك الحنون ورهافتك وجسدك النّحيف النّاعم لهذا الأخرفِ وسيم الملبوس بالعفاريت، وبعد كلِّ هذا كيف لي أن أصبرَ؟!

كيف يا سالي؟ لم أفعلْ شيئًا، لقد ذهل عقلي، وأدمي قلبي من طول الصّبرِ والإخلاصِ والأنينِ المكتومِ، إذًا قولي لي الآن ماذا تريدين؟ أو ماذا يجولُ في أفكارك وخواطرك عني؟ أعرفُ ما سوف تقولينه يا فراشتي: هي واضحةٌ يا قططي، أولا تراها أو تشعر بها يا أبله، أم قططي فلسفة حتى تهدأَ الجميعَ، يدفنها في داخل نفسه، دون التفوُّهِ بها، أنت تطلب المستحيل، وهذا ليس من حقك".

على العموم يا سالي أنتِ عندكِ حقٌّ، ربّما أكونُ لست جديرًا بأحدٍ، بل بأيّةِ حياةٍ طبيعيّةٍ مثل كلِّ الأشخاصِ الآخرين العاديين، الذين يمرُّون رواحًا وغدوًّا بلا معنى، بلا اهتمام، بلا مبالاة.

ولكن ظُلمت بما فيه الكفاية، من يوم مولدي وأنا في ظُلمٍ شديدٍ من قسوةِ البشرِ، حتى وهم يحبُّونني ويلاطفونني بسخريةٍ مقصودةٍ أو شرّيرةٍ أو ربّما بريئةٍ، لا أدري بالضبط!

وإن كنت لا أعرفُ الحقيقةَ الواضحةَ، فأنا في حيرةٍ وشكٍّ من كلِّ شيء وكلِّ شخصٍ حولي. هل كانوا يحبونني بالفعلِ أم يشفقون عليَّ أم ينتقمون مني تحت ادّعاء الحبِّ؟!، يا إلهي اسمعني أرجوك.. ألا ترى من فضلك أنّ الموتَ أرحمُ لي، بل يُهَيَؤ لي أنّ القتل هو الحلُّ الأمثلُ لمن هو على شاكلتي، ولولا رعايتي لأسرتي لفعلتها، تلك الفعلةُ المحرّمة: الانتحار- أي الموت بإرادتي، هذا الخيارُ الراديكالي العنيفُ الذي ينهي حياتي و أقوالي و أفعالي ومتاهاتي مع كلِّ هذا الوجود.

نعم؛ لأنني في حالةِ اعتراضٍ وتمرُّدٍ شديدٍ على هذا الوجود التّافهِ والعدميِّ في هذه المدينةِ التي أصبحت بلا قلب.. نعم.. نعم، فما ذنبي أنا ليحدثَ لي كلُّ ذلك، بل وعليَّ أن أدَّعي الرِّضا كيف ومائة كيف؟ وقد وصلت للحنقِ الشّديدِ من هذا الوجود، حتى أنفاسي بين الزّفيرِ والشّهيقِ أسيرُ بها على هذا الكوكبِ الشّيطانيِّ، لقد كرهتُ نفسي من الكمدِ والغضبِ وما أراه من الحقدِ والبغضِ الذى لا نظيرَله من الآخرين، بعد سنواتٍ مرّت، وأخرى ستمرُّ من الرّغبةِ والشهوةِ المكبوتةِ داخلي تبحثُ عن رجلٍ حقيقيٍّ، عن ذكرٍ فحلٍ، عن وجودي وحياتي وهمومي، وسأصلُ في نهايةِ الأمرِ إلى تفهُّمِ أعذارك يا فراشتي السّاحرة،

و أقولُ لكِ جوابًا من المحتملِ أن يصدرَ عن عقلك الصّغيرِ كمؤخرتك التي لا تعجبُ زبائنَ وعملاءَ منزلِ الست كوكب الأنس، لا شكَّ أنكِ إنسانةٌ رائعةٌ أمام نفسك، وأيضًا أمامي، وأشعر بالفخر الكبير بكِ في تلك اللحظةِ الآنيّةِ بالذّات التي ستنقلبُ بعد لحظاتٍ قادمة. لا تُخفي السأم والألم الذي يملئني نحوك بوجه عام، أنتِ حققتِ حلمك و أقصى أمنياتك، وقد هربتِ مع هذا العاشقِ الملبوس، لأنك عشقتيه، ولا تشتهين رجلًا غيره، ولا تتقنين عملك في الرذيلة؛ لأنك لا تريدين أن تستمرَّ بك الحياةُ في منزلِ الأنس بتاتًا.

أنتِ أفضل حالًا مني يا سالي، لأنك وضعتِ هدفًا، وهذا غير أهدافِ الرجالِ الوضيعةِ، بينما أنا لا أشتهي من كلِّ النِّساءِ غيرك، وأجزمُ ألَّا أحدَ من أيِّ الرِّجالِ حتى أقلّهم يشتهيكِ ويحبّك مثلما أحبّك وأشتهيكِ أنا، حتى هذا الملبوس يا سالي، فأنا أحبّك في كلِّ حالاتكِ المِزاجيّةِ التي كنتِ بها معي، سواء كنت معي أو مع آخر، أحبك، هل تفهمين أنت تحولتِ من مجرد كائن للشهوة والرغبة، والعطر الرخيص، لرمز وقيمة عندي طويلة المدى، أصيلة البقاء، ندية الطلل لكنك هجرتيني، وحكمتِ إحساسك وقلبك دون النظر والمراعاة لفؤادي المخلص، والأمين، الذى أحبك، ولازمك في العمل، والوفاء، والبذل من أجل حبك لا غير.

آهٍ من كلِّ هذه الخواطرِ الممزّقةِ، وتلك الهلوساتِ المزعجةِ، ولكن في النهاية ولأنّ لكلِّ شيءٍ نهايةً مهما تصدّعتِ الأفكارُ داخلَ

بنيانِ خوالجي، وتكالبت على النفس بتوحُّشٍ، النهايةُ قادمةٌ لا محالةَ، وسوف تخمد كالرَّمادِ بعد كلِّ لحظاتِ الغضبِ التي تطيح بنا وتجعلنا نتفوَّهُ بأبشعِ الكلمات، و أبغضِ الاتّهاماتِ، لا لشيءٍ إلّا لقدرٍ متعثّرِ الخُطَى، لا يريد أن يجمعَني بمن أحبُّ من أجلِ نصيبٍ ليس لي .

فعلًا أنتِ على حقٍّ، أنا المخطئُ والغبيُّ بالفعلِ، أنتِ لا حاجةَ لكِ بي، بين يديكِ الآن هذا الوسيم حتى ولو كان شابًا متهوّرًا طائشًا لا يأمنُ له في المستقبلِ بعدَ الشبعِ والانغماسِ في دروبِ الحياةِ الوعرةِ، بأن يستمرَّ في حبُّكِ وحمايتك، وأن يصلَ للرّضا ويسعدَ بما امتلكه أم العكس.. لا أعرف، فهذا في علمِ الغيب، لكن أثقُ في جمالِك وشبابِك وأبّهتك وإصرارك على حياةٍ بدأتْ بمغامرةٍ كبرى بالهروبِ مع حبيبك العاشقِ، إذًا أيّتُها البطلةُ ما عليك سوى الانصياعُ لعقلِكِ وقلبكِ، وتدميرُ قلبي وكلِّ مشاعري بكلِّ جحودٍ وبرودٍ، و أنا أردّدُ مقولتي الدَّائمة: (نقتل القتيل ونمشي في جنازته) هذا عنواني لرؤيةِ جميعِ البشر، ما علينا مريم المغامرة، وما عليك الآن سوى أن تخضعي لقدرِكِ، وتحمي حلمك الملغَّمَ من كلِّ من حولك من أشرارٍ وطيّبين وحاسدين وحاقدين وفاسدين وكلِّ الألوانِ من جميعِ البشر.

أما أنا في الحقيقةِ يا بسكويت.. لست بأيِّ بطلٍ، وهذا لأنّي للأسفِ الشديدِ إنسانٌ جبانٌ، وأريدُ أن أموتَ و أنا جبان جدًا، وسأتعذّبُ إلى أقصى درجاتِ ما سوف تجودُ به ليالي الوحدةِ

والكآبة، حتى أكادُ أحترقُ من الشّوقِ والحبِّ والشَّهوة.. كما احترقت تلك الفراشاتُ المضيئةُ في رحابِ الفنِّ والجمال. حتى ينظرَ اللهُ في أمري ويرحمني بالميتةِ الفجائيّةِ، والسّقطةِ النّهائيّةِ التي أنتظرُها كما تعلمين، أعرفُ ستصرخين بي قائلةً بعصبيّةٍ ونرفزةٍ: إذًا لِمَ تلومني يا قططي فلسفة؟!

سالي الجميلة: "أنت حياةُ الأرضِ، وكلُّ الأخرياتِ مجرّد ملحٍ للأرض" ... " يا لهوي يا أخويا.. أما انت صحيح ملسوع يا قططي.. صدق من قال إنك فيلسوف وغريب عنا".

"أم أنك بهلول فعلًا". أغمغمُ بصوتٍ خافتٍ، ناظرًا إلى التُّربةِ التي باتت رجائي من الدُّنيا و أقولُ بوقارٍ وهدوءٍ: لا شيءَ في حياتي كان حقيقيًّا، وأنّ كلَّ ما أردتُهُ فقط من كلِّ هذه السّفسطةِ والجدلِ العقيمِ أن أقولَ لك للمرّةِ المليون إني أحبك، و أبوحُ لك بوجعي وجُرحي الذي لا يلتئمُ بسببِ هروبك وغيابك عن مشهدِ حياتي، فمهما حاولت أن أكرهَك بمنطقِ العقلِ، و أنزعك من مخيّلتي، رغم أنكِ تقولين أشدَّ و أقسى أنواعِ الحديثِ بتلك السّخريةِ والاستهزاءِ البشعِ في التصوُّرِ لي، لن أستطيعَ.. لن أستطيعَ مهما حاولت.

إذًا فلتكنْ تلك الهلوساتُ، مجرّدَ حالةٍ من البوْحِ عن الدّفاعِ الثُّلاثيِّ، أنّني أحبك، أنك هربت، أنك تسخرين من مشاعري النّابضةِ، لكن تيقَّني أيّتها الفراشةُ السّاحرةُ أنني أستوعب إحساسَكِ جيّدًا، فأنتِ عاشقةٌ مثلما أنا عاشقٌ، وهذا العشقُ

لا يهبطُ إلّا في قلوبٍ تهبطُ بوحيٍ من السّماءِ الزّرقاءِ الصّافيةِ الوديعةِ بسحرِ فراشاتِ الحبِّ وجمالِ ألوانها ورقتِها الفائقةِ التي أتوقُ للصّعودِ إليها لأرتاحَ من نفسي المثقلةِ، وحبِّك الطّاغي.

ما رأيك جيجي؟! تعرفين و أنا أنتظرُ الموتَ بقربك بفارغِ الصّبرِ، اكتشفتُ أنّ كلَّ ما أتمناه الآن هو أنّي أريدُ التّحدُّثَ مع مختلٍّ عقليٍّ، ولديه القليلُ من التعقُّلِ، و أنا لا أقصدُ أيّةَ إهانةٍ لك يا ملاكي، بل أقولُ لك حقيقةً كانت غائبةً عن وعيي وقفزت فجأةً إلى عقلي بوضوحٍ الآن، بالتأكيدِ كانت موجودةً ولكن بشكلٍ مشوّشٍ، وحاولتُ إخفاءها حتى عن نفسي ، أريدُ التحدُّثَ والتحدُّثَ أمام شخصٍ يعي جنونيَ الذي اعتدْتُ عليه، يعي أنني كنتُ البهلولَ وأصبحتُ قططي فلسفة، أريدُ معه أن أفصحَ عن كلِّ هواجسي وما عشتُهُ من سخافاتٍ، وأحكي له عمّا بداخلي، ويضحكُ ويضحكُ ويستمرُّ في الضحكِ مثلما كنتِ تفعلين يا جيجي، حتى يشعرَني بسفَهِ كلِّ تلك الأشياءِ والأشخاصِ التي أرهقتني طوالَ هذه السنين دون جدوى.

هيّا أيُّها الملاكُ البريءُ عودي إلى قبوِي.. هيّا، أريدُ أن أسمعَ ضحكاتِك ترنُّ في الفضاءِ كالطائرِ البريءِ و أنت تنبحين: قطة أبك.. قطة أبك.. أبك. عندما يتحوّلُ العجزُ الأبكمُ إلى سيمفونيّةٍ من الألم والعوزِ والحرمانِ إلى رغبةٍ كامنةٍ ملحّةٍ، وفقدٍ غائرٍ و انشقاقاتٍ لا مُنتهى أو سبيلَ من الخروجِ منها داخلَ

دو ائرِ الحبِّ المدمّرةِ، وقد وصل لنهايةِ الطّريقِ وغايةِ لغزِ الحياةِ ومربطِ الثّباتِ ورباطةِ الجأشِ.

(أنا أحبُّ؛ إذًا أنا موجود)، وقد رأيتني في أعماقِ عينيك، و أنتِ تغمريني بنظراتِ الامتنانِ والحبِّ والسّعادةِ العاجزةِ عنِ التفوّهِ الكاملِ لاسمي: قطة حبك.. قطة حبك.. هه هه أيُّهما أهمُّ و أكثرُ رأفةً بتلك الإنسانيّةِ المعذّبةِ "العدالة أوالشفقة ما الفرق بينهما" أرسطو لِمَ لا تجيبُ عن هذا السّؤالِ المهمِّ، لكنّ الزّمنَ لا ينتظرُ إجاباتٍ، لا ينتظرُ أحدًا، لا ينتظرُ أحزاني، و أنا محلّك سِر، وهو يتجاهلني ويسير، ويسيرُ، ويدوسُ على كلِّ أمنياتي وأحلامي.. كلّ شيء.. كل أحد.

إذًا قططي تقدّمْ و اتركِ الماضي والبكاءَ عليه، وادهسهم، بل و افرمْهُم.. ليس هناك من وقتٍ يا غبي. لقد انتهى الدَّرسُ يا غبيّ.. انتهى الألمُ من الماضي والحاضرِ، وربّما المستقبل. انتهى.. انتهى أيُّها الغبيُّ، وستموتُ كما ماتت ملاكي البريء والجميع.

تدركين ملاكي البريء أنّ الحياةَ ما هي إلّا مسرحٌ كبيرٌ بملهاةٍ واسعةٍ و أفخاخٍ حقيرةٍ لأمثالي من الفقراءِ والضائعينِ والضالعين في التّشرُّدِ والبؤسِ في أوعيةٍ من الوسخِ والعفن والبلَهِ، عن حكاياتٍ وروا ياتٍ مخبوءةٍ داخلَ نفوسنا المقهورةِ المجبرةِ على تقبُّلِ الظُّلمِ وتحمُّله. آه.. آهٍ يا ملاكي أريدُ التّحدُّثَ والتّحدُّثَ طويلًا مع بهلولي مثلي، وهذا لا يعني أن يكونَ من كفرَ البهاليلَ بالذّات، وليكنْ حتى من بلادِ القوقازِ أو الهنودِ الحمر،

فقط ينصتُ إليَّ بكلِّ انتباهٍ، وأريدُهُ مثلي يدركُ الحقيقةَ الواضحةَ: أنّ البهلولَ لايريدُ أيَّةَ حياةٍ؛ لأنَّ الحبَّ هو ما يجعلُهُ يحيا، ومادام انتفى وجودُهُ فلا ضرورةَ له للحياةِ على الإطلاق.

تمت

عابرُسبيلٍ

مدينتي تسكنُ على حافّةِ القلوب، تزدحمُ بكلِّ التّعاسات، والأفراح، وحالات العشق، والفتن، والأفكار. بكلّ هذا الجحيم، ولا ينبعثُ صوتُ البحرِ الهادئ الصّافي، إنّه صافٍ؛ لأنّه يحتضنُ كلّ الكوارث بأمواجٍ متدفّقةٍ، تاركًا للشّاطئ ذاكراته العطرة، أمّا النّاس في بلدي؛ فهم يعشقون حكاوي المصائب، وGrass (المخدّرات)، والنّساء، التي يتهامسون بها في الصّباح؛ حيث تنسكبُ ككوبِ الماء مع الإفطار، ورشفات الشّاي، ودخّان السّجائر، أمّا في المساءِ فيلوكون فراغَهم واكتئابهم على

القهاوي والنّواصي. إنّها تمارينُ للعيشِ من أجلِ التكيّفِ مع الحياةِ بأيّة طريقةٍ، حتّى ولو كان عمدًا مع سبقِ الإصرارِ والترصّد.

إذا ركبْتَ طائرةً، ومرَّ جناحُها سهوًا على مدينتي، ونظرْتَ عن غير قصدٍ، أوّلُ شيءٍ سيجولُ في خاطرك أن تُطلقَ عليها اسم "عابر سبيل "؛ لقربها الشّديدِ من القاهرة، تتركّزُ حيويّتُها في شارعين: الرّياضي، والبحر...

عند السّاعاتِ الأولى من النّهارِ يتجمّعُ الرّجالُ على القهاوي: عمّالُ مصرَ، والزّجاج، والعهد القديم، خاصّة العمّال الذين يعملون باليوميّة، في انتظارِ عربةٍ تنقلهم لمناطقِ العمل، وتحتويني لغةُ التأمّلِ عند محطّةِ القطار، أروعُ ما أنتمي إليه بجسدي وروحي، إنّه المكانُ الوحيدُ في نظري الذي يمنحني بعضَ التّعاطفِ مع هذه البلدةِ المسكينة.

في فترةِ الصّباحِ الممتدّةِ إلى الرّابعةِ عصرًا، تعجُّ المحطّةُ بالطّلبةِ الآتين من المراكز، والقرى، والنّجوع للذّهاب إلى مختلف المدارس من: الثّانوي العام، والصّناعية، والتّجاريّة، والجامعة. أغلب قاطني بندرِ المحافظةِ يعملون في مهنةِ التّدريسِ أو الوظائفِ الإداريّة، لانتشارِ المصالحِ الحكوميّةِ والمدارس، ولا توجدُ فيها مصانعُ كثيرةٌ، ولا مسرحٌ دائمٌ، ولا سينما، غير سينما درجة ثالثة لأعمار الصّغار، أمّا التّجّارُ وأصحابُ الشّركات، فأصولهم ليست من هذه المدينة، إنّما من الصّعيدِ الجوّاني،

فالمدينةُ خليطٌ من الصّعايدة والفلّاحين، ويتفاخرُ الصّعيدي منهم بهذا أثناء حواره محذّرًا:
.خلّي بالك أنا من قنا.
.خلّي بالك أنا من أسيوط.
إذا أمْعَنْتَ النّظرَ لدقائقَ، وأدرْتَ رأسَكَ يمينًا وشمالًا، فستجدُ أنّ البلدةَ تُغلقُها وتفتحُها خمسةُ مداخلَ أساسيّةٍ: الطّريقُ السّريعُ، والصّحرواويُّ، والزّراعيُّ، وغيرها يمرُّ القطارُ من خلالها على شريطِ السّكّةِ الحديدِ الممتدِّ باتّجاهين قبليٍّ وبحريٍّ، وإذا توقّفَ فجأةً، وخاصّةً قطار البضائعِ، يشلُّ حركةَ المرورِ والنّاسَ تمامًا.. وأحيانًا لا تقفُ فيها بعضُ القطاراتِ بعينها، ويبقى سؤالٌ لراكبٍ متطفّلٍ فضوليٍّ ألحَّ على مخيّلته.
.بلد ايه دي؟!
أردُّ بروحِ ابنتها البريئةِ من ذنبها:
.مدينة بني سويف...التي هي كعابرِ سبيلٍ.
تشيرُ ساعةُ المحطّةِ إلى السّاعةِ الحاديةِ عشرة مساءً، متوسّطُ كسرِ الانتعاشِ والضّوضاءِ في ليالي الشّتاءِ القاسية، ويسيطرُ صمتٌ يُمزّقُ القلوب. عندئذٍ ألجأُ للتّمشيةِ على الكوبري لأرى مجرى النّيل. أكبر اتساعٍ له في تلك البلدة العابرة. المسمّى مجازًا شارع البحر، أراه معتمًا، حزينًا، رافضًا وردَ النّيل الذي يعوق جريانه، ويُعاديه بنباتاتٍ شيطانية. كنْتُ أفعلُ هذا بشغفٍ لكي أستحمَّ به من كلِّ غباءاتِ العالمِ حولي؛ حتّى يهدأَ عقلي،

ويمنحني تلذّذًا خاصًّا عندما أقومُ بحكِّ تفاريكِ تعاريجِ جسدي المشتاقةِ إلى مياهِ بحرٍ حقيقيٍّ، وأشعرُ داخله أنّني امرأةٌ متوحّشةٌ قادرةٌ على فعل كلّ شيء.

فجأةً أنتعشُ في أحدِ صباحاتي الباهتة، أضحكُ، وأتحدّثُ، وآكلُ ببلاهةٍ، وتكونُ نيراني خامدةً، وتيّاراتي مكبوحةً، لذلك رأيت أنّه يجب أن أدرّبَ نفسي على اكتسابِ ميزةِ الانفصالِ عن عالمِ الضّجيج، ويصبحُ هو طبيبٌ نفسي المتعبة، لأدرَك به أنّ التّعبَ مع الوقتِ سيصبحُ مجرّدَ زيْفٍ وسرابٍ، وسيتبخّرُ مع إجراءاتِ تبديده بمدى صمتي وقوّتي، ويصبحُ بوسعه أن يتّخذَ الإجراءاتِ اللّازمةَ ليتلاشى هذا الحزنُ والألم.

وليكنْ! ما سأفعلُهُ الآن هو أنْ أضغطَ على زرِّ تشغيلِ الكاسيت (الوكمان)؛ لأنصتَ إلى ضجيجي الخاصّ.

عاصفةُ التِّنّين

الظَّلام يوحي لنا بالكثير، وتلك الدَّوائر والأشكال الغرائبيّة تتشكَّل أمام عينيَّ البارقتين بالنّظر، لأقتحم مسار الرُّؤية رغم هذا الظّلام الكثيف. كان حبيب الظّلام يأتي دومًا في تلك اللّيالي الغائبة منه الآن، حينما كان يقترب موعد نومي، وأقبع في الظّلام الدّامس لاستجداء النّوم، كان وكانت تلك اللّيالي الطّويلة لسنوات طوال حتى حلّ الفراق اللّعين. لغة الأحياء والموتى في مسار تلك الحياة المبهمة، وأصبحت حياتي مظلمةً في الصّباح والمساء، كلٌّ على حاله سواء بعد رحيله المفاجئ كظهوره المفاجئ أيضًا، وبتُّ في ظلامي أفرفر كالدّجاجة المذبوحة بأنين الخلاص، بدون حديثه الشّجي، ودفء الحب والشّوق والاشتياق والحنين، وكلّ هراءات الحبِّ المعهودة لنا نحن البشر المساكين دون حبّ، دون رجاء، دون ونيس، غير أن نحتضنَ وسادة الوحدة المظلمة. ظللت ليومين وأنا أقبع في الظّلام الفعليّ دون إرادتي كما أفعل، بسبب انقطاع الكهرباء والماء، فقد حلَّت عاصفةٌ أُطلق عليها (عاصفة التّنّين) الهوجاء، بأمطارٍ غزيرةٍ وبرقٍ ورعدٍ عطّلت كلّ شيءٍ، حتى أغرقتِ البلاد في حلكة الظّلام المرعب. التقطت تليفوني لأقهرَ هذا الظّلام الإجباري الجاسم على أنفاسي دون مشيئتي. تصفّحت في مدونة (كورونا مصر)، هذا الضّيف الجديد المسمّى (جائحة الكورونا المستجدة - كوفيد ١٩)، لأتابع كلَّ ما يستجدُّ من نصائحَ

وتعليماتٍ تأتي من منظّمة الصّحة العالميّة، وكان اليوم عن خطوات غسل اليدين بالماء والصّابون للحماية من تسلّق الفيروس إلى الوجه عن طريق الفم والأنف والعينين، بوقتٍ لا يقلُّ عن ٢٠ إلى ٣٠ ثانية، مع مقترحٍ غنائيٍّ عند الغسل بغناء جملة: (هابي بِرث دي تو يو) مرّتين أو ثلاث، حتى ينتهي الأمر صحيحًا. في اليوم الثّالث توقّفتِ الأمطار واضطّرت للخروج مساءً؛ لتجديد باقة التّليفون، وعدت سريعًا طبقًا لقانون التّباعد الاجتماعيّ، وذهبت إلى الحمّام مباشرة، وغسلت يديَّ و أنا أردِّد:(هابي بِرث دي تو يو)، وكنت تقريبًا منهارةً وخائفةً من لمس أيّ شيءٍ، وبدأت عمليّة التّطهير لكلِّ شيء، ثم جلست محبطةً دون أن أحاول لمس شيء، خاصّةً وجهي، فربّما ينتقل الفيروس سهوًا، وتمدّدتُ باسترخاءٍ على أريكتي المفضّلة أُجرّب تفعيل الإنترنت في تليفوني حتى أهدأ، لمحت على الفيس خبر وفاة المطرب الأمريكي (كيني روجرز)عن عمرٍ يناهز ٨١ عامًا، وبجانب صورته أغنيته الشّهيرة (ليدي)، فأنصت إليها بشغفٍ واستمتاعٍ، وفجأةً انتفضتُ من هذا الذّوبان الرُّومانسيّ، وقد تذكّرتُ أنّني لم أطهّرْ مقبض باب الشَّقَّة بعد حضوري، فذهبت فورًا وأحضرتُ مِنشفةَ الماء بالكلور، ثم هرعتُ إلى الحمّام في استدعاءٍ مبالغٍ للوقاية أغسل يديَّ، و أنا أردِّد بيأسٍ: (هابي بِرث دي تو يو).

مرَّ عامان، وما زالت تحتفظ برسالته في ليلة الحادثة المشؤومة: (يعني يا جزمة، يا واطية، لو ما سألتش، إنتِي ماتسأليش؛ ماشي لمّا أشوفك يا كلبة). كان ابن خالتها، تربَّيا معًا، وأحبَّا بعضهما منذ الصّغر، وتآلفت المقولة مع الأفئدة في صدفةٍ عجيبةٍ، أن يحبّا بعضهما في تلاقٍ مع رغبة الخالتين داخل الانصهار والذّوبان العائليّ بالقرابة والنّسب والحبّ تلقائيًّا والذي اقترب أوانه بمجرّدِ أن تنهيَ العروس دراستها الجامعيّة، ويجتمع الشّمل العائليّ والحبُّ الكبير الذي تغلغل في قلوبهما برغبةٍ جامحةٍ واختيارٍ حرٍّ دون أيِّ تعنُّتٍ أسريٍّ، فهما عاشقان داخل السّرب أو خارجه. ظهرت إشاعةٌ قويّةُ النّفاذ، سحرتِ الآذان بالطَّرْق والزَّنِّ على عقول الشّباب، أنه يوجد آثارٌ فرعونيّةٌ في قريةٍ تتبع مركز أهناسيا المدينة (التابع لمحافظة بني سويف)، تولّى مع الشّباب الحفر، يتقدّمهم في الهمّة والحماس التي ربّما تجلب له الكنوز التي سيلقيها عند قدمي حبيبته قربانًا للمحبّة، وتتويجًا للعشق الذي سكنه منذ صباه وشبابه، وكاد الحلم الكبير أن يتحقَّقَ، وكلّما أزاح التُّراب ورفع فأس الحفر بحثًا عن الكنز المفقود ومع اقتراب موعد الفراق، واصل الحفر لعمق عشرة أمتارٍ رغم تحذير الجميع: اصعد اصعد، لكنّ فارس الأحلام، لا يشاهد إلّا لحظة الفوز القريبة في دائرة السّراب التي

نسجتها أحلام اليقظة الزّائفة المضلّلة، حتى دُفنِ حيًّا، وهو يتلقَّف التّراب الذي ينهمر عليه ويكتم أنفاسه أمام أيَّةِ محاولةٍ للصُّراخ من أجل المساعدة والنجدة من الموت. ما زالت تعيش الصّدمة، ولم يتغيّر شيءٌ من هذا الوشاح الأسود الذي يغمرها في جسدها وقلبها وروحها كاملًا، حتى أجبرتها العائلة على قبول العريس الأخير وهو مناسبٌ اجتماعيًّا وأسريًّا من وجهة نظرهم. تمتمت تخرّف، ودموعٌ غزيرةٌ تنداح على وجنتيها بصمتٍ داخل شرنقة الذهول التي سلبتها من أيّة بهجةٍ حقيقيّةٍ لأيّةِ بدايةٍ جديدةٍ مهما كانت لامعةً ومغريةً، قائلةً بحسرةٍ ووجعٍ مريرٍ، وهي تهمُّ بحذف كلِّ رسائله من التليفون الذي لم يعد موجودًا في الخدمة:

- عندك حق يا حبيب عمري، أنا جزمه وواطيه، ولن أسأل إلى الأبد - الوداع يا فارس أحلامي.

فَاكِهَةٌ بَشَرِيَّةٌ

كانت منجة وموزة من عائلة بطّيخ من قرية (كفر شكر)، ولكنهما كانتا منتدبتين من مديريّة الشّباب والرّياضة إلى إدارة معهدٍ أزهريٍّ في مدينة بنها عاصمة القليوبية؛ لقربه من مكان سكنهما، وحياتهما الموزَّعة بين حجرتين وصالةٍ صغيرةٍ بمطبخٍ ودورة مياهٍ مرعبةِ التّكوين منَ الشُّقوق ودهان الجير الباهت الذي يتساقط من السّقف، علاوة على ماسورة المياه المتسرِّبة على الدوام، بجانب مخرج مقعدة الحمّام (الإفرنجي). خرجت موزة على المعاش، وهي تعاني من الإمساك الشّديد، لدرجة أنّ الفضلات تتحجّر في منفذ الرّاحة، وتحتاج إلى حقنةٍ شرجيّةٍ، وعمليّةٍ جراحيةٍ في المسالك البوليّة، تزوّجت وطُلّقت، ولم تنجب، بينما منجة تزوّجت وطُلّقت وأنجبت أربعة أطفالٍ، الابن الوحيد شابٌ معاقٌ عمره ثمانية عشر عامًا، ويسير بكرسيٍّ متحرّكٍ، رغم أنّ بقيّة بناتها في صحّةٍ تامّة، أكبرهنّ تزوّجت والأخريان في المرحلة الأخيرة من إتمام دراستهنّ الجامعيّة. منجة شخصيّةٌ نكديّة، لأقلِّ إساءةٍ لها تدمع، وتزفر الدّموع في عينيها، حتى وهي تبتهج وتفرح وتضحك، أو حتى في الحديث العابر دون مبرّر، أو ربّما يوحي داخلها بتذكّرِ ذكرياتٍ حزينةٍ أو سعيدةٍ تستجلب دموعها سريعًا وبشكلٍ غريبٍ لمن ينصت لها، فيتعجَّب لأمرها بالفعل؛ حتى أطلقوا عليها منجة أم دمعة، كانت تطمح بخيالٍ مفرط أن تعمل في المجلس القوميّ للمرأة، وتتشدّق

وتتحدّث كما تشاهدهنّ في التّليفزيون وهنّ يصخبن، ويعبّرن عن حقوقهنّ ويتألّقنّ بالملابس والماكياج بين الجلسة والوقفة والابتسامات، والجميع يلتقطون لهنّ الصّور، ويجرون معهنّ الحوارات الصّحفيّة والتّليفزيونيّة، خاصّةً المتميّزات والنّاشطات منهنّ، وتتمنّى لو تتخصّص بالدّفاع عن اقتناص حقوق المعاقين مثل ابنها المكلومة من أجله، ولكلّ ما يشبه حالته بشكلٍ أو بآخر، وفجأةً تتحوّل الدّمعات الخجولة إلى دموعٍ منهمرةٍ، وهي تتحسّر على حظِّها الأسود من زواجها السّابق لهذا المحامي المعتوه، الذي كان يشتري كتبًا عن أخطار السِّحر ومميّزاته، ويحلم أحلامًا غريبةً بالعفاريت، ويدهن جسده بالزيوت المختلفة، ويشاهد بعينيه المخبولتين على حوائط المنزل علامات الأعمال السّحريّة، فيتّهمها بأنّها تعمل له عملًا، ويضربها بالمنفضة التي انكسرت عدّة مرّات، فقرّرت ألّا تحضر منفضةً إطلاقًا، وليحترق تنظيف المراتب والمفروشات التي تهبدها كلّ نهاية أسبوعٍ في إجازتها من العمل الوظيفيّ. فجأةً تنتحب وتولول على سوء حظّها من عضوٍ في المجلس القوميّ للمرأة إلى منجة أمّ دمعة، ثم تنادي عليها موزة، التي تقهرها أفعال أختها المجنونة -من وجهة نظرها- وتُشعرها أنّها امرأةٌ كارثيّةٌ؛ لأنّها تعيش مع تلك المرأة عكرة المزاج على الدّوام، وهي عالقةٌ في جوال فقر الواقع، وسقف الأحلام الخياليّ الذي

يجعلها تعاني نفسيًّا، وتغرق في الأسى والحزن من أجلها، فتداعبها بقولها:

- يا منجه ألم تستوِ بعد؟!

فتردّ وهي ترسم إيماءاتها الحمقاء على شفتيها المبلّلتين من الدّموع، وهي تتنهّد:

- آآآه، أصلي لسه على الشجرة يا موزة مستوية وطعمة.

قصٌّ ولَصْق

كانت تبحث عن أوراقٍ ملوّنةٍ بألوان الأحمر، والأزرق، والأسود، والأبيض، فقد قرّرت أن ترسم أشكالًا فنّيةً من هذه الأوراق الملوّنة المتناثرة على أرضيّة حجرتها، جلست متّكئة على جدار الحائط، عيناها زائغتان لا يحملان أيّةَ دهشةٍ أو حماسٍ لعمل شيءٍ. تعجّبتُ و اندهشتُ عن ماذا تبحثُ بالضّبط لتشكّلَ هذه الأوراق الملوّنة؟! تجاهلتُ كلّ ماهو ضروريّ أن تفعله، وذهبت تبحث عن مخيّلة أخرى تفكّر فيها، وهي تتساءل قائلةً: "هل كان لا بدّ أن أغترب هكذا عن كلّ أحلامي، وآمالي، و أتوارى في نهاية الأمر داخل حجرتي؛ كجرذ صغير ينقر بعينيه الدّقيقتين اتساع عالمٍ لا حدود له؟!

نظرتها عانقتِ الجدار الذي أمامها، متراصّة عليه صور الأحبّاء القدامى، وبنظراتٍ طويلةٍ قرأت الذّكريات داخلها بشكلٍ واضحٍ، فكان الانهيارالكبير، وهي تغوص في محيط الذّكريات الواسعة، تخيّلت كلّ صورة فيها بلونٍ مغايرٍ من صُنْعِ تخيّلها، وهي تشكّل المعنى والمغزى الأهمّ. قالت تخاطب الذّكريات بتحدٍّ: إذن عليّ بصياغة ماهو ملائم من أشكال، وألوان أخرى غير حقيقتها لتعبّرعن أرواحهم، وملامحهم كما أراها بتصوّر مختلف يناسب مدى ارتباطي بهم.

تذكّرت حبيبها، وضحكت من سخرية القدر، وما حتّمه عليها الفراق الكبير، الآن، وهي تعايش الموقف نفسه لها من قبل،

لكنّ الفارق هائلٌ. هي وحيدةٌ الآن وتبحث عن أفكارٍ جديدةٍ مبتكرةٍ لعمل لوحاتٍ فنيّة؛ للإشتراك في المعرض السّنوي، وأصبح حاضرها بدون حبيبٍ بعد هجره. بجانبها كلّ أوراق القصّ واللّصق الملوّنة مهيّأةً كسمكةٍ شهيّة المذاق للاقتناص، نظرت مرّة أخرى إلى صورة حبيبها على الجدار، تذكّرت ما كان يفعله بحوائط المنزل، كان يلصق لوحاته الورقيّة الصغيرة من اسكتشات، وعندما يفرغ منها، ويجد المساحات بعد فارغة، يطلي الحوائط بألوانٍ ورسوماتٍ مستوحاة من بعض المجلّات، وأحيانًا من نظره إليها. تأوهّت بحرقةِ الجمرِ الملتهبِ، أحسّتْ كأنَّ قلبَها كرةٌ متأجّجةُ الاشتعال تكاد أن تنصهر، بكَتْ واضعةً رأسَها داخل راحة يدَيْها، ثمّ داخل قدمَيْها، وهكذا تتالَتْ أشكال الاختباء والهروب، حتّى كانت الطّامة. غرفة بيكاسو، أصرّت أن تدخل النّعش المغلق، انتفضت قيامًا كمن يأمرها دون إرادة منها أن تذهب إلى هذه الغرفة المغلقة، اللّوحات منسّقةٌ في منتصف الجدار على مدار دوران الغرفة، واتّساعها، تذكّرت رقصة الحبّ مع بيكاسّو العظيم، عندما كانت تقف لتتأمّل تلك اللّوحات، التي تحيط دوران الحجرة، فتدور في أرجاء الغرفة، ويوحي لها هذا الدّوران أن ترقصَ مع نغم إيحاءات لوحات بيكاسّو المتراصّة على الجدران بانتظام، وتجذبها تفاعلات حلقة المشاهدة في هذه الغرفة أكثر بمجرّد أن تضغط على زرّ الكاسيت؛ فتنصت وتتفاعل روحها مع نغم الموسيقى الذي

يتدرّج في صخبه، ليحوّل عالم الغرفة الفنيّة إلى وطنٍ محبوبٍ متجانس الأطراف، منسجمٍ، وتتدفّق أطياف الفنّ داخل همسات قلبها المشتاق إلى كلّ حركةٍ جسديّةٍ تدور بها مع حبيبها، وتحوّلها إلى جسدٍ وعقلٍ حرٍّ يشهق ارتفاعًا وهبوطًا بحثًا عن شهوةٍ طاغية؛ لاستحواذ أكثر من مذاقٍ شهيٍّ في الحياة.

خرجت من غرفة بيكاسّو، وذهبت تجلس عند الجدار الأوّل، ساقاها ممدودتان، وقد احتوتِ العالم في غايته لها الآن، وعيناها متوهّجتان بألق ذكرى رقصة الحبّ، ثم تربّعت في جلستها، وقد حسمت قرارها داخل نفسٍ اطمأنّت أخيرًا تهمس بخفّة:

- بألوان حبيبي السّوداء، والبيضاء، والحمراء، والزّرقاء سأشكّل بها أرقامًا وحروفًا وأشكالًا عن ذكريات أرواحٍ باتت ماضيًا بعيدًا ؛ لأستدعي بها روح الحياة الجديدة بكاملها؛ وداخلي العميق يستعيد أرواحهم، وروحي بين القصّ، واللّصق.

مَسْرَحُ مِصْرَ

كانت تعمل في مجال النّشاط الإنسانيِ الافتراضيِّ، وعنونت صفحتها على الفيس بوك "خبايا عالمٍ افتراضيٍّ" تستقبل منه على الخاصِ كلَّ الحالات المعنيّة بمشاكلَ نفسيّةٍ، ويحتاجون إلى البوحِ والفضفضة وتقديم الحلول لهنّ، وإذا تعذّرتِ الحلول تعمل على المواساة والمحاباة والصبر، والثّقة بالله ورحمته. أكثر ما خاطر وجدانها أنِ اتّصلت بها صباح تليفونيًّا، من مركز ناصر (محافظة بني سويف)، ترجوها أن تساعدها في أن يرى طفلٌ من قريةٍ مجاورةٍ لهم مريضٌ بالسّرطان، وأمّه أميّة تجهل كلَّ عوالم النّت بما فيه العالم الافتراضيّ الأزرق، ذلك أنّه يبكي راجيًا رؤية الممثّل المسرحيّ المشهور(أشرف عبد الباقي) عن قربٍ أثناء العرض المسرحيِ حيًّا نابضًا دون المشاهدة التّليفزيونيّة؛ لأنّه يعشقه وجميع فرقة مسرح مصر، فهو يريد أن يقترب منه ويحتضنه ويقبِّله، وأنّها ربّما تستطيع ذلك من خلال نشاطها الاجتماعيّ الافتراضيّ، وعلاقاتها مع أصدقائها الصّحفيين والإعلاميين الممتلئة بهم قائمة أصدقائها وصديقاتها، وأيضًا مستعدةً للتكفُّل الكامل لهذه الرّحلة الفنّيّة من أجل هذا الطّفل الذي لم يكمل العاشرة بعد، ويعاني من المرض الخبيث. كانت صاحبة الصّفحة الافتراضيّة الإنسانيّة، تحدِّثها من مكبِّر الصوت في المطبخ أثناء الطّهي، واستمرّت المحادثة لأكثر من ثلث

ساعةٍ وسط أبخرة الطّعام، والأوعية والأو اني، و انتهت الإشارة التليفونيّة، وأصابها وجومٌ حادٌّ، ثم فجأةً.. ذهبت إلى السّرير تسترخي في صمتٍ وتفكيرٍ عميقٍ لهذا الطّلب الجديد والغريب ممّن تسمعهم، وتقترحه مشاكلهم من أصدقائها وصديقاتها الافتراضيّين، ومثل لها حادثًا غريبًا لهذا لطفل، وجارته، والذين يستخدمون وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وهم يطمحون ويحلمون ويسعون لتحقيق أمانيهم الخاصّة والصّغيرة داخل مسرحِ الحياة على الشّاشة الزّرقاء.

تنويه: مسرح مصر، فرقةٌ مسرحيّةٌ مشهورةٌ في محافظة القاهرة، وأشرف عبد الباقي، فنّانٌ مصريٌّ مسرحيٌّ مشهور.

نادية وصفي

كنتُ أراكِ، و أنتِ تُخْمِدين كلَّ حلمٍ قديمٍ، وتَقبَلينَ بكلِّ ما هوَ عاديّ، ورغمَ ذلكَ أستشعرُ البهجةَ، والتّفاؤلَ في قلبِك دومًا.

.اربط الحمار مطرح ما صاحبه عايزه.

مقولةٌ خاصّةٌ بالأستاذة نادية وصفي، وهوَ اسمٌ مركَّبٌ يُكتب في بطاقةِ الهويّةِ نادية وصفي محمد إبراهيم الدسوقي، وهذه المقولةُ هي مبدأٌ إداريٌّ يجمعُ كلَّ الأفكار الإداريّةِ العبقريّةِ التي تُمَرِّرُ لتَسييرِ الأمورِ بأيّ شكلٍ، وتقولُ كلمتَها المعتادة:

- ايه اللي بيجرى في العالم، القيامة قرّبت ولا ايه ياجماعة، ربّنا يستر.

نادية وصفي السيدةُ الشقيّةُ المرحةُ الضّاحكةُ كثيرةُ الحركةِ والثّرثرةِ، وقد أُحيطَت بعنايةٍ بالغةٍ من أسرتِها لاعتلالِ صحّتِها منذُ الصِّغر، المولَعَةُ بالعملِ الإداريِّ، والتّغيّراتِ السّياسيّة التي تحدثُ من حولِها، حيثُ اعتادَتْ على شراءِ مختلِفِ أنواعِ الجرائدِ اليوميّةِ، وعلى الرّغم من تحذيراتِ الجميعِ لها بعدمِ الحركةِ كثيرًا، إلّا أنَّها كانت تندفعُ بِطاقةٍ لا تنفُذُ للحياة.

مديرةُ شؤونِ العاملين بمديريّةِ التّربيةِ والتّعليمِ في بندر (بني سويف)، معروفٌ عنها الالتزامُ الشّديدُ والتفاني في العمل، الوحيدةُ تقريبًا التي لا زالت تلبس "البونية" على رأسِها، على الرُّغم من انتشارِ ظاهرةِ الحجابِ، واستهزاءِ الأخرياتِ من صديقاتِها:

- يا أبله نادية غطّي رقبتك، عيب دا إنتِ ستّ كبيرة ومسلمة يا شيخة.
أما عن اختيارِها لأزياء ملابسِها، فهذا أيضًا شيءٌ غريبٌ، فهي غالبًا ما ترتدي (جوب) بينَ الطّولِ والقِصَرِ بعضَ الشَّيء، مع ارتداء بلوزاتٍ قصيرةٍ تتعدّى الخصرَ بقدرٍ ضئيل. وغالبً ما ترتدي الشّرابات الشّبيكة على جميعِ أنواع الأحذيةِ في فصلَيِ الشّتاءِ والصّيف.
تعشقُ عبد الحليم حافظ، وتضعُ له في كلِّ مكانٍ بمنزلِها الكثيرَ من الصّورِ المبروزة بالإطارِ الذّهبيِّ الخالصِ وتقولُ:
- عبد الحليم ما متش، احنا هنموت، وهوّ ها يفضل عايش.
تفتخرُ وتشيدُ بحصولِها على رخصةِ القيادةِ، ولديها سيّارة ١٢٨ موديل حديث، وأنَّها وهي صغيرةٌ كانت تتعلّمُ في مدرسةٍ داخليّةٍ معَ ابنةِ الفنانةِ الكبيرةِ (عزيزة جلال)، وكانَ أبوها يعملُ مهندسًا زراعيًّا، و يرسلُ إليها سيارةً خاصّةً مصحوبةً بأخيها لتذهبَ بهما إلى المنزلِ في نهايةِ كلِّ أسبوعٍ حيثُ الإجازةُ، جاءَها عريسٌ بعد حصولِها على الثّانويّة العامّة، كانت تشعرُ أنَّها تريدُ أن تتخلصَ من سُلطةِ الأبِ والأخِ الأكبر، كانَتْ تأملُ في الحبِّ، ففشلَتْ لعدمِ جرأتِها على صنعِ أيّةِ علاقةٍ مثل الفتياتِ الأخريات في المدرسة. فقرّرَتْ أن تتخلّصَ من كلِّ هذا بالزّواجِ من رجلٍ يكبرُها بتسعة عشر عامًا، يا لَفارِقِ السّنّ! فارقٌ في كلّ شيءٍ، حتّى في طَعْمِ الأحزانِ بينَهما. تقولُ إنّه لا يتحدّثُ إطلاقًا

معها، يُتقنُ عملَه، ومسؤوليّة الأطفالِ فقط، منذُ ذلكَ الوقتِ خاصمَتِ الحياة، وتعترفُ أنّها تَربَّتْ في بيتٍ تنتقلُ فيه النّساءُ من المنازلِ الرّفيعةِ المقامِ إلى آخرَ دونَ أن يُسْأَلْنَ، يعاشرونهُنَّ دونَ أخذِ رأيهِنَّ، ويلِدْنَ منهُنَّ دون استشارتِهِنَّ، وأيضًا يسحبونَهُنَّ إلى الجباناتِ الضّيّقةِ دون سؤالٍ عن إن كانتْ سعيدةً أم لا. هنا في هذهِ البلادِ، بلادِ العالمِ الثّالثِ يجبُ أن نعملَ، ونعيشَ، ونلِدَ، أو العكس نعيشَ، ونعملَ، ونلِدَ.

تتحدّثُ بطلاقةٍ في أيِّ موضوعٍ خاصّةً الآراء السّياسيّة، وقدِ استمدّتْها من خالِها الذي كان يُعتبَرُ أحدَ القياداتِ الكُبرى بحزبِ الوفد. هذه الأيّامُ اهتمامُها كانّ مُوَجَّهًا إلى (الكادر) الوظيفيِّ الذي سيرفعُ مرتباتِ كلِّ العاملينَ في التّربيةِ والتّعليم، ومن شدّةِ اهتمامِها، وهوسِها بما يحدُثُ اشتركَتْ في خدمةِ Egynew (خدمة توفّر الأخبارَ السّياسيةَ بمجلسِ الشّعب) على sms الخاصِّ بها، وكتابة تواريخِ الأحداثِ المهمّةِ خلفَ أوراقِ النتيجةِ التي تنزعُها في بداية كلّ يوم، وتحتفظُ بها في دُرجِ مكتبِها الخاصّ، ولنأخذْ مثلًا:

جاءَ اليومُ الموعودُ من خلالِ رسالة sms خدمة Egynew 21 / 6 / 2007م. السّاعةَ السّابعةَ والرّبع مساءً تقريبًا، وو افقَ مجلسُ الشّعب نهائيًا على تنفيذ "الكادرِ الوظيفيِّ للمعلّمين والإداريين". قفزَتْ كالأطفالِ، وكاد قلبُها يقفُ، وشعورٌ بالبهجة والانتصارِ يملؤها، وكأنّه شعورُ الانتصارِ في معركةٍ كبيرة. قامَتْ بعمَلِ

حفلةٍ لصديقاتِها بهذهِ المناسبة التي ستحقّقُ أحلامَ جميعِ زميلاتِها بالعمل. الأستاذةُ رحاب الّتي تخطّتِ الخامسةَ والثّلاثين ستتزوّجُ، الأستاذةُ جمالات عاملةُ صرْفِ المرَتّبات، ستقومُ بإجراء عمليّةٍ لابنها المريضِ بالقلب، الأستاذُ ماهر سيحقّقُ حلمَ حياتِه، ويفتحُ مكتبةً للأدواتِ المدرسيّة.

لكنَك لا تدركين أيّتُها السّيدة الإداريّة الأولى في ديباجةِ السّنداتِ الورقيّةِ قانونيًّا، وإداريًّا أنَّ كلَّ هذا وهمٌ، معركةٌ مع من؟ وضدّ من؟

أنا و أنتِ وكلُّ هؤلاء الذين يجلسونَ على مكاتِبِهم القديمةِ ذات اللّون الرّصاصيّ الباهتِ، بأزياءٍ ووجوهٍ ونظّاراتٍ عفِيَ عليها الزّمنُ، ما هو إلا ديكورٌ رخيصٌ لم يعد له عُمَلاء. جاءَتِ اللّحظةُ الحاسمةُ، و أنتِ تتقاضين راتبَكِ الشّهريّ متوهّمةً أنّهُ أصبحَ أضعافًا مضاعفة، و ابتسامة لا تدركين هل إشفاقٌ أم شماتة على وجه عاملةِ الصّرْفِ، وتتساءلين:

- ما هذا؟، إنها ٢٧٥ قرشًا. أهذا هو الكادرُ الوظيفيُّ الذي كان حديثَ مصر كلِّها لمدّة عامين؟

أنتِ يا نادية وصفي داخلَك شيطانُ التّمرّدِ والمقاومةِ لا يهدأُ، وخبرتي الطّويلةُ بك، تؤكّدُ لي أنّكِ لستِ بالمرأةِ الضّعيفة، فأنتِ كنْتِ وما زلْتِ نشيطةً وتقومين بأعمالِكِ بنفسِك، ولن يمُرَّ وقتٌ طويلٌ حتّى تستعيدي نفسَكِ وتُدركي أنَّكِ لسْتِ بنتَ هذه الحياة وسطَ تقاليدِ الأسرةِ والعمل وأجوائها، وتمزجين بطابعِكِ

الهستيري الذي تُعَبِّرُ عنه ملامحُ وجهِك الحادّة، وإشاراتُ يديْكِ المنفعِلة قائلةً:
- في العمل يتحدّثونَ لغةً أخرى لا أعرفُها، على الرّغم من أنَّهم يتحدّثونَ باللّهجةِ المصريّة مثلي؛ فاللُّغةُ تعبّر عن أفكاري، وليسَتْ مجرّدَ كلماتٍ لا هدفَ منها أو روحَ فيها، فاللُّغةُ هي الأفكارُ التي لا بدَّ أن نحيا معها بالتّساوي مع ما بداخلِنا وحديثِنا، وليسَ مجرّدَ تُرّهاتٍ، مثل التي يقولُها الجميعُ من حولي في البيتِ والعملِ والشّارع.
فجأةً هكذا هزّتْ كتفَها، ثم انصرفَت تتبعُها برودةٌ مصحوبةٌ بغموض ما حطّمَها، ورأتْ فيه أنّ الحياةَ طريقٌ شديدُ الانحدار.
ما هذا الذي يجولُ بخاطرِها؟ يتملّكُها الحزنُ، ودونَ أن تدري سقطَتْ يداها على سطحِ المكتبِ تُتَمتمُ أو تهذي بأصواتٍ خافتةٍ تُشعرُنا بالرّهبةِ قائلةً:
- أشعرُ بالمقتِ من كلّ شيءٍ حولي، سأصنعُ دميةً محشُوّةً من هذهِ الأوراقِ الكثيرة، المتناثرةِ في كلِّ أجواء الحجرةِ تمرحُ داخلَها أفكاري. وتنبؤاتٌ عن عالمٍ أفضل، وأملأُ الأوراقَ بالسّطورِ، ثم أمزّقُها، وأطيحُ بقصاصاتها لتملأَ المسافة ما بينَ موتي، والميلاد.
الأوراقُ تبعثرَتْ، والقلمُ اعتراهُ الصّمتُ، الجريمةُ تتكرّرُ كلّ يومٍ.
شردَتْ بِفُتورٍ، وتذكّرَتْ قسوةَ الإحساس بالظّلمِ من كلّ الحياةِ التي عاشتْها، وأخيرًا بدأ قلبُها يرتجف.
واستطردَتْ تتحسّرُ قائلةً:

- ما اقترفْتُ أو فكّرْتُ في اقتر افِه، ما تصاعدَ من رأسي وقلبي يقفُ الآنَ حارسًا صارمًا على بوّابةِ السّماء الإداريّة. أيّةُ شجاعة! آه أيّها الموقفُ الصّعب. ها هو مصباحي الصّغيرُ يوشكُ أن ينطفئ، وفتيلُه يمتصُّ في نَهَمٍ قطراتِ الزّيتِ الأخيرةَ، ويخبو نورُ الحياة لينفتحَ تجويفُ القبرِ أمامي أسود ساكنًا، و أنا أتخيّلُ أنّ في الخارجِ تحت النّافذةِ الطّويلة العاليةِ في مكتبي التي هي أشبه بنو افذِ المطابعِ في مبنى من أقدمِ المباني الإداريّةِ في المحافظة، ألمحُ كلبًا أجربَ ينفضُ عن جسدِه الحشراتِ، ويضربُ بقدميْهِ على الحائطِ، على النّاحيةِ الأخرى المقابلةِ لتلكَ النّافذة، أسمع رنينَ السّاعةِ بصوْتِ الآذان، حيثُ دقّت عقاربُ السّاعة الثّالثة عصرًا.

استدارَتْ بِفَزعٍ ثمَّ استقرّت على مقعدِها الجلديّ الوثيرِ كقطعةِ خشبٍ صامتةٍ، ثمّ فجأةً شيءٌ ما هزّ كيانَها، جعلَها تشعرُ بوخزاتٍ مؤلمةٍ في جميعِ أعضاء جسدِها، والعرقُ يتفصّدُ من جنباته، وتوتّرٌ يغمرُ جبهتَها ويديها، يتردّدُ في داخلِها سؤالٌ أعزل: .لماذا يحدث لي كلُّ هذا؟! لماذا؟ لماذا؟

الأُمُومَةُ

كنَّا نِيامًا ننتظرُ ما أعدّتْهُ لنا الكوابيسُ في هذه اللّيلة، وفي أحدِ الأيّامِ، وبينما نحن ننتظرُ مفاجأتِ الكوابيسِ، إذا بشيءٍ يدقُّ بشدّةٍ، قُمْنا وتفحّصْنا النّظرَ حولنا كما تعوّدنا. ما الذي يهتزُّ فجأةً هكذا؟ ما هذا؟ يبدو أنّه قلبي الذي يئنُّ باشتياقٍ لعينيه الحائرتين والمليئتين بالدّموع.

برشامةٌ أخرى وأخرى تلدغُ تلافيفَ عقلي بعيدًا عن سمومِ الذّكريات، إنّه النّومُ والهذيان. أرى النّاس أشكالًا هندسيّةً، وبعدَ وقتٍ، عرائسُ تتحرّكُ، إنّه ليس أنا الشّخصُ البشوشُ المهندمُ اللّباسِ والوجه، إنّه ليس أنا، تعرفين يا أمّي لولا المهدِّئ، لوَجَدْتُ نفسي إنسانةً أخرى تطاردُ دموعها وسط المارّين والغادرين، حتّى لَتَوَدُّ أنْ تبتلعَها الأرض ولا يعودُ لها ظهورٌ آخر، "مش عارفة أنام يا أمي".

تتشابكُ في حضنها كهرّةٍ رقطاءَ مطرودةٍ بأخطائها، وتسمعُ ذكرى لغةَ النّومِ من الأمّ: و أنا صغيره لمّا كنت بنام، كان يجيلي صوت شيطاني، أتجنّن من القلق و أتضايق، أبدأ بالبسملة، وأعدّ من -١٠٠ لرقم ١- لغايةِ ما أنعس و أنعس فعلًا.

تحاولُ ناهد أن تنامَ محتضنةً مربّعَ الشّمسِ الآتي بزاويةٍ قائمةٍ من الشُّبَّاكِ على فراشها مرتديةً قميصَ نومٍ أحمرَ قصيرٍ، يُظهرُ بياضَ ساقيها النّحيفتين، تغوصُ وتغوصُ في أعماقِ مربّعِ

الشّمسِ المنبعثِ كخيالٍ ساقطٍ يحصدُ الأرقامَ كآلةٍ مدمِّرةٍ تحصدُ زرعًا خبيثًا وتبدأ:

١٠٠-٩٩-٩٨-٩٧-٩٦-٩٥-٩٤-٩٣-٩٢-٩١-٩٠-٨٩-٨٨-٨٧-٨٦-٨٥-٨٤-٨٣-٨٢......

- لم تكنْ بيننا لغةُ الحبِّ المعهودةُ كأيّةِ ابنةٍ لأيّةِ أمّ.

لم تكنْ بيننا لغةُ الحبِّ المعهودةِ إطلاقًا بأنّنا على طريقٍ واحدٍ، دائمًا نختلفُ، دائمًا تصرخين في وجهي، حتّى افتقدْتُ مودّتك. إرتضيتُ عذابًا ألمحُهُ في عينيك المنتهيتين من رحلةِ العمرِ الخاويةِ لأيّةِ امرأةٍ غير محظوظةٍ، وها نحن يا أمّي. لا أعلمُ كيف تتقابلُ إشكاليّتي معك؟ ودربُنا أصبح واحدًا تفتحين ذراعيك كأنّكِ أمٌّ جديدةٌ، وكأنّي ابنةٌ أخرى؟ هل لي أن أصفَ لك وجعي الذي لا يُقهر؟ أضعُ ظهري المشروخَ على مسندِ كرسيّكِ الملكيّ، وأنا أدركُ أنّ مسندَهُ ليس بخشبيٍّ ولا معدنيٍّ، إنّه كرسيٌّ ذو طبقاتٍ متعدّدةٍ للموت، تَعَدّدِ ألوانِ الطّيفِ، تعدّدِ طبقاتِ السّماءِ المعتمةِ المجهولةِ الموجّهةِ لروحكِ المكافحةِ أنْ تتجاوزَها وتصعد.. هل لي أن أرجوك أن يسعنا هذا الكرسيّ؟ أمّي: كنّا خطّين متوازيين كشريطِ القطارِ لا نتقابلُ، فكيف التقيْنا؟

أنتِ في عامِكِ السّابعِ والخمسين.

وأنا في عامي السّابعِ والعشرين.

نعبُرُ سويًّا الباحةَ الطّويلةَ لمنزلك، نسيرُ خلف بعضنا كخيالاتِ مآته، تأخذيني بهدوءٍ، وترشديني إلى جلسةِ الاسترخاءِ

والاستمراءِ والتّنفّسِ برشاقةٍ منظّمةٍ تحت غطائنا السّميك، تخلقين لي مفاهيمَ جديدةً للحياة، تزرعين لي حواسًّا أخرى، لها رنينُ أجراسٍ تدمّرُ تمرُّدي الباهظَ التّكلفة، لنجلسَ معًا جلسةً أشبهَ بجلسةِ الهنود.. أين. أين تعلّمت هذا يا أمّي؟ و أنتِ المرأةُ الطّيبةُ السّاذجةُ الفعّالةُ جدًّا في عطاءاتك لأصغرِ كائنٍ في منزلك! من أخبرك بالسّر؟ هل هو بيرم التّونسي حين قال:

- شوف الهنود و اتعلّم.

- تطلبين منّي دائمًا أن أبتاعَ لك الجرائدَ الرّياضيّة؛ لمعرفةِ مواعيدِ الماتشات مع احتفاظٍ عزيزٍ داخلك بانتمائك للأهلي، الفريقِ الوطني لك، الذي يجعلك ترفعين يديك، وجسدك كلّه، تهلّلين كالفتيات حين يحرزن هدفًا، وحلمٌ تتفوّهين به صباحًا ومساءً أن تذهبي للإستاد الكبير؛ كمشجّعةٍ أصيلةٍ لفريقك المفضّل.

- عند غروب الشّمسِ نندفعُ إلى الجلسةِ الباقيةِ لنا من هلاكٍ كان يحاصرنا، أرتعشُ ارتعاشاتٍ قويّةً أشعرُ بها كأنّني جمرةٌ مشتعلةٌ من مجهولٍ يحاصرني بالخوف والجزعِ دومًا من كلِّ شيءٍ حولي، أو عن جديدٍ لا أعلمه، وتضمّينني إليك بحنان.

- ماذا بك يا ابنتي؟

تجيبُ ارتعاشاتُ الجسد:

- كنْتُ وحدي في شدّةٍ يا أمّي، أغرقُ في البحرِ الواسعِ العميقِ، ولا أعرفُ كيف أرجعُ منه. وكلّما ألَمَّ خطبٌ جديدٌ أقولُ

إنَّها النّهاية، لا بدَّ أنّها هي، لأبتسمَ ابتسامةَ الطّائرَ الحرِّ، لكنّها لم تكن كذلك يا أمّي.. نعم.. لم تكن كذلك. إنّه كان انكسارًا لا إصلاح له بل التهابًا مزمنًا أصابني بالمرضُ الخبيث.

في ليلَتَيِ الخميس، والجمعة المتضمّنتَيْنِ في بعض الأحيان ليالي حفلاتِ أضواءِ المدينة، تنتظرين دومًا صديقاتِك الخاسراتِ في اللّعبةِ مثلنا، أشدُّهم قربًا لقلبك المتجدّد في اتّساعه أبلة سوسو: سِجِلٌّ حافلٌ من التّعاسة، طُلّقت افتراء، أُخذ أطفالها عنوةً، أُصيبت بعدّة أمراض:

السّكر، الضّغط، والرّوماتيزم، بعد معاناة سمح لها زوجها السّابق بأن ترى أطفالها كلّ خميس عند أمّي.

وتأتي أخرياتٌ: هذه مات زوجها، وهذه لم تنجب، وهذه..

أكثر ما يستحوذ انتباهك في جلساتك معهنّ، أخبار النّجوم، مصائبهم، أفراحهم، زواجهم، أزياؤهم، وترتفع ضحكتي الخافضة من فترة، و أنت تعلّقين على أحد فساتين المطربات:

- يا أبلة سوسو يا اختي، بيأجّروا الفساتين دي منين؟ دي فساتين غالية أوي يا اختي! تَرُدُّ شريكة الجلسة التّحفة:

- أيوة يا حاجة أمّال إيه...؟!

- في ساعات النّهار المملّة، واللّيالي التي تمرّ بجرأة، ألمحك تخاطبين أشباح أرواح الطّيّبين، والشّرّيرين، والمتمرّدين، والخاسرين، جميعهم أن يلهمهم الله الصّبر والمغفرة.

الثُّلاثاءُ الحَزِينُ

في يوم عيد الأم الذي صادف حضوره يوم الثلاثاء، اليوم الوحيد الذى لا تستطيع فيه هي أو أخوها أن يحضرا إليها لرعايتها بسبب؛ كسرٍ مضاعفٍ أصاب وركها وتيبُّس العمود الفقري، ورغم إجراء العمليّة وجلسات العلاج الطّبيعيّ، لكنّ حالتها لم تتحسّنْ، ورقدت على الفراش نهائيًّا، حتى لا تستطيع الذهاب إلى تفريغ حاجتها، وقد زادتها السّمنة علّة، زاد من سوء حالتها المزاجيّة وتتعصّب لأتفه الأسباب، حتى تنهارَ في نوباتٍ هستيريّةٍ وهي ترجو الموت والرّاحة منَ العجز والكساح، والبامبرز الذى يسلخ تجاويف أفخاذها في ليالي الصّيف الحارّة، وفي الشّتاء يزيدها بالبرودة في انتظار تبديله، ورائحة البول والبراز تزكم روحها بالاشمئزاز وكره العالم أجمع، حتى تستسلم لهذا الوحل بدموعٍ صامتةٍ مدرارةٍ، وتسرع الابنة في طهارتها وتنظيفها حتى تصلّيَ وتقرأ في كتاب الله، وهي تستغفر الله وتستعيذ من الشيّطان الرّجيم، ويأتي الثّلاثاء الحزين فتتنهّد قائلةً بزفرة امتعاض:

- بكره الثلاثاء الحزين يا حبيبتي. لا إنتي ولا فهمي ها تقدروا تباتوا معايا.

فتردًّ الابنة بحزن:

- نعم، معلش ياماما.

ثم تستطرد وهي تفتعل ابتسامةً لتقول:

- ما هو إنتي السبب يا أمي، لو كنتِي خلفتِي ثلاثة أو أربعة كانوا أخذوا هذا اليوم يا أمي.

- لأ أبدًا يا بنتي البركه والخير في القليل، ممكن كنت خلفت ثلاثة أو أربعة ووجعوا قلبي، وتخلوا عني.

فجأةً تنتقل الأمُّ للهزار والتفكُّه وتسألها بخبثٍ: هل أحضرت لها علبة (الحلاوة الطحينية بالمكسرات) كما أمرتها؟ فتتصعّب الابنة وتهزُّ رأسها:

- ها.. ها.. أمي تمزحين، هي محظورة عليك يا أمي.

وتسترسل:

- ثم إنّي أكرهها.

- ألا تتذكّرين.. اااهٍ يا أمّي...، بل أنا أكرهها جدًّا؛ لأنّك كنت تضعين لي الدّواء في ساندوتش الحلاوة بعد تفتيته حتى أبلع الدواء، وأسناني مخرّبة بها وبغيرها، وعملت عمليّة في الفكّ السّفليّ.

تتلاهى الأمُّ عن ذكريات ابنتها القاتمة السّواد مع (الحلاوة الطحينية)، وتسترخي برأسها داخل الوسادة وتتحسّر:

- إيه.. إيه يا بنتي ألا زلت تتذكّرين؟

وتملأ فراغات الاشتهاء والرّغبة الملحّة لها في تلذُّذِ الحلاوة، وتقصّ حكايتها المأثورة بالمثل الشّعبيّ: (كلي يا عين، كلّ شيءٍ تشتهيه، بكرة يجيلك يوم الشهد لن تذوقيه). مثل لحماتي الله يرحمها كانت مغرمة بتناول ساندوتش (الفينو) بالحلاوة

الطحينية، مع كوب الشّاي باللّبن السّاخن.. هه.. هه.. الله يرحمها ويرحمنا جميعًا.

بغتةً، وبعد انتهاء الحديث تزداد أخاديد وكرمشات وجهها مع ابتسامةٍ واسعةٍ، وقد أخرجت من درج الكمودينو خلسةً علبةَ حلاوةٍ صغيرةٍ بملعقةٍ بلاستيكيّةٍ، بينما ابنتها ذهبت إلى الجزء الآخر من الشّقّة لعمل شيءٍ ما، حتى تحضرَ وتفاجئَ بأمَها وقد وضعتها على حجرها، فتصرخ:

- ماما.. ماما.. حلاوه.. يا ماما.. كيف وصلت لك؟!

فتعاجلها بنظرة استعطاف:

- وحياتي يا حبيبتي. بكرة الثلاثاء الحزين ولن يبيت معي أحد منكما. اصنعي لي كوب شاي باللّبن، أرجوكِ يا حبيبة قلبي.

الرَّقصُ على البَحْر

لا أعرفُ أنْ أكتبَ جيِّدًا إلَّا على ورقٍ مُسَطَّرٍ، أميلُ عن السُّطور كطفلٍ بدأ يتعلّمُ أنْ يكتبَ، وبجانبه معلِّمته تدفعُهُ إلى الأمامِ كلَّما نزلَ بخطِّهِ إلى أسفل، كأنّهُ يشرعُ في الاستحمامِ في التُّرعَة، تُجنُّ الأبلة وهي ترفعُ إبهامَهُ وسبَّابتَهُ إلى السُّطورِ الواضحةِ كغبائِهِ، علاوةً على ذلك أهزأُ من بعضِ الحروفِ، فلا أعِيرُهَا الاهتمام الكافي، أتقن حفظَ أيّة أغنية مِنَ المرَّةِ الأولى، أظنُّك تُدركين هذا يا حبيبتي، فكثيرًا ما طلبتِ منِّي أنْ أغنِّيَ ما يحلو لكِ في أيّة لحظة.. عندما شرعت في الذّهاب إليك حتّى لا يفوتَني ميعادي معك إلى القطارِ المسافرِ إلى الإسكندريّة، منحتني الحياة صدفةِ اللّقاء بك، كان النَّهارُ لا يزال عفيًّا لم ينهشْهُ البشرُ بعد، وكنتُ أخشى ألّا نتقابل، لأنَّ كليْنا سيأتي من اتّجاهٍ آخر، حتّى رأيتُكِ بجانب بيتٍ كبيرٍ تضعين كيسًا من البلاستيك الأسود، ثم نزلت على الأرض ثانيةً على ركبتيك، تقذفين بقططك الصَّغيرةِ، فتنكمش جميعًا كبوتقةٍ تنصهرُ بصرخاتِها الصّغيرةِ نداءً على القطّة الأمّ، وظهر كاملُ جسدِك أمام عينيَّ فرأيتني في أسودِ عينيك، وجَمْت، أسرعتِ تقولين:

- ماما مش عايزه القطط، علشان أمهم ولدتهم في دولابها و أفسدت ملابسها.

لا شكَّ أنّكِ توقَّعتِ أنْ أؤذيَكِ ولو ببعضِ الكلمات، لكن في الواقعِ أحببتُ أنَّ بكِ ولو قليلٌ من البشاعةِ والقسوة، كما أنَّ

في وجهك لغةٌ تحاكي وجهَ عصفورٍ بريّ.. ما لفتَ نظري أيضًا هو رائحةَ إبطكِ وجسدكِ من الحرّ الشّديدِ الذي فاحَ مع رحلتِنا الشَّاقَّةِ التي حملنا راياتِها سويًّا؛ لنسافرَ للبحر. أردتُ أنْ أدخلَ جَسدك لتملأَني كاملُ رائحته التي أعرفُ أنّها ستزولُ عبثًا باستحمامك.

أشدُّ ما جذبني إلى العالمِ في تلك اللحظةِ هو أنْ أراكِ وأكونَ معك، وأنتِ تعاينين لغةَ اكتشافِكِ الأولى للبحر، خشيتُ أنَّ أعضاءكِ قد تتحطَّمُ كلَّما نظرتُ إليكِ وأنتِ ترقُصين وأنا أغنّي، رقصت، رقصت، وازداد شغفكِ كلّما تفجَّر الموجُ بزبدِهِ الرَّائعِ ناحيتك، اندفعتِ كجنِّيَّةِ البحر التي تنادي عشَّاقَ أفينون أن يستلهموا لي ولك روحَ الزَّمن، تتجمَّعُ ملائكتُهُ وعبيدُهُ ورسلُهُ، أن يحرسوا لحظاتِنا، يجذبني ماءُ البحرِ العنيد، قلبُك الذي ألمحُهُ مرسومًا في كفّيَّ، وكفَّكِ العصفوري في براحِ يدي.

كنَّا جالسيْنِ ننتظرُ موعدَ إقلاعِ قطارِ الرَّحيل، كحبَّاتِ رملٍ مازال البلَلُ فيها، كلَّما التقتْ عيونُنا أعرفُ أنّها تضحكُ وتحلمُ حلمًا آخرُ، بل وتتخيَّلُ أقاصيصَ أعظمَ ستحدثُ إذا ركبنا قطارَ النّومِ معًا، كان القطارُ كأنّه بيتٌ سنسكنُ في أمانِهِ إلى الأبدِ، نحتسي الخمرَ لنطفئَ بردَ تشرين المحبوب، ونشتهي لذَّةَ الحبِّ، نتحدَّثُ بألفةٍ وبصوتٍ لا نعرفُ مدى انخفاضِهِ، حاضنين زجاجةَ الخمرِ الملفوفةَ (بإيشارب) ذى لونٍ أخضرَ لامعٍ ساحرٍ

اشتريته لك، أسكبُ طعمَ الخمرِ اللَّاذعِ بهدوء. أحبُّ الحياةَ أكثر وأكثر، وكلَّما غاص القطارُ آكلًا الطريقَ بنهمٍ امتدَّ الأملُ.

عندما انفتحَ بابُ القطارِ الفولاذيِّ يعلنُ أنّنا وصلنا، ألقيْنا بأنفسِنا على المحطَّةِ، أحسستُ بأنّني رجلٌ آخرُ وأنّكِ امرأةٌ أخرى غير اللّذيْنِ كانا هنا من قبل. جلسنا على مقهى محطَّةِ القطارِ، نلتقطُ أنفاسَنا استعدادًا للفراق، نحتسي الكركديه الدَّمويَّ، وننظرُ إلى العالم، فتتعمَّقُ بؤرةُ السُّخريةِ والمرحِ في جوفنا السَّكران، لمحتُ وجهكِ ساخنًا متوهِّجًا بالحيويَّةِ وملامِحُكِ مأخوذةٌ بذهولٍ ودهشةٍ مألوفةٍ لديَّ، تردِّدين:

- ماذا جرى؟! القطارُ أتى بنا إلى هنا!

المستقِرُّ الأخير

إليكِ رسالةٌ من رسائلي القليلة التي لم أعتَدْ أن أكتبَها كثيرًا، إلّا عندَ إحساسي بالشّوقِ، والحزنِ الشديدِ عليكِ؛ فقدِ انقبضَتْ ضلوعي داخلَ جسدي، وأحسَسْتُ أنَّني أعاني من ألمٍ موجعٍ يُبكيني. لم أعرفْ أيَّ الطُّرُق أمامي أسلُكُها، وأنا ذاهبةٌ لِوجْهِ الجحيم، أثناءَ ركوبي سيّارةَ عمّي الميكروباص، لأذهب معهم إلى بلدةِ جدّتي التي تُطارِحُ الموت.

كان جسدُها مفروشًا على أرضيّةِ الحُجرةِ، وظهرُها "تقرَّحَ" من فِعْلِ "قرحة الفراشِ بالتهاباتٍ حادّةٍ"، وكنّا ننقُلُها من الفراش إلى الأرضِ حتّى تستريحَ قليلًا.

غابَتْ عن الوعْيِ لأيامٍ طوالٍ، أكثر من عشرةِ أيّام. لم تقُلْ لي: كيفَ حدثَ هذا، لا بدّ أنّها كانت تريدُ الموت دونَ أن أعلمَ، منحَتْني فكرةَ الهدوءِ والاطمئنانِ لكوْنِها حيّةً تُرزَق، في حينِ أنّها تتأهّبُ للموتِ، تحجُبُ عنّي نظراتِ العجْزِ التي ربّما ستذبحُني بسكِينٍ حادٍّ بقدْرِما تراني أنظُرُ إليْها بيأسٍ، أأسجدُ لِحبِّك هذا، أم ألومُك؟!

طلبَتْ أن أدعوَ لها بالموتِ، هكذا أنتِ يا جدّتي كعهدِكِ القديم معي، تأمرينَني أن آكلَ، ما دمْتِ قد وضعْتِ الطَّعامَ، تأمُرينَني أن أبيتَ في حضنِكِ، وأنسى العالم، ما دمْتِ قد أردْتِ ذلكَ، لا يعلمُ أحدٌ شيئًا عن شبابِكِ العفيِّ، وأنتِ بعدُ امرأةٌ في الأربعينَ من عمرِك، تتوقينَ إلى رجُلٍ يُعطيكِ الأمانَ والحبَّ الرجوليَّ، أأنا

أصبْتُ أم أخطأَتْ ظنوني بما بينَك، وبينَ أخِ زوجِك؟ كنْتُ أمقتُهُ لأسبابٍ ليسَتْ واضحةً أمامي، لا بدَّ أنَّ غيرتي دفعتْني دائمًا إلى النّظرِ إليه بإنْعامٍ، وإلى كلّ حركاتِه و إيماءاتِه بمجرّدِ أن يدخلَ بيتَك. كان يفضحُ عيوني ويتجاهلُني، حتّى في حقي كطفلةٍ أستحقُّ مجردَ لعبةٍ صغيرةٍ أو حتّى ابتسامة.

عندما دخلْتُ عليكِ فجأةً الحمامَ بقصْدٍ طفوليٍّ، رأيتُكِ تمارسين حقَّكِ الطبيعيَّ بشيءٍ غامضٍ لم أتبيَّنْهُ، وتتأوّهين بصوْتٍ خفيضٍ، وفخذاك منفرجتان على آخرِهما، عاريةً بيضاء، تعرفين أنَّكِ قادرةٌ لا زلتِ.. ليلتَها لم ينمْ لك جفنٌ، إلّا عندما أخذْتِ منّي مائة قسَمٍ ووعدٍ بأنّني لم أرَ شيئًا، ألقيْتُ بنفسي في حضنِكِ أبكي ليس كما توقّع حدسُكِ بأنّني خجلْتُ منك، بل لأنّي افتريْتُ افتراءً ضخمًا أخّرَني، ولو شيئًا بسيطًا أن أحبَّكِ أكثر، أن أُبعِدَ ابتسامةً راسلتِني بها، ولم أردَّ إلّا بجفاءٍ عالٍ.

كانَتِ الخامسةَ صباحًا حينَ تمتمَتْ بكلماتٍ، قالَ الأقاربُ والجيرانُ إنَّها شهادةُ الإيمان، ومعبرُ الدّخولِ إلى الجنّة، ابتسمَتْ لي ابتسامةً عنيدةً، وماتَتْ أخيرًا. كنْتُ في حضنِها الشّامل، على الرّغم من فراغِهِ من أيِّ روحٍ، أدّعي النّوم، أدفسُ نفسي داخلَها كقوقعةٍ في قاع بحرٍ حالكِ الظّلام، أحسُّ تارةً بأنفاسِها، وتارةً غائبة عن الوعي، وتارةً أخرى تكلّمُني بصوتٍ منخفضٍ، تحكي حكايةً من حكاياها القديمة، احتضَنْتُ بعنفٍ

الجسدَ الميتَ، لم أقلْ إنّها ماتَتْ. ظللْتُ في حضنِها، أعايشُ اكتمالَ الموتِ بجسدِها الخامدِ الباردِ الذي بدأت زرقتُهُ تنتشرُ. شعرْتُ ببرودةٍ شديدةٍ تنتقلُ إليّ لأموتَ أيضًا، حينَ رأتْني عمّتي أبعدتْني قائلةً:

- إوعي يا بتّ.. إوعي أحسن تتلبْسي.

أخذتْني إلى النّاحية الأخرى من الحجرة، وعيناي تبرقانِ كاللّهب، ألاحقُ بهما الجسدَ الذي كان معي منذُ لحظاتٍ، رأيتُهم يحملونَها بهمَّةٍ إلى الحمّام نازِعين عنها رداءً كان مملوءًا بالدّم، خاصّةً في نصفها الأسفل، وبدأ تغسيلُ الجسدِ المرمريّ المستسلم، وكلّما دفعَني أحدٌ كي لا أدخَل أرفضُ الردَّ عليه، وأدفعُه بيدٍ تحملُ قوّةً غريبة. ملأوا الجراح بالقطنِ، الذي ما زال يقطرُ دمًا، وآخر تحتَ إبطِها، فمِها، وفرجِها، ودبرِها، وردفَيْها، وغاصَتْ داخلَ لفائفِ القطنِ كطفلٍ تائهٍ، ثمّ يلفحونها بأقمشةِ الدّمور، والدّبلان، وأخيرًا قماشٍ حريريٍّ متوسّطِ الجودة، وفي النّهاية أصبحَتْ داخلَ خشبةِ الموت، كاملةَ الهيئةِ للذّهاب إلى المثوى الأخير.

جاء الرجالُ وأخذوها، بدأ دورُ النّائحات. كان ابنُ عمّي ينهرُهُنّ بشدّةٍ، كلّما علَتْ حدَّتُهُنّ انهالَ عليهِنَّ بالشتائمِ، فاستعضْنَ عن ذلكَ بالبكاءِ بصوتٍ عالٍ، ولطمِ على الخدود، والصّدور. جلسْتُ على السّلالمِ أتابعُ آخرَ رجلٍ كانَ وراءَ النّعشِ، دفعَتْني الحقيقةُ الثّابتةُ بأنَّ هذهِ الروحَ قد ماتَتْ إلى الشّعورِ بالهوَسِ، قفزْتُ من

جلستي كَمَنْ تذكَّر شيئًا، ارتدَيْتُ جلبابَ جدّتي الأسود الذي كانَ يناسبُني إلى حدٍّ ما في الطّول، وإن كان شديد الإتّساعِ، اعتصَبْتُ بمنديلِها، وحرملتها السّوداء ثمّ نعلِها الأسود ذي الخيط الذّهبي الذي كانت تحبُّه جدًّا. لم يخْلُ حذاءٌ من أحذيتِها القديمةِ من ذلك الخيط، ولوْ كان بسيطًا، ليُعطي البريقَ لحياتِها الجافّة. حاولَتِ السّيداتُ العجائزُ منعي حجّةَ أني صغيرةٌ، إلّا أنّني مرّةً واحدةً أصبحْتُ ذاتَ ملامحَ جافّةٍ، وتصلّبَ جسدي صلابةَ هذهِ السّيدةِ العجوز التي ألمحُها بملامحِها المنحوتةِ الغائرةِ، ولا زالَتْ تنظرُ إليَّ من داخلِ النّعش. وفجأةً غابَتْ. نعم غابَتْ عنّي تمامًا. وهي تودّعُ ابنةَ المدينةِ الرّومانسيّة، العاشقة داخلَ جلبابِها الفضفاضِ الأسود.

عشْتُ حالةً دراميةً كاملةً؛ ظللْتُ أصرخُ من داخلِ جوفي، وألطمُ، وأهيلُ التّرابَ على رأسي أُولولُ جاريةً وراءَ خشبةِ جدّتي، وفجأةً التقطَني أحدُ الرّجالِ، أحكمَ وثاقَ يديْهِ عليّ حتّى كادَ يكسر ضلوعي. أمَرَأبي أن أعودَ مع أمّي فورًا، ظلَلْتُ ليلتَيْنِ تقريبًا على السّريرِ لا أعي ماذا حدثَ. باتَ رحيلُها حزنًا مغروسًا في قلبي، كالقَطْعِ الذي لا يصلُحُ معه ترقيعٌ أو التئام. في اليومِ الثّالث أفقْتُ على حقيقةِ الخواء وهي: ماذا أفعلُ بنَفْسي؟!

كنتُ كسِكّينٍ ظلّ لفترةٍ مخزونًا بطاقةِ أن يمزّقَ أيّ شيءٍ، وفي الوقتِ ذاتِه غير قادرةٍ. فالسّكّينُ ظلَّ باردًا، ويحتاجُ لسَنٍّ شديدٍ، عرفْتُ ساعتَها أنّني أحتاجُك، فكمْ من المرّات عندما نكونُ أنا

وأنتَ معًا، أريدُ أن أتكلّمَ، أن أفصحَ عن أشياء عظيمةٍ وتافهةٍ في الوقتِ نفسِه، كم أشعرُ بنشوةٍ عاليةٍ لأنّ جدّتي أخذَتْ مستقرّها الأخير كما أرادَتْ، وارتاحَتْ من أوجاعِ المرض، وللَحظاتٍ ملأتْني سعادةٌ لكوْني سأراكَ، وتأخذُني بعيدًا..

وقفْتُ لبرهةٍ أستنشقُ نسمةَ هواءٍ من الشُّبّاك، وكأنّني صندوقُ ذكرياتٍ فرغَ لتوّه.

وكلُّ ما أشعرُ به الآنَ أنَّ جدّتي لم تمُت، لقد استقرَّتْ معي في ذاكَ الجلبابِ الأسودِ، والعصابةِ السوداء الملازمةِ لمقدّمةِ شعرها، والحذاءِ الأسود ذي الخيط الذهبيّ؛ الذي كلّما تلألأَ خطُّه تحتَ وهجِ الشّمسِ، رأيْتُني في عينيْها الرّاحلتين.

ثلاثيُّ أضواءِ المسرح

انتظرتُ طويلًا جيئةً وذهابًا أن يأتي سرفيس، كي لا يفوتَني ميعادُ ذهابي إلى بروفاتِ المسرح، جلسْتُ في المقعدِ الأماميِّ. انتعشَتْ نفسي. أحبُّ أن أجلسَ بجانِبِ السّائقِ، أرى الشّارع، والعرباتِ، والمارّين بأحجامِهم المختلفة بوضوحٍ. نظرَ إليّ السّائقُ بمعرفةٍ سابقةٍ، سلّم عليّ بحرارةٍ، وكأنّه وجدَ مرادَه، أخذَ يتحدّث طوال السّكّة عن نفسِه، وعن محمّد، وعيد، وما كانا يفعلانِه من عشرِ سنواتٍ على المسرح، كان وجهه مصبوغًا بحُمرةٍ أشبه بالحُروق الخفيفة، من جرّاء عمله المستمرّ على السّرفيس في شحنِ الأنفار طوال فترة النّهار، أخذ يتحدّثُ بلا أيّة وقفةٍ. حديثه كان شيّقًا. أخبرَني أنّهم كانوا يعشقون المسرح بِوَلَهٍ، أصدقاؤه الآن يعيشونَ في مسالِكِ الحياةِ القاهريّة، التي قهرَتْ أحلامَهم، وإن لم تُقْهرْ مخيّلتُهُ عن ذكراها، وفخرُهُ بأنّهُ فعلَ هذا في حياتِه السّابقة. كانوا ثلاثةً، يعيشون في بلدةٍ صغيرةٍ، أحدُهم يمتلك بيتًا ريفيًّا كبيرًا أرضُه أسمنتيّةٌ، حوائطُه غير مدهونة، بناؤه من الطّوبِ اللّبنِ، به " مندرة" واسعة، لا يوجد فيها إلا فرنٌ وكنبتان بلدي، يغلّفُ هذه الأشياء بابٌ خشبيٌّ طويلٌ معروفٌ عن بيوتِ الفلّاحين القديمة.

إستمرَّ يحكي بنشوةٍ كأنّه يعانقُ زمنه القديم مع المسرح، لا بدَّ أنّكَ كنْتَ الثّالث الصّغير الذي يؤهّلُه وجهُه أن يكونَ الأكثر كوميديا بجانبِ موهبتِه في اسكتشاتٍ نقلتموها كما هي عن

فرقةِ ثلاثيِّ أضواءِ المسرحِ القديمةِ وغيرها، أو شيّدتها بعدَ التّعديلاتِ من مخيِّلَتِكم: كإسكتشِ الآلةِ، و أبو العروسة، وعودة النّدل، والصّعيدي، وأولادنا في الخارج، والتّمثيل والغناء من خلالِ مفرداتِ الحياةِ الصّغيرة.

تطوّرَ الأمرُ إلى الأفراحِ، ليالي الحنّاء، الكازينوهات.

تقدّمْتُم إلى إعلانٍ في القاهرةِ عن طلبِ وجوهٍ جديدةٍ للمسرحِ برسْمِ جنيهيْن ونصف. كانت الشّقةُ تطلّ على ميدان التحرير، داخلَ عمارةٍ شاهقةٍ بجِوارِ المباني الأخرى، فتبدو كبيوتِ النّمل التي تكتظُّ بآلافِ المكاتبِ والأماكنِ والأسرارِ. أكثر ما لفَتِ النّظر رجلٌ كبيرٌ يحبُّ المسرح بشدّةٍ، لهُ حكمةٌ في حضوره رغمَ الغرابةِ التي بدَتْ على معظمِ الحاضرين من الشّباب له. كنتم آخر من قدّموا أنفسهم، لِمن تراصّوا على منصّةٍ، كمِنصّةِ المحكمةِ. أخبرْتَني أنّك كنْتَ خائفًا ليس من نفسِكَ وموهبتِكَ، بقدرِ ما كنتَ خائفًا من كثرة عدد المتقدّمين للإعلان، وتتمنّى في لحظةٍ ما أن يقلّوا إلى الرّبع، لتكونوا أنتم في بداية هذا الرّبع.

ظللتُم لمدّةِ نصفِ ساعةٍ تقدّمون أفضل ما في اعتقادِكم أمامَ اللّجنة المدعاة، وفجأةً رأيتُم خلفَكُم ضابطًا. لم تعِ أنتَ بالذّات هذا الكسرَ المسرحيَّ، ظننْتَ أنّها تمثيليّةٌ تقوم اللّجنةُ بمفاجأتِكَ بها، لم تصدّق نهْرَ الضّابط، وشتيمتَهُ الفجّة للثّلاثة الجالسين بمقابلِك.

ضحك أصدقاؤك بسخريةٍ عاليةٍ، لكنّك بُهتَّ، فزعْتَ من إحساسِ الغَفْلةِ، جنيهان ونصف. سألْتَ: لماذا لمْ يُفْشِ السّرّ، ويحضرِ الضّابط بعدَ انتهاء الامتحان أو حتّى قبله؟ لماذا تكمُنُ المطرقةُ خلفي، وأنا غارقٌ في حلمِ العمل والشّهرة. إحساسٌ أليمٌ بالخيانةِ المقصودةِ. نزلْتَ السّلالمَ، تصطفّ على جوانبِها الجماهيرُ، كأنّها تحملُ نعشًا مسرحِيًّا تزعقُ، تضحكُ، تسخرُ، تطلبُ جنيهين ونصف.

لاحظْتَ بعض الأسى أثناءَ حكْيِكَ، أقلعْتَ سريعًا عن هذا بالضّحكِ الباهتِ، لم تتقبّلِ الحقيقةَ. ماذا تفعل غير الاستنكار؟ لا بدّ أنّها كانت كالرّمال المتطايرةِ في عيونِه، إن لم تُعْمِهِ تمامًا، فلا جدال أنّها أغشت عينيْهِ عن حلمِه، وانتهى باكتمالِ الحلقة، وأنتَ سائقٌ على السّرفيس الآن تقولُ:

- يا هـ دا كان حتّة موقف.

تُنكرُه على الزّمن والدّنيا التي فعلَتْ بك هذا، لكنَّ داخلَك لا ينساه، وعندما قمْتَ بفتحِ الشّكمجيّةِ القديمة، صدفةً، تذكّرْتَ.. حزنْتَ، تهْتَ منّي، أحسسْتَ أنَّك في نهاية الحوار ستأتيكَ ميتةٌ غبيّةٌ مفاجأةٌ. كلامُك يشيرُ إلى أنّ أصدقاءك هضَموا موقفًا معتادًا حدوثُه، وأصبح الموضوعُ برمّتِهِ كتذكرةِ سينما أحبّوا فيها الفيلم، وتأثّروا به بعض الشّيء، ثم انتهى أمرُهُ، لكنْ لم ينتهِ بالنّسبة إليك. صمتَّ فجأةً، وأشعلْتَ سيجارةً بحرقةٍ.

كان الطّريق قصيرًا، وخلص سريعًا، رغمَ ما تمتلئُ به روحُكَ ذات الظّلِّ الخفيفِ من خفّةٍ وبشاشةٍ، إلّا أنَّك كنْتَ تخمدُ كإطارِ سيّارةٍ، لتستريحَ من فكرة الحبِّ والحلمِ الجميل، حتّى بعد أن تزوّجْتَ، و أنجَبْتَ، وتركْتَ الوظيفةَ، وعمَلْتَ سائقًا.

لا شكَّ في أنَّكَ تبحثُ عن الطريقِ، عن المسافةِ الطويلةِ إلى حدٍّ ما، التي تذيبُ يومَكَ، ربّما تقضي على حياتِكَ بخطأٍ ما، رغمَ وجهِكَ الباسمِ من أوّلِ دقيقةٍ جلسْتُ بجانبِكَ، أعرفُ أنّني بمجرّدِ نزولي؛ سيطفو على وجهِكَ غمامٌ شديدٌ، تركنُ العربةَ وتنتظرُ دورَكَ في امتلائَها بالأنفارَ، توصي الصّبِيَّ بأن يغسلَها جيّدًا، ويعتني بها وقتَ ذهابِك لتشربَ الشّاي مع أصحابِك السّائقين. لكنّكَ لن تفعلَ هذا، ستذهبُ إلى القهوةِ البعيدةِ بعضَ الشّيء. تجلسُ، بوجهٍ نصف غاضبٍ، تبتلع برشامةً أو برشامتَيْنِ مهداتيْنِ لك من سائقٍ صديقٍ، ترتشفُ الشّاي حتّى لا تحسَّ بمرارتِهما، وتُكملُ آيةَ التّعاملِ مع البرشام، بأن تُشعلَ السيجارةَ الكليوباترا البيضاء.

تتذكّرُ بعد وقتٍ وصيّتى الأخيرة، و أنت تحرقُ الدّخانَ داخل صدرِك:

- لازم تيجي المسرح يا محمد وتكمّل.. النّاس لسّه فاكراك.. صدّقني.

تضحكُ بصوتٍ عالٍ جدًّا مستهزِئًا بي، وتلعنُني، و أنت تبصُقُ على الأرض.

رسومٌ متحرِّكةٌ

(١)

كان اللّقاء مبهوتًا بوحشة اللّيل، وشوق باعه أطول وأطول من لقاءات التّوجّس والفزع الذي يحوّلنا إلى قطع صامتة. تلك الشّعيرات بيضاء، وأنت تنظر داخل جسدك وقلبك وتستفهم: "هل سريعًا هكذا تستجيب للمشيب داخل مفردات حواسّك العافرة مع زمن الطّغيان؟"

قالت: "هل أعجبتك الكنافة والكعكة؟"

قال بردٍّ باردٍ: "جميلة".

قالت: "لم تتذوّقها بعد.. كذّاب".

نظر إليها باستعطاف الصّدق وقال: "صدّقيني كمرّة أولى خطيرة". دلفت إلى قبلة عابرة لا تداوي ولا تمرض، وتمنّت أن تكون قبلتها كرذاذٍ ساقطٍ من فم السّماء الواسع دائمٍ ودائمٍ إلى الأبد. خرجت إلى الشّارع لوحدها على اتّفاق أن تتقابل معه بعد عشر دقائق في المكان المعتاد.

كان الجوّ منعشًا لافحًا. تصوّرت كأنّ أوراق الشّجر تسقط، فسقط عقلها في هذيان قائلة: "أريد أن أطير، ألّا أعود، وأحلّق خلف نسمات الهواء، فأنين جسدي الممتلئ بحرارة التّوجّع، والبعد القاهر داخل قاهرتي الصغرى، في مكاني هذا الذي لا

يحتويني أنا، وباعثي الغائب، إليك قبلات السّماء والأرض، وأخيرًا قلبي أنا فقط".

(٢)

كان كثير الكلام. شكا أنّه يعيش هيستريا الحديث والتّناقض يومًا بعد يوم، ولكنّه يراه تناقضًا ضروريًّا لأنّه في النّهاية يبتدع حلًّا نهائيًّا، وربّما صحيحًا لآراء كثيرة في قضيّة واحدة. صمت فجأة، فشعرَتْ بهوس الفقدان وثبات المكان أمامها، وعقلها بات لا يحمل شيئًا، وكأنّ الدّنيا أصبحت أمامها مجرّد رسومٍ متحرّكةٍ ثابتةٍ، تتألّف من حياةٍ مصنوعةٍ من نسيجٍ خارجيٍّ لا تعرفه، ولكنّه مغزولٌ بنسيجٍ يحمل تواجدها الداخليّ بداخله، فتشعر بأعضائه، وحواسّه امتثلت داخلها، وأصبحت روحًا تحمل جسدَيْنِ، يسيرُ بها شخصٌ ما لا تعرفه ولا يعرفها، ويداها لا تصلان إلى الحقيقة بالضبط. فتساءلَتْ هل أقتُلُه؟ ترى هل زمنك وزمني قد مرَّا أم حلمي بزمن الفارس الشّجاع هو الذي مرَّ وضاع؟ لم يبقَ إلّا فهلوة الحديث، وكذبٌ آليٌّ، ووشوشٌ متعدّدة لكلّ موقِفٍ ولكلّ شخصٍ، يبدو أنّه اعتياد الواقع المرير، والذّكاء الاجتماعيّ، ألكلشيه، جوفه كجوف سمكة القرش الذي يبتلع بلا توقف لحلّق حوش.

ولكن لا!

زمن الفارس لم يمر، ربّما أصبح سوبر مان، لا يهمّ التّكنيك والتّفاصيل ما دامت النّتيجة واحدة لي ولك.

. أليس كذلك يا حبيب عمري وقلبي وجسدي المؤتلفين داخل بعضهما في بحثٍ ذائبٍ فيك ودائمٍ عنك؟

رو ايـــــــة
المريض العربي
هدى توفيق
"كل ما حلمت به هو أن أسير على أرض ليس لها خريطة "
"مايكل أوند أنتج"

يقولون:
"تألم كثيرا تعيش طويلا"
ويقال أيضا من دروس الحياة:
"تعلمت أنه خير للإنسان أن يكون كالسلحفاة في الطريق الصحيح من أن يكون غزالا في الطريق الخطأ...
و أقول أنا:
أعرف ولو قليلا عن التجارب الأنسانية القاسية، ويتحاكون بها للعظة وللصابرين من أصحاب الابتلاء، لكن للحق كنت أكره تجربتي للغاية، وقررت قرارا حازما أن أنساها بكل الطرق، حاولت.. لكن كان هناك في تلك التجربة الدامية، نقطة نور تملأ جوارحي، جعلتني أغوص فى أعماق الألالم المبرحة و أيضا فى أعماق البهجة والبسمة ،التى تملأ عقلي بالذكريات وتلك النقطة النورانية، تنير بصيرتي ويتملكني ولو للحظات مع هذا العالم الافتراضي، لأستقي الحياة. وهو يغوص بى في سرور سرمدي، كالوحي لا تراه، ولا تلمسه، يتلو عليك الأقوال

والحكايات كوحى هبط من السماء الخالدة فى صدفة مباغتة ،وحتى لو في هذا النور. الذي ألهمني روح شهرزاد الحكاءة التي أصبحت من مريديها، سأظل أتذكر وأشيد بهذا النور المجهول سواء كان مرضا أو بشرا ،الأن والى الأبد ،ليجعل من تجربتى المروعة شيئا مختلفا يستحق أن أحكى عنه ،وقد تحولت دموعى المدرارة إلى ابتسامات رائقة. هادئة ،مسالمة وقد اتسعت نقطة النور.... إلى نبراسا أهتدى به فى طريقى كالسلحفاة.

إهداء:

إلى أمي نعيمة شمس الدين التي لن يفارقني نورها

حتى بعد أن أموت .. ..

وقد حدث ... يا أمي ....

أتذكر جيدا تلك الليالي السوداء التي جلبتها لي هذه الحادثة المشئومة ٢٠١٢/٩/٢٧ قبل انتهاء هذاالعام الحاسم فى تاريخ مصر، في حادث مروع أصابنى وقد حدث قبله بشهور معدودة فى ٢٠١٢/٦/٣٠ أن تسلم الإخوان الإسلاميين حكم مصر بعد كفاح دام لثمانين عام، وفتح ذلك الحدث المصيري شهية كل الأحداث الدامية التي عاشتها مصر لمدة عامين من قيام الثورة العظيمة في ٢٥ يناير ٢٠١١ ويسجل التاريخ ثورات الربيع العربي التي

بدأتها تونس ومصر والعراق وليبيا وسوريا وأغلب دول الجوار العربي الشقيق.

كان هذا التاريخ ٩/٢٧ هو ليلة الخميس، و أتأهب بالذهاب بطفلي الوحيد إلى درس خصوصي في شارع العريش المقابل لاسباتس حيث أقطن شارع عز الدين بجوار النيابة العسكرية في شارع الهرم الذي يتبع محافظة الجيزة حيث أعيش مع زوجي وطفلي، أسرة صغيرة تبحث عن العيش والتكيف مع الحياة الطاحنة، لا أذكر ما حدث بالظبط، غير ما روي لي بعد ذلك، كل ما أتذكره أنني كنت أهاتف زوجي إبراهيم، بالتليفون بعصبية شديدة، أستجديه ألا يسافر إلى كندا ويتركني أنا وطفله الوحيد من أجل السفر الذي يراوده منذ سنوات، من عمله مع الجنسيات المختلفة من الأجانب فى عمله كمرشد سياحى ، فقد كان خريج كلية السياحة والفنادق ويتقن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، فعمل في مجال السياحة، بدأ مرشدا سياحيا إلى أن أصبح مدير شركة سياحية كبيرة في الهرم، و انغرم بفكرة السفر إلى أوروبا والعيش بها للأبد، وخاصة بعد تكلس و انتهاء السياحة منذ زمن طويل وبشكل خاص بعد الثورة ، وزادت الأمور سوءا بعد أن تقلد الإخوان في يوم٢٠١٢/٦/٣٠/حكم مصر، وتقلص دور ابراهيم بالتدريج حتى قايضوه بين البقاء بنصف الراتب الذي كان يتقاضاه، وبين الاستقالة وترك العمل معهم، لأن السياحة تقريبا انتهت، والشركة تعلن

إفلاسها، وترحيل الموظفين، انهار زوجي، وباتت أعصابه حطاما، حتى استطاع باتصالات له مع أجانب، أكثرهم تعاطفا وحبا صديقته الكندية كارولين، التي في السنوات التي تسبق ثورة يناير قد زارت مصر أكثر من مرة، وتداخلت مع زوجي وحياته، حتى سمح لها في أكثر من مرة أن يدعوها لمنزلنا مرة على الغداء ومرة على العشاء. ومرة بمشاركتها الذهاب إلى الأهرامات، وممارسة طقوس السياحة، بامتطاء الخيل والجمال والتقاط الصور الفوتوغرافية، بل وذهبنا إلى أحد الفنادق الشهيرة في شارع الهرم وقضينا معا ليلة ماجنة بالرقص والغناء والشراب، وتركت طفلي الوحيد عند خالي طلعت، الذي يبعد عنا بما لا يزيد عن ١٠٠ متر في شارع عز الدين عمر.

وأنا كنت أردد بعصبية فى هاتفى الخاص: لأ يا ابراهيم لا أستطيع العيش بدونك، ألا تعرف ذلك، الآن أضحك وأسخر من نفسي على تلك العبارات التي يتشدق بها المراهقين وليست امرأة ناضجة مثلي تخطت الأربعين، أراها وأرى نفسي في ذاك الوقت مزحة وفكاهة تستحق التندر بها، كنت واقفة على رصيف شارع العريش أنتظر قدوم طفلي من الدرس الخصوصي شاردة، مصدومة للغاية، وفجأة كنت على ترول الإسعاف، أسمع فقط صراخ من حولي، يزعقون: الحقوها هاتموت، حتى علمت بعد ذلك أنني كنت أنزف بشدة، حتى نفدت دماءي وذهبوا إلى مستشفى الهرم ورفضت بقائي بعلة أنها تحتاج لنقل

دم كثير وهذا ليس متوفر واكتفوا بوضع كانولا لي في الرقبة، وذراعي، يصرخون الناس في سائق الأسعاف والمسعف وأب الولد الذي كان يقود الموتوسيكل اللعين الذي صدمني وهرب بعد أن استدعى والده سريعا أن يحضر:

- اذهبوا سريعا.. لمستشفى زايد التخصصي بها إمكانات.. بسرعة هاتموت.

وأنا لا أعي حولي غير بشر يصرخون في كل مكان أذهب إليه، ونقلوني إلى طوارئ مستشفى زايد التخصصي التي أكملوا حلقة الصراخ، الذي لا أشعر إلا به، وقد تجمع حولي ما لا يقل عن خمسة أطباء ، وبعض الممرضات، من ينزع ملابسي كاملا ومن يضع لي أكياس الدم في الكانولا، ومن يسكب محلول مطهر على الساقين المتهشمتين، ومن يخيط رأسي المفتوح، وهم كخلية النحل، كل ينادي على زميله الآخر بأهم كلمة بسرعة ... هاتموت ... واستعدت وعي وكنت أهلوس بعبارات مفككة، حتى شعرت بطبيب يضع شيئا حادا في فرجي، جعلني أصرخ وهو يتعجل وضعه مثل السرعة الضرورية فى الأسعافات التى تفرضها حجرة الطوارئ، تلك الأسترة، التي أصبحت منذ ذلك الوقت علتي اللعينة في فراش المرض في المستشفى، وبعد العراء التام لجسدي والذي الأطباء من توترهم من حالتي نسوه، حتى انتبهوا ، ألبستني الممرضة على الفور رداء أزرق خفيف، بأربطة من عند الرقبة والظهر، وأشار لها الطبيب ألا تحركني إطلاقا،

فاكتفت بأن أحضرت ملاءة بيضاء تغطي فقط الحوض والفخذين والجزء الأعلى، وقد أمرها أيضا أن تترك الساقين عاريتين، وصعدوا بي ثلاثة شباب ممرضين اثنان يدفعان ترولا حديديا والثالث يحمل حامل به محلول الذي استبدلوه بأكياس الدم بعد أن اكتفى جسدي به، إلى قسم الأشعة، من خلال الأسانسير مختص لهذه الحالات الطارئة، وسألني واحد منهم ما اسمك؟ قلت أرجوهم أن يهاتفوه يأتي ولا أقل غير اسمه... قولي ما اسمك حتى نخبر إدارة المستشفى ...

و أنا لا أنطق غير اسمه بشغف، الذي لم يعد له الآن أي مذاق في فمي وبال واهترأ مثل قطعة قماش قديمة، تمزقت وتهرئت وصارت أشلاء وباتت خرقة قذرة لا معنى لها ولا فائدة لها غير انتقاء القاذورات ثم إلقاءها في صندوق القمامة بكل تعالٍ وقد كان عناء الفراق وهما وهما صدمني بكل عنف وقسوة لا مثيل لها.

ثم صعدوا بي إلى الدور السابع قسم الحوادث المروعة والطارئة الشهير في المستشفى ورفعوني من خلال أطراف الملاءة البيضاء ككومة عظام مفتتة، وعندئذ بدأت رحلتي مع الآلام المبرحة، وقد بدأ يزول تأثير المخدر الذي حقنت به في غرفة الطوارئ التي ظللت بها لأكثر من أربع ساعات وقد كان صعودي إلى الدور السابع بعد منتصف الليل بنصف ساعة، ثم جاء الممرض وطلب مني كل البيانات اللازمة لفتح الملف الطبي الخاص

بحالتي، وأدركت أن تليفوني ضاع في الحادث المشئوم، فطلبت منه أن يهاتف خالي، لا أعرف أين ذهب ابني، أرجوك ابني طفل صغير، فنصحني بعدم الاتصال بأحد مادمت حية وعلينا الاتصال في الصباح، لكني رفضت بشدة، وتذكرت طفلي الوحيد في الشارع بمفرده، حتى صرخت فيه، وقد بدأت الآلام تشتد علي فجاء المسئول عن العنبر، وفعل ما طلبت، فهاتفته في منزله الذي أحفظه فقط دون أي رقم آخر، وأجابتني زوجة خالي ببكاء وأخبرتني، أنه أحضر كمال وهو نائم الآن بعد بكائه الشديد، وطمأنتني و أنه كان لا يعرف فى أي مستشفى نقلونى حتى وصل إلى مكانك ورفضوا صعوده نهائياوحاول الأتصا ل بك لكن تليفونك كان مغلق وهو الأن فى الطريق إلى البيت ، و إبراهيم زوجى في شرم الشيخ وسيحضر في الصباح، و أقفلت الخط، والمكالمة التي طالت وأهم شيء عندي في أمان.

بدأ الألم يزداد ويقلب حالي، حتى حقنت بمخدر المورفين المدهش بعد ان بدأت أصرخ بشدة وأغوص في سكرة المخدر وأغيب في خيالات المخدر الجديد عليّ، الآن فقط أستطيع أن أقول بكل إيمان وصدق أن أرخص شيء في حياتنا، هي روح الإنسان يلتقطه عزرائيل في لمح البصروما عليك غير أن تبتسم للموت، وقد انتهكت أمامنا كل الحجب وتعرى صدر السماء لأرواحنا الفانية، ولحظات الفرح والخيبة وأوهام التحقق عبر الجنس والحب والتفوق، وما موقع الذاكرة في ملاحقة الزمن؟

هل يمكن الاطمئنان إلى سلامتها ومصداقيتها؟ أليس التذكر يصيبنا بنوع من الجنون عندما تتراوح اللحظات الزمنية المستعادة بين حضور شبه ملموس، وتلاشى حتى يزعزع كل يقين ليجعل العقل في مهب رياح الزوال؟ لا أحد يستطيع أن يتحصن بموروث أو معتقد أو متعة مستدامة كانت تلك هي بداية انتمائي لجحيم الوقت، الذي أنا في انتظاره، كل ما عليك يا صديقي أيها الجنرال، الذي أصبح عبدا ثم المصارع ثم المقاتل ثم بطل روما العظيمة. لابد أن تبتسم للموت، لابد أن تبتسم للموت. هذه الجملة المحفورة في ذاكرتي من تكرار مشاهدتي لفيلم (المصارع) الشهير (لراسل كراو).

الآن فقط أدرك وأسبر غور هذه الجملة لابد أن نبتسم للموت أيها الجنرال النبيل يا بطل روما العظيم ،لابد أن تبتسم للموت ياصديقى ياكل الأصدقاء؛ لأن الوقت الذى ستمجد فيه نفسك سيزول قريباوينتهى إن عاجلًا أو اجلًا أيها الإنسان المغرور.. أيها الأنسان الضعيف مهما طال الوقت فما عليك أذا غير أن تبتسم للموت .

في الصباح جاء الجميع يصرخون انزعاجا، وتساؤلات الدهشة والأضطراب تملئهم ، كما فعل كل السابقين، الذين مروا من أمامي كلمح البصر خلال هذه ال ٤٨ ساعة تلك، جاء أخي الدكتور حاتم، الذي يعمل أستاذا أكاديميا في كلية الآداب بمحافظة بني سويف جامعة شمال الصعيد، وخالي المحال على

المعاش من خمس سنوات من عمله في وزارة المالية، وأختى الكبيرة سلوى التي تعيش في غمرة مع زوجها وأولادها وتعمل في مركز الإحصاء، ولم يحضر أقرب شخص لي زوجي إبراهيم، وتعلل الجميع بأن تليفونه مغلق، جلسوا جميعا وقد أزاح أخي الستارة الزرقاء التي تفصل كل سرير عن الآخر، فالحجرة مكونة من ثلاثة أجزاء، كل جزء به سرير وكمودينو ودولاب ملتصق في الحائط، ومائدة للطعام وكرسيان، لذا جلس خالي عند مؤخرة السرير بجانب ساقي المهشمتين من كسور مضاعفة تبدأ من الركبة إلى قدم الساقين ومثبتتين بجبيرة ولفافات من الأربطة، التي امتلآت بالدماء، بفعل جروح غائرة تملأ الساقين، شعرت باستياءه، فأخبرته أن يأتي ويجلس بجانبي عند الجزء العلوي، وإن كان ذراعي بها كدمات، على إثرهما كانتا محتنقتان باللون الأزرق القاتم، غير رأسي الملفوفة بقطن وشاش من خياطة غرز بها، كانوا الثلاثة يحاولون تمثيل الدور المشاع في تلك المو اقف العصيبة، قدر ولطف، وخير إن شاء الله، وهكذا، كانوا بكل طريقة يحاولون إطالة الحديث، لكني لا أجد ما أقوله – فقد كانت التجربة جديدة بالنسبة لي، و انتقلت إليها بلا مقدمات، ومازلت مشدوهة، لا أستوعب ما حدث، ولا أعرف مدى خطورة الناحية الطبية، ولم يأتني الطبيب المختص بحالتي بعد، وداعبت يدي أختي الكبيرة سلوى، أرجوها ألا تخبر أمي،فردت بخجل وهي تنظر إلى الأرض أنها عرفت كل شيء

وتموت قلقا وكمدا، فزاد ألمي، وقد بدا لنا الحزن أمامنا.. وخلفنا.. على اليسار.. وعلى اليمين.. وهناك ألمح حبيبي.. أنظر فأجد بقعة سوداء.. أفزعتني ورغم ذلك.. أنظر لأعلى فأجد السماء واسعة جميلة والحب يملأ قلبي وعيناي حبيبي أنظرإليه بحزن .. حتى القمر يلوح هناك، فينظر لي أخي بكل حب ودهشة وحيرة، وتظهر لي كثير من الحقائق.. تبدو أمامي كأرجوحة.. تنشطر فجأة وتلمسني لدقائق يدي الموت ..حتى يهزني شخصا ما بقوة لأحيا مرة أخرى.. يبدو أنه خداع كبير يحتويني.. ترك آخى كل شيء من أجلي، فقد كان حضوره إلى القاهرة صدفة، جاء هو وزوجته سلمى في أجازة طارئة لتضع مولودها الثالث، لكنه قرر أنه لن يتركني أبدا، حتى أخرج من المستشفى ورأيته يضع حقيبته التي بها بعض الملابس القليلة، وقد حزم أمره دون نقاش أو أخذ رأي أحد لكن المشكلة، أن هذا عنبر للنساء، لا يصلح أن يرافقني فيه، إلا إذا أخذ حجرة بسريرين فقط خاصة لي وله ؛ لكنه كافح واستخدم كل لباقته وحذقه ليبقى بجانبى بكل اصرار ، وثلاثتهم تغاضوا عن أي مشكلة في سبيل البقاء معي لحين فهم الأمور بوضوح. التي لم يتوقع أحد منهم أو ممن وصلهم الأمر أنه شائك ومتعثر ويحتاج إلى وقت طويل هكذا. وأنا بين أنياب الهزيمة، وقهر المرض، فسقطت روحي في براثن الصمت بكل سهولة، ودموعي صامتة تائهة، عاجزة حتى عن مسحها، فقامت أختي بهذا الدور بصمت أيضا، من تكرار

المواعيد أدركت أني أحقن، كل أربع ساعات في الكانولا، التي تغير كل يومين، مرة محاليل، ومرة علاج طبي بزجاجات تعلق في الحامل، ومرة لمنع الجلطات.. ومرة أخرى مسكن المورفين العظيم حتى أنام، ولاحظت أنهم أيضا يعطوني حبوب مسكنة، لكن حقن المورفين يكون دائما بالليل أو عند الضرورة، وبدأت أدور في حنايا المواعيد بغبطة وأحسبها و أتدارك فروق الوقت بدقة، حتى أنني أنبه الممرضة عن الموعد المضبوط لو تأخرت بعض الوقت حتى في يوم أزعج غبطتي في حديقة الدواء التي أعيش فيها، حضورالطبيب الأخصائي غاضبا قائلا بحنق ألن نرفع المحاليل.. ألا يكفي أسبوعان ويستطرد

- لابد أن تأكلي .. و أنا صامتة لا أرد غير ببكائي الصامت.. حتى يفاجئني برده الجريء:

- اعرفي يا وردة لن تموتي، لقد نقلنا لك دم وأدوية تكفيكي أن تعيشي.

- عادي لا تأكلي.. سنرفع المحاليل، وستدخلين حجرة العمليات غصب عنك.

اندهشت، وزاد ارتجافي من وقاحة هذا الطبيب، واشتد بكائي هادرا ساخنا أشعر به يلسعني من حرقة الألم التي هى ربما بفعل الأدوية والمسكنات تهمد بعض الشئ، لكن لا تغيب عن عظام ساقي المهشمتين. فبأخذه آخى الذي يعلم مدى سوء حالتي، خارج الحجرة يحاول أن يهدئ من غضبه الشديد مني،

لكنهم جميعا مهما قالوا، أن هذا من أجل عافيتي واستعادة صحتي، لن يعلمون إطلاقا مقدار الألم والخوف، والهلع الذي يملأ جوفي وأحشائي وعقلي وروحي لا يعلمون ولن يدركوا مدى الانكسار والهزيمة الذي أشعر به الآن في معركتي مع الحياة، هكذا بكل عبث كافأني هذا الطبيب الوقح، الذي ينطق اسمي كأني خليلته أو يعرفني من قبل وكل ما بيننا هو لقاءنا في هذا المكان المقيت، حضر طبيب آخر ومعه عربة تجرها الممرضة عفاف، بها كل المستلزمات الطبية للتغيير على الجروح، كدت أنهار لكني تماسكت بعض الشيء، وطلبت من آخى أن يمسك ذراعي حتى أتحمل الطبيب وهو يفك اللفائف الملوثة بالدماء من الجبيرتين ويستعمل أدواته وماء حمضي مالح، تجعلني أصرخ وأتلوى كالملسوعة، فتضطر الممرضة بغطاء منطقة الحوض وأردافي العاريتين اللذين حكما عليهما لشهور طويلة العراء وهذا لم يكن أسوأ ما في الموضوع عراء فرجي وجسدي كاملا إلا من رداء أزرق خفيف شيفون تبدله لي الممرضة كل ثلاثة أيام أو أربعة على حسب تذكرها، ما كان يعكر مزاجي وأجن به هو الأيام الخمسة للدورة الشهرية وبقع الدماء تغزو الملاءة البيضاء وربما المرتبة مهما وضعت لي الممرضة قطنا وأخجل من أن أطلب من أخي أن ينزع لي القطن الملوث واستبداله، فأضطر إلى عمل هذا بنفسي مكتفية منه أن يحضر لي المياه.. والمعاناة

والبكاء يغمراني على تعاسة حالتي.. وأنا في وضع واحد، نائمة على ظهري لا أستطيع بتاتا التقلب يمينا أو شمالا.

اعتادت عيناي بعد ذلك، في حوالي الساعة الثامنة، ميعاد استلام النبطشيات بين الممرضين والممرضات بإطراقة أستاذ نبيل رئيسهم ، الذي يحضركل يوم الساعة الثامنة إلا ربع ويمر على كل الحجرات، حتى يأتي عندي وكنت في مقدمة الحجرة، قائلا لي بابتسامة كبيرة – صباح الخيريا أجمل وردة وهو يرفعني من ذراعي لأستند على الوسادة لأستعد بمشاركتي أداء وظيفته، في الحقن – والتوجع، وفورا يستيقظ أخي، ودون أن يغسل وجهه.. يصبح عليّ، وينزع كيس الأسترة الذي به البول، ويغتسل جيدا ويصلي الصبح ثم نتناول الإفطار سويا الذي قبله تحضر الممرضة لإعطائي حبتين من الدواء، ثم تأتي لتغيير الكانولا وتغيير التاريخ ويبدأ عذابي ابتداءا من تغيير الكانولا- إلى حقني بمخدر النوم.

في حوالي التاسعة مساءً ميعاد نوم الجميع بالأمر الطبي، وتطفأ جميع الأنوار وتظل أنوار خافتة إيذانا بالنوم سواء رغبت أو لا، فعلا المرض سجن يقهرك دون أي ذنب لك، غير مجهول عبث بقدرك ومصيرك، ولابد وضروري وحتما تواجهه وقد دخلت حلبة المصارعة مدفوعا أن تناطح كالثور الهائج، أنت فيه تلعب المروض الذي يرفع في يده قطعة من القماش الأسود أو الأحمر ليغازل بها هذا الثور الهائج، هذا هو المرض تستجديه كالعبد،

والأسير، أن يمنحك حريتك، حتى تخمد الروح وتهلك أعضاء جسمك من الصراخ، وأخيرا تستسلم، وتزوغ العينين، وتشرد الروح في متاهات غريبة، مغمورة في عمق اليأس، الذي يرشدك إلى لغة الصبر المستحيل، نوع جديد من الصبر تتعلمه وتتقنه مرغما، مجبورا، ويلهمه لك رب القلوب الرحيمة فقط.

جاء إبراهيم زوجي أقصد زوجي السابق في يوم مشئوم كيوم ادعاء حادث طريق كما يكتبون في الملف الطبي و أيضا المو افق الخميس وقد أصبح يوم الخميس يوم فارق في حياتي، ونحس مثل رقم (١٣) المتداول عن شائعة أنه رقم نحس- جاء مبتسما كعادته يسأل عن حالي، فأجبت بابتسامة فاترة أين كنت يا ابراهيم؟ وأسرع متهربا من الإجابة التي أعرف إجابتها جيدا وأخرج تليفون نوكيا صغير جديد، لمعرفته أن تليفوني سرق في الحادث أجبت بلا مبالاة ماذا أفعل به؟

يقول مازحا، متجاهلا امتعاضي:

- كيف.. من أجل أن نعرف أنك بخيروأطمئن عليكِ على الدوام.

وسكت لبرهة أنتظرها، نعم أنتظرها، تلك اللحظة الحاسمة والفاصلة في عمري الذي ضاع فى وهم الحب والوفاء ، حتى تقتل حيرتي وهواجس قاتلة بصوت مبحوح يعجز عن النطق بوضوح اقول بكل عجزوحرقة :

- متى ستسافريا ابراهيم؟

ابتسم مجددا وقال بمرح مفتعل:

- أنا سوف أتصل عليكِ و انتِ تجيبي حتى تعرفي الرقم الجديد.
- كنت بتقضي شهر العسل ف شرم الشيخ مع كارولين؟
لم يجبني وقال وقد خلع قناع الافتعال والتمثيل و دور المسالم الزوج الهادئ:
- لا تفكري، لا تقلقي، إلا في حالك يا وردة.
واستكملت معرفة الحقيقة بكل وضوح وقلت:
- أنت متعجل.. من أمرك – كارولين وكندا كلها تنتظر الفارس المصري الهمام.. واستطردت بسخرية .. الذي خطف قلب الأجنبية و انغرمت في عشقه، وأوقفني قائلا بحدة:
- كفى يا وردة.. اهدئي من فضلك وتعجل الرد هروبا وقد باتت ترهات قلبي المكسور حطاما كساقي تماما، وعاد إلى ضحكته المزيفة وقد تلونت عينيه الملونتان الخادعتان، يتبدل ألوانهما بين الليل والنهار، مثل الثعابين التي تغير جلودها لكل أداء حسب ما يطرحه الأمر، لافتراس فريسته، ونقعه بسم قاتل، وقد أخرج ظرفين واحد به نقود، والآخر مفتاح الشقة، ورغم خروج آخي يتركنا نتحدث دون حرج، إلا أن إحساسه بهول الموقف العصيب التقطت أذنه الكلمات الأخيرة، فدخل على الفور غاضبا غضبا جما، وجذبه من الكر افت، التي يتميز بارتدائها إلى الردهة خارج الحجرة ولكمه بكل ما أوتي من قوة قائلا بصوت مرتفع أحضر الجميع:
- يا ندل .. يا واطي اطلع بره .. امشي ياكلب .

وتطور الموقف إلى عراك، حضر على إثره رئيس الدور، والممرضين والممرضات والأطباء وأخي لا يهدأ ويسب ويشتم ويلعن فيه – حتى كاد أن يفتك به لولا تدخل الكثيرين، وجعلوه يهرول هاربا كالفأر المذعور والدماء تنزف من فمه و أنفه بشدة، و أنا بالداخل عاجزة، لا أقوى على أي حركة أصرخ كفى.. كفى اتركوني جميعا .. أريد أن أموت وأصابنى نوبة صراخ ... انتبهت إحدى الممرضات، فهرعت إلىّ وقد لحقها طبيبان أمسكاني من ذراعي حتى أهدأ وتحقني الممرضة بمهدئ قوي، جعلني أنام إلى اليوم التالي ظهرا كنوم أهل الكهف، لا أشعر بشيء بتاتا وإطلاقا.

(سوف تخونني يا صاح عند صياح الديك) رددت نفس هذه العبارة مرار وقد تذكرت فيلم الاختيار للمخرج يوسف شاهين، حين قالها لأخيه محمود البحار المعجزة، كنت ولازلت أعشق مشاهدة هذا الفيلم كثيرا، كان في زمنه لم يكن هناك هذا التقدم التكنولوجي الهائل مثل الآن، فمن فرط إعجابي به، أحضرت ريكوردر صغير خاص بي وقمت بوضعه جانب التليفزيون وسجلت الحوار كاملا في حوالي أربعة شرائط كاسيت، ويستوقفنى مشهد عالق فى ذاكرتى من الفيلم الجميل والممتع للغاية وقد شاهدتة مرات عديدة ولا أتوانى عن مشاهدته اذا عرض مرة أخرى وذاك المشهد حين يذهب سيد إلى منزل بهية قمر التي تعشق محمود، ويعيش عندها، ليتأكد

من بهية إذا كان أخيه التوأم محمود خانه مع زوجته أم لا، فتهاجمه بهية قمر بكل قوة وعجرفة قالة له بكل جرأة وشجاعة:

- انت تقدر توسخ نفسك قدام اللي بتحبه.. انت كان نفسك محمود يطلع خاين.. بس ما كانش خاين يا سيد.. ما كانش خاين .. أنا بهية قمر بقولك اطلع برة بيتي.. لأنك موسخ البيت دا..

أضحك بإعجاب من مدى قمة الدراما، وعذابات هذه النفس البشرية المسكينة فعلا.ونحن نرى العالم في أشكال مختلفة من الحيوات، نجد بها الآمال وأشياء أصبحت بعيدة عن الذاكرة والخيال، إنها أوهامنا البالغة أن نبحث في كل الأشياء للذي نلهو بها ونشتاق إليها، يالها من ذاكرة عنيدة، لم أعد أريد تذكر كل هذه الإيحاءات الغبية التي تطرحني أمامهم بأشكال غير ما أريد، في ماذا نعافر؟ ، ومهما عافرت، تأتي إلينا الأمور بما لا نشتهي إنها أمور خرقاء في نهاية الأمر، ولكن الجدير بالذكر أننا نريد أن نحيا بتلك الأمور التي تكون ونكون نحن معها شئنا أو رفضنا أو أبينا.

أتى الاستشاري أخيرا، بعد إلحاح أخي وأختي أين هو هذا الاستشاري ؟المستهتر كما وصفه أخي، بل وكتب فيه شكوى لمدير المستشفى، فقد مر أكثر من ثلاثة عشر يوما ولم يحضر حتى لمشاهدة حالته التي يتولى كل الإشراف الطبي عليها.. جاء بعدها بيومين وهو يرتدي بدلة كاملة في غاية الأناقة، ولا يرتدي البالطو الأبيض وحوله زمرة من الأطباء الصغار، الذين يرتدون زي

المستشفى بنطال وتيشيرت مقفول مصنوع من القماش لونه أخضر وفوقه البالطو الأبيض، وهذا الذي يتغير لونه، فبعضهم يكون أزرق وعرفت بعد ذلك أن اللون يحدد مدى درجة الطبيب، بين طبيب امتياز بعد وأخصائي أي حصل على الماجيستير ويقع تحت إشراف الاستشاري ليكمل الدكتوراة وهو يعاملهم كعرائس الماريونيت، ينصتون لكل كلمة يقولها، ويفعلون كل ما يأمرهم به، ويتبعوه في يوم محدد يحدده الاستشاري لتفقد الحالات المرضية التي يشرف عليها. حيث لا يأتي الاستشاري إلا ثلاثة أيام وتابعيه ينفذون أوامره بالنص والحرف أثناء غيابه عن المستشفى، علمت أيضا أنه ليس فقط استشاري عادي، بل أستاذ دكتور حاصل على واحدة من انجلترا والدكتوراة الثانية من مصر، وهو أيضاً رئيس قسم العظام ويتولى الحالات الحرجة فقط في المستشفى، وقد رفض استشاريين أخرين المباشرة الطبية لحالتي، لحرج الحالة طبيا فأرجأها مدير المستشفى بعد أن وصلته التقارير الطبية عن مدى الحرج الطبي إلى أستاذ دكتور رئيس القسم، الذي أتى أخيرا بعد أن علم، أن المحاليل رفعت، وبدأت أتناول الطعام فقط، دخل بأبهة شديدة وسط أطباءه، فبدى كالملك وسط حاشيته، بوجه بشوش وابتسامة عريضة، تملأ وجهه المكتنز قائلا:

- كيف حالك يا وردة؟

لم أرد وهو أعلم بحالي البائس وقد باتت هذه الكلمة، لا معنى لها لمن ينظر إلى بإمعان، وتهفو نفسي أن أرد عليه الرد الصحيح لهذه الأسئلة الغبية، باللفظ المشاع عند المصريين بسبه في أمه حتى يعرف حالتي جيدًا.

نظر إلى نظرة طويلة وأدرك بخبرته الطبية والإنسانية مع المرض ما تقوله عيناي، فانفرجت ابتسامته أكثر وقال يغازلني:

- انت وردة فعلا .. يا وردة.

فشعرت بتحفز شديد يدفعه دفعا أن أتفاعل مع بشاشة وجهه و ابتساماته العريضة، حتى ابتسمت نصف ابتسامة، وقلت:

- هل سأمشي مرة ثانية يا دكتور؟

أجاب ولازالت الابتسامة العريضة على وجهه ملتفتا بنظراته هروبا أو خوفا لا أعرف إلى طبيب من أطباءه الإخصائيين:

- إن شاء الله يا وردة وكان التفاته بالنظر إلى ذاك الطبيب كأن أمرا يستدعي التنفيذ فورا؛ وقد أسرع الطبيب قائلا بحنو وهو يطبطب على كتفي:

- الصبر يا وردة.. الصبر.. الحادث صعب فعلا..

وعلى غفلة التفت إليّ الاستشاري مرة أخرى قائلا بحزم:

- هل أنت مستعدة للعملية؟

قلت سريعا دون تفكير:

- نعم..

فقال وقد عادت الابتسامة إلى وجهه:

- إذا هي غدا يا وردة..
بدأت الجولة الأولى مع غرفة العمليات، ملأني الهلع من دخول غرفة العمليات، تلك الخبرة الجديدة عليّ إلى أن أصبح الأمر مجرد إجراء طبي لابد منه، بل وبعد ذلك سعيت إلى إجراء العملية مادام هو الحل النهائي لترميم عظامي المهشمة، كان ميعادها في الرابعة عصرا وجاءت أسمهان الممرضة الجميلة، المعنية والمسئولة عن حالتي من ساعة دخولي غرفة العمليات إلى الخروج منها والاطمئنان على استقرار الحالة. في اليوم السابق لإجراء الجراحة الطبية، قد جاءتني بجهاز بأسلاك له زوايا مطاطية تلصق بجيل على مناطق بعينها من الجسد يكشف حالة القلب، والصدر، والضغط، ثم حضر طبيب التخدير الذي تساءل عن تاريخي المرضي، أو أني أعاني من أي أمراض مزمنة كالسكر أو الضغط وأمرنى بالامتناع عن الطعام والشراب إلى وقت إجراء العملية. ودعى لي بالسلامة وذهب. أمرتني أسمهان بالهدوء وقراءة القرآن، التي تتعامل معي بدلال وخفة ورأفة لم أجدها من كل من تناوب عليّ أثناء إقامتي في المستشفى، أوحتى بعد ذلك، وقد أصبحت المستشفى هي المكان الوحيد الذي أذهب إليه لأكثر من عام ونصف كتعاقد رحلات السفر الاضطرارية وارتديت مرة أخرى الرداء الأزرق الشفاف بعد أن سمح لي بارتداء الملابس العادية التي قامت أختى بإحضارها لي وغطاء رأس بنفس اللون، الزي الموحد الكل هنا

يلبسه بداية من الممرض والطبيب والمريض ما عدا الاستشاريين الذين يرتدونه فقط أثناء إجراء العمليات – وزاد عليه البامبرز بعد أن نزعوا الأسترة لحين انتهاء العملية، فسعدت جدا، فتلك الأسترة كالخازوق في فرجي، تدميني أنينا مكتوما لا مفر منه.

لا يشعر بجلال الموقف، وهيبة غرفة العمليات إلا من عاش هذه اللحظات المريعة، استعانت أسمهان النشيطة والدقيقة في عملها، بكامل الممرض المماثل لها في الكفاءة والخفة والبشاشة مع اثنين آخرين برفعي من أطراف الملاءة البيضاء – لعدم قدرتي على الحركة تماما إلى الترول ذو العجل، وصعدوا بي إلى الدور الرابع ودخلت ردهة طويلة تشعر أن ليس لها نهاية عبارة عن أماكن مقسمة فقط بحجم الترول ويفصل كل واحدة عن الأخرى ستارة لونها روز ، حيث يصبغ كل دوريختص بلون محدد من سرائروستائروكراسي وخشب المكاتب وقيشاني الحمامات والأرضيات ذات ألوان قريبة من نفس اللون، فمثلا في الدور السابع الذي كنت أقيم فيه كان اللون الأزرق، فعرفت أنه في هذا الطابق لون الروز، فابتهجت لأني أحب هذا اللون كثيرا وعلى الفور تذكرت لون شقتى المماثل له من جنونى به جعلت جميع أثاث الشقة به حتى المطبخ ، لكني تشاءمت من طول هذه الحجرة، ووضعي هكذا كأنى في تابوت النعش وكأنى سأدفن في القبر وشعرت بالخوف، لم يكن أحد معي فبكيت

بصمت وتناسيت إعجابي باللون الروز، مر أكثر من نصف ساعة حتى جاء طبيب التخدير غير الذي أتى أمس وقال في عجلة من أمره:

- هل انت متأكدة أنك لا تعانين من السكر أو الضغط؟

قلت بإصرار:

- نعم – متأكدة ولما أكذب وأشار إلى ممرضين، دفعا الترول إلى نهاية الحجرة التي كانت مفتوحة من الجانب الآخر إلى ردهة أخرى مربعة، بها عدد من الغرف كل غرفة مكتوب عليها اسم محدد غرفة عمليات القلب المفتوح، غرفة عمليات الأوعية الدموية، حتى وصلنا إلى غرفة عمليات بدون لافتة سوى رقم إلا أن طبيب أشار له قائلا:

- اذهب بها إلى غرفة العمليات رقم ٤ ، فرقم ٢، ٣ ليست جاهزة بسرعه وراءنا شغل بسرعه.

دخلت حجرة صغيرة مربعة الشكل - استقبلتني ممرضة كبيرة في السن وترتدى ذى روزوبالطو أبيض غيرالذى ترتديه ممرضات الدورالسابع ، فعرفت أنها فى درجة أعلى في الكفاءة التمريضية مادامت تشارك في غرفة العمليات، واستلمت الملف الطبي والأشاعات التي يلازمني في أي عملية فتحته ثم نظرت لي بشفقة ودهشة وقالت لي:

- ربنا معاكي يا بنتي.

وغرفة العمليات ليس بها إلا خشبة طويلة مرتفعة ومستوية وإضاءة قوية ومكثفة على هذا السرير الخشبي – وعلى يميني شاشة طويلة لعرض الأشعة، وعلى اليسار جهاز شفرات القلب وحاملان واحد للدم والأخرللمحاليل وقربة أكسجين خضراء اللون وترابيزة طبية مرصوص عليها أدوات حديدية وطبيبان على الجانبين واحد منهم همس لي برقة:

- خائفة

- نعم أموت من الخوف واستطردت بعصبية – أقولك أنا أريد بنج كلي – لأني خائفة جدا جدا .. أنا أريد أن أموت أحسن من كل هذا.

فضحك دون توقع مني بهذا:

- ما اسمك؟

قلت بامتعاض:

- وردة وما علاقة اسمي بالبنج الكلي؟

فضحك شديدا:

- حاضريا وردة .. حاضر سأخبر الطبيب لا تقلقي.

-أنا أتحدث جد لا تستخف بي.

- وهل تظنين يا وردة أنك حتى لو أخذت بنج نصفي ستشعرين بشيء لا تخافي.

وعندما يحقني الطبيب في الكانولا وتدوي مني صرخة اللحظة الفارقة بين الوجود والعدم، ويسألني الطبيب الأسئلة المعتادة

ما اسمك؟ – كم عمرك؟ – متى دخلت المستشفى؟ – أدرك أنني أصبحت بين يدي الله.

كانت هذه المرة الوحيدة التي حقنت بها بنج نصفي، عيناي مفتوحتان وعقلي واع وأرى وأسمع و أفهم كل ما يقولوه ولا أشعر بجسدى الأسفل بتاتا ويفصلني عن العالم الآخر المتمثل في الجزء الأسفل ستارة لا أري طبيبي المعالج ومساعديه، ولا أشعر به تماما وليس في ذاكرة الوجود عندي إطلاقا، وبجانبي طبيب كل دوره متابعة جهاز شفرات القلب ليتأكد دوما أني على قيد الحياة، وأخر يضع مضخة الأوكسجين النقي على أنفي لأتنفسه والآخر يتابع أكياس الدم والمحلول اللاتى تسيران في جسدي. كانوا يتحدثون، كأنهم في مقهى بالضبط، يضحكون ويسخرون مما حدث من أحداث في المستشفى اليوم أو أمس. يلوكون الحكي في كل شيء الرياضة والسياسة والفن ، كل شيء كأنها حلقة نقاش وسمر، فهم يتقنون عملهم وسط الدماء، والمستلزمات الطبية المخيفة لأي شخص عادي، وطبيبي المعالج يضحك بكل سعادة، لأنه يهذب هذه العظام المكسورة بالمسامير والشرائح كالبهلوان أو لاعب الأكروبات أو كساحر يتفنن في صنع كل الأحاجي ليهزم الكسور المضاعفة والعجز. أدرك إحساسه القوي وهو يرى نفسه نصف إله، يعيد للبشر عظامهم وحياتهم أعود إلى وعيي مرة أخرى وبجانبي الطبيب الضاحك يقول بفرحة:

حمدلله على السلامة يا وردة.. تأكدت أنك حتى لو أخدتي بنج نصفي لن تشعرين بشيء.

وكنت تحت تأثير المخدر القوي وأهذي:

- أين أنا؟ أنا مت خلاص وارتحت.

فيضحك بشدة قائلا بخفة:

- كيف مت وانت تتحدثين معي يا وردة ارحميني.. ويذهب والضحكة تصحبه وينادي على الممرض:

- هيا اتصل بالممرضة تأتي لتأخذها .. يلا بسرعة لدينا عملية أخرى.

وبعد أن غادر مفعول المخدر جسدي، شعرت أنني إنسانة أخرى وانقلب حالي رأسا على عقب، طار عقلي، واشتعلت الآلام نيرانا تحرقني بالفعل وأصرخ من جوفي بكل ما أوتيت من قوة، وأخي وأختي اللذان استقبلاني بعد انتهاء العملية يحاولان تهدئتي بكل شكل، دون جدوى، حتى جلب الطبيب المناوب على النبطشية يزعق في:

- وردة ليس هذا معقولا.. بجانبك مرضى آخرين.

وأنا لا أنصت إلا لصوت الألم الذي فوق احتمالي، وأظنه فوق احتمال أي بشر وأسرعت أسمهان تنكت في فخذي بدقة وقوة حقن المورفين دون استطاعتها أن تضعه في الكانولا من صراخي وهياجي، وبعد دقائق معدودة، تبدل الصراخ والهياج العصبي إلى أنين موجع خافت كأنين حيوان جريح يترجى الموت بكل

السبل ليزول عذاب جرحه النازف، واحتضنتني أسمهان من رأسي وتمسح دموعي بالقطن، وتهمس لي:

.لا تخافي يا وردة .. كامل سيكون معك وسيلحقك بالمورفين كلما عاد الألم لأني سأذهب الآن وسآتيك بعد غد فميعاد النبطشية انتهى لي من ساعتين. أسرعت أختي بإلقاء مائة جنيه في جيب الرداء الأبيض الذي ترتديه أسمهان، لكنها رفضت بشدة وامتعضت، وهربت ملقية النقود في وجهها وعاد أخي يمازحني:

- أحضرت لك مفاجأة.

فنظرت له بإعياء شديد دون أن أرد.

ففاجئني بقوله :

- فراخ مشوية وأرز بسماتي .. لابد أن تأكلي .. من أمس لم تأكلي شيء.

وكان كاملي قد أنهك وخارت قواي بتاتا، فلوحت له بالرفض وغصت في آلام جهنم التي أعيشها الآن.

بعد يومين بالضبط كانت العملية الثانية في الساق اليسرى، وكل شيء يتكرر لا اختلاف إلا في شيئين الأول أنني حقنت في غرفة العمليات تلك المرة، بالبنج الكلي في أسفل ظهري و أيضا حين أطلقت صرختي أدركت أن المخدر اقتحم كامل جسدي، والشيء الثاني الذي سيعتاد حضوري إلى غرفة العمليات بدأ طبيب التخديريطور الأسئلة. متى كانت العملية الأولى؟هذا الاختلاف، أما الجديد، خيالات المخدر ملأ عقلي بخيالات أنني

أسير بين الشهب، و أتخيل نفسي بين النجوم أسير، أبحث عن نجمي الخاص، و أنت يا فارس أحلامي هناك تنتظرني، فأبحث عنك بدفء الأمل والحنين والشوق أن أراك و أفعل معك ما أرغب و أقول لك خذني إلى أحضانك، فقد فاتني الكثير من دونك يا فارس أحلامي، حبيبي، تعاندني الكتابة إليك، يعاندني القلم، ليشعر بحالتي، التي تريد أن تحكي وتسرد عن أشياء كثيرة جميلة كانت بيننا وكان لها حضورا لا يغيب عن من تيمم بماء الحب منذ كنت في سن المراهقة، منتبهة إلى أهمية الاعتناء بالجسد، والإحساس بتعبيراته، وما ينطوي عليه من إمكانات التأثير والجذب وتحقيق التلاطف، وكنت مولعة بقراءة المجلات التي تعرض طرائق التجميل ومستحضراته، و أنواع الكريم التي تعيد للجسد تماسكه وتحميه من الترهل، واعية بأهمية تعبيرات الجسد ومكنوناته الإيروتيكية فعندما يتو افر الحب، يتجلى الجسد أكثر، ويتفتق عن مسرات غير مسبوقة بالمرة، و أنا مصرة في الآن نفسه على أن أتحمل كل عو اقب اختياري لتلك الحياة التي استهوتني منذ أن عشقت فارس أحلامي رجلي الذي هجرني ورحل، وراء أحلام العالم الأول المتحضر، والمتقدم، والنظام والنظافة فحبيبى وفارس أحلامى لديه ابتسامة لا تفارق محياه، ولهجته القاهرية تريح الأذن، و أنصت لها بشغف وأستمتع بالإنصات إليه، وكنت أحيانا أطيل النظر

إليه، وأجدني منغمرة في خيالات يمتزج فيها الجنس بالحنان، والاستيهامات بالمشاهد الرومانسية.

وقد وجدتني أنا التي كنت أعتبر نفسي و اقفة على أرض صلبة، حذرة من التقلبات. الآن كأنني أخطو على رمل رخو، فاقدة البوصلة، وقد انكسر قلبي وتهشمت قدماي فماذا أفعل الآن، وبعد الآن؟ ، وكم خساراتي التي لا تعد ولا تحصى. ماذا أفعل يا فارس أحلامي وقد رحلت وهجرتني للأبد ؟!.

بعد تلك العمليتين، تبدل برنامج الدواء وتغير عن السابق، فقد خفت إلى حد كبير كمية المسكنات، وأصبحت في الصباح والمساء قبل النوم فقط مع تناول الأدوية المعتادة ، وإذا بى استعطفت الممرض أو الممرضة المناوب يسمح لي بأكثر من مرة لحقني بأي مخدر مسكن وسط النهار وليس مرة واحدة فقط بأمر الطبيب، ولكنهم يرفضون بشدة حتى لو ماذا حدث لي من تلك الألالم اللعينة؛ فأدركت أنني في نفق مظلم مع هذا الحادث المشئوم، وهو كوحش كاسر ينهشني بين أنيابه كالفريسة، ظللت لأيام وليال لا أعرف أي السبيل لمواجهة ما أنا فيه دون جدوى؟ و أنا أحاول أن أجد إجابة أو حلًا يشفي نفسي الظمآنة للراحة دون ألم دائم كمن يدق في رأسي مسامير لا تهدأ أبدا، وجروح ساقي التي تمنع الأطباء من وضعي في الجبس ويكتفوا بوضع جبيرتين تسند الساقين من باطنهما دون سطحها الملفوف

بضمادات ولفائف الرباط الضاغط حتى بعد إجراء العمليات وتثبيت الساقين بالمساميروالشرائح.

في إحدى الأيام دخل عليّ أخي ومعه طبيب شاب جاء من لجنة تأمين الهرم للتأكد من الخطاب الموجه من عملي في الشئون القانونية بإدارة الهرم التعليمية بأني مريضة وملازمة للفراش وبناء عليه يتوجب إجراء الكشف الطبي ؛ لمنحي الإجازات المرضية اللازمة لحين الشفاء والعودة إلى العمل ؛ ولغرابة الأقدار أنني تخرجت من كلية الحقوق و أنا أهوى كتابة الشعر، وهوايتى المفضلة لدي قراءة الروايات والحكايات، كان يتحدث مع أخي كأنهما صديقان من زمن، يتجاذبان الحديث عن عالم الطب، ومدى صعوبة العلاج في مستشفيات التأمين الصحي، المملة والقليلة الكفاءة ، وإجراءاتها الطويلة لإتمام أي عملية أو الإشراف الطبي، حياني الطبيب بابتسامة، حتى أدركت أن تلك الابتسامة هي شارة لكثيرمن الأطباء، لها مغزى نفسي في بعث الأمل والاطمئنان في نفس المريض، المسكين، الذي يكون كالغرقان يبحث عن قشة أمل أمام جهله بطبيعة المرض الذي يحاصره، ومدى خطورته، وحدود الشفاء والخروج من مأزق القدروالمجهول لهذا الضيف الغيرمرغوب فيه.

قرأ الملف الطبي، وتمعن في رؤية الأشاعات، التي يرفع كل واحدة على حدة وينظر بإمعان وتفحص. ثم جلس بهدوء على الكرسي الذي بجانبي وأخي معي وقال بشفقة ينصحني:

- لا تتركي هذه المستشفى ولو أنفقت مال الدنيا.. أنصحك بذلك.. المشكلة ليست فقط في الكسور المضاعفة ولكن في تلك الجروح التي نزعت اللحم وهرأته.. وأي تلوث بها ربما يحدث غرغرينا وتبتر الساق وخاصة الساق اليسرى.. حينئذ أدركت لما طبيبي المعالج باسم شكري يصر على عدم خروجي من المستشفى. كان يتحدث بكل أمانة، وضمير طبي غريب على أطباء التأمين الصحي. وأنهى مع أخي كيفية إجراءات البدء في أجازة مفتوحة من خلال التقارير الطبية التي تزودني بها المستشفى المقيم بها، وأنه لابد حين الخروج من المستشفى، أن أذهب إلى لجنة التأمين الصحي بالهرم لأخذ الأجازات وإرسالها إلى مقر عملي بالفترة الزمنية التي يحددها لك الطبيب المشرف على حالتي الطبية. مع أخذ جميع حقوقي الوظيفية والقانونية أي الراتب، ورغم عملي في الشئون القانونية، لم أكن أفقه شيء فعلا في كلية الحقوق كانت علاقتي بها كعلاقة التلميذ الفاشل، بالمدرسة، إما هروبا منها، أو إهمالا أو رسوبا أي الفشل الذريع.

كنت أفكر في أمي، واشتقت إليها كثيرا والحديث معها، وقد أصابني حوار طبيب التأمين بإحباط وقنوط من كل شيء، حتى رن الهاتف في نفس اللحظة، وتعجبت وسعدت وظللت رغم بكائها الذي تحاول أن تخفيه، تستحلفني ألا أخاف، وأن أخوتي يمنعوها من الحضور وتحاول التملص منها ولكن لا تعرف المكان

بالضبط، فهي عمرها كله إلا في مرات نادرة لم تخرج عن محيط مدينة بني سويف بينما موطنها الأصلي محافظة أسيوط الذي فارقته منذ الطفولة مع أبيها بعد أن نزح مهاجرا، بحثا عن العمل كترزي بريمو للبدل الرجالية القماش الشركسكين وهي بدل قماش خفيفة صيفية بها جيب عند الصدر أو جيبان وإن كانت أمي أخبرتني، أنه فنان وصوته صداح، ويحفظ القرآن كاملا، ويرتله شفويا دون كتابة لأنه كان أميّ، حتى أنهم كانوا يستعينون به في أذان الفجر، أو أي أذان، ويغني مع فرقة مواويل شعبية دينية، حتى ضاق الرزق، وهج إلى مدينة بني سويف، وفتح محل خياطة رجالي، الذي راج واشتهر، فالمدينة ليس بها إلا الموظفين والتجار، حيث بها كل الإدارات والمؤسسات الحكومية التي يتبعها بقية المراكز والقرى المنتشرة حول المدينة فكان بارزا فى مهتنه الغير متداولة فى تلك المدينة، و أقفلت أمي الخط تدعي لي وأنها تنتظرني راجية من الله أن يطيل في عمرها حتى تراني مرة ثانية ويهدأ قلبها. وتقلصت حياتي أنا وأخي داخل أسوار هذه المستشفى، ونسينا كل العالم الخارجي والمحيطين به، فأنا لدي طفل اسمه كمال، يعيش الآن عند خالي طلعت في الهرم بعد أن تركه إبراهيم بناء على رغبتي أنا وأسرتي،وبعد أن أصر خالى أن يظل عنده هو وزوجته الحنون، مبررا هذا بأنه ليس عنده أحد فالبنتان تزوجتا، وواحدة منهما تعيش مع زوجها في السعودية، والأخرى تعيش

بعيدا في مدينة الشروق مع زوجها وأطفالها الثلاثة، فما الداع إذا، أن يذهب إلى بني سويف عند أمي، وإن كان الطفل المسكين أصابه الحزن برحيل والده المفاجئ وأمه التي صدمت أمام عينيه بحادث الموتوسيكل، الذي كان يقوده صبي لا يتعدى الخمسة عشر عاما بدون رخصة، ولازم كمال لفترة طويلة حجرته في بيت خالي مقهورا من هذا المصير المتعسف لطفولته، وقد كبر عشرين عاما فوق عمره العشر سنوات، وذاق مرارة الافتقاد والوحدة، فتبدل حاله، وأصبح انطوائيا، وقليل الكلام وشاردا وحائرا في تفسير هذه الأمور الجديدة عليه، حاول خالي وزوجته بكل همة، ومجهودا شاقا أن يكون له السند والتعويض بالرعاية والحب والحنان ؛ ولكنه رفض واستكان وبعد عن كل الأطفال والعناد والكبر ملأ عقله، ورفض رفضا تاما أن يذهب إلى المدرسة إلى حين خروج أمه من المستشفى.

أهوال المرض، ضللت لي كل تلك الحقائق الجديدة على ابني، لا أقوى حتى على رؤيته و أنا في هذا الحال المزري، بملازمتي فراش المستشفى راقدة مستوية على ظهري، لا أستطيع حتى أن أنقلب يمينا أو شمالا لأداعبه وألعب معه مثل الأوقات الماضية لم يخبرني خالي بأي شيء رافة بأن ما بي يكفي خمسة أشخاص ليتحملوه ويستوعبوه بينما أخي، يؤجل في سفره على الدوام من أجلي، وقد أقسم ألا يتركني حتى أخرج من هذه الحجرة اللعينة التي تحمل رقم (٧٠٥) رقم لن أستطيع نسيانه مهما مرت الأيام

بل ولا يعبأ كثيرا بالاتصال للاطمئنان على زوجته الحامل التي تتأهب لوضع مولود جديد يسبقه طفل، ولا يذهب إلى بيته في مدينة العبور إلا للاستحمام واستبدال ملابسه دون أن يتفوه مع زوجته إلا بكلمات معدودة ويكتفي بنظرات الخوف واليأس من أنني ربما لا أسير على قدماي مرة أخرى.. وزوجته بكل إخلاص ووفاء صامتة، لا تسأله حتى عن مدى صعوبة حالتي، لأنها علمت من أدائه الواهن، وحزنه الصامت أن الأمر تجاوز حدود الخطروتكتفي بالدعاء وآلام تباشير الوضع التي باتت على أهبة الاستعداد، لأنها تدرك مدى حبه وتعلقه بي وهو يطلق عليّ بفخر دون اعتراف الآخرين في العائلة الشاعرة وردة غصب عنكم. التي يخفيها عني بكل قوة بالضحك والمزاح والحديث وكأن لا شيء حدث، بينما الحقيقة أن الرعب يملئه، ولاينسى إحضار أشياء تخصه ولفائف السجائر، التي يهادي بها من يعترض طريقه، في الدخول إلى المستشفى، وأحيانا يكون المال هو الحل الأمثل، لأن وجوده بجانبي لا يصلح بتاتا أنه في حجرة سيدات لكنه بلباقته وكياسة التعامل مع الآخرين، تذلل أمامه كل المعوقات في سبيل أن يبقى بجانبي حتى لا أشعر بالوحدة، فيكفي الآلام الطاحنة، وعندما يكون هناك تفتيش ويخبره العديد من الممرضين، الذين صادقهم، يفر هاربا إلى خارج المستشفى حتى يهاتفه واحد منهم أي الوضع آمن ويعود ضاحكا ومعه الجرائد، وطعاما يعرف أنني أحبه ويقول بتفكه:

- ستأكليه.. حتى لو رفضت.. أو ادفعي حقه.. فكليه أفضل حتى لا تخسري مالك..

وأدركت أن عذابه، ليس بالعذاب الخفيف المألوف، الذي ينسحب على سنوات العمر المعهود الممزوج بطعم الدهشة والخوف من أي آت فوق التصور والأحتمال ، بل العذاب العنيف المتجمع في أزمة قائمة وحلها يصعب عليه وسط غياهب المجهول، وكلمات الدعاء والترجي دون منطق، أو تفسير طبي يسد رمق الحيرة والخوف من ابتلاء يهمد النفس ويطيش بالحلم، فثيابه مهملة، و أنا ما رأيته إلا آية في الأناقة، وأظافره متسخة بعض الشيء وهو نموذج في النظافة، وقامته الفارعة متهدلة على كتفيه العريضين الذين لم ينسيا حصوله على أرقى تعليم لتفوقه، حتى حصوله على الدكتوراة، وسفره إلى السعودية أستاذا أكاديميا مميزا بين أصدقائه بالدقة والحصافة والإبداع في عمله الأكاديمي. إذا كيف يتعذب هذا الرجل هكذا؟ يتعذب لأنه صاحب ضمير يقظ، تشغله الأفكار والهواجس والرؤى البعيدة عن نظر أصحاب الضمائر الخامدة والبطيئة. في إدراك البعيد عن مسافة خطواتهم على الأرض وهم ينظرون بكل خزي وعار إلى الأسفل أسفل أقدامهم.

بدأت الحياة في المستشفى تأخذ شكلًا جديدًا، شكل حياتي ويومي مختلف، وأخي يجذب الجميع ويجلبهم لغرفة (٧٠٥) بالملاطفة والغرزة الموجودة بجانبي على كمودينو كبير.عليه كاتل

كهربائى صغيريكفى لإحتساء مشروب لثلاثة أشخاص، وفى الأسفل درجين بهما كل أنواع المشروبات من شاي وينسون وقهوة، وأنواع مختلفة من باكتات المختلفة النكهات، غير الدولاب المليء بالفاكهة وأنواع الجبن المختلفة المعلبة. هذا غير زيارات أمي وأخوتي المحملة بالطعام الطازج الشهي الساخن في أواني حفظ الطعام بدرجة حرارتها لنصف يوم، فأي أحد يعوز أي شيء عندي كل شيء موجود، ومتاح للجميع، وقد جلب حسن معاملة أخي لكل الموجودين في المستشفى من مرضى وممرضات، وأطباء استحسان الجميع، وهذا المغزى أدركه جيدا حتى لا أشعر بالوحدة وليالي المرض الموحشة، هؤلاء المرضى المساكين، ألا زالوا يؤمنون بقوة أن الله يستمع إليهم وإن كان الله موجودا، لابد أنه سيدرك أن هناك حدود للفهم البشري، هو الذي خلق هذه الفوضى، حيث يوجد البؤس، والظلم والجشع والألم والوحدة، وهو بلا شك لديه أفضل النوايا لإنقاذنا جميعا، غير أن النتائج أثبتت أنها مدمرة، وإذا كان الله موجودا فسيكون كريما للغاية مع الذين يختارون أن يفارقوا الأرض مبكرا، ولعله يعتذر أيضا لإرغامهم على قضاء زمن هنا بين أنياب ابتلاء المرض اللعين، أكاد أقر أنها محاولة بائسة مني ألا أؤمن حقيقة أنه موجود.. بل وينصت لي.

يلهو بهم المرض، وبمصائرهم، ويصيحون هؤلاء المرضى العاجزين ،ليصبحوا أنصاف مجانين، هم في الفعل يفقدون

العقل ويدعون التعقل ، كم أشعر بهذا تماما الآن، ولكن مع بعض إرشادات الحمقى الآخرين، وهؤلاء أيضا مساكين، مملين، يساعدوهم بكل إخلاص، كمل يفعل الجميع معي، أن يكونوا، ويعيشون ويتكيفوا بنصف عقل، لنحيا جميعنا في عالم الناروالثلج معا.

أصبحت الحجرة والعنبر بكامله عائلتي تفعل المستحيل حتى يمر اليوم بسلام حتى ولو كان ادعاءا.

أشد ما آثار فضولي ومشاعري، امرأة من فلاحين المنصورة، جاءت لتأخذ مياه ساخنة وأعرف أنها تريد أن تقول شيء، عيناها شبه باكيتان باحمرارهما الشديد داخل مقلتي عينيها الجميلتين شعرت أن جفاف الدموع الغزيرة كان من وقت ليس طويلا ، كانت تشكي من شيء رهيب عليها، زوجها يعمل سائق، وأصيب في حادث، بترت فيه إحدى ساقيه، والأخرى تم لها عملية مسمار نخاعي تشابكي، وشريحة وترقيع عظيم، ومجبسه، والدكتور منعه من الحركة تماما إلا بعد فك الجبس الذي سيستمر إلى شهور كالمعتاد، لحين أيضا تركيب أداة تعويضية للساق المبتورة. تخبرني أن حالته النفسية سيئة للغاية، لا يأكل أو يشرب، حتى لا يقضي حاجته على السرير من خلال المبولة، أو (القصرية) البلاستيكية، وهي ترجوه أن تساعده، ويرفض حتى أصيب بانخفاض شديد في نسبة الهيموجلوبين (أي الأنيميا وفقر الدم) وينقلون له دم على

الدوام، والأطباء مستاؤون جدا من هذا الوضع الغير صحيح طبيا وتستطرد بيأس أرسلت في طلب أمه وأخوته من البلد ليفاتحوه ويرغموه على تناول الطعام، فالطبيب يهدده بعدم نقل الدم إذا لم يستجب لشهوة الطعام والشراب. وبملامسة رقيقة ترفع بها بعض خصلات تسقط على جبهتي سهوا وقالت:

- انت جميلة فعلا يا وردة.. كما قالوا عنك.

فخجلت من الإطراء كعادتي في تلقي المديح وقالت:

- والله قمر مثلك، لا تتركه عين الحسود، قولي لامك تبخرك وترقيك.

لم أرد إلا بابتسامة باهتة حتى قلت أرد غزلها الصريح:

- انت من المنصورة.. هذا واضح.. العيون الخضراء، والوجه الأبيض المستدير، وشعرك الأصفر الذي ألمحه تحت الخمار الخفيف..يهتفوا انك من المنصورة...ها ..ها.

ضحكت بشدة ووضعت يدها على رأسها تخفي مقدمة رأسها الكاشفة من تحت الخمار.

- جيد أنك أخبرتيني .. لأرتدي خمارا غير هذا..

ثم قالت بمزاح وقد زال الغم والهم من قلبها ولو للحظات:

أقولك يا عسل.. بس صدقيني.-

قلت بتلهف:

- ماذا؟

- ضعي ربع جنيه في حقيبتك ولا تصرفيه، يقولون عندنا في الفلاحين المال يحضر المال.. مثل الضيق يجلب الضيق.. وأطرقت على يدي بخفة:

- ما رأيك يا قمر.. في كلام الفلاحين هذا.. يعجبك ولا إيه ياعسلية؟

فضحكت بشدة وقلت مقلدة إياها:

- يعجبني يا عسل.

رغم الخنقة التي ملأتني بها تلك السيدة التي نسيت أن أسأل عن اسمها من تلاحق الحوار الحميم بيننا غير أنها إنسانة تشعر وتحزن وتشكي همها القدري، إلا أنها جلبت لي ذكرى غير مستحبة تتماس مع شعور زوجها المطعون بخنجر دامي في قلبه وروحه التي تمارس وتتقن لعبة فناء الطرقات بقيادته سيارته الأجرة. وقد جاءت الممرضة فاطمة التي تشبه أسمهان موضوعا وليس شكلا، في حنانها وصوتها الخافت و ابتسامتها البسيطة والعميقة، تخبرني أنى منذ أكثر من أسبوعين لا أخرج فضلات جسدى والإخراج غير البول الذي يمرر في الأسترة ولابد من حدوثه، حتى دون رغبتي في البامبرز الذي كانت تحمله صديقتها الممرضة ليلى ، وقبله أشارت أنهما سيدفعاني على الجانب الأيمن، لوضع اللبوس الملين، فامتعضت ونظرت لها نظرة اشمئزاز فابتسمت قائلة:

- من فضلك تحملي.. لابد أن نخرج هذه السموم من جسدك، لأنك بدأتي تتناولين الطعام صدقيني هذا لمصلحتك..

فشردت في كلمة مصلحتي هذه، التي أصبح الجميع يعرفوها ويلوكوها كلقمة غير سائغة لي بالمرة.. وجلست بجانبي على الكرسي تنتظر الفرج، وذهبت الممرضة الأخرى بعد أن أنهت مهمتها على وضعي على جانبي الأيمن، وقد حركت الساقين بكل حرص وخبرة حتى لا يؤلماني وشعرت بالحرج فأخبرتها أن تتركني مع اللبوس، فأخي بجانبي.. وإن كان ينتظر خارج الستارة الملازمة لكل سرير في الحجرة كعازل عن كل مريض، بعد ربع ساعة تقريبا، أحسست بمغص يعصف بأمعائي، فصرخت فأتى أخي على الفور، فانتابني حرج شديد أيضا منه فجاءت أم سيد، التي تر افق زميلتي أسماء في الحجرة، دون أن يطلب منها أحد ذلك، وجلست على الكرسي وأمسكت يداي بقوة وقالت تضحك وتحفزني:

- يللا .. شدي حيلك يا وردة.. يللا ولد ولا بنت.. عايزين ولد.

فضحكت رغما عني، وسط أمعائي التي تتقطع من المغص الرهيب، حتى تم المراد، وكانت امرأة قوية بالفعل رغم أنها تعدت الستين، عندما حاولت أن أساعد نفسي في التنظيف أزاحت يدي وقالت وهي تنزع البامبرز القذر:

- أنا مثل أمك.. هل تخجلين من أمك.. قولي أمك أم لا.

فأجبتها بنظرة بالإيجاب دون أن أتفوه..

و بكل قوة، نظفتني بالقطن المبلول الذي أحضرته في درج الكمودينو الذي بجانبي التي شدته على الفور، وملأته بالماء والديتول.. وهي تتفوه بسخرية:

- الجيش يقولك اتصرف.

فضحكت، وقد أنجزت كل شيء سريعا، و أنامتني على ظهري مرة ثانية و أنا في غاية الراحة والسعادة وبللت وجهي بالماء وجففته بالفوطة وهي تقول:

- قولي أمك أم لا.. قولي..

قلت براحة شديدة:

- بل أعظم أم.

أحسست باسترخاء شديد وقد زال حملا ثقيلا من جسدي، ولأول مرة منذ حضوري إلى المستشفى اشتهيت الطعام وتناول العصير بعد شعور بالخواء التام يعوزه امتلاء غذائي، ولأنها تمرجية قديمة وخبيرة قبل خروجها على المعاش ، فتعمل مر افق لمن يريد بالنقود عرفتها أسماء رفيقتى فى الحجرة عن طريق طبيبها المعالج، ورشح لها أم سيد لتر افقها أثناء عمل عملية لها في المستشفى فنادت على آخى:

- الطعام.. والعصيريا ابني.. اختك ها تموت من الجوع.

فنظرت بدهشة إلى تلك السيدة العظيمة، وهرعت إلى تناول الطعام الذي أحضره أخي على الفور يالها من ذكريات تغمرنا، وتأتي لنا في أوقات غير مناسبة بالمرة.. بعد جلستي مع هذه

السيدة الفلاحة التي تقطن إحدى قرى المنصورة، التي كيف لم أسألها عن اسمها كيف؟ رغم تلك التفاصيل والممارسات الحسية، أعرف يقينا أنها قد تحدث للكثير من غيري إلا أنني بتاريخي ومساري الملصق على جبهتي، لا أستطيع أن أفصح وأجهر، عما صرت أعتبره بيني وبين نفسي انتصار للحياة على القشوروالسطحي، من ثم أنا مضطرة إلى أن أعيش في ثنائية غير مريحة معذبة بين ما عشته بيني وبين نفسي فعلا، وبين ما يقال أمام الآخرين بل بالأحرى، و أنا أشعر أن صهيل الحناجر الهادرة المستنهضة للهمم، هو مجرد رشاش مطر، سرعان ما يمتصه الرمل من دون أن يروي شيئا.

أفقت من ذكرياتي التعسة على صوت سعاد زميلتي الثالثة في الحجرة، التي لديها شلل أطفال وتمشي بالمشاية وتزحلقت على السيراميك في منزلها، كانت مثل زميلتي أسماء تقوم بإجراء عملية وتذهب، اعتدت على هذا يأتون ليومين أو أكثرها أسبوعا ويذهبون و أنا من أبقى وقالت بجراءة:

.اليس معك كلتات يا وردة ... جاءتني العادة الشهرية وليس معي فوط صحية.

سكت برهة ثم قلت :

- لا أعرف.. تعالي ابحثي في الكيس الذي في دولابي.

ورددت ضاحكة مزحة سخيفة:

- يا حظك لا ترتدين شيء غير القميص الداخلي والجلابية.. لا سوتيان ولا كلوت راسك مرتاح

وكانت قد وصلت بالمشاية عند الدولاب نهرتها دون غضب قائلة بحدة لم تلحظها:

- ها وجدتي ما تريدين.

- نعم فيه كلوتين شكرا يا أحلى وردة.

- العفو.. يللا اذهبي واغلقي الستارة .. أريد النوم.

دون مقدمات قامت أسماء بالعكازين، وأحضرت لي ساندوتش شاورمة، في البداية رفضت ألحت فأخذته، تمردا مني على طعام المستشفى الذي بلا طعم ولا رائحة ، هي أيضا تتمرد عليه وتعتمد على الديلفري، و أنا أعتمد على أخي وإن كنت لا أشتهي شيء بتاتا، وقد قلت المسكنات، وحقن المورفين لا يعطى إلا عند الضرورة، ومن يومين أعطت لي فاطمة مسكن آخر معللة أنه أفضل من المورفين، وهو أمر الطبيب المشرف على حالتي، ولأني كنت أحب فاطمة جدا مثل أسمهان لم أجرؤ على زجرها أو إيلامها، وكتمت غضبي وقلت بتوجس:

- لكن الألم شديد يا فاطمة.. ألا تعطيه لي أنت؟

- لا أستطيع يا وردة.. هي جرعات لا تخرج إلا بأمر الطبيب.

وفجأة انسابت دموعي بغزارة وقبلت يدها على غفلة:

- أرجوكي يا فاطمة أنا أموت من الألم والله.. أرجوكي.

شدت يدها وقالت بحدة:

- لا تفعلي هذا مرة ثانية.. أنتِ لست مدمنة.. انتي مريضة وبمجرد أن تشفي ستنسين كل هذا.. فاهمة.. بل ستكرهين كل أنواع المسكنات وتنسين كل عذابك فاهمه.

فاستمر بكائي، وغيرت نبرات الحدة إلى نبرات العظة والحكمة:

- صدقيني يا وردة.. كل هذا سيمر مهما طالت الأيام وستدركين إن عاجلا أو آتيا أنها مجرد تجربة مرة.. لن يظل منها إلا ما يشد أزرك بقوة للحياة، والعيش بكل ترو وهدوء يمنحك قلب أسد وروح شاعرة، وقد تحررتي من كل الأدوية والمسكنات وقد اندثرت تلك الآلام داخلك تمامًا. وأصبحت أقوى من أي ألم مع الجلد والصبر. وضحكت ياست الشاعرة أخيك أخبرني بهذا، ومسحت دموعي بيدها وفتحت باطن يدي ووضعت بهما برشامتين:

- جربي هذا.. مفعوله قوي مثل المورفين.. ستدعي لي.. كوني قوية.. كوني قوية هذا التعبير الذي يستهلكه الجميع أمامي دون أن يدركون مدى تعاسة نفسي الشقية. الآن وبعد الآن اليوم وغدا وبعد غد. هذا التعبير المغرض الذي أرقني شهورا طوال و أنا أترقب الأمل مع ملل الانتظار وعذابات التوجع: يا كل كائن من حيوان وبنات وبشر على الأرض يا من في السماء والبحار والمحيطات لا أستطيع.. لا أستطيع البتة أن أكون قوية واسمحوا لي سأكون ضعيفة، ضعيفة إلى زوال هذه الغمة السوداء.

نعود بالحديث عما فاتنا من هذه الفتاة ذات الوجه الملائكي أسماء، والعينان المكحولتان وجمال طاغ، وروحها كالأمواج الهادرة على شاطئ الأحلام تزمجر وترتفع بأبهة وعظمة البقاء مهما اشتدت الرياح وهبت العواصف.. يا ربي ما هذا! ، كل هذا الجمال والجسد الضئيل يسير على عكازين.. يحيرني أمرك أيتها الفتاة الفاتنة.

احترت في أمر هذين العكازين اللذين تتحرك بهما بكل خفة ورشاقة، لا تشك إطلاقا إطلاقا أن تحت هذه الجونلة مجرد فخذين بدون ساقين، كما وضح لي الممرض كامل، الذي جاء يحقنني في الكانولا ويقيس الضغط، ودرجة الحرارة بالترمومتر الخاص بكل مريض الروتين اليومي يفعله كامل وغير كامل، قال ولازال يقاوم النوم الواضح في عينيه:

- صباح الخير يا وردة.

- صباح الخير يا كامل.

- ألن تفطر معي؟

- بالتأكيد.

رفعت يدي بورقة فئة خمس جنيها ونظرت إليه نظرة استفهام ففهم سريعا قائلا:

- عن ماذا تريدين أن تسألي يا وردة؟

- أسماء..يعني.

ضحك ضحكة خفيفة:

- هي مبتورة القدمين يا وردة من حادث بشع أصابها من ثلاثة أعوام. مات فيه والديها وهى بقيت مبتورة الساقين.

بهت وقبل أن أتفوه بأهة المفاجأة أكمل دون أن ينتظر كلماتي الآتية.

- تأتي المستشفى منذ سنوات للعلاج ويساعدها طبيبها على إجراء عملية تنقيح لعملية قديمة لم تكن سليمة لدرجة كبيرة، والجروح لا زالت تنزف وتحتاج للرتق ، وشراء جهازجديد للساقين على نفقة الدولة من المجالس الطبية وربت على كتفي قائلا:

- حتى تتعظي وتتحملي يا وردة.

كان جميع الممرضين والممرضات يتسابقون لرعاية أسماء ذات الوجه النوراني، الذي يشع نورا يجذبك للنظر طويلا متأملا ما أبدع الخالق، لم أسمعها مرة تصرخ من أي شيء، لا ترد إلا بابتسامة حتى في غور الألم وتردد بتفاؤل: - الحمد لله .. الحمدلله فشعرت بضآلة معاناتي أمام تلك الفتاة، التي لا يتجاوز عمرها الخمس والعشرين عاماً.. لكن أيضا وللأسف في نهاية الأمر لم أستطع أن أقاوم ألمي وبؤسي الشديد من حالتي الآنية، وتساءلت بحسرة كيف أحصل على تفاؤل ورضا أسماء هذا وخفة روحها الهادرة كأمواج البحر الشامخة، والأدهى من هذا العقل البار الذكي صانع المعجزات ؟!

مع الأيام توطدت علاقتي بسريري الطبي، أقصى متعتي حين يرفعون السرير بمزلاج حديدي في أسفله لأتناول الطعام أو ينزل لأنام، وقد حرمت من أبسط الأشياء في حقوقي أنني إنسانة وهي قضاء حاجتي، وتلك الأسترة اللعينة في فرجي تحطم أعصابي، ومنعوا عني المورفين المدهش واستبدلوه بمسكن مع الوقت، لم يعد يسكن أي ألم وكأنه هراء يضحكون به عليّ و انحصرت أحلامي في أمنية واحدة، أريد أن أنقلب على الجانب الأيمن أو الأيسر بدلا من هذه الرقدة المستقيمة التي أرهقت أعصابي للغاية، أتت الممرضة عفاف التي تتأخر في كل شيء، مهملةً وغير كفء في عملها تغير لي الكانولا التي هي عبارة عن شيء مدبب يغرز في أوردة أى ذراع بفوهة تعلق وتفتح لوضع الحقن والمحاليل ، ونقل الدماء فهي الوسيلة الأسرع لسريان الدواء، ولأنها غير دقيقة وغبية، كل أوردة ذراعي تهرب منها ولا يثبت سن الكانولا حتى أنها في المحاولة الأخيرة جرحتني ونزف ذراعي بالدم فصرخت فيها بكل قوتي:

- يا غبية.. اذهبي عني جرحتيني.. ونزعت الكانولا من ذراعي والشبكة كما يطلقون عليها التي هي عبارة عن اسورة بلاستيك مكتوب عليها اسمي وتاريخ دخول المستشفى، وظللت أصرخ فيها:

- قلت لك اذهبي يا غبية.. لا أريد كانولا.. لا أريد حقن لقد تعبت.. تعبت يا أغبياء.

فجاء أخي مباشرة على صراخي يحاول تهدئتي، فدفعته قائلة:
- قلت لك .. اذهب بي إلى أمي.. لن أبقى هنا.. لن أبقى وظللت أكرر.. لن أبقى لن أبقى.. أريد أن أذهب إلى أمي.. حتى جاء عدد من الممرضين والممرضات ومعهم الأخصائي الطبيب، وقال بهدوء:
- اخرجوا جميعا.. و اتركوها الآن.. فظل أخي فأمره الطبيب أن يخرج وخرج هو أيضًا.
وسندت رأسي على الوسادة، وأغمضت عيناي .. أسعد بلحظات فراق الكانولا عني الذى لم يستمر طويلا، وبعد ساعتين تقريبا جاء الطبيب الأخصائي وهو يبتسم قائلا بلطف وأدب:
- لو سمحتي حركي صوابع قدميك الذين لا يظهر منهم غير الخنصر والبنصر والباقين مختفين
ففعلت ما أمرني به فابتسم ابتسامة واسعة، وأمرني أن أستمر في فعل هذه الحركة كل نصف ساعة فاستهزأت بابتسامته وقلت استهزاءا
- لكن هناك صابعين لا يتحركان يا دكتور.
عاجلني بابتسامة الفرح:
- ولا يهمك.. المهم الباقي يتحرك.. يعني الأعصاب شغالة .. يعني فيه أمل.
فشاركته ابتسامته قائلة بفرح أيضا:

- صحيح يا دكتور هل سامشي مرة أخرى. .. وذهب إلى مراده في الحديث قائلا:

- سأضطر لوضع الكانولا في رقبتك وهذا مؤلم جدا يا وردة، لن تستطيعي حتى تناول الطعام والشراب، أو في أصابع قدميكِ وهذا لا يصلح أيضا لأنها لا تظهر من اللفائف والضمادات وستؤلمك جدا، أفضل مكان هو ذراعك.

فقلت أيضا مرادي:

- أريد أذهب إلى بيت أمي.. أريد أن أخرج من المستشفى.

رد بحماسة مفتعلة:

- طبعا ستخرجين، عندما تشفى الجروح ونضع ساقيك في الجبس فورا ستخرجين أعدك بذلك وأكمل إجابته التي أعوزها.. وهذا قريبا جدا يا وردة وبدون أن اشعر ضغط على الجرس الذي بجانبي فأتت فاطمة على الفور ومعها الممرض خالد يجر عربة الغيار على الجروح التي بها كل المستلزمات الطبية وقالت فاطمة بعتاب:

- أنا فاطمة حبيبتك.. مش عفاف وأسرعت تستغل الموقف المليء بالابتسامات واللطف كأني في مشهد مسرحي هزلي، وأسرعت في تركيب الكانولا وخالد يساعد الطبيب في التغيير على الجروح و أتم أخي المشهد المسرحي أيضا بابتسامته يمسك ذراعي الآخر وحاصرني هؤلاء البشر الذين كادوا يشبهون ممثلين ارتجاليين كل يحاول أداء دوره بإتقان وسرعة لإنهاء المشهد

المسرحي، فخمدت فرحة غياب الكانولا عني لساعتين فقط لا غير، وأدرت رأسي استياءا لاستسلامي دون جسدي الثابت على وضعه المستقيم حتى قالت فاطمة وهي تغمزلي تشاغبني: - أحضرت لك المسكن الذي تحبيه فتلاقت نظراتنا فغمزت لي مرة أخرى فانتعشت روحي بعودتي إلى مسكن المورفين المدهش، وظلوا يتمموا عملهم، بينما أنا أنتظر موعدي مع الراحة والاسترخاء ولو لسويعات من جحيم الوقت.مع المورفين المدهش الذى وعدتنى به فاطمة.

في اليوم التالي، خرجت أسماء من غرفة العمليات وأحضروها إلى سريرها الذي أمامي دون أن تنبس بكلمة، وإن كان الإنهاك والتعب باد على وجهها؛ فقلت لنفسي ساخرة: هذه الفتاة الحديدية كالمرأة الحديدية، كيف بحقك يا ربي تكيفت مع الألم وهزمته هكذا أخبرني يا إلهي، فأنا في أشد الحاجة إلى تلك القوة الجامحة، حتى بعد وقت ليس طويلا، وكنت مستيقظة ليلا والنوم فارق عيناي ولم يعد ادعاء مسكن قبل النوم هذا يؤثرفي ولا أنام مطلقا، رأيتها تخرج من حقيبتها شريط حبات حمراء وتخرج حبة وقسمتها نصفين أخذت نصفها، وكادت أن تضع النصف الآخرفي فمها يبدو من شدة الألم الذى تشعربه، حتى أدركت أني أنظر لها، فأمرت أم سيد التي ترافقها أن تعطيني النصف حبة وقالت بوهن:

- خذي يا وردتي هذا المسكن سيساعدك على النوم.

فأخذته على الفوروأمرت أم سيد أن تغلق الستارة الخاصة بها تقول معتذرة:

- اعذريني يا وردة سأحاول أنام الألم شديد.

وبعد وقت ليس طويلا، شعرت بتنميل في جسدي وارتخاء يشمل جسدي والراحة تدب في أوصالي، وبدأت أهيم في خيالات بعيدة وقد تفاعلت الأدوية التي أتناولها مع نصف حبة الترامادول بأشياء عجيبة؛ فأغمضت عيناي استرخاءً واستعدادًا للنوم، حتى جاء أخي وقال براحة:

- أخيرا نمت يا حبيبتي.

أسعد سعادة طفلة بفتح الباب حجرتنا المغلق على الدوام لعدم إزعاج المرضى، خاصة في مواعيد الزيارة التي يستمر فيها الباب مفتوحا أغلب الوقت لكثرة عدد الزائرين، أو تناسيا غير مقصود من أحدهم في هذا الحبس الذي استمر لمدة ٦٠ يوما تقريبا رأيت وعرفت العديد من النساء المرضى ما يعادل سنوات من عمري، ومنهم من يأتي صدفة للمباشرة الطبية بعد إجراء العملية، يمرون عليّ ويلقون السلام والتحية ويتساءلون السؤال المعتاد:

- انت مازلت هنا يا وردة.. ربنا معك يا حبيبتي..

وفي إحدى زيارات لزميلتي الثالثة سعاد، أتى زوجها ومعها ابنها الذي تقريبا في عمركمال ابني، وهرع إلى الشباك الطولي المغلق بإحكام بالزجاج السميك حتى لا يدخل الذباب والحشرات

والستائر؛ التي جذبها بعنف لينظر إلى الشمس والمباني المرتفعة التي تشكل تشكيلا هندسيا غريبا وبديعا والصحراء تحوطه من أغلب الجهات في مدينة الشيخ زايد. فقلت هامسة لنفسي: الشمس وكمال.. كم أشتاق لكما أيها الحبيبان.. متى أراكما مرة ثانية.. متى؟ وانتظرت الو افدة الجديدة، بعد خروج زميلتي سعاد، وغدا أنتظرو افدتين جديدتين، بعد خروج أسماء أيضا. جاءت أسماء لي هذه المرة على كرسي متحرك، تجره أم سيد بيد وباليد الأخرى العكازين و اقتربت بالكرسي تقبلني، وتعطيني رقم هاتفها حتى تطمئن عليّ، ثم ملتني رقم آخر وظننته هاتفها فقالت لي:

- سجليه باسم خالد المسعف.

قلت باستغراب:

- من سيحضرلك مسكن الترامادول إذا احتجت إليه.

قلت بفرح:

- كنت أريد أن أسألك لكني تراجعت وعدت أستفسر.

- ولكن أين هويعيش؟

- هويعمل في إسعاف طوارئ المستشفى أي قريب.. لا تقلقي.

ثم قالت بحذر:

- لكن يا وردة أرجوكي احذري.. لا تأخذيه إلا عند الضرورة لأنه إدمان.

قلت باستعطاف:

- لا تخافي.. والله لن آخذه إلا لاشتداد الألم عليّ.. والله.
- ولا تخبري أحد في المستشفى.. لأنه ممنوع تعاطيه.
ثم أخرجت من حقيبتها شريط به اربع حبات متبقية وأعطتهم لي.. وقالت بحدة:
- لا تأخذي أكثر من حبة في اليوم فاهمه.
وحركت عجل الكرسي بيدها للذهاب وخلفها أم سيد تدفعها برفق، وتدعي لي بالشفاء العاجل وجملتها المعهودة التى تقولها لى كلما رأتني: :ربنا يعفى عنك ويفك حبسك يابنتى.
وعند فتح الباب لتخرج أسماء استدارت مرة أخرى بابتسامتها الفاتنة والرائعة التي سأفتقدها بشدة..
- لا تنسي يا وردة انه ادمان.. لا تتعاطيه إلا عند الضرورة.. وفارقتني للأبد فبكيت بشدة لفراقها عني.. كأني أعرفها من زمن طويل وقد مست قلبي وروحي جدا.
العيد الكبير (عيد الأضحى) على الأبواب، العيد يفرض قدومه على كل مكان، وفي أي زمان.. حتى في المستشفيات.. الكل يهنئ ويبتهج، ويفرح ولو مجاملة متجاهلين أي آلام أو مصير مجهول أصابه من جراء حادث عبثي أو مرض غير معلوم، الكثير من الأطباء وطاقم التمريض يروحون لتقضية أيام العيد مع ذويهم، وتكثر الأجازات، ولا يظل غير القليل جدا منهم لإدارة العمل ويظهر السؤال الملح على عقلي لا أعرف بعد، هل سأغادر المستشفى أم لا؟ الأخصائي يخبرني أنه لا يظن أن الدكتور باسم

شكري المتابع لحالتي الطبية سيوافق، فالجروح في الساق اليسرى لازالت مفتوحة، لا يصلح نقلك خوفا من تلوث الجروح.. أخي يذهب، ينتظره في العيادات الخارجية حيث اليوم ميعاد قدومه، الذي يبدأ به يومه، بالكشف الطبي من الساعة العاشرة تقريبا إلى الواحدة ظهرا فقط، ثم يصعد للمرور على الحالات المرضية التي يشرف عليها، أو يرى الحالات الجديدة المطلوب منه معالجتها.. ثم غرفة العمليات لإجراء ما هو مكتوب في الرول بالميعاد واليوم من المرض وميعاد الأجراء الجراحى ، وغالبا في زحمة العمل في العيادة الخارجية يتغاضى عن المرور على المرضى، ويكتفى بالرول، الذي يقدم الأخصائي شرحا تفصيليا لكل حاله، وكيفية العلاج ثم يذهب الدكتور باسم شكرى إلى عيادته في المعادي مساءً ، أترقب قدوم أخي من الدور الأول حيث يوجد باسم شكري والأمل والرغبة تجيش بها النفس المشتاقة للعودة إلى منزل أمي وخاصة أنه ذهاب مرضي وإجرائي نهائى ، وقد تسلم خالي آخر ما كان يربطني بإبراهيم زوجي السابق الورقة التي أنهت بكل برود وقسوة على أكثر من خمسة عشر عاما من عمري، طال انتظاري، لكن هنا وبشكل خاص في عالم المستشفيات المقيت، السمة المميزة لهم هو البطء المميت، لا معنى ولا قيمة للوقت عندهم، فالساعات مفتوحة ومؤجلة إلى أن يشاء الله ويفرجها من عنده. جاء أخي بعد طول انتظاري القلوق محبطا، ففهمت على الفور،

وصمت، وصمت هو أيضا وجلس بجانبي هامدا وروحه خامدة من تداعيات المرض التي لا تنتهي، وفقت فجأة وقلت له بجرأة:

- أخي اعطني رقم تليفون هذا الرجل.

ففهم أخي وقال بهدوء:

- وهل تستطيعين إقناعه إنه رجل صعب المراس للغاية.

قلت:

.اعطني اياه من فضلك .

وهاتفته من تليفوني، والخوف يملؤني، فقد كانت المرة الأولى التي أحادثه فيها، واستدعيت البكاء أستحلفه أن يدعني أذهب أقضي العيد مع أمي، وأعود بعد العيد، وسألتزم بكل الأوامر الطبية و.... فرد رد امقتضبا صادما : قلت لأ يعني لأ و أقفل الخط في وجهي، فعدت للصمت مرة أخرى وزاد أخي وجوما وصمتا هو الآخر.

وساعة تقريبا من هذا الصمت المطبق بيننا، رن هاتف أخي، فوقف فجأة كمن استنهضه حديث هام و ابتهج فجأة أيضا وزاد الابتهاج كلما طالت المكالمة مع من يتحدث، حتى أنهاها وردة وردة إن شاء الله. فقلت أفتعل البهجة مثلي، فقد كنت في أشد حالات حزني واكتئابي لاستمرار بقائي في هذه المستشفى التي ستودي لجنوني وانهياري، ثم قال بعد برهة وهو يأخذ أنفاسه، التي عادت إلى الحياة بعد ما لاقاه من رفض الدكتورباسم :

- سلمى وضعت مولودة بنت .. ونظرلي بحب وحنان و أكمل.

- و أنا أسميتها وردة فابتهجت فعلا لافتعالي، واحتضنته وقبلته بشدة وتساقطت دموعي من الفرحة لحضور وردة وعاجلته قائلة: ألف مبروك يا أخي .. ألف مبروك.

- اذهب إليهم يا أخي أرجوك.. أرجوك.

- لن أتركك.

- قلت أرجوك .. أريدك أن ترى وردة وتصفها لي واشتد بكائي أكرر :

- أرجوك يا أخي لا تزيد حزني وألمي .. أرجوك ودفعته دفعا بكلتا ذراعي وهو يحاول احتضاني وتهدئتي من نوبة البكاء التي أصابتني فجأة كابتهاجي فجأة.. وظللت أردد اذهب.. أرجوك .. حتى قال بحسم: خلاص حبيبتي سأذهب.. اهدئي.. لا تبكين.. لكن الأول أرتب أمورك في غيابي.. وآت لك بعد العيد إن شاء الله.. وضحك قائلا:

- وأصف لك وردة كما طلبت حبيبتي

لم يعد يهمني أي شيء في الحياة، أو أن أعبث بأي شيء، كلها أشياء أصبحت صعب الوصول والطموح إليها. يا لها من اعترافات مخجلة عن حياتي المرتعة بالفوضى.. لكل منا مقومات للعيش في هذه الحياة، وهناك الساقطين في حفر الحياة، تلك الحفر العميقة ولكنهم لا يموتون بقدرة الإله، بل يحيون مرة أخرى للأسف، هؤلاء المساكين الذين من الممكن أن

نطلق عليهم مجازا ضحايا عبث القدر، والأشد أسفا أنني بت واحدة منهم.

بيوت بيضاء

رواية

هدى توفيق

"حسبك أن تكتب حين تحس بالضرورة، لا ينبغي أن تقترف خطأ، ففي عالم الكتابة لا يسعفك أحد"

بورخيس

مرآة الحبر

إهداء روائي

إلى فاطمة البلوشية وفاطمة عبد الناصر.. أقوى ضوأين في ليلي الحالك.

الفصل الأول

صديقتي السرية المفضلة

Not yet

ديسمبر٢٠٠٨م

ها نحن نغلق الدفتر لعام ٢٠٠٨م بمحرقة غزة، التي يتبوأ تحت عنوانها العديد من الأكليشيهات، لذلك الجرح الغائر مساحة تسري من جديد على نحو لا نهائي.

"الفنانون يتضامنون مع غزة( ).

- لا للتطبيع... لا للعدوان... نعم للوحدة وفتح المعابر.
- أبطال غزة يروون مشاهد من يوم القيامة.
- غزة... وجع في القلب.
- مثقفون وأدباء، الحكام العرب... متخاذلون، متواطئون، أنذال.
- مجزرة غزة كشفت خيبة الأنظمة العربية.
- البابا شنودة ألغى احتفالات عيد الميلاد تضامنًا مع غزة.
- حصيلة مجزرة غزة في اليوم السابع ٤٢٨ شهيدًا و٢٢٠٠ جريح.

إسرائيل تحاصر الأقصى... والأمن المصري يمنع المصلين من دخول مسجدي الأزهر والفتح.

كتب مجموعة من الصحفيين:

( )وشهدت مصر للمرة الأولى منذ سنوات طويلة مظاهرات بهذا العدد الضخم في ميدان رمسيس، والشوارع المتفرعة منه، رغم الملاحقات الأمنية التي جعلت المشهد يبدو كأنه حرب شوارع، غير أن المشهد الآتي الذي سيستمر في الذاكرة المصرية لسنوات هو مشهد اقتحام أفراد الأمن الذين يرتدون الملابس المدنية،

الجامع الأزهر بالأحذية، لملاحقة المصريين واعتقالهم ومنعهم من التظاهر.

- ٥٠٠ ألف قبطي بسوهاج، صلوا من أجل غزة في أثناء احتفالهم بعيد الميلاد وطالبوا بوقف العدوان.

الهجمات الإسرائيلية مستمرة... وغزة مأساة وخلافات الحكام العرب، ومظاهرات الغضب مشتعلة... ومصر الرسمية باردة!

وأخيرًا مانشيت لفت نظري، وأغرقني بضحكة بائسة شديدة المرارة.

- البيت الأبيض ينعي قطة ابنتَي بوش... ويتجاهل ضحايا غزة.

في زمن مضى من عمري الساري كسريان كل الأشياء، تقريبًا في بدايات الثلاثينيات كنت كبقية أفراد بنات الطبقة الوسطى الحاصلات على المؤهلات العليا، لا أهتم كثيرًا بالسياسة، إلاّ بالمصادفة لمعرفة الأكثر أهمية من إحدى الزميلات أو الزملاء المعتادين قراءة الجرائد اليومية، وإن كانت تلك العادة، وهي شراء الجرائد اليومية، قد بدأت تختفي وتتلاشى في السنوات الأخيرة، لا أعرف بالضبط السبب الحقيقي لذلك، ربما ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة الذي أوشك أن يقطع أنفاس أبناء مصر المعروف والمشاع عنهم أنهم أصحاب النفس الطويل، أو ربما عدم الثقة في أي شيء تقوله الحكومة عن تحسين الأوضاع، أو بغضًا ومقتًا لما يحدث في إسرائيل ولبنان والعراق و أفغانستان وباكستان وكل الدول المجاورة. لدينا كل ما يدعو إلى عدم قراءة

الجرائد، لكنني عندما قابلت صديقتي السرية المفضلة (وهذا المصطلح له خصوصية شديدة لديَّ عن حكايات مثيرة ستكون ما بيننا من ثرثرة)، تمَّت تلك المقابلة بعد عودتي مباشرة من إحدى الدول العربية حيث قطنت بها نحو ثلاثة أعوام، وكان حينذاك قد اكتمل عقدي الثالث، بل واكتمل معه معظم آرائي في تلك الحياة القصيرة.

تقابلنا صدفة عند عودتي من الرحلة للعمل مرة أخرى في إحدى المدارس الحكومية بشعة التوصيف، وكانت تعمل أعمالاً حسابية خاصَّة بإدارة شؤون العاملين، فهي خريجة كلية التجارة، دفعة قديمة، فقد أوشكت على إتمامها منتصف الأربعينيات، ولم تتزوج ولا تريد أن تتزوج.

هذه الصديقة السرية المفضلة، مفضلة لكونها مغرمة بالجلوس والتحاور معي لفترات طويلة، نأكل ونشرب ونتحاور ونتعارك. أنا أيضًا ليس لي زوج مثلها تمامًا، أو أحد يشاركني الأوقات الضائعة، صديقتي كثيرة الجدل أحيانًا إلى حد الصراخ عندما تأخذها الحماسة الوطنية، هذا الجزء الذي أصبح منسيًّا تمامًا في وجدان أي منا، على الرغم من ذلك صديقتي ترى أن الصراخ أفضل من اليأس التامّ قائلة ما قرأته و أفزعها:

تحمل على عاتقها إعلان النبوءة السيئة. ( )لا دولة في فلسطين، أو بمعنى آخر أخف وطأة، الدولة الفلسطينية ليست

مؤكدة، وليس هناك ما يبشر بها حتى اليوم. وحينما تشعر أن سكينًا حادًّا سيذبحها بقدر ذبح دجاجة تفرفر جرَّاءَ سكين الذبح، تعود قائلة، يملؤها شعور بالألم:

- ( )التاريخ البشري ليس هو تاريخ تطور الثقافات، ولكن هو تاريخ تطور الأسلحة.

وعندما تجدني بُهِتُّ وغرقت في الصمت والاستغراب، ما علاقة هذا بذاك الحديث؟! هل اليأس حوَّلَك إلى شخص غير منطقي، ومرتَّب في قول الأقاويل التي تدَّعينها؟ حينئذ تشعر بما أريد الإيحاء به. فتهبُّ فجأة و اقفة ضاحكة وقد تغير الموضوع تمامًا بقولها:

- أحضرت لك اليوم هدية ثمينة.

أبتسم نصف ابتسامة ولا أردّ.

- لن تتوقعي ما هي؟ ... إذن أغمضي عينيكِ.

أغمضهما نصف إغماضة بمكر حتى أرى جزءًا من الهدية، وأستخدم حدسي في تخمين ما تلك الهدية.

إنها فيلم "المقاتلون حتى الموت" (المجالد)، راسل كرو. هذا الفيلم العبقري، المفضَّل لدينا أنا وصديقتي، كونه أكثر من فيلم ممتع ومثير و أنه أوحى إلينا بصنع وجهات نظر في الحياة، وخلصنا منه إلى قاعدة سرية بها شفرة لا يعلم فكَّها غيري أنا، وصديقتي المفضلة، وهو كلمة "not yet" (ليس بعد). كل الأشياء والحاجات والآمال ما لها من وصول، كل البيانات

والمبادئ والحكايات، وأهم القيم تسعى للخروج من كلمة " not yet" حتى تتم، ومهما مرت الأمور وحاولت استصلاح ما يبدو عديم الفائدة. هناك حائط واحد نقف أمامه، هو الموت. لكن في ذلك الفيلم حتى الموت أكثر المعاني خلودًا ينتظر تلك الكلمة "not yet" حتى يتحقق ثانية في الحياة الأخرى، هكذا يقولون لنا في التاريخ والأسلاف وعظماء الماضي والأديان الثلاثة يدَّعون أن عالمًا آخر ينتظرنا مع أحبائنا وأعدائنا، ولكن، ليس بعد.

ترى صديقتي الفيلسوفة التي تدَّعي المعرفة بمعانٍ عميقة عن أسرار الحياة البعيدة حقيقة أننا نحن البشر ملح الأرض، وغبارها وظلالها وبقاؤها الأبدي في زمن بعيد غريب عنا نسمع عنه ونشاهده ونراه فقط في الأفلام بخيال ومذاق وتكوينات مختلفة تمامًا عن سلوكنا وهيئتنا الآن، هذا الماضي السحيق يصنع دهشتنا الآن بالسؤال، هل كان حقًّا هؤلاء المقاتلون "عبيد روما" الذين كان ينحصر واجبهم في الحياة في أن يقاتلوا حتى الموت في ساحات خاصَّة لمتعة العامة واستثارة المتفرجين؟ من سيفوز بالحرية وينهي الصراع دون أن يموت؟ عقلي الآن المُمَنهَج، المنظَّم، يدعو إلى الإنسانية في التعامل البشري، ولا يتخيل وجود هؤلاء (عبيد روما).

لكن مع مرور كل تلك الأوقات من مسار تقدم البشرية، وتهذيب الإنسان، ودفعه إلى احترام أخيه الإنسان، أرى أنه أصبح الآن أقوى و أقرب إلى النفس مَن يُطلَق عليهم "بشر العصر

الحديث"، فروما القديمة التي كانت تحبس عبيدها في أقفاص حديدية وخشبية مع الحيوانات، هي مصر الحديثة الآن، لا اختلاف كبير؛ نحن - المقاتلين حتى الموت، من أجل أن نحيا فقط، من أجل كفاح مرير لسدِّ رمق الحياة التي أصبحت في خصام عنيد لننال حتى متطلباتنا اليومية الضرورية - ليس بيننا وبين عبيد روما، في روما القديمة، بل في الإمبراطورية الرومانية العظيمة الشأن في حينها، فرق كبير؛ هم يموتون في ساحة الصراع، ونحن نموت في ساحة الاختناق اليومي داخل منازلنا المتهالكة، خارج شوارع ضاقت وضجت منا ومن السيارات، فقد أصبحنا بشرًا كثيرين ومن كثرتهم وتكاثرهم غير المجدي اختُلق شعار "حزب جديد معارض للحياة". قرأت عنه في إحدى الجرائد، وهو حزب جديد ظهر في مصر، لا معارض سياسات، ولا يطلب علاوات، بل يفارق الحياة ذاتها، شعاره الوحيد الراحة الأبدية، وحزب المنتحرين الذين تتزايد أعدادهم بين الشباب العاطلين عن العمل (رصد استجواب تقدم به أحد النواب الأسبوع الماضي لمجلس الشعب "أن مصر شهدت انتحار ١٢ ألف شاب خلال أربعة الأعوام السابقة بسبب البطالة التي يعاني منها ما بين مليونين وستة ملايين معظمهم شباب")، يظل دون عمل أو أمل في الزواج حتى سن الأربعين، فلا يبقى أمام العديد منهم سوى( ) حزب معارضة الحياة الذي جدد الموت به شبابه، وقد نشرت الصحف في مطلع ديسمبر العام الماضي

٢٠٠٨م، أن ربة منزل في قرية شريف باشا بمحافظة بني سويف، عثرت على جثة زوجها ملقاة داخل حجرته، وقالت الزوجة صابرين محمد إن زوجها جابر سعيد، البالغ من العمر ٤٥ سنة، كان يعمل مدرسًا، لكن الديون كانت تطارده من كل مكان، وبحث عن فرصة عمل إضافي فلم يجد، ولم يكن راتبه (مئتان وخمسون جنيهًا) يكفي مصاريف بيته لأسبوع واحد، و اقترض من أقاربه، ومن البنوك، وعجز عن سداد ديونه، ورصدت جهات مختصة أن أعلى نسبة في حالات الانتحار، تتم في شهر رمضان، والفترة التي تسبق دخول الأولاد المدارس، نظرًا إلى احتياجات العائلات في تلك الأوقات، والضغوط المالية التي تعاني منها. وبعد كل هذا يا صديقتي المفضلة، ألا ترين أننا مقاتلون حتى الموت؟ لا لنفوز بالحرية، بل لنفوز بالعيش، وأن نحيا، فتلك الكلمة، الحياة، التي هي من روائع الكلمات رغم مرورها عابرة وسط أحاديثنا العابرة المعتادة، الجوفاء، لكنها في غالب الظن، معنى غائر الوجود، الحياة تبدو لي كنور متوهج، مشع يتلألأ مثل الشمس، ينبض مثل القلب البصير يدرك رؤية ما هو على وشك السقوط، وحالات متعددة ومشتتة من المكابدة المستمرة إلى ما لا نهاية. و أنت أيها الإنسان رسولنا على تلك الأرض، عند شروق الشمس الكبير لا بد لك من أن تكون موجودًا تدب بقدميك على الأرض بخطوات هادئة ثابتة، راسخة، قوية، متجددة الحضور، تنظر إلى السماء وتتنفس

الصعداء، ترفع صوتك لتتفوه بما يحلو لك، وتدعو أن تصل توسلاتك إلى بيت الرب، وتلهو كما تريد في ساعات راحتك. هل هذا يتحقق؟ لك ولي وللآخر؟ هل أنت موجود وسط هذا السمو الحياتي؟

هم يعرفون ما مصر، هي الجماهير، هي الغوغاء المترعة، القاطنة في كل الأزقة والحارات، أمام المساجد، والمصلَّيات، الصورة المصغرة المنتشرة والمنتصبة في بداية أحيائنا وآخرها كالعلامة والشاهد على رسوخ الإيمان في كل الثغرات، وهم في حقيقة الأمر لا يضمرون الكثير لهذا الاعتقاد الذي يدفعهم إلى نفاد الصبر أو الصبر غير المحتمل.

مصر هي الصبية الذين يلعبون الكره في أي مساحة خالية حتى لو كانت خرابة، حلم النجومية والمال، والفهلوة. مصر هي الفتيات العابثات الغائرات داخل البنطلونات الجينز الضيقة والباديهات اللصيقة بالجسم، والجديد من الكارينا والفيست وال"نصف حجاب" وال"نصف مكياج"، يتوّجِهُنَّ النقاب والخمار السعودي وما يخفيه. مصر هي كثير من الجرائد والمجلات معيار الديمقراطية التي أصبحنا نلوكها مثل العلكة تحت وطأة انتشار البرامج التليفزيونية الحرة والجريئة بلغة الإفصاح والاقتحام والتهليل والصخب غير المبرر و ابتسامات أخيرة للمذيع أو المذيعة أمام الكاميرا حتى تبدو الأمور ليست سيئة إلى حد كبير، وراءها سرب من التمثيليات البليدة، وأغاني

العري والابتذال الآتي لنا بكل أشكاله من جيراننا بل ومن داخلنا نحن. تلك هي مصر التي تنتظر الطاعون في أي لحظة خائنة عن الزمن والحرص، تنتظر الموت وتستقبله بكل حفاوة كما يستقبله متفرجو جماهير روما أمام العرض القتالي لعبيد روما. جماهير مصر مستغرقون في متابعة المانشيتات الصباحية، والفضائية والهتافات هنا وهناك، لا مثيل لسخونتها المهورة من قلوب موجوعة، فهي في حالة شراهة من الحرمان، إنها كلها ألعاب لا تحصد غير صراع مقيت قاتل، زاهق للنفوس في نهاية الأمر، أليست جماهير مصر مثل جماهير روما الغوغاء الذين أغواهم ملكهم الأحمق كوميدس بالألعاب، والشعوذة التي تسليهم وتسلبهم حريتهم تحت تراب الكوليزيوم؟ يهتفون برؤية الدم والمبارزة الفاتكة وسط صراخ حاد للوصول إلى ذروة الحدث وتلاقى المصارعين في حلبة القتال تلاقيًا دمويًّا، حادًّ وعنيفًا باستفزاز و إثارة جلبتها هتافات الجماهير المذعورة التي تعوي صراخا وبأسًا وغضبًا داخل جوارحهم وقلوبهم المكلومة بإحباط اللا تغيير، لا أمل حتى يزأروا: اقتل.. اقتل.. اقتل.

أليس الأمر متساويًا بين غوغاء روما التي تعشق تراب الكوليزيوم وغوغاء مصر التي تعشق أحجار الفراعنة؟

إن تراب مدرَّج روما القديم هو القلب المقهور لروما، وذلك القلب المقهور هو جماهير روما، قلوبها تمتلئ برغبة الخوف،

والتساؤل، تركيبة قوية لصنع القهر، العجز، الإحباط، وبعدها حين يموت ما يكفي من الرجال في حلبة المصارعة، من الممكن أن تحظى بحريتك، وبدل أن تصبح جنديًّا في المعركة شعاره القوة والشرف، تصبح مُجَالِدًا (مُصَارِعًا) شعاره "اقتل"، اقتل فهذا مفتاحك للحرية، وسيكون قول العبد، أمام العبد الآخر في ساحة الصراع (المصارعة):

- نحن الذين نوشك على الموت نحيِّيك.

ولكن يبقى السؤال الغائر في مضمونه ومغزاه: هل لي موطن جيِّد، يستحق القتال من أجله، سواء كنت جنديًّا أو عبدًا أو مصارعًا؟ هل تهتف زاعقًا بعزم: "النصر لروما" أم "النصر للهزيمة مرة أخرى"؟ فأنا أشعر بنفسي تبكي مرارًا للتراجع والتواطؤ والنيل من كرامتي لأحظى بحقي. إنها هزيمة كبيرة أمام نفسي الضالَّة والضعيفة...

أليست روما هي مصر؟

فتراب مقابر الفراعنة هو أيضًا القلب المقهور لمصر و أبنائها. أمتلئ بالحيرة والغباء في سؤالي هذا: كيف صنعتم تلك الحضارة يا أجدادي؟ وهل نحن حقًّا أحفادكم، من نسلكم الخارق والعبقري؟ أم أنه القدر العبثي الذي جاء بهم، ليغزوا تلك الأرض السوداء الخصبة، حتى نمت وتشبعت بمائها، واخترقت الشقوق والثنايا فأنتجت ذلك النتاج الهائل من البشر الذين فعلوا فعلتهم الآثمة مع كل شيء وكل كائن فكان ما كان. وبعد

هدوء العاصفة، نظروا إلى الخلف فوجدوا مصر الفراعنة تنظر إليهم، باستحياء وغرور: عجبًا! من أنتم؟! فصاحوا مجيبين: نحن أبناء مصر، نحن أبناؤكم أيتها الفراعنة، ألسنا هنا؟ ألسنا من نعبث بكل محتوياتك المطمورة في كل قرى مصر ومحافظاتها، نحن شاهدو عصرك وأحفادك، نحن عاشقون مغرمون بتلك الكنوز الحجرية، التي لا تجلب غير الفخر، والاحترام، وجني الثروة أمام كل الآخرين في كل أنحاء العالم. نحن قلبك المقهور، و أنت عزاؤنا، عزاء تخلُّفنا وتراجعنا، وكلما مر السؤال اللعين في عقلي "كيف يمكن لي جعل الأمور مختلفة؟ لقد رحل عنِّي ذلك الرجل، هل تذكر إحساسك و أنت تحظى بالثقة؟ بأنك ابن تلك الحضارة، الثقة في تلك الأحجار، والأحجار هي التاريخ، هي الميثاق المؤكد لصنعَ الاحترام.
مدافن الأسلاف، وحاجاتهم، وكل المظاهر القديمة، والتصورات عن صنع أفكار كالخلود، والعظمة، والمجد، والحضارة، حتى يأتي السؤال الحقيقي ومن أنا الآن لأثق ويثق بي أحد، و أنا أشعر دائمًا بالخطر كلما أردت أن أصبح رجلاً جيدًا في وطن؟
هم في نهاية الأمر يعرفون الكثير عن كيفية إغواء وإغراء الجماهير للتأثير عليهم لتجردهم من حريتهم، إن شعوذة الجرائد، والفضائيات، والتدين الشكلي، ومغامرات الكمبيوتر، والفقر والبطالة والمخدرات، وأهمها الكفاح من أجل العيش، سوف تشغلهم عن ذلك. إنها ألعاب وفي بعض

الأحيان نحاول أن نبعد عن كل هذا، فنسمع حفيفًا غريبًا من الصمت، لعله صخب الشعوذة. فنحن الجماهير، نحن الغوغاء، نحن البشر المساكين، لسنا سوى خيالات، وعرائس ماريونت وغبار يتلاشى على الدوام خلال مرور الأيام، كل الأيام.

مدينتي الصغيرة، تلك البلدة البعيدة التي أقطن بها أنا وصديقتي السرية المفضلة، مدينتي أشبه ببلدة قروية، ريف تمدن فأصبح مسخًا. وقد تَفَشَّت ظاهرة الحجاب، تقريبًا لا توجد مسلمة لا ترتدي الحجاب العاديَّ الشكلاني الذي يحمل جميع مظاهر الموضة الجديدة من الأزياء الحديثة، وأخريات يرتدين النقاب والإسدال والخمار كل بمعاييره، غير ذلك هن مسيحيات وينتشرن بكثرة في صعيد مصر وخصوصًا محافظتي سوهاج وأسيوط. فنحن بدء الصعيد. صعيد مختلط من الفلاحين والأعراب والصعايدة.

وإحدى العلامات المميزة لشباب وشابات مدينتي حمل أرق وأحدث الأنواع من المحمول، و اقتناء الكانز تلازمه شرائح الشيبس، واستكمالاً لتلك الملاحظات الشبابية حمل لاب توب، وارتياد التاكسي الذي ظهر حديثًا من خمس سنوات رغم صغر شوارع مدينتي ومحدوديتها.

معظم أحياء تلك البلدة القريبة من القاهرة ظاهرياً والبعيدة عنها في نفس الوقت، أن يأتي بعدها الحقيقي في مضمون تلك المدينة الشاردة القائمة في خيالي، التي هي أشبه ببقعة من

الزيت الراكد، مستنقع لا يتحرك، لا يطمح، لا يفعل الكثير حتى في أحلك وأصعب المو اقف غير الابتسامات البلهاء واللا مبالية، هي بعيدة عن كل الخيال والأفكار، والطموحات التي تهيم في مخيلتي كفكرة ماتت من زمن بعيد.

تتناثر أحياؤها السكنية الحديثة الطراز بأشكال مختلفة من تقنيات العصر الحديث بمنزل حسن البناء بحلية الرخام والقاشاني، والبُسُط الصوفية الدقيقة فوق الجدران، وعلى الأرض سجادات ملونة للحرم المكي والمدينة المنورة، وغيرها من الرسومات الإسلامية، مع وجود مصلًّى في الدور الأرضي تيمُّنًا واستحسانًا وشكرًا لمن رزقنا هذا، وهذا منتشر جدًّا في أحياء كثيرة من مدينتي وأغلبهم من الذين سافروا إلى بلاد النفط أي من كانوا لا شيء إطلاقًا وأصبحوا شيئًا ضخم الجثة والروح والعقل، رب البيت يحمل السبحة ويلبس الجلابية البيضاء ابتهالاً لربه الذي أكرمه وأعطاه.

والآخرون أثرياء من امتلاك الأراضي، كالفلاحين، والمحلاَّت التجارية والمقاولات، والبناء اختصاص الصعايدة، والعرب يتشاركون في كلتا الحالتين مع اختلاف أنهم يطلق عليهم "أبناء الجبل"، فهم ماهرون إلى حدِّ البراعة في التعامل مع الجبل وزواحفه كالثعابين والعقارب والأبراص والفئران، بل واصطيادها وبيعها لدارسي كليات الطب والصحة، وممارسة هوايتهم العظيمة، وهي صيد الصقور، فيباع بنحو ٣٠ ألف

جنيه، بخاصَّةٍ للعرب. وهذا يكلِّف الصياد الحاذق المكوث في الجبال والجلوس والانتظار والمثابرة وصنع الخَيَّات من الحمام، وهي حبكة وصنع له العجب، وصفه يقلُّ عن رؤيته وامتثاله أمام الناظر إلى خيَّة الحمام حيث يُحضِرُون عددًا كافيًا من الحمام وعلى ظهور الحمام يقومون بغزل كثير من الخيوط المربوطة ببعضها البعض من خلال خشب دقيق وصغير لحجم جناحي الحمامة وتلك الخيوط بها خيط طويل بعيد عن الجبل بعدة أمتار، مربوط بحجر ليس ثقيلاً وبالطبع الحمام ساكن فوق الجبل، وحينما يأتي الصقر تتشابك أرجله ذات المخالب بتلك الخيوط معتقدًا(أي الصقر) أنه يبحث عن صيده، لا يعلم أنه هو الصيد لصانع الخيَّة، ذلك الإنسان الذي يتحدى دائمًا ذكاء الطبيعة وأسيادها كذلك الصقر، وعندما يحاول التهام إحدى الحمائم ينهار تمامًا محاولاً التملص والهرب من الخيَّة وهو يرفرف بجناحيه دونما جدوى، وحينئذ يجذب ويشد صياد الصقور صيده الثمين، الذي يفخر دائمًا بأنه ليس بصائد عادي، كصياد السمك، بل هو صائد ملك الطيور، الصقر الذي يهوى الجبل، فالجبل هو حريته وملاذه الأبدي. وآخرون رفعهم الحظ الو افر فأصبحوا موسرين بذهول، كما حدث مع عمتي عفاف، تلك السيدة الفلاحة التي لا تملك من الدنيا غير زوج فلاح أيضًا و أبنائها الخمسة، ثلاثة رجال تعليمهم متوسط، وبنتان لم تتعلما غير أن تنتظرا الزوج، ليزيح عبء مصاريفهما

عن كاهل عمتي وزوجها المريض. وفجأة دخلت تلك الأرض كردون المباني وأصبحوا يقطنون كورنيش النيل في أرقى وأغلى أحياء مدينتي في عمارة شاهقة، ويتباهون بماركات سيارتهم التي لا يرتادها أحد غيرهم في المدينة.

وآخرون بعد رفع يد التأميم عن معظم الممتلكات القديمة بطرازها القديم الغالب عليه الطابع الإنجليزي، أصبحت تلك البيوت تباع بالملايين.

مدينتي مستنقع من العائلات كل بنفوذه وقدرته على السطوة والاستمرار. أعضاء مجالس محلية، أعضاء مجلس شعب، ضباط شرطة، عمل مشروعات واسعة المدى في أرض الشرق والجبل مع مستثمرين أجانب.

ومع تفاقم الأزمة الاقتصادية، سقطت بعض العائلات، لا كَاسْمٍ بل كمحتوى قوي، قادر على منافسة الآخرين من العائلات، وإن كانت في كنهها تحتفظ بالمجد القديم لاسم تلك العائلة.

وبالتأكيد أيضًا تنتشر الأحياء الفقيرة التي تعجُّ بالبلطجية والفقر المدقع، وإدمان ما هو مشاع من المخدرات الرخيصة، كلفائف البانجو والحشيش الممزوج بالبرشام، وهذا يحدث ويتداول بين شباب صبية يعملون سائقين وحرفيين، وصبية لمعلمي الصنعة... و موجود غالبًا في العزب، والأحياء العشوائية

كعزبة الصفيح وعزبة بلبل، والغمراوي، والجزيرة المرتفعة، وسوق الخضار، والحميات من الخلف.

من فترة قريبة كان دائمًا من يعمل في محلات الملابس، والتصوير، والأجهزة الكهربائية والأحذية، ومختلف الأشكال الشرائية، كانوا من خريجي الدبلومات، لكن الآن أغلبهم بائعات حاصلات على مؤهلات عليا.

أما بائعات الهوى، فهن منتشرات في أرقى الأحياء وأتعسها، كثيرات، كل حسب المكان الذي تأتي منه. ومن يقودهن رجل أو امرأة، لكن في الغالب القواد امرأة، هي امرأة جاهلة تقريبًا ترتدي العباءة السوداء، وهذا ليس له مغزى غير أنه تعبير عن شكل وهيئة مرتبطة شكليًّا بعملها، والغريب، بل والمثير للدهشة، أن أغلبهن من القرى القريبة من المدينة، بل فتيات منهن يأتين إلى الجامعة يقضين النهار كله بحجة الدراسة أو المذاكرة أو العمل في بعض الأحايين، ثم يعُدْن إلي قراهن بعد صلاة المغرب أو بعد العشاء كل حسب تمرير أمورها.

أما الرجال فهم أيضًا أغلبهم من الفلاحين، يرتدون الجلاليب عزَّةً وكرامةً وفخرًا بعائلاتهم وفحولة ذكورية، كما يعتقدون في أنفسهم، ويوجد أيضًا كبار الموظفين وأصحاب الرتب... في تلك الأمور يوجد كل الأنواع والهيئات ويتشاركون في امرأة واحدة، فهم أمام الجسد الميت سواسية لا فرق بين هذا وتلك.

وهم من مغرمي ومحترفي، صنع الحفلات الجنسية الجماعية في شقق خاصَّة بهم في القاهرة والجيزة، يحضرون بصحبة من شباب العائلة، أخي و ابن عمي و ابن خالي و... لا يقل عن خمسة أو أربعة رجال ليقيموا الحفلة، وهو ليس تجمعًا لممارسة الجنس والفحش والشذوذ، بقدر ما هي مبارزة بين أبناء العم على قدرة كل منهم في شرب المحيط دونما تأثير، وتطويل الفترة الجنسية مع الفتيات، والاستغراق في ألاعيب ممارسات جنسية فاحشة يشاركهن غالبًا فتاتان أو ثلاث فتيات، أمام الطرف الذكوري حتى ينال تلك الأخرى بشتى الطرق، لكونها عملية منافسة جنسية شيطانية استحوذت عليه لا تحمل أي متعة أو احترام لبائعة الهوى بقدر ما هي استعمال للأجساد واستحقاق لما يدفعه من مال واجب أخذ حقه. وقهر مثيله.

مدينتي مثل أي مدينة من مدن العالم الثالث، عالم مسكين، مستنقع غائر راكد مياهه ثقيلة موحشة مليئة بحيوانات مفترسة من الوحدة، والعزلة، والشكلانية، والتقليد الأعمى، والعبث.

مدينتي أو بلدتي الصغيرة التي لا أخطُّ لها اسمًا أو موقعًا جغرافيًّا، فلا يهم كل تلك الأسماء، ما أعلمه أنها جزء من العالم المتعب الذي يعيش خوفًا يوميًّا من فقد هوية المكان. إنها كأي مدينة صغيرة من بقية محافظات مصر، إنه العالم الذي

يرفع قوائمه على التخلف والإرث والعرف والدين الشكلي واليأس.
بلدتي في نهاية الأمر بقعة زيت راكدة، ليس بها شيء نجعل به الحكي باهرًا غير الحكي عن صديقتي السرية المفضلة.
هي سرية لكوننا نشترك معًا في فعل جرم صغير لا يراه أحد في هذا العالم غيرنا، وصديقتي العذراء رغم أنها تخطت الأربعين وبها تلك العقلية الجدلية من الدرجة الأولى، لا تخفي أبدًا ابتسامة ماكرة وهي تشيد بأنها ما زالت عذراء، فما زال للبكارة نوع من التقديس لدى فتيات الطبقة الوسطى وبخاصَّة من هُنَّ من بيوتات عائلات ذات صيت وشهرة، وفى الثقافة الريفية الشائعة المتحففظة بشكل عامٍّ كنموذج مدينتي الصغيرة.
صديقتي رغم أنها ذات أفق عالٍ في التفكير وتفسير الأمور وتحليلها فإن فكرة العذرية لها رونقها الخاصّ جدًّا لديها، بل ولدى أغلب فتيات مدينتنا.
صديقتي السرية العذراء مدمنة لمشاهدة الأفلام الإباحية ولديها "الأوربي" وتتبادل سرًّا أسطوانات السكس مع أصدقاء رجال لا أعرفهم أشدهم غرابة زميلها في العمل، ذلك الشاب الملتحي المتزوج حديثًا. وهذه النقطة هي مفتاح السرية ومفتاح الخلاف بيننا، فأنا أيضًا مفتونة بمشاهدة حفلات عروض الاستربتيز وإعلاناتها القريبة من الإباحية، لكن هذه العروض الجمالية الكاملة في رؤيتها بالنسبة إليَّ لها شعور خاصٌّ بي

مختلف، وهن يحاولن تقديم حالات الجمال الجسدي الفاتن بتناسق ورشاقة وألوان الـ"under ware" المتألقة المدهشة، وتقليعات و إيحاءات و إيماءات الجسد مع تلك الألوان على كل جسد، أبيض، أسمر، خمري، كل حسب تعاطيه فنون التشكيل الجمالي المطروح يمتع جميع حواسي ويدخلني شعور بالزهو والتفاني البصري لاستجلاب متع لا مثيل لها، تملؤني وتتخللني كعطر نفَّاذ الرائحة لكوني امرأة تعشق رائحة الجسد الندي الطري الخارق لأبعد حدود الجسد ذاته، إلى الفكرة الأم عن تجسيد الجمال، و أنا أتساءل: أيوجد كل هذا الجمال في عالمنا رغم كل شيء؟!

أرى أنه كائن ينشأ اكتماله من نقص أو ضعف دائمًا هو مَحَطُّ أنظار الجميع، لكنه سر الخلق، والبداية والعودة والنهاية إلى ذلك الكائن الجميل، المختلف مهما تعددت وجوه النساء، كلهن يحملن نوعًا فريد المذاق، والشكل والصفات وتناولاً سحريًّا يختلف من امرأة إلى أخرى مهما كانت القيمة، والعقل، والروح، كلهن إبداع يسير على الأرض ويخلق تفرُّده، وهذا طبعًا بصرف النظر عن كل التأويلات الشيطانية لوجهة نظر الآخر. تضحك صديقتي السرية، معترضة على تحليلي المفرط في المثالية قائلة:

- أنت خرقاء، تتفوهين بترهات، أنت تستمتعين بنصف الحالة، حالة ناقصة، الكمال والجمال ليس امرأة فقط، بل إنه رجل وامرأه، اتحاد الأرض والسماء. الحب والعشق والفراق لا

يصنعهما غير قصص مفرداتها رجل عظيم وامرأة جميلة، الحب والذوبان حالة مثالية من الغدر الإنساني لمشاعر هاتين الشخصيتين المحظوظتين، تتفتت بها كل الجزئيات وتنشطر إلى تفاصيل، وتكوينات. تكابد وتكافح من أجل الخلود ولكنها عاجزة، وهذا ما يجعلها ناقصة متوجعة فيمنح الفراق مكانًا لوجوده واختراق الكمال والحب الأبدي. أنت تشاهدين عروضًا بلاستيكية، أشد قبحًا و إباحية من مشاهدة الأفلام السكس، بينما أنا أتفاعل بقوة و أنا أشاهد هؤلاء يقتحمون كل ما هو داخل التابوت، هذا الحدث الكبير، المحجوب عن كل الأعين ويجب أن نشاهده ونتعلمه وندرسه! إنه عمل مثل كل الأعمال، متاح وممنوح، ليس هناك من سبب للاختباء والخجل.

وتستطرد قولها ساخرة:

- أما زلتِ بعدُ فتاة البرجوازية الخجلة؟ لا ترفع عينها في عينَي ولد. ولتكُن البداية مع ابن الجيران.

أردّ بقدر من الهدوء الكاذب، بعدما أثارني استهزاؤها:

-عذرًا يا صديقتي، أنت إباحية زيادة عن اللزوم.

تبتسم ابتسامتها المعتادة معلقة بفلسفتها الرائعة التي تظن بها أنه لا صحيح بعدها، وهي نصف ابتسامة ساخرة تعني ضمنيًّا:

- إليكم عنِّي، أنا كما أريد أأنا ؛ ولو قيل ما قيل عن إباحيتي.

وتستطرد قائلة:

- بمناسبة الإباحية الشديدة، لدي لك نكتة نصف إباحية: واحدة ماشيه في الشارع واحد شاف رجليها قالها: تاخدي خمسين جنيه وترفعي الجيبة شويه؟ قالت: لا ١٠٠، قال لها: ماشي. قالت: طيب تحب أوريك مكان الحقنة، يعني المكان اللي باخد فيه الحقنة؟ قال لها: ماشي. قالت له: طيب وتديني ٢٠٠ جنيه؟ تعالى. وشاورت بإيديها: هي دي الصيدلية اللي باخد فيها الحقنة.

وتستكمل باستفزاز:

- إيه رأيك أحكي لك نكتته سيت -١٢٨ من قدام.

أشيربيدي و أنا أضحك بشدة:

- بس .. بس كفايه يا إباحية.

صديقتي السرية هي المفضلة لديّ في كل الأحوال، ورغم أي اختلاف بيننا، فكلتانا تشعر بالوحدة، وحدة الروح والجسد، وكلتانا تجمع صفة المرأة عاثرة الحظ، المدانة بالفشل والنقص لأنها لا تحمل بطاقة المرور في مجتمعنا. دونما أسئلة وشك، لماذا تلك الفتاة (أي صديقتي) وقد تخطت الأربعين عامًا عانس؟ هل بها شيء؟ هل لا يستهويها الرجال؟ ولماذا تلك المرأة -التي هي أنا- مطلَّقة وأرملة في وقت واحد؟ جمعت حدثين هائلَين، لماذا فشلت ولم تتحمل البيت كأي امرأة في المجتمع المصري اللاتي يتعلمن التحمُّل إلى حد الطاعة؟ ليس هناك من طلاق، فالواجب عليك أن تعيشي، فهو رجلك، وأن تكوني متزوجة

وفاشلة داخل تلك المؤسسة لا يهمّ، تتجرعين المرارة والتحمل فوق طاقتك لتحسين الأمور حتى تمر وتظلين أمام الناس والمجتمع امرأة متزوجة، في كنف رجل، كما يقال، ضلّ راجل ولا ضلّ حيطة. الرجل هو السترة، والغطاء لك حتى و أنتِ امرأة خائنة، لا عليك فمعك الحماية والصك و أنت تخونين زوجك، ولكن لا تصبحي مطلقة؛ إنه لفظ وصفة مكروهة في مجتمعنا، أنا أيضًا لا أنكر أنني أمقت ذلك المصطلح، ولقد أنقذني ربي ومات زوجي السابق فأصبحت أقول "أرملة" أفضل لي وللأخريات من "مطلقة". نحن الاثنتان نجمع مانشيتات المحرمات في مجتمعنا: عانس ومطلقة وأرملة. كلتانا تكمل الأخرى في أسماء الانتهاء، أو من أوشك على الانتهاء، كلتانا تفتقد وهج الحياة والحب و ابتسامة الحبيب، نصفى الآخر، و ابتسامتي الخاصَّة الساحرة ملازمة متعتي عندما أنال راحتي بعد مشقة اللذة والتوجع أن أصل إلى الشهوة المستحيلة. إنني الآن وبعد الآن امرأة من الدرجة الثانية.

كلتانا تعلم أن تلك الوحدة، قدر مسكون بداخلنا لا نستطيع الفكاك منه أو التغاضي عنه، هو مصير اختيار مثيلاتنا، إننا مثل تلك المكعبات التي يلعب بها الأطفال، لا تتحرك مشاعرنا تجاه كل الأشياء والكائنات، تتحرك فقط للعب وإدارة الأمور بميكانيزم داخلي لا يرى، لا ينبهر، لا يشتهي، ولا تستهويه قصص الحب، لا يبادر بفتح طريق الأشواق، ولو جاءت من آخَر نرفض

مبادرته بكل إجحاف وعنف لا مثيل له. نحن في نهاية الأمر ندور خلف بعض في ساقية الضياع والهذيان هائمات على سطح الحياة دون سبر غور، دون نفحات الحب، دون شَبَق يبغي ارتواءً، دون رجل، نحن، وما نحن؟ لا شيء غير كوننا كائنات عابسة تعسة مسكينة دون مَن أحب، دون طفل... أنا عاجزة ومقهورة يا أم العواجز... ماذا أفعل بنفسي الشقية؟!

الأسبوع الماضي من شهر ديسمبر ٢٠٠٨ أيضًا حدث خبر غير سارٍّ بالمرة، بل هو فاجعة، نكاد لا نصدقه، أشبه بمحرقة غزة، والخبر المشؤوم أن صديقتي السرية المفضلة دخلت السجن!

هل تتصورون هذا؟

وهل يحدث مثل تلك الأمور في الحياة؟

عنوان القصة الغريبة... غريب حقًّا.

لا تصادق ضابطًا أو قحبة أو محاميًا!

وللأسف البالغ، صديقتي المفضلة كانت تجمع في صداقاتها المتعددة بين هؤلاء الثلاثة بطابعها الاجتماعي الودود وحب التعاون، وإن كان خطؤها الفادح أنها لم تفرق بين التعاون والألفة والتعرُّض للشبهات في مجتمعنا الفقير المتخلف الذي يعيش نصف سكان بلاده بأقل من دولارين يوميًّا.

تبدأ القصة: صديقتي الغبية في تلك اللحظات الحاضرة للحكي - مع الاحتفاظ بكنية "المفضلة لي" في كل اللحظات- كانت على معرفة وثيقة بضابط يُدعَى مازن، وهو رجل شرطة على حق

يتمتع بقوة الشخصية والعقل والتحفظ والتريث في أدائه العملي والشخصي تجاه الآخرين، أيّ آخرين حتى المجرمين، فهو معروف عنه دماثة الخلق، وحبُّه الحقَّ وامتثال العدل وتحقيقه.

ذهبت إليه صديقتي المفضلة الغبية مرة أخرى بغرض قضاء مصلحة ليست لها بل لصديقة لها في العمل، فهكذا هي صديقتي، تطرح خدماتها وعلاقاتها لقضاء مصالح الآخرين؛ لأنها محبوبة جدًّا، ولا يتوانى أحد عن سؤالها والسؤال عنها والتودد إليها حتى من غير قضاء المصلحة، إنها تدير كل أمورها بخفة ومرح حتى في أقصى حالات روحها الموهوبة لخدمة الآخرين في مقابل الحصول على متعتها الوحيدة في الحياة وهي أن تحصل على سيديهات أفلام Sex دون أي مقابل مادي أو روحي. لا أعرف كيف؟ فهي جِنّ مصوَّر أو عفريتة تخرج من المصباح بكل الأشكال مدعية أنها إنسانة قوية ونشيطة وفعَّالة ، ولا يجب أن تركن إلى أي رجل ليست في حاجة إليه بتاتًا، ورغم كل هذا وقعت صديقتي المفضلة في المحظور، ولا تعليق غير المثل المصري العامي "مايقعش إلاّ الشاطر".

تصادف أن تقابلَت مع ضابط يُدعَى شبكة لتعدد علاقاته الإجرامية والنسائية وغيرها، وهذا لقبه، فاسمه الحقيقي عادل شوقي.

ألحَّ عليها للتعارف، مدفوعًا بإحساس بالتباهي وهو يحاول اصطياد تلك الفتاة العانس التي ترفض أي رصيد للرجل في حياتها. ما تلك الفتاة الرعناء الغبية في اعتقاده؟ ولكنها أشاحت عنه بوجهها ونظرت إليه شزرًا ونظر إليها احتقارًا وانتقامًا بيَّتَه في نفسه.

وفي إحدى الليالي التي خاصمها القمر والراحة والرأفة بصديقتي السرية المفضلة ذهبت مع أختها الصغيرة إلى القاهرة للكشف الطبي، أختها التي تعاني التهاباتٍ حادَّةً في فقرات الظهر، وعند عودتها وقفت السيارة الميكروباص في الكمين وواجهها الضابط الملعون بنظراته الحادة، وفجأة ودون مبرر طلب منها هي فقط هويتها: هاتي يا بنت الـ... بطاقتك وانزلي هنا قدامي.

نزلت صديقتي وقد شحب وجهها من المباغتة وتلعثمت من السب الذي استمر في سبها به مرتين أو ثلاثًا، فما كان منها في فورة غضبها إلاّ أن بصقت عليه وألقت بطاقتها في وجهه فسقطت على الأرض، وعمَّ الوجوم التامُّ بين السائقَ وبقية المسافرين في السيارة، بل وصمت الضابط تمامًا ربما ذهولاً وتوتُّرًا غير متوقَّعٍ ردَّ فعلها، فما كان منه إلاّ دفع نفسه دفعًا إلى سيارة الشرطة وذهب دون أن ينبس بأي كلمة.

وفي نفس الليلة المشؤومة الرابعة صباحًا جاءت عربة بوكس زرقاء، وطرق العساكر الأبواب وقبضوا عليها ، وهي ترتدي

جلباب النوم وغطاء رأس ألقته لها أختها سريعًا وهي تهرول على السلالم قابضًا عليها العساكر، بعد الذعر والهرج والصراخ الذي ساد أرجاء الشارع الصغير الذي تسكن فيه، ورآها كل الجيران وفتحوا أفواههم استغر ابًا وعجبًا لما يحدث، وتعليقات كثيرة: لماذا تلك الفتاة التي لا تقدر إلاّ على فعل الخير؟ وهل كان ذلك قناعًا لفتاة شريرة، لها أفعالها الخطيرة التي تعلمها الحكومة وأدانتها بها حتى يأتوا قرب الفجر لأخذها إلى القسم؟ لا بد أنها مظلومة! وآخرون يقولون إنها مجرمة خطيرة ونحن لا نعلم شيئًا. وأخيرًا علَّقت امرأة عجوز كانت مستيقظة منتظرة صلاة الفجر حتى تصلي: ياما تحت السواهي دواهي.

وبعد كل الدموع والتعجب حضر محاميان من مدينتي وثالث من القاهرة، واعترفوا أن القضية لا تستحق كل هذا، لكنها أشبه بقطعة الجاتوه الشديدة الحلاوة، حتى نكاد لا نتحمل مذاقها المغرق في الكريمة البيضاء. ما معنى تلك الكلمات؟ أهو افتراء وظلم؟ وإذا كان ذلك، فلماذا الأحداث تتصاعد هكذا كأن النار هبَّت في الهشيم ولا أحد يستطيع إطفاءها؟

وإليكم القصة:

قام شاب عمره تقريبًا عشرون عامًا، من إحدى أسر العلاملة، وهي مكان يوجد عند أطراف مدينتي، مشاع عن ذلك المكان البلطجة، والكذب والسيطرة على أملاك الغير دونما حق

وتنفيذ أي مصلحة شخصية بأي السبل غير الشرعية تمامًا، فهم أقرب إلى مَن يقال عنهم:

- يبيع تربة أبوه علشان القرش.

يقال إن هذا الشاب مستهتر إلى حد أنه كتب عليه شيكات وإيصالات أمانه بنحو مئتين وخمسين ألف جنيه من أطراف لعائلة أخرى من نفس المكان، فالعائلتان تعيشان حالة من الثأر والأحقاد القديمة، وهذا شيء معتاد بين عالم الفلاحين والصعايدة، وتلك الأمور لا تنتهي، فهي تعيش وتنمو مع نمو الأبناء والأحفاد كجريان نهر النيل لا تنفد ولا تردم. وما لها من سكن غير العقول والقلوب كالدماء التي تنبض بها أجسادهم حتى يحين الوقت بخروجها بأي شكل كالذي تعرض له هذا الشاب، وأبوه الثري الذي لا حيلة له غير رشوة رجال الشرطة وتوكيل محامين حتى لا يضيع مستقبل ابنه، وهو يقدم أقل شيء كعربون للصداقة إهداءهم جنيهات ذهبية ضاحكًا قائلاً لابنه:

- تأكد دائمًا من ظهور ضحك الآخر، ولن يحدث هذا إلاّ عندما تهديه شيئًا ذهبيًّا.

حتى أتمَّ القدر لعبته العبثية مع صديقتي المفضلة وقد أصبحت في قلب الأحداث، فقد كان شرط الضابط الذي تعاركت معه صديقتي بل وبصقت عليه، شبكة، لإتمام صفقة تسويف ومماطلة أمر هذا الولد الشاب المحظوظ بثراء أبيه، أن يعترف

الشاب بأن شابين وامرأة تخطت الأربعين تقريبًا دخلوا عليه في شقته الخاصَّة به في ٦ أكتوبر وقاموا بسرقة لاب توب وخمسة آلاف جنيه، وقد هرب الرجلان وجارٍ البحث عنهما من خلال أوصافهما التي أدلى بها الشاب في التحقيق، وقبض على تلك الفتاة التي مواصفاتها تطابق ما ذكره الشاب، وقد كانت بالطبع صديقتي السرية المفضلة، وسُجِّلت القضية جناية سطو مسلح.

كان جاهزًا ومستعدًّا لإنجاز انتقامه ليغسل به كرامته وذكوريته وسلطته ونفوذه ومهنته المنتصبة شارتها على أكتافه بالنسر الذهبي. مشعل الوطن ليحقق الحق والعدالة، لكنه على أكتاف هذا الضابط الملعون يحمل أصداء الزيف والافتراء والظلم.

في الليلة الثانية بعد أن أخذوها إلى القسم قام الضابط بإحضار عسكريين ضخمين وقاما بضربها ضربًا مبرحًا على الظهر والفخذين بعصا جلدية غليظة ثم وضع قطعة حديد موصَّلة بالكهرباء على ذراعها حتى تعترف أنها سرقت، لكنها لم تعترف، ورغم هذه الكدمات الشديدة الزرقة على فخذيها وظهرها ووصلات الكهرباء لم تمُتْ، فهم يعرفون مو اقع الوجع والألم، لا إلى حد القتل، وبالتدريج يتحول لون هذه البقع من الأزرق الشديد إلى الأحمر الباهت ثم إلى الأصفر الباهت، فهي تشفى تقريبًا خلال أسبوع أو عشرة أيام خصوصًا بعد أن ألقت إحدى السجينات إيعازًا من العسكري القائم بالحراسة مرهمًا

تتداوى به ويرفع عنها عناء الشد العصبي لقدميها وظهرها.
وأخيرًا انسحب نظرها الطبيعي كأنما شخص ما يسدل الستائر حتى اختفى كل شيء تمامًا ، وليس هناك من ألم أو عذاب ؛ وقد اعتادت الضرب والموجات الكهربائية والمرهم.
بدأ الحبس بـ١٥ يومًا مع التجديد ثم ٤٥ ثم ٤٥، وهكذا حتى ستة أشهر كاملة إلى أن تم الحكم عليها بسنتين مع التنفيذ. ولا تعليق لدى المحامين الثلاثة، غير أنها وجبة دسمة لدائرة الضباط الملاعين، ورغم صغر القضية وتلفيقها فإنها خرجت عن دائرة القانون.
انبسطت أسارير شبكة وتَعمَّد إعلان انتصاره ، وهو يقول لها أخيرًا بكل تهكُّم وتعالٍ في المقابلة والمواجهة الأخيرة بينها وبينه قبل ذهابها إلى السجن:
- خلي بالك دي قرصة ودن بس... خلي بالك من نفسك المرة الجاية.
حاولتُ التماسك وأنا أحضر مع من حضر من أهلها في قاعة المحكمة في مجمع المحاكم لسماع الحكم للجلسة الأخيرة، وعند صدور الحكم، سمعت صراخًا وشعرت بدموع بلا صوت، سمعتها أذني، فقد كانت دموعي الصامتة لكن قلبي الذي كان يتدفق بها، وأحسست بخوالجي ترتعش وأهتزُّ من هول الموقف وأنا أحاول أقصى محاولاتي البعيدة المنال عن قدرتي في تلك اللحظة أن ألتقط أنفاسي و أقول ولو بعض الكلمات لتلطيف

الجو، بعد خروجها من القفص الحديدي، ووضع الكلبشات الحديدية في يديها استعدادًا لترحيلها إلى سجن المنيا، إذ لا يوجد إلاّ سجن صغير المدة فقط في مدينتي، وابتلعت ريقي وخرجت الكلمات كأنها تخرج من بئر عميقة، قلت:

- هتوحشني نكتك القليلة الأدب، فاكرة...؟

وحاولت الاستطراد،، ولكن دموعًا غزيرة أغرقتني فجأة وتحشرج صوتي وأنفاسي حتى كدت أختنق ، وأصابني نشيج عصبي من غزارة الدموع واستنشاق مخاط أنفي الذي بدأ يسيل على فمي، وكان سُمّ يسري في أوصالي بشدة وغائر يكاد يفتك بخلاياي ليخمد روحي، وعندما يئست ؛ وكاد يصيبني الإغماء كانت تمرر لي ابتسامة مليئة بالمرارة والظلم الشديدين قائلة:

- والنبي مش نكتي هي اللي قليلة الأدب، دي الحكومة هي قليلة الأدب، ولا إيه رأيك؟

أكُلُّ هذا السواد والقبح في العالم بجانبي جدًّا ولا أشعر به؟!

كانت صديقتي المفضلة تعرف ما الذي يحدث لها وحتى الوقت الذي دُفع بها إلى السجن جرَّاء فعلتها الطائشة مع ذلك الضابط، لقد أمضت نحو ثلاثة وأربعين عامًا من حياتها تعمل وتحب الآخرين بقدر المستطاع، بل بكل المستطاع لديها من طاقة للعطاء، صارخة معلنة قولها في وجوه الأصدقاء والأصحاب، الأهل والجيران، أن الغضب والإفصاح الدائم

ومواجهة المشكلات والأخطاء أفضل من اليأس والكتمان الذي يتحول إلى صمت قاتل يقتل كلاًّ منَّا ببطء مرير. إلاّ أنها الآن وفى نهاية الأمر المؤسف فقدت رؤيتها القوية والبريئة للعدالة تمامًا، وتوصلت إلى فهم أن القوانين لم تُخلَق من أجل حل المشكلات ولكن لمد الخلافات بلا أجل، وأنه أيضًا من المخجل أن الله يتخاذل عنها مهما كان هذا الاسم الذي ندعوه به، لا بد أنه لا يعيش في تلك اللحظة بالذات في هذا العالم الكبير؛ ليرى مدى الظلم والقهر الذي تعيشه في تلك اللحظات الملعونة. وتعترف بحرقة :"فى هذا اليوم بالذات أجزم أنه لم يكن موجودًا مطلقًا بجانبي". صديقتي المفضلة المغرمة برؤية فيلم المصارع، الصراع حتى القتل والموت من خلال تلك المغامرات الدموية المتصارعة على البقاء ونيل الحرية بين عبيد روما أضحوكة الإمبراطور وعامة روما ورؤساء مجلس شيوخها في ساحة الكوليزيوم، صديقتي مدمنة مشاهدة أفلام السكس ليلاً حتى الصباح.

صديقتي المفضلة التي تعبِّر بتلك الأداءات والأفعال عن نفس عنيفة جريئة تملؤها قدرة الاقتحام والاختراق لكل ما هو ممتهن للإنسانية سواء قتلاً جسديًّا أو رُوحِيًّا، وقد أصبح الدم والجنس محورين أساسيَّين في تشكيل يومك الحياتي تعاندين به يأسك ووحدتك وخيبتك في الحب والزواج والأمومة. قائلة بسخرية :" آه! يا لها من أسماء بديعة، نزعت عنِّي كل الأنوثة والأحلام والطغيان البادي في مشاعري وعواطفي كامرأة، سحبت عنِّي

صفة كوني امرأة وسيدة وعاشقة وأنثى وأُمًّا وبقيت صفة الفتاة العانس التي تنتظر على الدوام وتعالج الأمر بسخرية قائلة كما يقول المصارع الذي كان يومًا جنرالاً (فارسًا) ومحاربًا عظيمًا ثم عبدًا ثم مصارعًا، منتظرًا الموت للقاء أحبائه، ولكن ليس بعد .. ليس بعد ".

أشعر بشعور أمقته كثيرًا، أشعر بالخوف... الخوف! ما الخوف؟ الخوف أراه كائنًا قويًّا، بل وحشًا شرسًا.

الخوف يضحك منا جميعًا، وكل ما يستطيع أن يفعله المرء أن يضحك في وجهه هازئًا به أو غاضبًا ينهره.

- إليك عنِّي أيها الخوف، لن أخافك لأنك صديق الموت.

ولكن رغم كل تلك الشجاعة البادية، من منا لا يعرف الخوف؟ والخوف من الموت؟

إني بحاجة إلى لحظات فقط حتى أصبح كنحلة صغيرة مشغولة عنكما، فأنتما الاثنان عدوَّاي الحقيقيان، ونحن أمامكما لسنا سوى خيالات مهترئة وذرات غبار تتناثر هنا وهناك في ذلك الفضاء الفسيح الواسع، وما لديَّ أيُّ قوة أو شرف يحميني منكما.

كل الرغبات في الطموح، والحكمة، والعدل، والثبات، وضبط النفس، والإخلاص لأسرتي ولعملي، وهل لي أن أقول لوطني؟ كل تلك المبادئ والمُثُل تقسّم رأسي قطعًا وتذبحني ذبح الحمل البريء، ولكن يبدو أن هذا هو مصيرك أيها المخلوق البشري

الضعيف، مصيرك في تلك الحياه أن تدرك كيف تولد القلوب، بيضاءَ وبريئةً جدًّا، والحياة وأصدقاؤنا في البشرية، تجعل منها قلوبًا حجرية تدمى شقاءً وتعاسةً ولامبالاة. ثم التوقف عن ابتلاع الحسرة والندم بملعقة الصمت البائس والنوم بليدًا فاغرًا فاك الذي تنثال منه قطرات لعابك الذي سال غصبًا عنك دون أن تشعر.

بعد رحيل صديقتي السرية المفضلة، وإن كنت أراها دائمًا بحضورها إلى مدينتي نحو مرة أو مرتين كل فترة وذلك بعد نصيحة من المحامي أن يقوم بتحرير شيكات مزورة ضدها يقوم بعملها أهلها حتى تستدعى ثم يتنازلوا عنها، وهذا مسلك معتاد ممن يهتمون بسجينتهم. وإن كان رحيلها مؤقَّتًا فإنني أدركت الآن إدراكًا كاملاً شاملاً أنني كائن عاجز عن النسيان والمسامحة، وكل ما مر بي من حياتي الماضية العابسة في سقوطها الأبدي مع قمة عجزي المتكرر، و افتقادي المؤلم لها، فلا بد للإنسان أن يتحادث مع إنسان آخر لا سيما الإنسان الذي تشاطره وتشاركه في مو اقف حياتية هامة ؛ لكي تجد إجابة عن جميع أسئلته مهما كانت عقيمة وغير مفهومة، وينبغي من أجل ذلك التحلي بالصبر والقدرة على التفاهم، وهذا بمثابة واجب لأن الكثير منا بحاجة إلى كلمة عذبة دافئة، وعليك أيها الإنسان التعيس أن تتكلم، لأن الصمت شعور مريع بالخواء و إيحاء بالجبن... وهو إلى ذلك يهدم أواصر المحبة بين الناس، فكم أنا في تلك اللحظة

الآنيَّة أحتاج إلى حديث دافئ وعذب وإجابة عن أسئلتي، حتى لو كانت غير مجدية يا صديقتي السرية المفضلة.

الأن ستذهبين لرحلة، ليست طويلة نعم، لكنها رحلة مختلفة عن كل الأحلام والطموح بأن تكوني فيها، هي ليست رحلة بمعناها الشكلي والمضمون، لكنها رحلة المحنة مهما اختلفنا في مغزى المضمون، فالرحلة ليست بالضرورة هي تغيير المكان ؛ وإنما قد يكون في بعض الأحيان تغييرًا من وجهة نظرنا عن الماضي والحاضر والمستقبل.

وما علينا سوى الانتظار، ولكن كما اتفقنا معًا: NOT YET... NOT YET.

إليك انتظاري الموجع الصامد، وليس لديَّ أيُّ حيلة غير البوح والفضفضة بحكايات أملأ بها وقتي الفارغ من دونك، فقد كان لي ماضٍ مع بشر بعضهم كانوا أبرياء وعظماء مثلك وإن كانوا اختفَوْا من حياتي الآن، كالبرق الذي ومض بنور ساطع ملأ عينَيَّ وانطفأ فجأة وترك لي السواد والظلام لحياتي الباقية، فلعل تلك الثرثرة تعيد إلى ذاكرتي الأوقات السعيدة لتلك الذكريات الماضية، حين حضورك إليَّ، ولكن ليس بعد.

وأول اعتراف أدلي به:

-لا أشعر بأي أسًى أو ندم لأنني غادرت مسقط منذ خمس سنوات بعد الحادثة التي ماتت فيها صديقتي القديمة فاطمة

البلوشية، التي كنا أنا وهي نتشارك الاسم ذاته، وكان أحباؤنا وأصدقاؤنا العرب والمصريون يطلقون علينا فاطمة المصرية وفاطمة البلوشية للتمييز بيننا. عندما عرفت أنني لن أستطيع أن أستمر في العيش هناك دون فاطمة رغم محاولات الأصدقاء إقناعي بالبقاء، قررت أن أقطع صلاتي بكل شيء وأن أطرح عنِّي كل ما له علاقة بحياتي السابقة وأعود إلى مدينتي الصغيرة البليدة! لأنني كنت أرى في صديقتي السرية المفضلة وجه تشابه كبير بصديقة قديمة كنت أعرفها تُدعَى فاطمة البلوشية التي رحلت إلى الأبد، وعليَّ أن أنتظر صديقتي السرية التي رحلت هي الأخرى رحيلها المؤقت، ولكن ليس بعد كما تقول صديقتي السرية المفضلة دوماً.

- ليس بعد... ليس بعد يا صديقتي المفضلة متى يأتي ذا البعد ؟!

الفصل الثاني

السفر

٩ أبريل - ٩ مايو٢٠٠٣م

ها أنا أشارك بورخيس، وهو يكتب عن الآخر في مهنته القصيرة، و أقلده في بداية حكي وسرد أحداث فاجعة عامة وخاصَّة، شملتني أنا وبابل العظيمة عام ٢٠٠٣.

وقع هذا الحدث في ٩ مايو٢٠٠٣ في مدينتي الصغيرة، لم أسجله في حينه لأن تفكيري الأول اتجه نحو نسيانه حتى أنسى سببه،

والآن عام ٢٠٠٨ بعد مضي خمس سنوات من وقوع هذه النكبة في زمنه وظرفه التاريخي الخاصّ بي، وبالشرق الأوسط والأمة العربية بوجه عام، أفكر بإلحاح في كتابته الآن و انتظارًا لخروج صديقتي السرية المفضلة من السجن الآخرون سيقرؤون هذا الحدث كقصة، وبمرور الزمن ربما يصبح كذلك بالنسبة إليَّ، أعرف أنه كان فظيعًا في أثناء حدوثه، والأفظع هو أرق الليالي التي تلت حدوثه، بمعنى أن رو اتبه قد تؤثر في شخص ثالث أو لا تؤثر مطلقًا.

لقد مات ما كنت أعتبره الحقيقة الواضحة لبقائي وهدفي من الحياة، مات زوجي السابق الحبيب (سي محمد أفندي) كما كنت أطلق عليه دومًا هذا اللقب حتى ونحن نتعارك، وسر هذا اللقب هو حب زوجي الشديد لنجيب الريحاني و أفلامه وخصوصًا فيلم (سي عمر)، وهو أيضًا ابن عمتي المليونيرة، وتوأم طفولتي ورفيق شبابي ومساري في تلك الحياة القصيرة، أما موقفي الآخر من ذلك التاريخ فهو اشتراكنا في يوم واحد برحيل زوجي السابق مع انهيار بابل العظيمة وإن كان ذلك الحدث قد سبق ما حدث لي تقريبًا بشهر إلا أننا نشترك في وقع المصيبة على رؤوسنا في اليوم ذاته.

وذلك عندما غزت الولايات المتحدة الأمريكية العراق في ٩ أبريل ٢٠٠٣ م ، وأسقطت نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ حتى إعدامه صباح يوم عيد الأضحى المبارك عام ٢٠٠٦م.

فقدْ فَقَدَ الشرق الأوسط بأكمله استقراره، وفرضت القوات الأمريكية سيطرتها على دولة عربية غنية بالبترول وآهلة بالسكان. هددت واشنطن بعدها بالإطاحة بحكومات إيران وسوريا وشكلت بغداد أول حكومة شيعية في العالم العربي منذ مئتي عام اجتاحت المنطقة بأكملها موجة عارمة من العداء لأمريكا.

وكان من آثار الغزو الأمريكي للعراق الذي أصبح أرضًا خصبة بنت فيها الجماعات المسلحة التي يرصد فيها ١٨ فصيلاً تحت لواء خمسة أقسام هي: الجماعات السلفية، وفصائل المقاومة الوطنية، والجماعات البعثية والعشائرية، والجماعات الكردية، والجماعات الشيعية، كما رصد أيضًا عراق ما بعد الحرب، مشددًا على أن البلاد تراجعت مئات السنين إلى الوراء حيث أن ٤٠٪ يعيشون تحت خط الفقر في ظل خدمات محددة، كما زادت نسبة البطالة عن ٥٠٪ ، وهرب نحو ٤ ملايين مواطن من الحرب الأهلية، إضافة إلى مسلسل استنزاف العقول العر اقية قتلاً أو اختطافًا أو هجرة بعد ظروف لا تحتمل.

((أيضًا ليزداد الطين بلة.. شهدت سنة ٢٠٠٣ م حدثًا اقتصاديًا، وأحداثًا سياسية كانت سببًا رئيسيًا في وضوح الرؤية حول طبيعة النظام لدى قطاعات عريضة، رؤية كانت واضحة لدى القلة المستنيرة الساعية إلى التغيير، مِمَّا أتاح لها مبرر التحول من النقد الجانبي ولدى أوساط محددة، إلى العمل داخل

مجموعات متشابهة الفكر أو الفئة الاجتماعية أو المهنية لسهولة التواصل بينها. والحدث الاقتصادي هو تعويم سعر الصرف في يناير٢٠٠٣ مِمَّا أفقد المصريين ما نسبته ٣٥٪ تقريبًا من قيمة مدخراتهم وزيادة الأسعار بنسبة متقاربة، وهذا قد جعل الطبقة الوسطى في مواجهة حقيقة حاولت إخفاءها تجملاً ورياءً وهي أنها عاجزة عن تلبية متطلبات أساسية للحياة، مثل التعليم والصحة والسكن، ليس بالمرتب فقط، ولكن بما أمكنها الحصول عليه من فساد صغير تُرِك لها عمدًا للسكوت عن الفساد الأكبر للنظام، وفي نفس السنة كان غزوًا أمريكيًا للعراق، وقد وصل الاكتئاب بالناس أشده عندما سقطت بغداد وتمزق العراق الذي كان يحتضن نحو مليونين من المصريين البسطاء)).

((أيضاً سبتمبر ٢٠٠٤ م كان ميلاد حركة كفاية من قوى عدة كان أغلبها من اليسار مع حزب العمل، وقد خرجت كفاية إلى الشارع في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٤ م ، و انتزعت حق التظاهر وكسرت هيبة النظام مِمَّا أدى إلى كسر حاجز الخوف، وهو التعبير الذي استخدمه الكاتب، ويعتبر أول من استخدمه في الاحتفالية التي تمت في ٢٠٠٥ م في تشبيه هذه الحركة باقتحام سجن الباستيل في ١٧٨٩ من أنه كسر حاجز الخوف من أصحاب الحق الإلهي)).

كان يجب أن يؤدي رد فعل الغزو في الشرق الأوسط إلى تركيز أكبر على ما يفكر فيه المصريون والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون والإيرانيون، لقد ضعفت مصداقية الأنظمة الدكتاتورية الواضحة منذ أمد بعيد، فزاد من ذلك الضعف عدم إرساء ذلك النموذج المشرق للديمقراطية في بغداد وعجزت تلك الأنظمة عن التعامل مع الأزمة، لدرجة أن قامت مظاهرة في القاهرة ٢٠٠٦ م رفع أفرادها شعار:

((إلى ملوك وأمراء سفراء العرب، إننا نبصق على وجوهكم)).

حتى وصلنا إلى ٦ أبريل ٢٠٠٨ م. حيث أنشأ أحمد ماهر وإسراء عبد الفتاح "جروب على فيس بوك"، بلغ عدد أعضائه ٧٠ ألفًا ومن هنا نشأت حركة شباب ٦ أبريل ساعية إلى حل مشكلة الاستياء في مصر لأنها تقف عائقًا أمام تطور المجتمع.

((ومصر التي كانت في وقت من الأوقات بلدًا يمكن أن يمد نفوذه إلى سوريا، الآن هي بلد يواجه قادته المصاعب في السيطرة على شبه جزيرة سيناء موطن مئتي ألف من البدو الذين يشبهون "الباشتون" الوحشية التي تسيطر على السياسة الأفغانية وصنع الحروب، "الباشتون" التي تمثل ٤٥٪ من عدد سكان البلاد و١٠٠ بالمئة تقريبًا من عناصر حركة طالبان.

والذين كرهوا خط الحدود الأفغانية الباكستانية الذي يسمى خط DURAND فقد سمي على اسم المسؤول الإنجليزي الذي أجبر أفغانستان في سنة ١٨٩٣ على قبوله ممثلاً حدودها مع

الهند البريطانية، هم كرهوا دائمًا هذا الخط وبالتالي لم يحترموه، مع قسوة طباعهم وجمودهم، وهذا يشبه تمامًا احتجاجات البدو في سيناء، فهم يبدون أكثر وأكثر أنهم غير راغبين في القبول بحكم القاهرة، وعلاوة على ذلك المشكلات بين المسلمين والمسيحيين وضعف المنظومة التعليمية والصحية)).

وعلى الرغم من كل هذا، فإن الأنظمة الديكتاتورية في الشرق الأوسط قد تكون مستبدة وفاسدة وممقوتة من شعوبها، إلا أنه يصعب إسقاطها، فالحكومات في مصر وسوريا وليبيا أمسكت بزمام السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية التي حدثت في الماضي، وبالتالي تعلمت كيف تقي نفسها حتى من قواتها الأمنية والمسلحة، وفي كل دولة من تلك الدول كونت أسر الرؤساء مبارك والأسد والقذافي سلالة حاكمة جديدة.

ولقد نشر أسامه حرب (رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية المعتدلة) أن جهود الإصلاح المزعوم ليست إلا خدعة، ولكنه وجد أنه لا يستطيع الانسحاب من موقعه في لجنة السياسات بالحزب الوطني دون أن يعرض نفسه للخطر، وهو يعلق قائلاً: ((ربما يكون من السهل عليك أن تعوِّد نفسك على أن تقول لا، ولكن ليس هنا، تلك هي مصر)).

((وفي نهاية الأمر المرير (المأساوي) يختفي تمامًا (المتخيل الوطني)( ) ونقول ببساطة موجعة إن أبطالنا الذين كنا نقرؤهم في رواية الثلاثية لنجيب محفوظ، وعودة الروح لتوفيق

الحكيم وغيرهما من الأعمال الإبداعية التي رصدت ذلك التاريخ لمصر، حيث كان المتظاهرون ضد المستعمر البريطاني يهتفون له "نموت نموت.. وتحيا مصر"، هو هتاف لا بد أن يسخر منه الآن السواد الأعظم من الجيل الجديد، وهو تقريبًا الجيل الذي وُلِد قبل حرب ٧٣ مباشرة أو بعد انتصار أكتوبر وعبور القناة ٧٣ أيضًا مباشرة، هذا الجيل المسكين الممزق الذي أصبح من جراء انتصار لم يعد له أي معنى وطني أو انتماء إلى ذلك البلد الذي أصبح ينقض أولاده ويطردهم دون أي حقوق لهم، بل ويجازف بعض الأفراد بالموت غرقًا كي يهرب من مصر، وهو فعل يؤكد نقيض منطوق الهتاف القديم، وهو الانقلاب الكامل عليه)).

لا شك بعد مرور خمس سنوات من رحلتي إلى ذلك البلد الهادئ عمان، يثار في نفسي العديد من الأسئلة حول تغيير مواقفنا تجاه الذكريات مع تقدمنا في العمر، حينما أتمعن متأملة لاستكشاف العديد من الشخصيات التي كانت في ذلك الزمن حميمة ولصيقة بأذهاننا، أتأمل وأستطلع الطبائع الذاتية الكامنة والمتأصلة لتلك الذكريات التي أصبحت كمذاق سيجارة قديمة.

ولأن قصتي مع الحب والزواج والفِراق ككل قصص الحب المعهودة التي تبدأ عادة بأن هذا الولد الأسمر ذا الشعر الأسود المجعد والعينين السوداوين، هذا الولد الريفي الجامعي قد

أحبني بجنون وكنت أنا في الصف الثالث الإعدادي ما زلت أحتفظ بضفيرتي المنسدلة بلون بني فاتح مائل إلى الشقرة، وعيون بنية داكنة اللون وسط بياض ناصع به قليل من النمش على أنفي، وبعض منه يتناثر على الخدين اللذين تميزهما غمازتان رائعتان كلما ضحكت، فأبدو كفلاحات المنصورة والوجه البحري، الأقرب منهن في الشبه من بنات الصعيد المعروف عنهن السمرة، أو الحمرة، وتقاسيم وملامح هي أيضًا فاتنة، ولكنها تخصّ جميلات الوجه القبلي، مشتركة بين بناتهن وسيداتهن. ولأن دوام الحال من المحال كما تقول أمي الصعيدية الجاهلة، فقد حال بيننا عدم قدرتي على الإنجاب لمدة ست سنوات، وإصرار عمتي التي أصبحت مليونيرة فجأة، مِمَّا زاد من تملصها وإجحافها عليَّ واستهتارها بي، وتوجيه الكلمات والتوسلات ليلاً ونهارًا في أذن زوجي بتطليقي، والزواج من أخرى لإنجاب الذرية الصالحة، وتعليلها المغرض: لمن تترك كل هذا المال؟ أليس لك حق أيضًا فيه أنت و أبنائك القادمين إن شاء الله يا ولدي العزيز؟!

وتحت وقع كلامها الممزوج بالبكاء والنهنهة ومصمصة الشفايف، استسلم توأم روحي (سي محمد أفندي) أخيرًا إلى زن والدته الذي هو أَمَرُّ من السحر كما يقولون، وإن كنت لا أعرف كل الحقيقة الكاملة، ربما كانت هذه أيضًا رغبته، وهل لنا بعلم يقيني بما تحمله أفكار الآخرين، مهما اعتقدنا بالحب ومعرفة

وفهم أحبائنا فجأة يظهر النكران الشديد، حتى أشعر أنني دخلت فقاعة ضخمة شفافة أصبح فيها معزولة عن رفاق صباي، عمتي وبناتها وأمي وإخوتي وصديقاتي ؛ وأصبح مثارًا للشفقة، متروكة في آخر الأمر جالسة بجانب الحائط واضعة يدي على خدي ضِيقًا وتبرمًا ؛ و أنا مدانة بلا شيء، امرأة عاقر، منبوذة، مهجورة، وعند بدء ظهور تباشير العرس الجديد، أيقنت أنني سأصبح كهيكل حافلة قديمة، وعليَّ أن أمضي إلى مكاني القديم عند أمي كما تمضي أوراق الشجر اليابسة إلى البِلَى على سطح التربة.

وفي جو من الارتباك الشديد المتبادل بيني وبين جميع أفراد أسرة زوجي، دفعني الحزن والغضب الشديد أن أهيم على وجهي تاركة كل شيء خلفي، حتى مفكرتي الصغيرة أو يومياتي التي أطلق عليها "يوميات العباقرة" التي أحتفظ بها منذ كنت في سنوات المراهقة، اعتدت أن أسجل بها ما يتبقى من آخر الأشياء والأحداث الكارثية، أو حتى المضحكة، تسجيل الكلمات هو ما يبقيها ويجعل لها مئة حياة وحياة كلما استعدت القراءة مرة أخرى، حتى بعد رحيلي ربما يعبث آخرون بها ويرغبون في قراءتها، فيبدو لي أنني أحيا مرة أخرى معهم وهم يعيشون معي أكثر من التفاصيل القديمة لحياتي الماضية والأخيرة، و أتذكر جيدًا أنني بدأت تلك العادة عندما ماتت جدتي العزيزة أم أمي

التي كانت تمارس معي ذلك الدور الحكائي الشفهي وهي تهدهدني و أنا طفلة للنوم.
أحسست أن حسرتي وحزني اللا منتهي على موتها، لن يفتته غير كلمات ساخنة مثل دموعي الصامتة التي لا تنتهي. ها هي مفكرتي العظيمة رفيقي الوحيد الآن، وأنا أسير عبر باحة موقف السيارات الترابي المتجه إلى بيت أمي، ونعل حذائي يحدث صريرًا مع كل خطوة دموع تسقط بغزارة مثل مخالب وحش شرير يريد أن يلتهم الآخرين من غيظه وكمده.
وأشد ما ضايقني، أننى لم آخذ ظرفًا ضخمًا كان به لفيف من الصور الفوتوغرافية أغلبها لي ولزوجي، شاهد على كل مرحلة من مراحل تطور علاقتنا منذ كنا صغارًا يسعى كلانا إلى إثبات رجولته أو أنوثتي.
تلك الصور التي شكلت كل ألوان سنوات حياتنا معًا، والتي تشي بقصة الحب المعهود بين سي محمد أفندي وفاطمة، التي انتهت بالهجمة المباغتة لانسداد الشريان التاجي لزوجي السابق، وأشد ما في الحدث غرابة، أنه سقط ميتًا في الحمام ليلة زفافه إلى العروس الأخرى. من كان يظن أن هذا الموت الدرامي الذي لم أره إلا في مسلسل تليفزيوني تقريبًا كان موجهًا إليَّ؟! وحدث فعلاً، ومات زوجي - أو من كان زوجي - في ليلة الزفاف.
كيف ستتطور الأمور فيما بعد؟ ليست هذه هي المشكلة، كل ما يمكنني قوله إنني أصبحت بعيدة عنك، وبعيد أنت جدًّا بُعْدًا لا

يحتمل العودة، وأنا في الوقت ذاته لا يمكنني أن أحيا إلا بالاستسلام للخوف.

والاستسلام له أكثر مِمَّا يلزم، وهذا ما أفعله عن طيب خاطر، وبكل همة أغوص في بحار الخوف، حتى تصبح مشاعري وأحاسيسي كجسر من الأوهام تسعى دائمًا إلى قتل الحقيقة، حقيقة أنك لم تعد هنا وحقيقة السفر إلى وطن آخر. وبعد تأكيد رؤيتي واستيعابي لتلك الحقائق أمام عيني أتحول إلى فتاة نصف قروية والنصف الآخر مدني، ثم نصف امرأة، وأخيرًا نصف وطن، وأظل أحيا في فراغ النصف، قبلت أو تمردت الأمر سيان، لقد اختارني هذا القياس النصفي، حتى وأنا لا أزال جنينًا في بطن أمي كنت هذا النصف، يشاركني توأم ذكر تركني ومات، وبقيت أنا النصف الحاضر الغائب غير المرغوب في وجوده لأمي وأبي اللذين كانا يتمنيان بقاء النصف الآخر.

بعد إنجاز رحلة شاقة إلى الوطن الآخر، سيكون ذلك برهانًا كبيرًا على مرور السنوات، ومحاولة النسيان والتجاهل لكل ما مر من حياتي السابقة ليجهز على ما بقي من شبابي وعافيتي، وتملؤني تلك الخواطر من حين إلى آخر وتتغذى داخلي وينمو معها عدوي اللدود، الخوف، فأنت يا حبيبي تسهم مرات ومرات مساهمة فعَّالة في شقائي، وأنت ترعاني بذكرياتك عنك وعن نفسي وعن كل الآخرين والأخريات الذين شاركونا تلك الحياة التي رحلت الآن بين ثنايا الأوراق التي تحتويها بالحكي بعد موتك

المفاجئ والغريب، فتظهر كالإله الذي مات بصمت يليق بالملائكة العاشقة، وإن كنت أظن أن ملائكة هذا الزمان ليسوا سوى من صعدوا إلى السماء ولم ينجوا من تلك المؤامرة السماوية التي جذبتهم إليها. وفي كل صباح باكر بعد رحيلك عني أشعر أنني ضجيج خفي شاحب باهت لا يصرخ أبدًا لا يتفوه حتى بمجرد الكلمات، لكنه أشبه بطنين أسمعه في أذناي مخترقًا هذا السكون الممل، وتنتابني قشعريرة فجأة. كم من مرات عديدة أعاني من هذا الخوف الهائل، وهو بدافع الحب والاشتياق إليك والافتقاد إلى وجودك الحي الناطق، كما كان أيضًا يملؤني حتى و أنت حي ترزق وسواس قهري بأنك ربما لا تحضر بغتة كما حدث الآن، ونجلس معًا جنبًا إلى جنب، وتقص لي قصصًا عن عينيَّ اللتين كانتا أجمل بحيرتين داكنتين بالتألق، حيث الأفكار والأحلام تسبح فيها كحوريات البحر، وتحدثني في حينها إنني أبدو لك كجبل ثلجي ناصع البياض بأبهى الفضاءات والصور وهو بعيد وراء كل الآفاق، تختبئ فيه الكلمات ولا أستطيع أن أسمعها، لكن نظرتك وحدها ما تزال تتكلم، فالنظرات ثابتة وقوية الإيحاء وهي لا تغادر مطلقًا الأماكن التي يولد فيها البشر الذين يحيون ويعيشون ويحبون بها وللأسف ينتهون حتى وهم أحياء. وتحدثني مرة أخرى عن اللقلق الذي يأتي بالأطفال إلى الثريا، ويتبدل الحديث إلى دردشة عقلانية عن الأصدقاء ونصدر الأحكام ونمارس النميمة، وآراء مختلطة لكلينا عن نيات

الأصدقاء تجاه كل الأمور، وحينئذ ترمقني بنظرات الحب المشتركة بيننا تجمعها لحظات صادقة، إلا أنني أحس بالخجل ولا أعرف ماذا أفعل؟ كنت طائرة من الفرح مثل الفراشة ولكني لم أكن مزهوة، لأن الذي له قلب صادق طيب مثلك لا يمكن أن يغتر ويتعالى، إلا أنه أيضًا من الصعب قول الصدق الكامل، فعلى الرغم من أنه لا يوجد سوى صدق واحد فقط، صدق مفعم بالحياة والتلقائية، وعلى هذا كله فإنه أيضًا له وجه متغير، ممتلئ حيوية وهو ليس وجهًا جميلاً على أية حال في حقيقته مهما كان انبهارنا به، فهو ليس جميلاً جمالاً تامًا، وهذا استنتاج يدعو إلى الأسف، لأنه صدق. يتحول ويراوغ مع صدق الآخرين لكنه قد يبدو جذابًا في بعض الأحيان مع تلك النظرات في حينها التي لا تعرف الحقد ولا الانتقام.

حبيبي، ليس هذا الخوف هو خوفي كله، إنه مجرد جانب منه فقط مِمَّا يؤسف له حقًّا أنه كذلك بالنسبة إليَّ، وإن يكن هو الخوف الذي يلازم كل أشكال الإيمان منذ بدء الخليقة. إن استمراري في الكتابة عنك في يومياتي ومفكرتي "يوميات العباقرة" ليس فقط لك، بل هو أيضًا للكلمات التي أشعر بها كأنها بشر يهربون عبر الحوارات والأحاديث وفتحات القبور التي تدلف منها كلمات ونحن لا نعي ذلك داخل كل الوجوه التي ماتت، وتنغلق عليها الشفاه لتصنع أبوابًا أسمنتية حتى لا تستمر في الحديث عن الجروح التي لا تندمل، فما من شيء

لينتهي حتى بعد الرحيل والسفر والذهاب إلى أقاصي الدنيا، وأخيرًا تؤوب الكلمات إلى آخر ملجأ، إلى الورق الأبيض والقلم وهي ممدودة بين السطور المستوية و أنفاسها تلهث بتعسر رويدًا رويدًا حتى يتيسر مرورها بين ثنايا الأسطر.

وربما في ذلك الحين أغلق اليوميات، وأزحف كالحية تاركة آثاري على الأوراق شبيهة بآثار الدراجات فوق الرمال، أمضي محاولة النوم والكلمات تلمع على سطح الأوراق كما يلمع القمر في فضاء السماء الليلي، وتتوالى الصباحات الباكرة بعد رحيلك الذي يحاصرني كوهج الشمس، فكما أن العالم ليس ضئيلاً إلى هذا الحد ونحن لسنا بهذه الضخامة أمام إمبراطورية الشمس بل أنا جارية طغيانها الذي يزيح سواد الليالي الغاشمة وينزع ويشرق بقوة وهي تعلن قائلة:

- أنا الشمس و أنتم حقول القمح التي أرعاها بنوري الوهج، ففي البداية كانت الأم إيزيس، نعم سيدتي، إيزيس هي من بدأت الحياة في مصر القديمة، في نفس المكان الذي أشرقت فيه الشمس، أصل الحياة ورمز الرب الأكبر "رع "، وأصبح المكان يعرف بمدينة الشمس أو هيليوبوليس.

وتحكي الأسطورة القديمة أن "رع "واهب الحياة لكل من السماء التي أخذت صورة امرأة جميلة تدعى "نوت" وللأرض التي أخذت صورة رجل يسمى "جب" وأحبت السماء الأرض، كما أحببت أنا رجلي الراحل بعشق ووله، ومع هذا الحب الذي بدأت أسطورته

أمي السماء وأبي الأرض جاء البشر إلى الوجود وتكونت أول أسرة عرفها التاريخ، إيزيس وأزوريس وست ونفتيس، وتنجب الأم إيزيس العظيم حورس الذي خلص البلاد من شرِّ عمه "ست" في معركته الشهيرة التي سجلتها جدران معبد إدفو بينما أنا أؤخذ بطعنة غادرة من القدر ولا أنجب الولد أو البنت. أيتها الشمس أهاتفك بنبع إيزيس الخصب رمز الوفاء والإخلاص إنها ليست تلك الغيرة القاتلة، إن الأمر لا يخرج عن أن أفكاري تتواثب حولك لأنني أردت أن أمسك بك من عدة جوانب، منها جانب الغيرة وإن كان ذلك أمرًا سخيفًا، لا أظنه سيحدث مرة أخرى في أثناء التفكير والقراءة عن جلالك وعظمتك، فمرجع ذلك فقط إلى أحلام مرضية بدأت تداهمني لا بد أن سببها أنني أعاني من الوحدة والحزن وقسوة الناس ورحمي الناضب.

خصوصًا أنني في الليلة الماضية حلمت حلمًا مخيفًا، كانت ليلة سيئة إلى أبعد حد، وإن كنت لا أكاد أذكر شيئًا من التفاصيل غير أنني أسمع أصواتًا صاخبة وعراكًا مهلكًا بيني وبينك يا سيدتي، تنبعث في برودة شديدة إلى أطرافي، تصل في بعض الليالي الشتوية إلى التجمد والصداع المزمن والقاتل. أترين أيتها الأم إيزيس إلى أي حد يفتقر المرء إلى التحكم في ذاته ومشاعره تجاه الآخرين؟ إلى أي حد يتطوح ذهابًا وجيئة في بحر هائج من الكوابيس بدوافع من الغضب والتمرد على الكوارث الإلهية؟

وما على المرء غير أن يبتلع كل ذلك في جوفه وتعانقني روح إيزيس التي بداخلي، ر أفة بحالي وهي تتضرع إلى السماء:

((أعطني ردائي وتاجي

و أيضًا عطري وبقية ثيابي

سأكون في أجمل صورة

كالعظيمة إيزيس

إنني أذهب إلى الموت بإرادتي

أو يكون الموت نصيبي

ولتعطيني يا مصر في موتي السلام

الذي حرمت فيه في الدنيا)).

أخيرًا أيتها الكلمات رفيقتي وظلالي في هذا العالم الوحشي الآن وبعد الآن، أشعر أنني أتحدث معك عن الموت ومن ماتوا طوال الوقت، لكنني لا أموت حتى الآن.

صديقة لي من أيام الجامعة وجارة في نفس الحي الذي تقطن به أمي طرحت عليَّ سؤالاً مهمًا خلال زياراتها المتلاحقة، تواسيني أو تعزيني عما حدث لي، سؤالها أصبح فيما بعد نقطة مصيرية أخرى من حياتي: لماذا لا أسافر إلى ذلك القُطْر الذي سافَرَت إليه هي من ثلاث سنوات سابقة نحو عام ٢٠٠٠؟ ستُحَدِّث الكفيل (أي المسؤول عن العمل) وهو بمثابة الأب الروحي للمعلمات في مدرسته الخاصَّة التي يملكها، وإن كان يدير نحو ثلاث مدارس أخرى معها في مناطق عدة في سلطنة عمان.

ويقوم هذا الكفيل بإدارة الأمور الخاصَّة بالإقامة واستخراج بطاقة العمل تحت كفالته، وله الحق في إنهاء أو مد فترة العمل لديه في أي وقت يرغب، ما يطلق عليه هنا التفنيش والترحيل من البلد، وقالت إنها ستجعله يرسل إليَّ فيزا زيارة ثلاثة أشهر أرى فيها الأمور ويراني أيضًا، إذا صارت كما أرغب تتحول الزيارة إلى عمل و إقامة وكتابة عقد بيننا يتحمل كلانا تنفيذ كل شروطه ويتحمل هو دفع الكفالة ؛ لاستخراج بطاقة عمل وتوفير السكن والمواصلات إلى المدرسة وتذاكر الإياب والعودة إلى مصر، وسيكون الراتب مئة ريال فقط لأنها مدرسة خاصَّة.

لاحظت من حديثها المرتب والمنطقي أن الموضوع له خلفية أكثر من مواساتي أو الترويح عني، وقد كان لهذه الملاحظة مغزاها، وتفسير نقاط بعينها، فأوضحت أنها بعد عودتها من عُمان أصبحت تجلب له معلمات لمدارسه الخاصَّة من جميع التخصصات، وهذا بعد أن قامت بتوثيق علاقتها مع الكفيل ذات نفسه ومديرة المدرسة التي كانت تعمل بها في مسقط، وتتقاضى ألف جنيه نظير ما تقدمه من تسهيلات و اتصالات مع الكفيل لسفر المعلِّمة، ولأنها صديقتي القديمة من أيام الطفولة فسترأف بظروفي الخاصَّة، وستأخذ فقط ٥٠٠ جنيه.

أشد ما لفت انتباهي بعد انتهاء حوارنا بعدم إجابة واضحة مني سواء بالقبول أو الرفض، أنها ستعطيني مهلة لا تزيد عن أسبوع لأفكر، لأن الإجراءات تأخذ بعض الوقت، وعززت إغواءها لي

بأنها فرصة لغسيل الأحزان وتناسيها. والملاحظة الفارقة لجارتي وزميلتي القديمة أنها كانت تؤدي كل هذا بملامح وأسلوب جديد عليها في الحديث لم أعهده بها أيام دراستنا معًا منذ الصغر وصولاً إلى الجامعة، لقد تبدلت تمامًا وأصبحت أكثر مرحًا وتفاؤلاً وهي تتلاعب بالحواجب والغمزات، لا أعلم بعد سر تلك التغيرات التي ظهرت عليها فجأة، خصوصًا بعد سفرها وعودتها من ذلك القطر العربي، فهي لم تقم هناك غير ثلاث سنوات لا غير، ثم آثرت البقاء في مدينتي بعد أن تم خطبتها لأحد المدرسين المعارين لمدة أربع سنوات في السعودية، وتنتظر قدومه لإتمام الزفاف.

ترددتُ في بادئ الأمر، فالعرض ليس إلا فيزا للزيارة وربما لا أعمل وأعود مرة أخرى، وماذا سأجني غير خسارة ثمن تذكرة الطيران ذهابًا وعودة؟ فذلك شرط شركات الطيران في حال وصول تأشيرة الزيارة من عمان، ضمانًا للعودة ما دامت الدعوة موجهة للزيارة فقط، إذ هي فرصة عمل غير مضمونة والراتب مئة ريال عماني فقط.

ولكن ما البديل؟ أنا هنا أعمل مدرسة بالأجر، وهو عقد موسمي ينتهي مع بداية أشهر الصيف (أي مع انتهاء العام الدراسي) وراتبي لا يتعدى مئتي جنيه، وأصبح لي الآن أكثر من شهرين لا أذهب إلى العمل مللاً واكتئابًا للفاجعة التي حدثت في حياتي ولا بد أنهم فصلوني وجاؤوا بغيري.

ولكن ماذا أفعل بنفسي وسط هذا الحزن العارم؟ الذي جعلني أشبه بامرأة شبحية كما لو كنت مرسومة بالطبشور على السواد، و أنا أحدق ليلاً ونهارًا في سقف حجرتي، وحينما أضجر من جلستي بمفردي في الحجرة أذهب إلى البلكونة في المساء حتى يأتي الليل وأحدق في السماء الكئيبة بعد كل فرح السنوات المنقضية وبهجتها، وتبدو لي السماء للمرة الأولى في يأسها الحقيقي عديمة الحيلة مثلي تمامًا؟ إذن فلتكن المغامرة، ربما تكون مخرجًا لإنقاذي على نحوٍ ما، وهي فرصة للسفر إلى وطن آخر.

الوطن... الوطن.

أتذكر فقط هذه الكلمة، هل لي وطن؟ ألا يزال يلهيني ويلهمني حتى اليوم؟ أشعر شعورًا غريبًا، كما لو أن الوقت لم يمر وليس هناك من إجابة مطمئنة دونما شك، أين وطني؟ هل لي وطن؟ كل ما في الأمر أننا نتبادل أماكننا الآن بالسفر إلى وطن آخر. إن كان لك وطن، ويمكنك أن تنبذه أو تهجره، لعل هذا يكون من الأفضل للمرء أن يفعله بموطنه، طالما أن المرء لا يمكن أن ينبذه أو يتمرد على تلك الأشياء والأحوال البالغة السوء من حولنا. إذاً أنت لا وطن لك في نهاية الأمر، ولهذا فليس لديك ما تنبذه، وعليك أن تفكر طوال الوقت في البحث عنه أو إقامته متخيلاً أن لك وطنًا، أن لك وجودًا و انتماءً داخله سواء كنت مستلقيًا تحت أشعة الشمس الدافئة في ليالي الشتاء أو مختبئًا

منها تحت الظل في ليالي الصيف الحارة، أو على فراش النوم. كم أنا أحاول جاهدة في تلك الأيام العابثة أن أعانق الظلمة التي تسود غرفتي حتى أنام، وإن كنت في تلك الأوقات أنام على الأغلب نومًا سطحيًا للغاية، وعندما لا أنام لا أكون متعبة فحسب، بل حزينة، ثقيلة ثِقَلَ جِوَال، أكاد أتمزق إربًا بفعل القلق والخوف والاشتياق إلى الوطن.

مرة أخرى لا يمكنني أن أتذكر الوطن كثيرًا، إن كنت شخصًا فلست أتمنى أن أقبلك وأرحب بك ؛ وذلك لأن حبي لك إنما هو كمن تذكر حوارًا قديمًا، و أنا أقول وأسمع العبارات الأولى والأخيرة، أما لب الحوار لا يمكن نقله ووصفه لأي شخص بواسطة كل الكلمات و أفصح التعبيرات، ذلك هو الوطن الغائب - للأسف الشديد - بالنسبة إليَّ.

وجاء يوم سفري في منتصف يونية ٢٠٠٣م موعد وصولي إلى ذلك البلد العربي الجديد عليَّ ، وقد كنت في اليوم السابق نتسابق أنا والانتظار في لعبة سخيفة، حيث أنا جالسة خلف سور البلكونة في منزل أمي أفترش البلاط البارد عمدًا، فتلك البرودة تتسرب إلى إليتيَّ فيتخللني إحساس منعش وسعيد بالبرودة المحببة إليَّ في ليالي الصيف الحارة مساءً، مستندة إلى السور أنظر إلى الأمام حيث يواجهني التليفزيون في المقابل، كنت أنتظر أمل ابنة عمتي الثرية الظالمة ،وأخت زوجي السابق (الراحل الآن) حتى تحضر لي الصور الفوتوغرافية الخاصَّة بي

أنا وزوجي والكثير ممن لم يعد لي صلة بهم، فتلك الصور الساكنة الساكتة اللقطات أحيا بها و أنا أملأ اشتياقي بنظرات طويلة ممعنة في التذكر، وفحواها المشهدي القديم تسجيل وشاهد على سن الخامسة عشرة، والعشرين، والثلاثين بدءًا من لقاءات الحب إلى قصة الحب المعهودة والمتكررة لدى الآخرين والأخريات؛ والتي أظن أنها تخصني بواحدة لن تتكرر في حياتي القادمة مرة أخرى.

وذاكرتي تبدو كالنعامة، تدس رقبتها مختبئة بين رمال الذاكرة عامرة بخطوات ثقيلة على تلك النفس الضعيفة، التي تحمل من الانكسار والحيرة ما يكفي؛ لأن نرجو ونتمنى لو تبتلعها عجلات سيارة طائشة.

صديقي الانتظار، يبدو أن عمتي من حسرتها على ما حدث لابنها رفضت تمامًا أن تحضر ابنتها نكاية لي على أفعال لم أرتكبها، هل كان ذنبي أنني لم أستطع الإنجاب؟ هل كان خطئي أن يموت ابنها في ليلة زفافه إلى العروس الأخرى؟ إنها أفعال إلهية لا علاقة للبشر بها غير تزامن زمني وفروق توقيت جعلتها تبدو كتمثيلية من صنعي، ها قد ذهب رجائي الأخير أدراج الرياح ولم تأتِ أمل، ولن أحتفظ بتلك الصور العديدة التي لم أفكر يومًا أن أعدها وأحصيها، فكم من المرات رغبت وفعلتها، أن التقط صورًا لنا في كل مكان نذهب فيه معًا، وتأخذني الخفة والجرأة في بعض الأحيان إلى أن يلتقط لي صورخاصَّة بارتدائي قميصًا للنوم في

مرته الأولى له قبل أن يطارحني الغرام، تعليلاً مني أن هذا تدوين لبهجة قميصي الجديد على جسدي، ولمعانه الأول يملؤني بكل السرور، والفرحة، والحب الدفين، الذي انتقل إليه من عضلة قلبي المتيم، فالأميرة دائمًا في حاجة إلى قبلة لتعيش. أفقت من انتظاري قائلة لنفسي بفزع:

ما هذا؟! إنني لن أرى هذه الصور مرة أخرى بقية حياتي، سأعيش دون أي وجود لماضٍ، أو شاهد لذكرياتي المتجسد في تلك الصور التي تجعلني أتمحور حول ذاتي و أتوحد في ذات الآخر الراحل، بعد ساعات سأصعد إلى السماء، ولأن تفكيري في البدء سيتجه إلى الطائرة وهي تحلق بين ضباب السماء، ثم تستحضرني فكرة متخيلة أن أقفز من الطائرة وأسبح في الفضاء السماوي باحثة عن حبيبي، ونحن صغار كنا دائمًا نسمعهم يقولون إن أحباءنا يصعدون إلى السماء، خالدين في الجنة، وينفجر صوت أمي مخترقًا انتظاري التائه بين الخيال واليأس من فكرة عدم حضور أمل. تعاتبني وتلومني بحدة قائلة:

- يا بنتي صور إيه اللي انتِ مستنياها من أمل؟ هتسافري ولا لأ؟ أختك جات علشان توصلك المطار.. ناسية إن لسه في سفر من هنا لمصر؟ مش كفاية إنك سيباني؟

وتتنهد ذاهبة إلى المطبخ تعد ما تعده، وترطن باكية:

- يخرب بيت الحب وسنينه.. دا إيه الجنان دا يا ربي؟

تسرب الزمن من يدي، وحان ميعاد السفر،وفجأة رأت مخيلتي بحورًا.. أمواجًا.. أعاصير وطوفان من الغضب.. كل هذا ملأ عينيَّ بغتة، وتساءلت نفسي المنكودة لِمَ لم تأتِ وتنقذني من الانتظار الذي سأظل في شباكه كعنكبوت أحكم حصاره الملتوي حول عقلي وروحي.

أشعر أن لغة البشر تعجز عن وصف ما بداخلي، ألزم الصمت، أبكي.. أهدأ.. أتبلد.. الآن أعلم وأحس أن البلابل تسمعني، والأشجار تهمس لي، الآن عليَّ أن أبصق على كل ذكرياتي المريرة منذ طفولتي البعيدة عن ذهني الآن، وتوقد حبي المرهف، مرورًا بأحلامي المجهضة، وصراعي مع عمتي وكل المجتمع القاهر، ورحيل حبيب صبايَ وشبابي الذي انتهى بوفاته، حتى حضر هذا السفر المفاجئ.. وعندما جاء لم أعد أعرف هل أريده أم لا؟!

أيها الانتظار اللعين لم أعد أحب لعبتك المميتة، عنوان الخيبة والهزيمة، عيناي زائغتان بهما شرود وغضب مكتوم، لن تأتي من أنتظرها، لن يحدث كالعادة ما أتمناه وسأعض على أناملي ارتباكًا وفشلاً وتفوت الفرصة الباقية لي، بل كل الفرص.. وأصبح خالية الوفاض.. وأهب نفسي القلِقة للاحتمالات وللكثير منها الذي أخشاه، ماذا بعد الانتظار الوقح المتعجرف؟ اذهب عنى أيها الانتظار، فالأمر لا يتعلق بالخوف منك، ولكن أعتقد أنك تضمر لي نية سيئة بأنك ستشرع في قتلي ببطء، بانتظاري المجهول، و أنا لا أريد أن أعود إليك، لن أنتظر أحدًا، اذهب ودع

عني حذلقتك أيها الانتظار العدائي، الأفضل لي ترك الأمور تسير كما هي، فالناس جميعًا يعلمون أن الحياة لا تستحق أن يحبوها، وأنا في أعماق سريرتي لا أجهل أن الموت في عمر الثلاثين أو في سن السبعين لا أهمية له.

لقد مررت عبر باحة الانتظار، وصعدت بي طائرة الاغتراب؛ لكي تلخص الزمن الحائر في أفكاري المشتتة من مقولة أختي الكبيرة التي رافقتني إلى المطار، وهي تدعي بحزم ودونما أي دموع أو حزن للفراق بيننا:

- اعرفي يا فاطمة إن الوطن هو اللي فيه رزقي ومالي وستري، سيبك من هنا ووَش هنا.. هناك كل حاجة جديدة عليكِ، ودا أحسن لك في الفترة دي.

وأنا أصعد الطائرة، رأيت صديقات كثيرات، تركن مثلي بلدهن وخصصن كل وقتهن للكفاح من أجل حريتهن المفقودة، لا بد أن كلهن قد شعرن لبعض الوقت أن الرابطة التي تربط بينهن وبين وطنهن مجرد وهم. وقد علمتنا غرائب الأمور وأحكام القدر المبهمة التي تحكمها الصدفة، أن الاستثنائي والفريد الذي يحدث في حياة الناس العاديين في كل يوم هو قمة الحقيقة، وأعلى بطولة يختارها الإنسان يوميًا التي ليس لها مكان بين أفخم المهرجانات، وكل أشكال منظمات حقوق الإنسان، وكل الأوسمة الرائعة، وسر تلك البطولة أنهم أبناء وبنات القدر

الحقيقيون الخاضعون خضوع الرضا والقناعة، وهذا ما نعبر عنه بقولنا: القسمة والنصيب ومشيئة الله.

والحق إن هذه المصائب الثلاثة وهي عدم إنجابي وطلاقي وموت زوجي، وهو أمر فظيع أن أعترف بذلك، تجعلني سعيدة على نحو من الأنحاء، فلقد اختفى الآن وإلى الأبد بعض شهود الإثبات على حياتي المتسربلة بالعار.

وسيزداد العالم وضوحًا أمام عينيَّ وروحي و أنا أعترف بقولي أخيرًا، نعم أخيرًا، لن يكون هناك من يتذكرني في تلك السنوات القادمة المضطربة من حياتي الباقية بينما أغدو وأروح بلا استقرار بين البيوت البيضاء مثل ثعبان لا يمل من تغيير جلده، أو مثل وحش أناني بحاجاته الغريبة الصريحة الجارحة، ويتدنى حضوري الاجتماعي حتى أصبح هدفًا لكل هجوم، وموت الآخرين يأخذ من حياتي شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى مني شيء، فهذا على نحو ما رحمة كبيرة منحها لي ربي، وفي المقابل لتلك المنحة إنها الطريقة الوحيدة لإطالة حياة محبوبي، هي أن أحتفظ به في ذاكرتي، فتوقفه عن الحياة يعنى أن نصف ذاكرة فقط ستتوقف، بينما لو توقفت أنا أيضًا عن الحياة ستتوقف الذاكرة كلها ولا يعد له أي وجود أو حياة.

الفصل الثالث

بئر العفاف

ما إن هبطتُ من سلم الطائرة إلى الوطن الآخر، حتى شعرتُ كأن شيئًا جديدًا يشتعل في رأسي، وهمست لنفسي قائلة:

- ها هو الآن حلمك لمحو الماضي قد قرب، ها أنا الآن في بلاد إخواننا العرب أصحاب الجلابيب البيضاء، مع اختلاف عرب تلك البلدة، إنهم يرتدون الجلباب الأبيض ما يسمى الدشداشة والكاب العماني والإزار العماني، وهو عبارة عن قطعة قماش بيضاء مربعة يمتد طولها من خصر الرجل الذي يلفها حوله لفة أو لفتين بإحكام ويثني جزءًا منها داخل بطنه حتى أسفل الركبة بقليل. وهذا يعني أنه لا يرتدي سراويل أو لباسًا داخليًّا مطلقًا تاركًا عضوه هكذا يتموج في حركته دون ستر حقيقي بتلك القماشة البيضاء المصنوعة غالبًا من القطن أو الكتان.

وهذه عادة منتشرة كثيرًا بين الشباب والرجال حتى سن الشيخوخة، أما الأطفال عمر الخمسة عشر تقريبًا يرتدون سراويل رياضية أو "شورت"، فهم لا يعرفون التعامل مع اللباس الداخلي، وهذا ما يفعله صغار السن من الصبية، حتى يدركون فن التعامل مع الإزار. ولكن ماذا لو سقط سهوًا، خصوصًا إنه لا يتحرك به بمرونة حول عجيزة الرجل. ونساؤهم كلهن يرتدين العباءات السوداء المطرزة، المفتوحة من عند الصدر أو من الوسط أو من الجانبين، وهي ليست ملبسًا أساسيًا كما عندنا

هنا في مصر، إنما هي أشبه بالطربوش في زمانه الأول في مصر، تحتها ترتدي المرأة كل ما تشتهيه من ملابس حريرية، أو بناطيل ضيقة تغطي الأرداف الكبيرة المدملكة المتمايلة يمينًا ويسارًا بلا رادع، ومنهن المبالغات في التأنق وعرض مفاتن الجسد، بقمصان نوم مستوردة أو فساتين السهرة التي نراها في حفلات "الهاي كلاس" وكلها منسوجات مستوردة وليس لها أي علاقة بالزي العماني، فمسقط سوق مفتوحة لكل الماركات العالمية، ومنهن من لا تزال تعتز بالزي العماني المُكوَّن من بدلة حريرية أو كتانية النسيج تزخر أطرافها عند الأكمام وأطراف البنطلون بتطريز أشبه بنمنمات الأرابيسك، مشغول بشكل دقيق ومتعدد الألوان تملؤه الغرز والترتر الساطع ببريقه كالكريستال، ومنهن من يزعمن أن من علامات ثرائهن أن تلك الخيوط بها خيوط ذهبية، وأن هذا الدبوس الذي تلف به الطرحة ذهب خالص، وهذا حقيقي لبعضهن. وتلك الطرحة تكون كبيرة وطويلة من نفس لون البدلة العمانية ومطرزة عند الحواف، وعند التفافها حول رأس السيدة تغطي جانبًا كبيرًا من صدرها وتصل إلى أسفل ظهرها من الخلف.

أما الزي الشائع والمستخدم في الحياة اليومية المعيشة هو "الويل" العماني، وهو قطعة قماشية واحدة أشبه بالعباءة ولكنه مجسم عند البطن والأرداف ومستدير الحواف عند الرقبة ويكاد يدخل من الرأس، يشاركه طرحة كبيرة مستطيلة

المساحة أو مثلثة مصنوعة من قماش رخيص وجودة أقل، لأنه ملبس يومي وأحيانًا يكون فضفاضًا، وهذا غالبًا يرتديه السيدات الكبار اللاتي لا يعنيهن توضيح وإظهار مفاتن أجسادهن من العمل الدائم والحمل والولادة المتكررة.

بلاد العرب، هذا المصطلح يذكرني بالطفولة، في تلك البلاد، بلاد النفط السوداء ذات الطقس الحراري الشديد الوطأة، يغيب عنها أكثر شهور السنة الشتاء والبرد الحقيقي، كان أمي و أبي بها منذ زمن بعيد، و أنا لا أزال بعد في السادسة من عمري.

ها أنا أعود إليها في الثلاثين من عمري، ولكن الفارق أني الآن بمفردي، لا أحد معي، لا شيء يلازمني غير وحدتي، ومزاجي المسيطر على ملامحي، والاكتئاب لِما مر عليَّ من أحداث هالكة.

طفولتي كانت هنا حتى تقريبًا انتهاء المرحلة الابتدائية، ما بقي يداعب ذاكرتي عن تلك الرحلة التي استمرت تقريبًا أربع سنوات عبر أطياف وأشباح لرجل سعودي يضع فوق رأسه العقال السعودي والغطرة يحملني دائمًا، ويشتري لي الكثير من الحلوى والألعاب، وآخر مصري يرتدي أيضًا مثله الجلباب الأبيض دونما شيء على الرأس وله كرش كبير يزعجني انتفاخه، و أنا في الوسط بينهما مثل قطة شاردة، وأحيانًا يحاولان استلاب اللذة مني باللعب معي عبر ما نتأ من بروز صغير، وما لم يظهر من أعضائي الأنثوية البريئة، لولا أختي الكبيرة التي دائمًا ما كانت

تنقذني في الوقت المناسب بندائها عليَّ فجأة وقد شعرت أنها قطعت عني شلالات الرغبة واللذة البريئة التي لا أعرف كنهها.

فجأة انكمش قلبى من الخوف، و أنا أتذكر نصائح معارفي:

- كوني حذرة، فما حدث في ماضيكِ قد يتناوله آخر؛ ليقتحم أنوثتك بلا براءة في تلك البلاد الغريبة.

كنت أنتظر من يقلني، ويأخذ بيدي إلى الحياة الجديدة علىَّ، و اندفعَتْ أحلام الطفلة الصغيرة الماضية والحاضرة، فهي الآن امرأة مكتملة الأنوثة والتجربة، والحزن القائم في قلبها على الدوام يشعل جوفها من امتداده إلى الأعماق وهي تغمض عينيها تكرارًا حتى تهدأ كل الأحداث الماضية المتشابكة كشباك الصيد، تحاول أن تلتقط الهدوء كما يلتقط خطاف السمك و أفتح عينيَّ مرغمة على التواصل لأصل إلى بياض ناصع كاشف عن حقائق عجيبة وغريبة، بل أحيانًا شاذة، آه هل هناك حقيقة داخل تلك الكمائن البيضاوية؟ الفارس العربي هل هو في انتظاري؟

يا إلهي لا زلت أنظر مشدوهة أرتجف و أنا و اقفة على أعقابي أنتظر في الباحة المؤدية إلى الوصول النهائي لتلك المدينة من المطار إلى مسكني وعملي الجديدين، ألتفت يمينًا ويسارًا لا ألمح غير دشداشات بيضاء وبيوت بيضاء تتخللها العباءات السوداء كخلايا سرطانية غريبة عن الاكتمال البيضاوي.

وصلت مسقط في نحو السادسة مساءً، كان في استقبالي هذا العربي الرشيق القوام، بابتسامة منفرجة من شفته ملأت ملامح وجهه القريب من الشيخوخة، يحمل عني الحقائب، ويضعها بهمة ونشاط في مؤخرة السيارة المرسيدس الفضية اللون، سيارة رائعة ولمعانها يضوي في عينيَّ و أنا أحس بها تسبح في نن عيني وهي تقف مثل إوزة ضخمة تسبح في بحيرة ثلجية.

تشاركه الابتسامة -على ما يبدو- مساعدته الملازمة له ابتسام، وأخريات لا علم لي بأسمائهن بعد.

كنت مضطربة، ومرهقة إلى حد كبير، طلب مني الكفيل بمجرد ركوبنا السيارة الفارهة جواز السفر، فاستغربت، بل رفضت وتساءلت لماذا؟! حتى ضحكت إحدى الحاضرات وقالت بصوت حاد ورتيب يشير إلى أول إنذار لي:

- ما لك يا حبيبتي؟ أنت لسه فاكرة نفسك في مصر؟

واستطردت قائلة بفجاجة:

- عايزة تاكلي عيش في البلد دي ما تسأليش كتير.

بعد لحيظات صمت، أوجمتني، أخرجت جواز سفري مع التذكرة، وأعطيتهما لابتسام التي استدارت من كرسيها الأمامي ناظرة إليَّ نظرة طويلة غريبة ومتحفزة ولها الكثير من التفسير في الأيام القادمة بيننا.

حل الظلام سريعًا، لم يعد من الممكن رؤية شيء سوى الأبنية ذات الطابقين المطلية باللون الأبيض تلمع وسط هذا الليل،

والنجوم الساطعة المتناثرة فوق رؤوسنا على نحو غير مألوف، والقمر غائب، فعجبت من عدم ظهوره في الأفق، وشعرت بغموض يحوم في الأعالي ويهبط على قمة رأسي، ونفسي متقلقلة، هائمة، حزينة لغياب القمر، إحساس بالخوف قد مضى عندما رحلت عن وطني، ولم يبقَ لي إلا مرارة الفقد، والدهشة والأسى لكل آتٍ سيحدث لي.

عندما وصلت إلى سكن المعلمات، كانت مدرسة قد وصلت قبلي تُدعى أبلة فوزية، ولقبت دون غيرها بلقب أبلة احترامًا وتبجيلاً لروحها المتفتحة على العالم ولبشاشة الوجه الصافي من أي تجاعيد رغم أنها تخطت الثالثة والأربعين، نحيفة جدًّا ومتوسطة الطول، وهنالك القليل من اللون الرمادي يتداخل مع الأسود الذي يتوج رأسها بهذا الشعر القصير بقصة آلاجارسون، وعيناها تلمعان توقدًا، وتبهج بابتسامة تظهر على وجهها بمجرد أن تراك، فقد كانت بمثابة جب عميق للأسرار لكل المعلمات، ليس فقط لأنها أكبر سنًا، ولكن لأنها تمتلك روحًا مغناطيسية، تستقطب بها كل من حولها، سخيَّة، منصتة جيدة لكل المشكلات والحكايات.

تجري على لسانها عبارات دينية كأنها تعلن عن تدينها بقولها تعقيبًا على كل موقف: قال الله، وقال الرسول، وهذا امتحان من ربنا. وتستشعر بصدق تدينها رغم أنها ممن ينطبق عليهم

"يقولون ما لا يفعلون" فهي خريجة دراسات إسلامية جامعة الأزهر ومدرسة تربية دينية، وتحفيظ القرآن وتجويده.
بدأت صداقتنا القوية بحادثة مفزعة لن تجعلني أنساها أبدًا، ففي اليوم التالي للاستقرار في سكني، استيقظت على صرخة أبلة فوزية، وكنت نائمة بجوارها على سرير واحد، فالغرفة واسعة جدًّا وبها أيضًا أربعة سرائر ودواليب معدنية من ضلفتين وتليفون وبلكونة واسعة.
في البدء تجاهلت تلك الصرخة، ثم توالت الصرخات، مؤكدة إعلان الألم الشديد، يفوق تحمُّل من يستصرخ بها، ففي ثدييها المنتفخين ببقايا اللبن الذي لم ترضعه لطفلتها التي تركتها وهي لم تتم أربعة أشهر بعد، تحت وطأة السفر مفاجأة، ومن توهتها لم تتذكر أن تأخذ شفاطة اللبن في ثدييها أو الحبوب التي تجفف اللبن، ما دامت ستنقطع عن إرضاع طفلتها.
برزت حلمتا ثدييها باحمرار قانٍ كثيف وكادا يخترقان الجلابية التي شفت عنهما، فهي لا تلبس أبدًا "السوتيان" إلا عند خروجها إلى العمل متعللة بأنه يجثم على أنفاسها، قائلة:
- خليهم كده أحسن طايرين في الجو.
وازداد هياجها مع تحجر الثديين تحجرًا كاملاً، واللبن يعاندها في نزوله، وهي تحاول أن تضغط عليهما بيديها بشدة، وتجز على أسنانها وتبتلع ريقها وتغرس أسنانها في شفتها السفلى، فالأمر يحتاج إلى طبيب، حدث هذا تقريبًا في الساعة الثامنة صباحًا

ولا يوجد أحد من المعلمات، فكلهن خرجن إلى العمل. وزاد هياجها، و أنا لا حول ولا قوة لي، كل شيء جديد عليَّ، حتى هذا الوجع الأمومي الذي حُرِمت من متعته، و أبلة فوزية لا تهدأ، تمر الدقائق والثواني كوحش كاسر يفتك بأعصابها تمامًا والمرأة تهذي وتتأوه، تناجي ربها أن يرحمها، وتستحضر صورة طفلتها الرضيعة، فتصرخ أكثر من آلامٍ عدة تجمعت كلها وحطت في ثدي المرأة المسكينة، وأخيرًا أخذت تضرب الحائط بيديها إعلانًا عن هذا الوجع الذي يكاد يفتك بها، ونزعت أزرار مقدمة جلبابها وشقته إلى المنتصف، فظهر ثدياها كاملين، وزمهرير ينفلق من حلمتيها المنتفختين، وأمام هذه الانتكاسة الصباحية جلسْتُ بجانب أحد حوائط الغرفة أبكي حتى جاءت لي والاصفرار بادٍ على وجهها، وعيناها غائرتان في الدموع، تسألني بنبرة منهكة:

- إنتي قلتي اسمك إيه؟ نسيت.

فأجبت متعثرة في حروفي:

- فاطمة.

- ممكن تمسكي صدري، وتحاولي تضغطي عليه؟ يمكن اللبن ينزل، و أنا أحاول أتحمل.

فنظرت إليها، والدموع تملأ خديَّ، وضحكتُ استهزاءً بالموقف، أنا من أفعل هذا؟ ما علمي بهذا يا سيدتي؟ فأنا محرومة منه، أنت لا تعرفين من أمري شيئًا. رفضت على استحياء:

- والله ما اعرف يا أبلة.

وعندما يئسَتْ من كل الأداءات ومساعدتي لها، أطلقت صرخة ثكلى مدوية و اقتعدت الأرض فاردة ساقيها العاريتين، مستندة بظهرها إلى الحائط، رافعة رأسها منكوش الشعر إلى أعلى بنظرات استغاثة.

بعد نحو ست ساعات مرت على عجزي معها جاءت إحدى معلمات رياض الأطفال، وذهبنا معًا إلى عيادة خاصَّة بجانب المنزل مباشرة تديرها طبيبة عراقية مع زوجها الطبيب أيضًا.

فضحكت من البله؛ العيادة على بعد خطوات ونحن لا نعلم، صحيح على رأي أمي: الغريب أعمى ولو كان بصير.

تقريبًا كنت لا أشعر بانتهاء اليوم الدراسي الكامل، الذي يمتد إلى المساء الذي يبدأ من الرابعة عصرًا دوام في معهد مفتوح طوال العام، وهو أشبه بمركز تعليمي لتعليم جميع المواد الدراسية ودورات حاسب آلي، وله أجر إضافي إلى راتب المدرسة صباحًا. وفي الليل أدفن نفسي بجانب أبلة فوزية على نفس السرير الذي تَشَارَكنا فيه بوضع السريرين حتى أصبحا سريرًا واحدًا وجسدًا واحدًا، فقد اختارتني واخترتها في كل شيء حتى تقاسمنا لحظات الطعام والشراب والحديث المتبادل ليلاً، وكنا أحيانًا نشتري نفس الثياب الجديدة بعد شرائنا أول حقيبة سفر من بلاد النفط؛ بعد قبض أول راتب تبدأ شهوة الشراء، وتستبدل شخصيتك تمامًا عند انتهاء العام الدراسي، كم

حقيبة لديك، وكيفية المراوغة من الوزن المحتوم عند العودة إلى الوطن.

كان الوقت قد مر عندما جئت إلى مسقط وانتهى العام الدراسي، والحقائب منتشرة في كل مكان في الحجرات والصالة في الطابقين، حتى خلف وأمام الساحة الكبيرة التي تحوط المنزل يتوسطها "درب بئر المياه" الذي كان يعتبر هبة من الله لمنزلنا وميزة لا توجد كثيرًا في البيوت البيضاء، فنحن غير كل السكان الآخرين من الجيران لا نحتاج إلى عبوات المياه، حيث لا توجد بعد مجاري أو مياه صرف صحي يسير في المواسير. ودائمًا يعلو البيوت خزان صغير دائري أبيض اللون في جوفه ماسورة كبيرة متصلة بمنفذ معدني تسير من خلاله المياه عن طريق عربة نصف نقل زرقاء اللون جسمها بيضاوي الشكل وحلزوني ، والخزان فوقه غطاء حديدي سميك حتى لا تتسلل أي حشرة إليه، وتتكلف الملوة نحو ثلاثة ريالات.

أما نحن المحظوظين فلدينا درب بئر المياه، التي لا تحكم استخدامنا للمياه في الاستحمام وغسيل ملابسنا وأدوات الطعام وتنظيف كل حاجاتنا الشخصية، وإن كنا نقوم بتخزين مياه للشرب وطهي الطعام، فمياه البئر غير صالحة للشرب، ولدينا في المدرسة برَّاد مياه به فلتر عبقري وماؤه بارد، نعبئ منه الماء في زجاجات بلاستيكية أو جراكن. كل غرفة تحتفظ بما يكفيها أسبوعيًا فتلك العملية نقوم بها مساء كل أربعاء حيث

يبدأ الدوام يوم السبت، ومن يداومن في المعهد يذهبن في صباح الخميس دون عائد.

وتختص كل معلِّمة بتنظيف وترتيب حجرتها، أما السكرتيرة فتختص بالدور الأول كاملاً، فقد سافرت معلمات رياض الأطفال في الفوج الأول لقضاء إجازتهن الصيفية التي تبدأ من ٦ يونيو إلى نهاية أغسطس، ثم سافر في الفوج الثاني معلمات المواد الدراسية، ولم يبقَ غير خمس معلمات يعملن في المعهد، ما عدا أبلة فوزية التي أصبحت معلِّمة في مدرسة المنار لتحفيظ وتجويد القرآن. تشرف على ثلاث عمانيات يقُمْن بتحفيظ القرآن للأطفال والكبار، وكُلِّفَت باستقبال الوفود الراغبة في العلم، وتحرير إيصالات نقدية، في حال عدم وجود المدير الرسمي لها، وجدي، حتى تبدأ الدراسة فتعود إلى العمل في المدرسة صباحًا ومساءً.

بعد توالي الأيام، أدركت أن هذا العالم المحدود بالمعلمات المصريات تلفه أسرار البيوت البيضاء الحديثة المطرزة طرازًا قديمًا تشوبه فنيات وإمكانيات العصر الحديث، القيشاني والسيراميك والرخام والتكييف في كل حجراته، وأمام الطابق الأول الذي تصعده بعدة درجات من الرخام في مساحة واسعة من الفراغ تسمح بوجود حديقة أو وضع الأراجيح للأطفال أو كراسي بلاستيكية، أو بسط صوفية في الجوانب للتفكه والحديث في أمسيات الصيف الرطبة ليلاً، يغلفها باب حديدي

صغير مطلي باللون الأبيض، كأن العالم أصبح في تلك البلدة بيضة ضخمة الحجم، هلامها حكايا كثيرة ومتنوعة وكلها حكايات مخيفة تحوي قدرًا عاليًا من المأساوية لتلك المصريات الحائرات، كلهن يحملن أوزار الوطن الراحلين عنه، لديهن أكثر من سبب للصمت، والعمل والانشغال بقوة للنسيان، والتركيز بإتقان لتحقيق أفضل كفاءة وإرضاء الكفيل الذي هو إله على الأرض في تلك اللحظات، حتى لا يتم تفنيشهن دونما حصد العديد من القروش ومِلء الحقائب السوداء التي تبارين في عدها، وإذا سمحت الظروف الشديدة الانغلاق وفُرِض حظر التسلية والمتعة فيمارس بعضهن الجنس حاصلات على نقود أو هدايا أو نزهات خلوية وجبلية تعويضًا لحرمانهن من الزوج، والأبناء، والأهل.

صباح كل خميس أتنفس نفسي في كتابة مذكراتي "يوميات العباقرة" ظلي في الوطن، وهذا بعد تنظيم الكتب وإعداد المواد اللازمة لتدريس يوم السبت، لمختلف المناهج من المرحلة الابتدائية إلى الثانوية، فالآتون إلى المعهد أغلبهم يكونون من طلبة الثانوي. واجتياز شهادة الثانوية العامة هنا بمثابة البكالوريا قديمًا في مصر؛ من يحصل عليها يستطيع أن يكتفي بها ويعمل أو يسافر، إلا إذا كان متفوقًا ويمكنه الالتحاق بجامعة السلطان قابوس، وهذا شيء لا يستهان به ولا يمكن تحقيقه بسهولة، فمن يلتحق بالجامعة يحصد الكثير من

المزايا والمبالغ المالية، وإذا استمر تفوقه له راتب شهري ومنحة سفر إلى بريطانيا التي غالبًا ما يختارها الكثير للدراسة والسفر، وهذا له جذور تاريخية و اقتصادية. ويوجد عدة قواعد إنجليزية وأمريكية كخبراء في الخليج، وكثيرًا ما يعملون في مواقع البترول، والجامعة والمستشفيات وحتى المدارس، مثال ذلك كانت موجهتي التي تأتي لتوجيهنا، تدعى ميشيل وهي إنجليزية الأصل، وكذلك الكثير من الوفود الخبيرة وذوي الكفاءة العالية في طرق وأساليب وإعداد وتحضير التعليم الصحيح، وهذا غير الهنود والجنسيات الأخرى. وعدد طلاب الفصول قليل، عند قدومي سنة ٢٠٠٣ م كان الكمبيوتر متداول استخدامه وشائع، وهو الوسيط الوحيد بين الطالب والمدرس، ليس هناك من طباشير أو كراسات أو صراخ أو هذا الجنون الرسمي الذي يحدث في مصر: اسكت يا واد، اسكتي يا بت، بص معايا على السبورة، والمعلِّمة تنادي كأنها ترعى قطيعًا من الأغنام.

ورغم كل هذا الاهتمام بالعلم والتكنولوجيا لا توجد سياسة في عمان، فهو شعب هادئ الطباع حتى في استقبال فواجعه، فلا توجد أسرة في عمان، وهذا مألوف وعادي بينهم، عادي أن يموت شاب أو فتاة أو رجل في حادث سيارة، فالفتاة أو الشاب من حقه أن يقود سيارة، والتحصل على الرخصة بمجرد الانتهاء من الثانوية العامة، خصوصًا إذا كان يعمل، فتكون ذريعة

قوية لاقتناء السيارة. لا يتحدثون كثيرًا. يقودون السيارات برعونة فائقة، والحوادث لا تنقطع ولا تنتهي في أيام تلك البلدة. يقيمون طوال الوقت في بيوتهم، ينتقلون من بيوتهم المُكيَّفة إلى سياراتهم المُكيَّفة، ليس هناك من طريقة لفهم المكان وحب المكان، والطريقة المثلى لذلك هي المشي واختراق الدروب والمسالك والأزقة كما نفعل في مصر. الناس هنا ينظرون إلينا بدهشة من خلف زجاج سياراتهم و أنا أمشي مع أبلة فوزية؛ لا أحد يمشي، الناس هنا أشعرأن حزن ما يملؤهم، هناك حزن معين لا تلمسه لكنه محفور في تجاعيد وملامح وجوههم بشدة، ربما حزن على فقيد أو عزيز عليهم، ربما إحساس بالضياع، أجدادهم و آباؤهم الأولون كانوا يسكنون الصحراء، يعيشون في الخلاء، والبدائية في كل دروب حياتهم، أما هم يعيشون في المباني الواسعة المُكيَّفة، يحوطها برود نفسي، لا يملكون غير السيارة، والإسلام. كل شيء في حياتهم أمريكي و إنجليزي، هم محاطون بالصحراء، والجبال، ولكنهم لا يعرفونهما، الحياة مثل و اقع افتراضي، كأن الناس يحبون في شاشة كمبيوتر، الثراء والنجاح يصبحان مفهومين ذوي إشكالية غامضة، خصوصًا عندما يأتيان بسرعة، الثروة هنا جاءت سريعًا، لذا فهي مجتمعات عنصرية للغاية، أعني الطريقة التي يعاملون بها الهنود والباكستانيين والمصريين بشكل خاصّ. أنت محظوظ فقط عندما تكون إنجليزيًا أو أمريكيًا.

صباح الخميس أجلس إلى مكتبي، وأدوِّن و أفرِّغ كل ما يستحق اهتمامي وشغل تفكيري. حيث تتاح لي سويعات من الفراغ لا أفوز بها أبدًا في العمل أو في مسكن المعلمات.

من عدة أيام ناداني الكفيل أنا و أبلة فوزية بصيحة عالية من الطابق الأول، حيث إنه - وهذا من غرائب الأمور- يقيم في الطابق الأول مع ابتسام و ابنة عمها رشا، وإن كانت الأخيرة هي الباقية الآن، فالأولى ذهبت إلى قضاء الإجازة السنوية، وهي معلِّمة رياض أطفال جاءت إلى عمان سنة ٢٠٠٠ ويطلقون عليها مهرة الإسكندرية لجمالها الأخَّاذ، وجسدها الممشوق، بيضاء، وجهها دقيق الملامح، شعرها أسود طويل حريري الملمس وغزير، والحقيقة أنها ليست من الإسكندرية، بل من ضواحي البحيرة. وقد استحوذت ابتسام على عقل الشيخ سعيد، وأسرت قلبه، حتى إنه هجر زوجتيه الاثنتين اللتين تعيشان في مدينة الرستاق، (إحدى مدن عمان) في منزل واحد واسع كبير، ويظل بجانبها في مسقط طوال العام الدراسي حتى تأتي الإجازة، ولا يأتي مسقط إلا في مرات محدودة لمباشرة عمل ما، ويقولون أيضًا - وكل هذه الأقاويل تحكيها لي أبلة فوزية الثرثارة، فقد وهبها الله نعمة اللسان فكانت عذبة الصوت والحديث، ساحرة في قدرتها على جذب الجميع إليها- إن هذا الرجل القصير، الحاد الذكاء صانع مؤسسة كبيرة تسمى مؤسسة الهاشمي، وهي أسرة لها أصول وجذور لإحدى القبائل العمانية الأصل والمنبع، ليس

بها أي عناصر وافدة، وتشمل مؤسسته خمس مدارس وثلاثة معاهد، وثلاث مدارس لتحفيظ القرآن، ومزرعة دواجن كبيرة، وكثيرًا من المحلات (لبيع الخضار - حلاقة - مطعم - سوبر ماركت) المتناثرة في مسقط لهنود ومصريين.

وهذا الرجل العملي جدًّا والفاسق جدًّا في عهد مضى من عمره الذي قارب على الخمسين الآن، كان مفتونًا بمضاجعة الفتيات ما فوق سن العشرين، ولا يتوانى في دفع أي مال أو هدايا غالية الثمن أو تذاكر طيران للتنزه بالهند أو بريطانيا، كل ذلك من أجل استرضائهن وإغوائهن ليكون هو السيد الأول في فض بكارتهن، والفائقة القدرة والأداء من تستطيع أن تجعله ملازمها، وأن تجعل من نفسها محظيته، وقد نجحت في هذا مهرة الإسكندرية ذات الرابعة والعشرين.

وعندما تقابلْتُ معه أنا وأبلة فوزية بحجة التريق والتفكه (أي بمعنى شرب القهوة العمانية اللذيذة الطعم رغم خلائها من أي ذرة سكر مغموسة بالهيل وبعض المكسبات العمانية الصنع التي تحد من مرارتها ويلازمها الرطب المحشو باللوز) جلسنا في مجلسه العربي في غرفة واسعة مفروشة بالبسط الفاخرة الزرقاء والوثيرة وعلى جوانبها حشايا صغيرة خضراء، وهي غرفة الجلوس لمقابلة كل آتٍ غريب، بجانبها غرفة ثانية لا يفصلها إلا قمرة مستطيلة، وبها حمام وأثاث متواضع يتكون من سرير خشبي ودولاب صغير أيضًا خشبي، وبدأ قوله موجهًا إليَّ:

- إن صديقاتِك ينعتنكِ بأنكِ مخلوق صموت، ومنطوٍ على نفسه، وهذه صفة لم أعهدها في المصريين الكثيري التحدث والفكاهة.

صمت برهة ثم قال: ما رأيك في هذا الكلام يا أستاذة فاطمة؟

فأجبته سريعًا:

- أنا ليس لدي الكثير لأقوله، ولذا فإني ألزم الصمت.

بدا الاضطراب عليه من سرعة إجابتي، وصب لي بشخصه قدحًا من القهوة العمانية، وناولها لي مبتسمًا:

- تفضلي هذا.

ربما كان هذا النعت المبدئي لي صحيحًا، خصوصًا بعد انقضاء أشهر الصيف وحضور بقية المعلمات، يظنُنَّني غريبة الأطوار: لا أتحدث أو آكل أو أنام أو أخرج غير مع أبلة فوزية، وفي المدرسة لا أصادق غير فاطمة البلوشية معلِّمة الحاسب الآلي في نفس المدرسة التي كنا نعمل بها صباحًا. والبلوش ليسوا عمانيِّ الأصل، بل هم جنس آخر، ربما من الزنجبار أو باكستان وغيرها من البلاد المجاورة، جاء بهم السلطان الأول أبو السلطان قابوس من زمن غابر للاستعانة بهم في الحروب، وتشييد وبناء عمان الحديثة، وهم ذوو طبيعة مثابرة وبشرة داكنة السمرة، يتميزون بالنشاط والهمة في إنجاز الأمور الخطيرة وإجادة الحديث بطلاقة باللغة الإنجليزية، وتوالت السنون و أثبتوا إخلاصهم وجدارتهم في تحقيق أصعب المهام، فعاشوا في عمان

وتزوجوا و أنجبوا، وأصبح يوجد لهم جيل ثالث ورابع بعد اندثار آبائهم الأولين، وانتشروا في الدوائر الحكومية (الجيش والشرطة) وعلا شأنهم، وأصبح العديد منهم يتبوأ مناصب هامة في البلاد، وإن كان لا زال الكثيرمن الأسرالعمانية الأصل ترفض بتاتًا الزواج منهم، تعزيزًا للأصل والنسب والعصب. في النهاية أنا فاطمة المصرية كما نعتنني للتفريق في الحوار بين الفاطمتين من وحي الصداقة القوية بيننا. أنا فاطمة الهادئة، التي تبدو عيناها مظللتين بالحزن، منكسرة، وصامتة، وغامضة تدعو إلى الشفقة لظروفها الاستثنائية، فاطمة المولعة بقراءة الأدب الإنجليزي، المتخصصة في أفضل طرق صحيحة وسليمة جدًّا لتعليم اللغة الإنجليزية التي هي غاية مهمة وملحَّة لدى العمانيين، ورغم مرورالأيام على تلك الجلسة الأولى التي احتوت على ثلاثتنا، إلا إنها ظلت لصيقة بعقلي، و أنا أستمع إلى كلماته وهو يشرح لي ما هو العمل الذي ينتظرني، كان مؤدبًا في مكر، رقيقًا في افتعال كأنه يقول لي رغم كل الصياغات "المؤدبة" إنه يعرف لماذا جئت؟ وبكم جئت؟ وما دمتِ قد حضرتِ فعلينا أن نعيد ترتيب الحسابات والأفكاروكل ما يلزم فعله حتى تبقين؛ ولا يتم تفنيشك وترحيلك من هنا في أقرب فرصة.

وفي الواقع إن هناك أحداثًا، لم أكن أود مطلقًا الكلام عنها مهما طال الأجل، لكن فيما بعد لم أجد أهمية لهذا النفورمنها. عندما بدأت حياتي هنا في الغربة، انتابتني حالات من الشبق

وانقباضات متلاحقة في الرحم جرَّاء فقداني للآخر ما زال بعضه في ذاكرتي، ومع توالي الأيام وانهماكي في العمل والصداقة تحول كل شيء إلى لا شيء غير القنوط واليأس، والتجاهل لتلك البؤرة الخبيثة في جسدي، بينما أبلة فوزية المرأة غير المستهان بها كشخصية اجتماعية مرحة، وامرأة لعوب، لها شطحات وخيالات جامحة عن لياليها الحمراء مع زوجها وغيره، فنضحك باستحياء وهي تخبرني أنها تعوَّدت في ساعة الظهيرة والمعلمات نائمات أو مشغولات ليلاً بعد نومهن أن تدخل الحمام وتقعد فيه، وتفتح رشاش الماء متجهًا إلى فرجها، لعله يهدئ من هياجها الجنسي، وإن كانت لم تكتفِ بهذا في المستقبل، لم تكن تطبق من مظاهر التدين إلا العيدين والمواسم وأذان الجمعة ومغرب شهر رمضان. بعد مرور أكثر من شهر في تلك البلدة أشعر أن هناك شيئًا يفوق كل ما أبحث عنه وأريده، وذلك الشيء يجعلني لا أشعر بالاغتراب، وأبدو متوائمة مع نفسي وأحلامي، وأحاسيسي، لا أرغب غير في مهلة واسعة من الوقت كي أنكر الماضي، وأطرح ما أريد من الأوهام الجديدة والأفكار، لأدور في أفلاك أخرى، معتقدة أنني ما زال لي اتصال وثيق بالحياة. فراق الآخرين علمني أن أحب الكلمات وأكتبها، تعلمت ألا أرددها دون فَهْم أو معرفة. فَهْمُ الكلمات ومحبتها وخطها على السطور البيضاء تشبه تلك الكتل الأسمنتية البيضاء المتلاصقة، لا ترى منها غير واجهة واحدة من كل جانب، وعندما يهب الليل تبدو

كطاقة نور أبيض انفتحت لك فجأة، فتملأ عينيَّ بألق متوهج وتقودني كما يقودني سحر الكلمات على السطور البيضاء إلى بهجة العقل ونعيم الفهم والتفكير في العالم الغريب الذي أصبح بلا أحلام، حيث أمارس الأشياء لأنه عليَّ فعل ذلك دون أن أستفسر عن هذا أو ذاك من الأحكام. دخلت الحجرة وخرجت منها وقد فعلت آخر ما أفعله عادة، وهو تغيير التاريخ، فالثانية عشرة ظهرًا هو انتهاء وفناء يومي الحاضر، حتى لو بقي منه عصر أو مساء، وليل بهيمي سينقض عليَّ و أنا نائمة بجوار أبلة فوزية لأشعر بالوحدة والغربة من جديد في انتظار صباح خميسي آخر لأنفرد بالكلمات.

درب بئر الماء رغم أنه حظ كبير فاز به الكفيل عندما استأجر هذا المنزل ليكون سكنًا للمعلمات، إلا أنهم يدعون أن تلك البئر بها جني يتصل بامرأة عمانية من أصل زنجباري تقيم بجانب منزلنا مباشرة، وعندما نصعد درج السلم إلى الدور الثالث لنشر الغسيل نرى سطحها كاملاً أمامنا، وهي امرأة شعرها أسود خصلاته قريبة الشبه بسلك غسيل الأطباق لدينا، ذات بشرة شديدة السمرة إلى حد السواد، ولا يظهر من ملامح وجهها إلا بريق عينيها اللاهب بالشرر، وتوجُّسٌ بالخطر بأنه ربما يحدث شيء ما لو قابلتها، ترتدي الزي العماني الكامل، تلك المرأة العفريتة ترعى وتربي العديد من القطط بين الأَسْود الفاحم بأعين خضراء مضيئة كالكريستال لها ضوء برَّاق، وأخرى لونها

رمادي فاتح في خطوط بنية أو لون جلد النمر، وتلك القطط هي العناصر المؤدية الفعَّالة لتشغيل وبث أعمالها السحرية لأذى البشر، فيقال إن هذه القطط ما هي إلا أشخاص آدمية الأصل تحولت بفعل السحر القوي لأصحاب الجن والسحرة المعروفين والمتخصصين في ممارسة تلك المهنة من زمن الأوائل، وسَكَن تلك القطط هو عبارة عن عشش متوسطة الحجم مصنوعة من أسلاك خفيفة كتلك التي نستخدمها في شبابيك المطابخ والحمام لدرء أي حشرة للدخول، مثبتة قوائمها الأربعة بالخشب، وفي وسط المربع باب خشبي له سقاطة لوضع قفل حتى لا تخرج وتحاول الهرب، وبجانب تلك العشش كميات هائلة من قصاقيص قماشية مختلفة الألوان ومتنوعة النسيج، ولا نعلم ماذا تفعل بها؟!، وفي كل عشة يوجد إناءان فخاران، واحد للطعام وآخر للشراب، ويقولون أيضًا إنه عندما تكبر تلك القطط الآدمية المسحورة وتفقد قدرتها على بث السحر يسكنونها الكهوف في الجبال، مانعين أي طعام أو شراب حتى تموت من الجوع والعطش والظلمة ويأس المصير، وتنزاح مسؤوليتها عن كاهل ساحرها.

جاءت المعلِّمة عبير بوصاية من صديقتها ابتسام التي حضرت قبلها، وعبير ملأها فضول خفي وخطير جذبها إلى متابعة تلك المرأة السوداء ، ويأتيها نداء خفي في صباح الخميس والجمعة لتصعد درجات السلم إلى السطح، وتجلس ناظرة باستغراب

وتتأمل تلك السيدة وهي تطعم قططها كأولادها رافعة إحدى قدمي قطها الأماميتين وتضربه ضربات خفيفة لومًا وعتابًا عن أمر حدث بينهما هما الاثنين فقط، وتحنو على آخر وتحمله حاضنة إياه كأمه، هامسة في أذنه بكلمات الحب والسحر، وهكذا حتى يمر الوقت إلى العصر، فتذهب وقد أغلقت العشش بعدة مفاتيح غريبة الشكل. وظلت عبير تستخف غير عابئة بحنق وغيظ السيدة التي اشمئزت من ملاحقة تلك الفتاة لها في أيام وساعات بعينها، وبعد فترة ليست طويلة تحولت عبير الفتاة ذات الخمس والعشرين إلى فتاة نزقة ، وعكرة المزاج، صفراء اللون، تأتيها نوبات صرع تجعلها تصرخ بشكل هستيري لمدة لا تقل عن ربع ساعة حتى تهدأ فجأة كأنما يسري في جسدها تخدير مجهول، فتذهب جالسة على فوهة البئر، لا بد أن جني البئر سكنها، وأن نوبات صرعها المسكون بالجن مبعثها تقدم العرسان لخطبتها أو الزواج، فهو يرعبها كلما رأى غريبًا يتقدم نحوها، فالجني يعذبها في جسدها لتكون له وحده، و أقام سحره برصد على الزواج، ويقال أيضًا إن عبير أصبحت لا تفارق الجلوس بجانب البئر في أوقات فراغها أو أوقات غريبة في عمق الليل أو في الصباح الباكر.

رقصة الحرية

رواية

هدى توفيق

إهداء

إلى أمي /

التي لن تقرأ هذه الرواية

/١/

فذلكة حكي

قبل مشاهدة أوبرا عايدة

قبل إطفاء الشمعات الخمس

اليوم الأول / ٢٧ مارس / ٢٠١٥

اليوم ستأتي رفيقة أميمة كراوية المناضلة الفلاحة، ناريمان (بقرا) على وزن بقرة لأنها تقرأ كثيرًا، كل من يسألها:

- ماذا تفعلين يا ناريمان؟

- أنا بقرا بقرا، ومش فاضية يا ميمي أجّلى كل حاجة لما أخلص الكتاب.

- فيم تقر أين؟

- أقرأ عن الزهور والورود و أنواعهم وروائحهم التي تتميز بها كل واحدة عن الأخرى.

- ما علاقة هذا بك و أنت لا تشمين يا مجنونة؟

- كيف هذا ؟ إن زهرة التوليب اختارتني واخترتها؛ فهي ليس بها مخ و أنا ليس عندي حاسة الشم ألا تعلمين ذلك ؟

- صحيح ... لم أكن أعلم يا ملسوعة.

- إذن سأخبرك لاحقًا يا دكتورة أميمة وبعدين أنا حرة فيما أختار يا ميمي.

ستحضر هذه الملسوعة من مدينة بني سويف لتبقى مع يحيى أربعة أيام، تقرأ خلالهم الدكتورة أميمة عملها الأول في عالم الكتابة الأدبية، وتتوجه في اليوم الخامس لتحتفل بيوم مولدها، وإن كانت تشاركها ميمي الاحتفال أيضًا ؛ فكلتاهما اندلعت فيه روح الحياة الهالكة في ذات الشهر نفسه (نيسان) يفرق بينهما عدة أيام هي ١٩٧٠/٤/١ وكراوية ١٩٧٠/٤/٨، ولقد جهزت لها كراوية وزوجها الأميركي مفاجأة عمرها، تحلم بها منذ أن ذاقت وتذوقت فنون الحياة منذ بدء ميلادها الدافئ في نيسان (شهر الغبار والأكاذيب) ، وقد عشقت ناريمان معادلة السلام مع النفس والروح أمام هذا الفوران الحياتي الذي يغلي

به يومنا لهبًا وشررًا، حتى نحتضن وسادة النوم نازحين عنا بعنوة الخوف، الندم، والألم هل تذكرون معي؟ (الدرس انتهى لموا الكراريس... بالدم اللي على ورقهم سال... في قصر الأمم المتحدة... مسابقة لرسوم الأطفال... إيه رأيك في البقع الحمرا... يا ضمير العالم يا عزيزي... دي لطفلة مصرية سمرا... كانت من أشهر تلاميذي). بهذه الكلمات وثق الشاعر الكبير (صلاح جاهين) واحدة من مذابح الاحتلال الصهيوني، لحنها (سيد مكاوي)، وتغنت بها المطربة (شادية)، هي مذبحة مدرسة بحر البقر الابتدائية المشتركة، بقرية بحر البقر في مركز الحسينية بمحافظة الشرقية، ففي التاسعة والثلث صباحًا ٨ أبريل ١٩٧٠، قامت طائرات الفانتوم الإسرائيلية بقصف المدرسة بخمس قنابل وصاروخين؛ فأسفر هذا القصف عن استشهاد ٣٠ طفلًا وطفلة،كانت المدرسة تقع في طابق واحد يضم٣ فصول يبلغ عدد تلاميذها ١٥٠ تلميذًا، كما أسفر القصف عن إصابة ٥٠ طفلًا بإصابات بالغة، وقد جاء هذا القصف ضمن تصعيد الغارات الإسرائيلية على مصر لإرغامها على إنهاء الحرب (حرب الاستنزاف وقبول مبادرة روجز)، لكن لم يكن بغريب أو جديد على إسرائيل أن تزيف الحقيقة، وتؤكد أنها قصفت أهدافًا عسكرية، وليس مدرسة، كان من بين التلاميذ الشهداء (أحمد أنس الباشا، طه عبد الجواد طه، عادل مصطفى خميس، سامي إبراهيم قاسم، محمد أنور أحمد

العناني، كحلاوي صابر فتحي). بينما سوّغت إسرائيل ذلك بأنها كانت تستهدف أهدافًا عسكرية فقط، وأن المدرسة كانت عبارة عن منشأة عسكرية مخفية، كما أثار الهجوم حالة من الغضب والاستنكار على مستوى الرأي العام العالمي، وبالرغم من أن الموقف الرسمي الدولي كان سلبيًا، ولم يتحرك على النحو المطلوب، إلا أن تأثير الرأي العام تسبب في إجبار الولايات المتحدة، ورئيسها نيكسون على تأجيل صفقة إهداء إسرائيل معدات حديثة، كما أدى الحادث إلى تخفيف الغارات الإسرائيلية على المواقع المصرية، الذي أعقبه الانتهاء من تدشين حائط الصواريخ المصري في يونيو من نفس العام الذي قام بإسقاط الكثير من الطائرات الإسرائيلية، وانتهت العمليات العسكرية بين الطرفين بعد قبول مبادرة روجز ووقف حرب الاستنزاف، نحن جيل الهزيمة والاسم الهزلي لها نكسة ١٩٦٧، ثم حرب الاستنزاف وموت الزعيم الكاريزما جمال عبد الناصر، المهم على جثث هؤلاء الأطفال الضحايا الأبرياء شهداء الحياة وفردوس الآخرة ولدت في هذا اليوم المشؤوم أميمة محمد عبد العزيز كراوية، في (الحيبة) أو (حيبو) إحدى قرى محافظة بني سويف، تقع على الضفة الشرقية، على بعد ٥ كيلو مترات جنوب مدينة الفشن أحد مراكز محافظة بني سويف، عرفت في النصوص المصرية القديمة باسم (حت – بنو) أي مقر طائر (بنو فنكس) الذي قدس في هذا المكان وتحول

الاسم في اليونانية إلى (هايبونوس) التي أصبحت في لغتنا الحالية "الحيبة" التي ترعرعت بها وكبرت حتى أصبحت كنيتها، في الجامعة وبين أهل قريتها الحبيبة والجميع، الدكتورة أميمة كراوية بعد أن انتقلت إلى مدينة بني سويف أقامت إقامة دائمة بزواجها من الرفيق والدكتور ناجي عبد العظيم الذي كان يدرس مثلها في كلية الآداب فرع بني سويف جامعة القاهرة ثم عيِّن معيداً ثم دكتوراً ، وقد تم انفصالها عن الجامعة الأم (القاهرة) بعد عدة سنوات من تخرجهما منها واستقلالها لتتبع جامعة شمال الصعيد، ثم وفاة زوجها فجأة بعد عودته من رحلته للعمل في المملكة العربية السعودية المشؤومة أيضًا مثل يوم مولدها، وزواجها من هذا الأميركي المفتون بها بتلك المقولة المعهودة عند الظرفاء منهم :سحر الشرق في عينيك وشعرك الأسود يا جميلتي السمراء كراوية، وأخيرًا انتقالها للعيش بمحافظة القاهرة في منطقة المعادي، والعمل في الجامعة الأمريكية بكنيتها ولقبها الدكتورة أميمة كراوية، حصلت على الماجيستير في (أعمال يحيى الطاهر عبدالله) ثم الدكتوراه في علاقة الرواية والمدينة (نماذج كتاب الستينيات في مصر).

عذرًا قارئي العزيز كفانا ثرثرة عن كنيتها وعملها الأكاديمي وحياتها، والتي لا تجلب إلا صداعًا بأبعاده وتلك التعقيدات لنعود إلى رواية المناضلة ناريمان الفلاحة كما كان يطلق عليها الرفيق العزيز يحيى وكرواية استكمالًا لسخريته وتعاليه

البرجوازي الملفق: ناريمان الغبية على وزن بقرة كما أخبرتكم من قبل هههههه، لتقرأ رواية رفيقة كفاحها الكاتبة الصاعدة ناريمان مصباح الأولى بعد مخاض سنوات من الخوف أن تخترق الأوراق وتغزو السطور بكل وقاحة وجرأة وشهوة الفضفضة.

- لو أحببنا نجسد الخوف حايكون إيه ياناريمان؟

- نجيب السيخ المحمي على النار، وأضرب بيه قلبي وأموت يا ميمي وأرتاح منه.

تضحك بشدة وتصرخ فيها كعادتها كلما فاجأتها بالرد:

- يا غبية لأ.. لأ.. تعرفي نعمل إيه... نضربه في الهوا ونقول ونصرخ مفيش خوف مفيش خوف مفيش خوف يانونو go head ..go hdad.

لكن أيضًا لا بد أن نعترف ونتحدث عن مدى إحساس الخزي والفشل الذي قد يدفع الشخص للعودة إلى منزل الصديق أو الحبيب أو الأسرة بعد إخفاقه في بناء مستقبل أفضل لنفسه في مكان آخر؛ فالعودة هنا هي الدافع للمواجهة والخسارة، لابد إذن من التفكير ملياً في تعقيدات الحياة، و أنه لا يمكننا اختزال البشر في شيء أو اثنين قد ينطوي الحكم فيه على مشاعر الهلاك، وهذا ما تؤكده كراوية حين تقول: لكن رغم كل المحاولات والصعوبات والمحن القدرية التي تواجهنا، فالأمر يستحق العناء والمغامرة ولو كان مجهولًا وغامضًا؛ لأنه يثير

تطلعنا الساكن، يأسنا البالغ، وإن كان ما يثير اهتمامي ويجذب انتباهي بشدة، ويملأ فكري غرابة وجدلًا عن حق هو المشاعر المتناقضة التي تغزو علاقتنا مع هذا الكائن البشري داخل عالمه الذي يدفن فيه أسرارًا خفية حتى عن وعيه خلف كل الأقنعة التي يرتديها مرارًا وتكرارًا، ربما ليس أمامي غير أن أستعين بتلك المقولة "إن إنتاج الأفكار، والتصورات، والوعي مختلط بادئ ذي بدء بالنشاط المادي والتعامل المادي بين البشر بصورة مباشرة ووثيقة، فهو لغة الحياة الواقعية" (كارل ماركس، فريدريك إنجلز، الإيديولوجيا المادية).

لا شك أن ماركس و إنجلز كانا محقين في ذلك، فعندما أتابع مسيرة حياتي، و أقرب ما لي من أصدقاء الدراسة والنضال، أجد أن الأمور صاغتهم بمناحٍ مختلفة ومتنوعة تصل إلى حد المفاجأة والدهشة لي في بادئ الأمر، لكن مع التمعن في مجريات الحياة أجد أن ما كان لقدر عبثي أو ظروف جانحة أو اضطرابات نفسية وعقلية إلا فعل أو أفعال شائنة أو حميدة دون إنتاج أفكار وتصورات تلوثت، و اقترنت بنشاط آخرين فعل فعلتهم الآثمة بتشكيلنا ورسم حياتنا بصورة رضينا عنها أو نفرنا، منها فالحاصل واحد أنهم نخروا في أعماقنا بثقوب غائرة لا تنغلق أبدًا.

أشباح التيوليب
رواية
ناريمان مصباح

أجلس لأكتب .. أدفع الموت عني
لطيفة الزيات. حملة تفتيش

(مفتتح)
لقد سلمت روحي ونفسي للراوية ؛ لتستدعي كل حكاياتي مع آل مصباح في مدينتي الصغيرة.

التوقيع
ناريمان

الفصل الأول
هموم الطفلة كاستيلا
التوليب أو التيوليب من النباتات التي تستمر في النمو بعد قطعها، ووضعها في المزهريات، و السبب يرجع إلى افتقاد تلك النباتات وجود مخ بها أو جهاز عصبي، كما الحيوانات أو البشر،

لذا فإنها ببساطة لا تعرف أنها قد تم قطعها، أما كيف تحصل تلك النباتات على غذائها بعد مغادرتها لتربتها التي هي مصدر غذائها الرئيسي، فذلك يرجع لاستهلاكها للمادة السكرية التي تكونها داخل جذعها من المياه الموجودة بالمزهرية، أيضًا إن التيوليب من النباتات التي تظهر عليها عملية النمو بوضوح؛ لأن جذعها وجدارها رقيق، تستهلك نسبة ضئيلة من المياه التي يمتصها النبات وتذهب النسبة الغالبة الباقية إلى أجزاء النباتات الأخرى التي تنمو وتتمدد بوضوح. لزهرة التيوليب حياتان: حياة فوق الأرض تنتهي بالأزهار ذات الألوان الجميلة الحمراء والبيضاء والصفراء والوردية والبنفسجية والبرتقالية، وحياة أخرى تنتهي بتكوين الأبصال الجديدة لتخلق حيوات أخرى وأخرى، لقد انتقلت هذه الأزهار إلى أوروبا منذ ٤٠٠ عام من الدولة العثمانية التي اشتهرت بذلك و انتشرت بها فوجدت عناية خاصة بزراعتها في هولندا التي أصبحت رمزًا لها ومصدر دخل كبير لها، وقد حظيت بأهمية اقتصادية عظيمة في أوروبا إبان ما سمي بجنون التيوليب، ولا تزال حتى يومنا هذا رمز الحب والأناقة والجمال الساحر، ولا أحد يزور هولندا إلا ويشتري أبصالًا لهذه الزهرة ذات الهالة الرومانسية لما تتمتع به من أناقة وجمال ، أيضا يُحكى في عام ١٩٤٥ قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية أن كندا استقبلت في ذلك الوقت الملكة (جوليا) ملكة هولندا التي تركت بلدها إثر اندلاع الحرب واستقبلها

الكنديون في بلادهم ومنحوها مساحة من الأرض لتكون أرضاً هولندية حتى تستطيع أن تنجب ولي العهد في أرض هولندية، كما أسهموا في تحرير هولندا، وعرفانًا منها بجميلهم أرسلت لهم الملكة مائة ألف زهرة من زهور التيوليب؛ ليزرعوها في بلادهم، بذلك تحولت زهرتنا الفاتنة إلى رمز عالمي للصداقة والحب بين الشعبين.

إن التيوليب تلك الزهرة البيضاء المتعددة الأوراق المتداخلة ذات الألوان الزاهية المتألقة في تجسيد شامخ وكبرياء عالٍ بألوان قوس قزحي على ساق رفيع وجذع وجدار لين، ينمو وتتفتح وريقاته ببهجة وقوة الحضور وسط صديقاتها من زهرة (شقائق النعمان) التي تعني الشوق، و(زهرة الأوركيد) ومعناها الزهرة الحسناء، وزهرة (الفلامنجو)، ومعناها حسن الضيافة، وزهرة (أستر) ومعناها الصبر والاحتمال، وزهرة (عصفور الجنة) ومعناها الفرح والابتهاج، وزهرة (بوفارديا) معناها الحماس والتعصب، وزهرة (القرنفل) ومعناها الجمال والكبرياء، وزهرة (الأقحوان) ومعناها الولاء والإخلاص، وزهرة (النرجس) ومعناها الشهامة والنخوة، وزهرة (السوسن) ومعناها المديح، وزهرة (ألستروميري) ومعناها الصداقة، وزهرة (زنبق الجلاديلياس) ومعناها قوة الشخصية، غيرها وغيرها... من الأزهار (هيدرانجيا)، (زنبق الايساتك)، (الزهرة الفارسية) ليأتي التيوليب (التي تعني التصريح بالحب) منها ١٢٠ نوعًا من

ألوان هذه الزهرة جميع ألوان قوس قزح، هكذا كان جيل الهزيمة والانكسار، مواليد جيل السبعينيات ١٩٧٠، ظل إلى آخر رمق يصرح بالحب والثورة وكل الأهداف الكبرى كزهرة الهيدرانجيا التي تعني القلب المخلص دوماً، الذي يحاول النهوض مهما حدث مرورًا بحرب الاستنزاف وموت الزعيم الكاريزما جمال عبد الناصر والرئيس المؤمن محمد أنور السادات والرئيس المخلوع محمد حسني مبارك حتى غناء ورقصة التوليب في ٢٥ يناير ٢٠١١؛ الرقص الذي حرمت منه ناريمان بسبب قسوة البعبع الذي كان يحرس بيت الرعب ٢١، ويمنعها من أي خطأ كما يعتقد، رقص البنات، فستان البنات، مراهقة البنات، ضحكهن، ميوعتهن لأنها كانت الشاويش رقم (٦). مع الوقت شعرت أنها هذا التوليب الأحمر الذي اختارته لنفسها وتذهب خصيصًا لفيلا صديقتها الدكتورة أميمة لرؤيته، وتحاول بشعورها المشتاق أن تتخيل له رائحة بكل معاني الحب المجردة لتمرر له مشاعر الفقد بالتوحد معه والانتماء لكنهه القريب من مخيلتها بعد غيابه نهائيًا عن منزل الأشباح ٣١ في مدينتها، إننا جميعًا تيوليب مصر بشتى الألوان، وقد اختارت منه ناريمان أن تكون التوليب الأحمر.

بينما من بين كل هذا تعشق الدكتورة أميمة زهرة البانسيه هي المناسبة لها؛ كما هو التيوليب مناسب للملسوعة نونو؛ فكلمة بانس مأخوذة من الكلمة الفرنسية بانسيه وهي تعني التفكير،

وذلك لأن الزهرة تشبه وجه الإنسان، تميل إلى الأمام وكأنها في حالة تأمل، وهي تعني أيضًا التذكر، فإذا قدمتها إلى شخص، فهذا يعني أنك تفكر فيه أو تتذكره، فهي رمز الحكمة؛ فاسمها الإنجليزي بانس، وهي زهرة إيمي المفضلة، كما أن دلع إيمي هو المفضل لناريمان عن أميمة أو ميمي. تحكي ناريمان قائلة:

استيقظت أمي كالمعتاد على جرس المنبه الذي اعتادت كبوق ناهق يسوقه رب البيت أن يوقظها في ميعادها الذي فرضه عليها هذا الزوج الماكر، وهذا البيت الذي يطبق على أنفاسها كالسجن الأبدي، تقضي به عقوبة مدى الحياة، والإفراج الوحيد هو الذهاب إلى المثوى الأخير، عندئذ فقط ينفك أسرها بالموت المطلق دون أنين أو شكوى أو حسرة أو ندم أو طاقة لتتحمل المزيد، كعادتها تستيقظ لتفطر حسن الشندويلي سليل عائلة آل مصباح والبنات الست بوجوههن المنتفخة من النوم والفزع الصباحي بالقيام فورًا.

إنهن بنات متشابهات، كنسخ مكررة لماكينة الكعك، والبتيفور، التي تخطئ في قليل من النمش المبروز في العجين لا أكثر، بينما الحلقة المعدنية الأصلية واحدة كالختان في أجساد الفتيات البكر، علامة الكبح والقهر، تجتث بروز بظرهن بمشرط العفاف حتى لا تنسكب شهواتهن كما يراد لهن ويبقين يعشن في خفاء وراء الفردوس الطائش بخيالاتهن الجامحة عن إطراء اللذة، والشهوات المحرمة لهن، ولأن العادة تمر مرور العبث

بحياتنا، لتجري وتلهث الأيام كالفئران المذعورة وتستوي أو لا تستوي، حاصل الجمع فتات وعيش كفاف، وحرمان مرير، ليترسب في قاع أفكار ناريمان شيء خارج عن إرادتها لم تستطع أن تضع له قانوناً بشرياً أو إلهياً، وهي تغتاظ، وتمتعض من كبت كل رغباتها الجامحة باستحلام غامر يهز أعطافها، وتنتفخ وجناتها من حمرة الخجل والحياء المدعى وداخلها يتعارك ويتطاحن كفارس جبان، يتقهقر أمام المعركة بكل نذالة، حتى ينز الألم المباغت في أعمق أعماقها، فتقلع عن النوم، وتظل تبكي حتى باكورة الصباح الذي لابد سيأتي رغماً عن كبريائها المهزوم؛ فتستسلم لنعاس الوجع والرغبة الملحة المتواطئة في قمعها، وإنهاكها بأرق الشهوة والشوق لفارسها الغائب عنها للأبد.

تلك الساعات، في عمق الليل، كم تبغضها ناريمان إلى حد الكره، كأنها عقاب أبدي يلازمها من سني المراهقة، حتى سن الخامسة والأربعين وربما يظل معها حتى موتها، دوما تشعر كأنها كالأرض العطشى، لا ترتوي بأي حب وأي حنين، وهي تخاطبها بتوسل و أنين : أيتها الساعات كم أريد الفكاك من أسرك و أنت تحترفين صمتي في الليالي الطويلة بنداء غامض، أشعر به كنداء النداهة التي تتيه وتشرد روحي كالمهووسين وتربض على عرش قلبي وباب عقلي لتوجهني كالمسلوبين ببوصلة الزمن الدقيقة الصارمة كالناقوس الخامد الثقيل بخموله، و أنا بين عقاربك

الزمنية ألهث بين ضجيج ساعات النهار وصمت ساعات الليل، تلدغينني كالعقرب؛ فأستيقظ كالمحمومة، لأشاهد الليل المعتم الساكن بثبات الأثاث وكل الأشياء التي تحيطني كالأشباح فتأتيني لوثة وهلاوس قديمة ومحفورة في ذاكرتي، منذ التقطتها عيناي، و أنا طفلة عمري عشرة سنوات، أبراص ضخمة مقززة ومخيفة تسير على الحائط تخرج من خلف الدولاب في منزل أشباح التيوليب لتملأ الحو ائط، تتمهل سيرًا بقوة وثقة في منزل الأشباح ٣١ مستوحاة من سعة صدر وترحاب من أصحاب هذا البيت الذين عاشوا وتوالدوا فيه أمناً وسلاماً عجيباً فأنهض بفزع مباغت، أرتعش من الخوف، تنتفض عضلات قلبي، وصوت خفي يهمس لي: استيقظي يا فتاتي المعتوهة.. استيقظي. هذا ميعادك القدري مع صوت الوحدة وهلوسات الماضي واللوثات الخرفاء تأكل سنوات عمرك"، ويشتد إلحاح ذاك الصوت المخيف، أشد الأصوات إزعاجاً في حياتي تجعلني أعايش ألوانًا من العذابات، التي تنخر في كل خلايا عقلي، وشر ايين قلبي، حتى أمر بلحظات الخوف الكبير، ويأتيني من بعيد صدى صوت حرفوشي يهمس في أذني وأخاطبه هذياناً : "أيها الشيطان الكامن في روحي الثائرة المتمردة، آمرك بروحي المهزومة أن تخمد نير انك، وتطفو ساعاتك على شط النجاة حتى تهدأ روحي وتطوق هذيانك معي، ولترحل روح (زهيرة شهد الملكة) العالقة داخلي إلى مالا نهاية"، حتى أستجمع شجاعتي

لأهتف للساعات العنيدة أن تذهب وتتركني وشأني، بينما صدى أصوات الحرافيش يعود مرة أخرى على غرة يرفعني لينقذني من بئر العزلة، فأستجيب له براحة وأمل وانتظار أن يأخذ بيديّ وأنا أستعيض بقانونه الحواري، لأفلسف الأمور وأتحاور مع كل هذه العذابات بفانتازيا عالية، وأرواحهم الحرفوشية تستحوذ على كل خيالاتي، حتى أمجد خيالاتي المريضة ووداعة التأمل بين ثنايا أصواتهم الذي يتخلل روحي كرقة النسيم وشدو البلبل وحزن الحيارى، وتأمل العاشقين رغم ملامحهم الغائبة والبعيدة تمامًا عني الآن، وأنا أستحضر عنوان لقاءات الحب والمرح المختلفة والمتجددة في كل مرة مع جدتي، ناصر، هالة، يحيى، إيمي، نور السويفي، سلوى، شوق، ريعو، كل من أحببتهم وأحبوني، كل من هجرني أو بقي لتبتكر لي خصوصية إلهامي ووجدي بأرواحهم التي سلبتني لسنوات طويلة وممتدة إلى الآن، وأنا أسعى على الدوام أن ألتقي بروح ناصر القديمة لكي أحتضن كهف جسده، والذي يسكنني حتى يحتويني، ويغيبني عن كل ما حولي من ضجيج وصخب لتلك الحياة القشرة، لأتجاوز قوة السقوط في ألم الوحدة والشعور بالعزلة، وأرهف السمع لكل صوت من أصواتهم العديدة الحرفوشية، والتي أعشقها كلها، وأبدي إعجابي المفتون بها وإن كان أقربها إلى النفس، عندما كان يتحدث نور السويفي معي لدقائق طويلة بشجن عن أوهام العشق عبر الأثير الهوائي،

فتبرق عيناي من جديد بوهج الوجود والحياة، وقد كنت أظن، في فترات عزلتي الشديدة، أن العمى قد أصابني، أو أن صوتًا إلهيًا قد تخلى عن الرفق والرحمة بحالي المسكينة و أنا أغوص في الليالي المبهمة مع تلك الساعات المفترسة كل يوم، فيذوب اليوم، و أنا أحمل عبء اليوم التالي وقد احتواني شفق غريب، يدمي قلبي، و أنا أناشد جوف التفاحة المعطوبة الملعونة من التفاحات الست في عائلة آل مصباح، كما أخبرني السيد الكبير حسن الشندويلي من يوم أن جئت إلى عالم الأحياء بسؤال عاجزمتكرر:

- إلهي.. هل أنت أيضًا تنساني؟! يا إلهى ألا يكفي أن ناصر، ورفقائي الأعزاء قد نسوني إما رحيلًا أو فر اقًا أو موتًا؟! أرجوك.. يا إلهي لا.. لا تنساني أرجوك فأنا في حاجة ملحة لصوتك الرحيم فلم يبق لي إلا أنت ...إلا أنت ياإلهي.

تتهادى الأم كحمامة وديعة مقهورة، بين حركات آلية وعصبية، إلى أن يجلو صوت المذياع على صوت المطربة (بالسلامة يا حبيبي بالسلامة) وتردد هي بهمس :بالسلامة يا قاهري، يا هالك بصحتي، ليتها ألا تحضرك سلامة يا قاتل فرخاتي وطيوري من أجل عزائمك المشبوهة وضيافة أصحابك وعاهراتك و أقربائك المعتوهين... ليتها لا تحضرك أي سلامة يا شندويلي"، شق حديث أمها الداخلي مع نفسها صوتاً ما، فأشعرها بالحرج، إنها توسوس لنفسها كالمجاذيب، حتى أصبحت مع توالي الأيام

عادة ملازمة لها، بل وباتت بصوت عال، وخاصة في المطبخ، وأحيانًا تتصاعد الأمور للحديث في أي مكان آخر في الشقة، الحديث الذي ازدادت حدته مع كبر السن وخروجها على المعاش، مع المكوث طويلًا بمفردها بعد زواج البنات، ورحيل السيد الكبير وموت أخويها وصديقاتها المقربين ومرض المتبقية منهن عايدة التي قللت مرات الزيارات والود والتقارب والاكتفاء بالهاتف المنزلي، لكن أيضاً لا تنسى أبدًا أعواد خوص عيد السعف القمحية اللون بأشكالها المتعددة تهديها لها كل عام وتحتفظ بهم الأم معلقين على شباك المطبخ وشرفة غرفتها، والتي باتت لا تفارقها نومًا وملبسًا ومأكلًا حتى يأتي الجديد وتستبدله بالقديم حتى جاءت نسرين نكد في يوم لزيارتها وألقتهم في القمامة بعصبية ونهرتها قائلة بتهكم:

- هو إنتِ مسيحية؟! دول كفرة مش ها يدخلوا الجنة ما داموا لم ينطقوا بالشهادتين.

يا لها من حواء تعسة، جميلة كنت أنت يا أم التفاحات الست ماذا جنيت؟، كل يوم هو وجه واحد للأمس وقبل أمس وغد وبعد غد، أقصى أمنية كانت تتمناها أن تحضر مباراة للفريق الأهلي مع الزمالك في الاستاد الرياضي، فهي أهلاوية متعصبة ومتابعة مخلصة لكل مباريات فريقها، حتى هذا الحلم البسيط لم يتحقق، فماذا عن الأحلام الأخرى في كل عمرها الذي مر وانفض حتى أمست على أعتاب السبعين عامًا، لم تتعلم غير

قانون الطاعة العمياء كالعجين الطيع اللدن ندك ونخبط فيه بحركات متتالية وهو طائع ومستكين ليتجسد كقطع متراصة متساوية متناسقة على حسب البروز المعدني الذي ينقشها مستديرًا، مربعًا أو مستطيلًا، كما يحلو لصانع الحلوى ، هكذا كانت هي لسيدها كل ليلة يأمرها أو لا يأمرها كما يحلو لهواه ومزاجه الشخصي لكنها كانت كالعجين اليابس، مثقوب داخله بنداءات ترددها، حزنها، غضبها، وانتحار الجسد يتشكل بوخزات النقش والتبرقش الفاقد الروح والمذاق والدهشة حين يتهيأ لفم الدناءة كي يقضمه في مرة واحدة، أو مرتين، إنه للأسف الشديد لا يعي ذوبان الفتات داخل فم السيد الكبير المتعكر برائحة الخمر القوية التي كان يدمنها في شبابه، خاصة في الليالي الملاح والجماع معها التي كانت فيها تعتصر كالعجين توجعًا وألمًا وهو يسري في أوصالها رائحته المنفرة لها من خمر، لاذع شديد المرارة ممزوجًا بالشهوة البهيمية العمياء وقد زادته المزة لوعة وشبقًا حسياً للغاية، حينئذ ينتصر الخمر ويمر كل شيء أمامه في لمح البصر، معلنًا أنه القائد، بل هو الفائز الهمام، حين يتشكل الشبق معبرًا بكل وحشية عن رغبته في أن يلتهم اللحم المتدلي إلى حد الترهل لتغوص فيه نقرات قطار ذكوري، باحثًا عن مرفأ للحالة المسكرة المرهقة، أخلدت الجسد الجامح إلى ما هو أشبه بخميرة نائمة هامدة، بعد أن أفرغ حاجته، وتركها كخرقة بالية، يا.. لبشاعة الإنسان تحت

تأثير المخدر دون أي إحساس أو مشاعر حقيقية غير رواء رخيص اللذة.. ينتهك الذاكرة بإضاءات ملوثة، لتهزم ذاكرة الإنسانية المضيئة عن كونه إنساناً حراًّ.. يسعى إلى الحرية.. آه.. ثم آه! الحرية تلك الكلمة الثمينة، الفادحة الثمن، بكل معانيها، كم أدمت ناريمان بل قتلتها بحثًا، في دروب شتى كمن يسير على الأشواك، حتى تاهت نفسها الملتاعة للحرية المطلقة من غير سلطة أبوية، وعائلية ، من غير رجل، من غير مخدر، من غير مجتمع منافق، من غير نفسها السليطة المسلطة وهي تتعثر في الخروج من حفرة لأخرى، وتتوالى الحفرات وتصعد منها لتهوى في عمق الألم والحسرة والندم، وقد تبعثرت أجزاؤها، وتحولت إلى حطام أشلاء، تلملم نفسها بأي طريقة، حتى تقف مرة خامسة وسادسة وسابعة، وهي تبحث بدأب نملة صغيرة داخل فضاءات العالم الواسع كالقشة الهاربة من وقع الريح الهائجة، وفي نهاية الأمر ليس أمامها غير السير والانتظار بصبر في طابور النمل الدؤوب، لتقتحم مسارات الحياة الشائكة، وتخرج من جحر العبث والتلاشي والمجهول، حتى في لحظات تظنها كانت قليلة في حياتها، تزعق أنها قد قبضت على المعنى العظيم وفازت وفاز بها، وراحتا يديها تحتضن الكرة الفائزة وترفع الكأس الذهبية حيث النجاح والتفوق وترفع صوتها قائلة : أهي تلك الحرية ..أهي، بل تصرخ بملء قوتها لتدحض أوهامها وضلالات أفكارها وخيبات و اقعها، وقلبها المفطور كمدًا وحزنًا، وعقلها

المتأجج بفكرتها عنها :آه الحرية ..الحرية... أين أنت مني و أين أنا منك؟! هل أنت في قبضتي أم أنك مماتي ومقبرتي ومكمن عزلتي ووحدتي وعراكي مع الساعات، والليالي والأفكار والحيل الحياتية؟!

هرعت أم التفاحات الست إلى الحمام، تغتسل من هذا الذنب اليومي، ترتل بتوجس قائلة: يا ربي لماذا تفعل هذا بي؟ تأمرني أنه الواجب والحق، وأكاد أجزم بأنه الخطيئة عينها، أعاتب من فيكما أمي أم أنت؟ لكني أعتقد أنه ليس لك ذنب فيما يحدث لي، فأنت من خلقت أمي لتعلمني حب الحياة وتنفيذ الواجبات والحقوق والطاعة، نعم أنت السبب يا أمي؟ أنت من فعلت ذلك بي، استقيت حبك وطاعتك وتأدية كل الواجبات المنزلية على أكمل وجه كأم مباركة وأمينة في رعايتي، لأنشأ فتاة مثالية، فاضلة.. آه.. ياأمي الحبيبة كنت دائما تملئينني بحنانك وخيرك وعافيتك والابتسامة من وجهك المبتسم دومًا لي ولكل عابر بسعة صدرك ورحابة قلبك وتقولين لي:

- الكلمة الطيبة يا بنتي صدقة، البسمة صدقة، ربنا يفك كرب الناس، ويفرح قلوبهم دايمًا يا رب.. يارب.

تقطعين لي قطعة لحم زائدة عن بقية إخوتي محبة ودلالًا لشخصي بالذات، أشتهي وأطلب منك أن تصنعي لي الفطائر اللذيذة بالسكر والسمن البلدي المقدوح ، فأذوب مع فتافيتها بسعادة غامرة فوق سعادتي، تحكين لي عن جدي البحار الذي

كان يعمل مع أخيه في محافظة المنصورة، يسافر ويسافر مع أخيه في البحر كما كانوا يطلقون عليه بينما هو مقصد النيل، والبحار في الزمن الماضي كانت الشخص الذي يضبط مياه النيل،كان هذا هو معنى البحار عندنا ، حيث يقف كحارس عند السدود قبل بناء السد العالي، حتى بعد بناء السد العالي كان يوجد موظفون لحجز المياه ، جدي بحار وأخوه بحار، جذورهما من قرية (إلا) التابعة لمركز ببا في محافظة بني سويف، كان من عادة أمي أن تتكحل بالكحل الأزرق، الذي كان يوضع في زجاجات صغيرة بغطاء بلاستيكي بُني أو أزرق مثل زجاجات القطرة، والميكركروم، يوميًا تستعمله وتسح دموع مدرارة لأنه يحرق العيون، ويطهرها، كنا أنا وإخوتي نكتحل به في سبت النور الذي يخص المسيحيين، تتناول أمي الزجاجة المهداة منهن، يكتحل الجميع وداً، وحبًّا للجيرة، نعم يا أمي أنا متذكرة جيدًا كحل سبت النور المشهور، وتسترسل أم التفاحات الست في ذكريات ماضيها الجميل:

أمي كانت تحب أبي جداً وتموت غيرة عليه من الأخريات لأن الفلاحات يذهبن إليه لخفة دمه وميزانه البركة في محل الجزارة الذي يمتلكه، لابد وضروري أن تستيقظ صباحًا باكرًا تتحمم وتسخن عود كبريت لتكتحل بالكحل الحامي، وتضع البنس ذات الألوان الستة على كل جانب من شعرها فوقه الإيشارب الأوية، يشبه الأورطة بحلقة ذهب عند أطرافه، كان يحضره

أبي من دمياط لها مخصوص ، ولا أحد في البلد يلبسه، وعندما تشحتهم للجيران، يزعق أبي وينهرها قائلًا:

- ماحدش يلبس زيك يا هانم فاهمة يابت ؟!

أبي كان فلاحًا أميًا لكنه شعلة ذكاء يحسب عدد حزم البرسيم طولاً وعرضًا ويناديني:

- يا بت يا راوية تعرفي تحسبي الحسبة دي ؟!

كنت صغيرة في الصف الرابع الابتدائي، ولا أحد من أخواتي البنات الثلاث تعلّم غيري، ينهرني:

- يا بنت الكلب يخرب بيت دا علام !

في حرب اليمن أخذوه في الجيش متطوعًا، ورجع بأعجوبة لأنه كان شهمًا وبطلًا و أيضًا وسيمًا، طول بعرض وجريء ، شجاع، وعيناه بلون العسل الشهي الفاتح تلمعان من الذكاء والتوقد والعافية والنضارة، ومهما ذبح لا دم يغرق ملابسه ولا رائحة زفارة تشمئز منها، يغتسل مع كل ذبيحة أكثر من مرة حتى تزول روائحها، عاد بعد الحرب من اليمن بنقود كثيرة، أعطوه حقيبة مليئة بالنقود ورزم السجائر الأمريكاني الأصلي المستوردة يوزعها بالواحدة ويحيي بها جيرانه وأحبابه، اشترى محل جزارة وبيتاً كبيراً وأربعة أفدنة بعد قانون الإصلاح الزراعي، حتى زادت الأرض وعم الخير والرزق الواسع، أيضا الجيش رقاه لغفير في البلد ولبس البدلة والطربوش مثل الموظفين الميري وأمسك البندقية وأصبح "آخر تهيئة وألاجة"..

تضحك قائلة بتفكه: يوم رجع أبي من حرب اليمن لم يكن لدينا كهرباء، كنا نستخدم اللمبات الجاز، ومن كثرة ما جاءنا من زائرين يقبلونه، ويحتضنونه لسلامة رجوعه من الحرب التي مات فيها أغلب الذين ذهبوا من البلدة، تلك الحرب التي جعلت كل ضابط، بل كل فقير، يحلم بالجنيهات الإسترليني والسجائر الأمريكاني، وهو ذاهب إلى اليمن، المهم اللمبة انطفأت فجأة فخطف منه عمي الحقيبة ودخل الغرفة وقفل على نفسه الباب، وهو يضحك خبّأ حقيبة النقود بينما أبي كان سيجن.

أيضا أبي كان يعشق أمي، وكنت أسأل نفسي كل يوم :لماذا أمي على الدوام حلوة هكذا ؟ والكحل الحامي في عينيها كل يوم صباحًا بعد الاستحمام لا يفارقها ولا تفارقه كالعاشقين، حتى يوم مرضها كانت تطلب مني زجاجة الكحل وعود الكبريت الحامي وتضع "الأورطة" أم حلقة ذهب على شعرها المخضب بالحناء الحمراء بعد ظهور الشيب به وتقول لي:

- لازم أبوكي يشوفني حلوة على طول يا راوية حتى وأنا عيانة وباموت.

الله يرحمك يا أمي أنت وأبي رحمة الغائبين والحاضرين في الجنة مباركين بعشقكما دومًا في الدنيا وفي الآخرة، كنت الابنة النموذجية والمثالية حبيبة الأم الأولى رغم وجود أخواتي وأخويّ ونظرات الحسد منهم تزيدني غرورًا وتعاليًا. لكن يا أمي عفوًا لم أعلم يومًا ما هو الرفض؟ كنت أنظر إلى السماء،

والشمس والقمر و أقول : أنت كل هؤلاء بل أنت أعظم جمالًا و أبهى حضورًا منهم جميعًا، لم أعترض يومًا، قلبي مفتوح لك بسعة تلك السماء، هكذا كنت لي يا أمي؛ كنت سيدتي؛ و أنا جاريتك وفخرت بطاعتي، ولقب الابنة البارة في طاعة ورضا والديها على السواء، ما أخفيت عنك أي شيء، حتى أحلامي، أحكيها لتفسريها لي، لم أتذكر يومًا أن تلفّظ لساني لك أو حتى لنفسي عن رجل أحبه أو حتى تمنيته غير ما تختارينه وتشيرين به عليَّ، رجل غير كل الرجال، رجل لا أعرفه ولا أعرف من أين يأتي، لكنه مثل أبي الذي أذاقك جنة العشق، رجل يعشقني ويضاجعني ويختلب جسدي رياحًا تمزق هالات جسدي البض، بتأوهاتي في ليل مخملي بورد الأحلام و أنا أدخل دنياي الجديدة وهو يفعل هذا من أجلي، ولأكون مسرورة للغاية، وهو يضاجع ضحكاتي، ويمزج صراخي بإكسير الحياة، وكلما ارتج جسده امتص روحي و أنوثتي النابضة بالرغبة ودهشة الاكتشاف الأولى للعذراوات المختبئة وراء ستار التوجس والحشمة المدللة، والطاعة العمياء التي باتت قيدًا عليّ، لكن يبدو يا أمي أن اختيارك جاء خاطئًا رغم سعة صدرك و ابتسامتك الطيبة لكل عابر، فأنا أكره الشندويلي، هو رجل لا أعرفه ولا يعرفني بالمرة ، اعذريني هذه المرة الأولى وأظن أنها الأخيرة التي أعترض فيها وأرفض فيها مشورتك بالزواج من هذا البغل، لكن أشد ما يؤسفني فعلًا أنها يا أمي المرة الأخيرة، لأنك رحلت عن حياتي،

ولم يعد لي سماء أو شمس أو قمر وقد غابت طلتك و ابتسامتك ورحابة قلبك التي أخطأت في تلك المرة فقط معي.. أظن ذلك يا أمي.

يعود صوت الطفلة ناريمان التي كانتها وغادرتها دون رجعة بصيحاتها العفوية وبراءتها التي شاخت وفترت، وتمسخت حتى تطايرت كالغبار مع الهواء وكأن شيئًا لم يكن ناريمان، ولقبها الشقي المحبوب لها "كاستيلا" العفريتة.

- أمي.... أمي مش بتردي ليه؟

تصرخ ناريمان وفمها به نصف بيضة مسلوقة، تتناسب مع بقية ملامح الوجه التفاحي المستدير، استدارة ملامح ساكنة بعيونه العسلية، كقمر باهت عالق بنظراته التائهة، وسكونه تخترقه روح شاردة، وقد ملت ليالي السهد والتفكير، مع البحث والتطلع، تحوطه هالة من الشعر الأشقر المسترسل يتجاوز أذنها المفلطحة بشكل ملفت، التي تجعلها تخشى أن تعقص شعرها بذيل حصان أو في ضفائر، حتى لا يعايرها الأخريات، وأخواتها حيث يطلقون عليها(أبوقردان)، وهن يعايرنها بالأذن المفلطحة، لكن ناريمان كانت تغيظهم وتجعل جدتها تشكل لها ضفيرتين ذهبيتين تلمعان مع ضوء الشمس وتسير بهما تخيلاً ومباهاة رغم أذنيّ أبي قردان، تتعاجب بهما علنًا أمامًا وخلفًا مع كل حركاتها المتعمدة للتحايل على أذنيها المفلطحتين والتفاخر بهما رغم أنفهن وضحكاتهن جميعهن.

تقول بحدة:

- ماما... ما تنسيش تزودي المصروف.

ترد الأم بسخرية:

- ليه إن شاء الله مش كفاية عليكي باكو شيكولاتة، ولا حضرتك عايزة حاجة زيادة مع الشيكولاتة؟

تشتعل روح الطفلة، ويحمر وجهها، لتثور غضبًا تبعثر معه مقدمة خصلات شعرها التي تتشبه بها بقصة الفنانة المعجزة فيروز، وقد وقفت زمنًا تدعكها بالزيت مرة والفازلين مرة حتى تنسال على جبهتها ولا تتطاير أو تنزاح بسهولة، لكن الغضب تملك روحها، بل وألقت بحقيبة المدرسة على الأرض و اقتربت بحركة لا إرادية من وجه أمها ترفع سبابتها تتوعد قائلة:

- أمي لا تسخري مني.... أحسن والله ما أروح المدرسة.

- أنا لا أسخر...

فجأة جذبتها الأم من إحدى ضفائرها، ثم أمسكت بإحدى أذنيها بإحكام دون حدة. وقالت بحزم:

- اسمعي أنا لن أعطي مصروفًا زيادة. أنا أربيك وأعلمك وأوكلك شيكولاتة، اختاري المدرسة أو الشيكولاتة سامعة يا نونو.

عالجت الأم الكلمة الأخيرة بنصف ضحكة، تنم عن توتر يسعى إلى الهدوء، والتراجع عن إشعال الأمر الذي ما لبث أن ظهر على وجه نونو دلع ناريمان ما يزيد من بياضها الناصع ذي الجذور

التركية من سلالة الجدة أم الأب وينفتح منخارها كديك رومي يتأهب لتمزيق أي ثوب أحمر اللون، عجيب أمر هذا الطير.. يختار من يعاديه ويهاجمه، حتى لو كان ذلك اللون المتحرش به، ازدادت نونو هياجًا فبدت كالحمقاء قائلة وهي تهرع سريعًا من أمام وجه الأم الحاسم ردًا وفعلًا، وقد جرّت الحقيبة جرًّا صارخة:

- حاضر يا أمي... لا أريد شيئًا. يا رب أموت أنا والشيكولاتة.

ضحكت الأم سهوًا واستهتارًا تحت وطأة ذلك الإدمان الطفولي للشيكولاتة الذي تحول الآن للنقيض تمامًا؛ فمجرد قطعة صغيرة تؤلم أسنانها وكان العراك مع أمها وأختها "نسرين نكد" عراك الحياة والموت على الشيكولاتة... يا ليته استمر عراك الشيكولاتة... ليته استمر يا ناريمان ولم تدخلي عراكات الحياة التي هي أشد عراكًا.

فجأة همدت روح الأم كمن يسحب روحها وشعرت بتوجس أن عينًا ما تنظر إليها فالتفتت وراءها، فالتقت نظرا بوجهها في مرآة البوفية الضخمة المربعة التي تأخذ مساحة كاملة من أحد حوائط الصالة، إلا أنها ناشدتها برجاء ألا تنظر إليها تلك القابعة فيها تنهرها : ابتعدي عني أيتها النظرات الصارمة اللائمة ابتعدي عني؛ لأني أغترب عن نفسي لدرجة الجنون، وأنا أرى شبحًا يرتديني ويسقيني سموم الحياة جرعة بعد جرعة، وكلما

دققت في نظراتك القوية أتمنى ألا تُبرزي بكل أسى تجاعيد جبيني العريض، لعلك لا تدركين بأن تجاعيد ذلك الجبين المخضر هي أشبه بصخور يابسة تخربشت كتمثال منحوت، وروحي تتدلى منه كسمكة سهلة الصيد في شباك اليأس والحزن، تفوهت الأم أخيرًا تهذي قائلة لنفسها باستنكار وهلع:

- ما هذا يا ويلي ما هذا الذي ينسج خيوطه حولي، أهو نذير الشيخوخة أم ماذا يكون؟.. أجيبيني أيتها النظرات القابعة أمامي بكل تعالٍ.

هبطت الطفلة كاستيلا إلى درج الدور الأول جيئة وذهابًا هامسة لنفسها:

- اتأخر.. اتأخر قوي.

وتهم صعودًا حتى تسمع فجأة صرير الباب الحديدي فتقول بلهفة:

- هو.. هو جاء.

إلا أنها تتراجع، وتتعثر حركات جسدها الصغير بين الهبوط والصعود من القلق عن تأخر أخيها محمد ناصر، هذا الاسم العملاق المضمون والمسمى لدى عائلة آل مصباح، الابن الوحيد على ست بنات. وبين أن ترهف السمع لصوت أبيها الجهوري أو نداء أمها المفاجئ في غير وقته بالمرة، تهتز ضفائرها أمامًا وخلفًا، فمع هذا الدوران الضفائري تدور الطفلة كاستيلا العفريتة بوجه باسم، ضاحك للغرباء، فما بالك بالأقرباء ؟!

فهي في كل مرة مثيرة، حيوية، سعيدة للغاية كالسندريلا لأنها ترتدي فستانًا قصيرًا فوق ركبتين رفيعتين، كعصا أبيها القوية التي طالما نالت من قسوتها، مشدودًات على خصرها النحيف بنصف أكمام أو دون، يتضح منه بياض ناصع وتزينه مشابك رأس عند حافة كل ضفيرة وعند مقدمة الرأس بذات نفس لون الفستان ، فتبدو في النهار كابنة الشمس العفية، تتلألأ مع أشعتها الذهبية، فتطفو ألوان ذهبية على خصلات الشعر الشقراء، فتكون أقرب لجمال بنات المنصورة كما أخبرها الكثيرون، أكثر منه طفلة من الصعيد أو الفلاحات السمراوات أو الخمريات الكحيلات بعيونهن السوداء الداكنة في السواد أو البني الغامق، أما في الليل فناريمان كائن آخر، فنجدها تبكي بحرارة، جوف ملتهب من حسرة ما، ثم حين تخضع لقراءة الكلمات تحت الضوء الخافت، حينما تتحدى قانون ميعاد النوم بإغلاق جميع أنوار منزل الرعب غير بقايا أنوار خافتة في بهو الدور الأول، ومدخل كل شقة من خلال الأنوار "السهاري"، وعند مدخل الحمامين والصالة وداخل حجرات البنات وجدتها ماعدا حجرة أمها و أبيها، وتضحك خبثًا تتساءل : لماذا هذه الحجرة بالذات ليس بها أي إضاءة مثل الأخريات ؟.. تحاول أن تقرأ ما استطاعت أن تحصل عليه من أخيها محمد ناصر لتملأ مخيلتها الطفولية والبدائية بعد، وهي تنبش عن معنى ومكمن الأشياء والحاجات الأولى في حياة الطفولة البريئة؛ ذاهبة إلى

شريان الحياة المتدفق حتى تستسلم للنعاس أو تتسلل بخفة وهدوء إلى حجرة الجدة التي تتغاضى عن شقاوتها، ولن تخبر والديها بأي شيء وهي تحتضن جسدها الضخم الدافئ لتستمد الدفء والطمأنينة بعد حرمانها منه منذ ولادتها من حنان وأحضان أمها، بل حتى أن ترضع من ثدييها كحق أي طفل طبيعي ومرحب به، ولهذا حكاية أخرى سيكون لنا حديث عنها في وقت لاحق من هموم الطفلة كاستيلا.

تعود لتخطو على مقربة من الدور الرابع بخطى وئيدة، حذرة، تتجنب بها حتى رنة إبرة تجلب سقوطها آذان الآمر الناهي الشندويلي ، كعصفور يبحث عن عشه، ويخشى عليه من نعيق غراب، ارتجفت لحضور أخيها محمد ناصر، خائفة حتى من النحنحة وقد تحول همسها إلى رعشات اهتزت لها أعطافه وهي تقول:

- دخل حجرته لينام.

وثبت إليه تقبله، وهو مستند على الحائط غير عابئ بها، يشهق ويزفر في أنفاس متلاحقة، فتسعفه بأخذ الكتب قبل أن تسقط حتى لا يجلب صوتها المثل الشائع "ماشافوهمش وهما بيسرقوا شافوهم وهما بيوقعوا الكتب".

نظرت إليه نظرة طويلة ممتلئة بالوحشة والحنين وهي تعطيه البيجامة الكاروهات التي تحبها لأن لديها واحدة مثلها تُذكرها بأخيها ثم قالت بابتسامة:

- وحشتني قوي... اتأخرت ليه، حصل حاجة لأصحابك المهفوفين ولا أقولك شلة المرايا... أحسن تزعل مني.

- فين الأكل يا نونو؟!

بقفزة بهلوانية، تسحب الطعام بحذر من تحت السرير، حيث أن ميعاد الغذاء فات، فوسيلتها الوحيدة للحفاظ على نصيب الأخ وإن كان باردًا فاقدًا نصف مذاقه الأجمل وهو ساخن لا يهم، نصف العمى ولا العمى كله، تركته يأكل بنهم ، وهوت تتصفح في كتاب كان من عدة كتب أحضرها معه كالعادة وملازمة لهم جريدة الأهالي، مجلة أدب ونقد، كتاب الفن والمجتمع (لأرنولد هاوزر) إلى أن لفت نظرها كتاب لونه أصفر ضخم متهالك الحواف اسمه "الثورة المضادة" .نظرت إليه نظرة حاسدة بريئة ونفسها تتساءل : كيف كتب هذا الكاتب كل هذه الصفحات ؟ مالت بوجهها فطالت إحدى ضفائرها وقصرت الأخرى، وهي تفتح الكتاب على صفحة بها ورقة أشبه برسالة تم إلحاقها برد خاص لكاتب الرسالة.

الرفيقة العزيزة هالة شلبي.

تحية طيبة وبعد:

أرجو منك أن تعطي كتاب الثورة الدائمة لتروتسكي للرفيق محمد ناصر لأني أحتاج إليه... وإن كنت لم تقرئيه، أرسليه وسأرده إليك بسرعة.. ولك الشكر، أتمنى أن أسمع أخبارك حتى ولو عن طريق التليفون.. إلى اللقاء..

الرفيق يحيى
والرد خلف الورقة:
أعطيت الكتاب فعلًا لمحمد ناصر، أنا بالفعل لم أقرأه بعد، لذلك أرجو بعد أن تقرأه مباشرة أعطِه لمحمد ناصر كي يرجعه لي... حتى ألقاك.. كما أرجو منك أن تبحث لي عن الكتب التالية للضرورة:

١) مجموعة رشق السكين لمحمد المخزنجي.
٢) ديوان المسحراتي لفؤاد حداد.
٣) أيام الإنسان السبعة – أو طرف خبر الآخرة عبد الحكيم قاسم.

ولك جزيل الشكر.
ملحوظة: سأتصل بك يوم الخميس الجاي من ٤-٥ حتى تكون في البيت فإلى اللقاء.
الرفيقة هالة شلبي
جذب منها محمد ناصر الكتاب، وهي تنقب عن تساؤلات كثيرة، أدهشته نمنمة أظافرها داخل الكتاب، تبحث عن كلمة تفهمها أو جملة تخصها ولكن أين لها هذا ؟ فهي ما زالت صغيرة، لاتعرف كيف ومتى اكتمل هذا الكتاب الثمين.. تاهت واحتارت حيرة كادت بها تختفي وتدلف في رمال متحركة للإجابة عن أسئلتها العفوية.

- الشاي يا كاستيلا.

أصابها النداء المحبوب لها ببهجة شديدة، راغبة في أن تفوز منه بقبلة، وباكو الشيكولاتة، والذي يخرجه فجأة كساحر في وقت يختاره هو، حينما يتثاءب محمد ناصر تعبًا وإرهاقًا استعدادًا لقيلولة تطفئ النورودون استئذان منه تدفس جسدها الصغير في جسده النحيل، تتململ شيئًا فشيئًا من دخان سجائره الذي ينسج خيوطًا بسحب أنفاسه تغلق عينيها، تمردًا، تشعر بدقات قلبه تهبط وتصعد، ذهنه مشغول بالأفكار وأموره الشخصية، والتي يخفيها عن الجميع، فترى الأفكار دوائر تعبث مع دخان سجائره كغلالة شفافة مارقة في أنحاء الحجرة كدوائر معلقة تتدلى من حبال الانتظار واليأس، فتكاد تفتك بأعصابه الحطام من التركيز المستمر في أمر من يعشقها ويتملكه شعور قاس بالإحباط والخوف من فقدها، فيرتج جسده بغرابة، يبدو للطفلة كاستيلا شيئًا عرضيًا ، وهو يجذبها لحضنه كمرفأ يواجه به أعاصير رياح أطاحت بكيانه كاملًا، وناريمان تحكي حدوتتها المفضلة عن أسرارٍ عديدة لعائلة آل مصباح كمن يخطب على منبر الحياة العجيبة:

- قال إيه محمد ناصر الثورجي، الواد الأبيضاني أبو نضارة، مجرد برستيج يكمل الهيئة الجادة للواد الأبيضاني الثورجي الوسيم الملامح، اللي ما بيقعدش على قهوة مع رفقائه إلا ويقول تحالف قوى الشعب، استقلال الشعب، ديكتاتورية البروليتاريا، لغاية ما ينام على قصيدة لصاحبه الفنان

الشاعر، قصيدة تعلن عن تصريح ناري أن الفجر بيأذن والحرية جاية جاية يا رفاق لا محال لا مناص منها.. مهما سجنتوا وعذبتوا ونهبتوا، بينما على يمينك يا ثورجي صديقتك ورفيقتك في النضال المدعي تناشدها:

- رفيقتي العزيزة في النضال والحب امنحيني عقلك وقلبك وروحك؛ كي أمضي في طريقي بقوة العشق والوله والإيمان، بكل أفكارنا عن مسار الحرية، لن أقبل نصف الحالة يا حبيبتي، مسكين أيها الثورجي، أخي محمد ناصر، كم من الويلات تنتظرك، أنت أيها الشخص الجميل الطلعة، المسالم للغاية، كم أحببتك وظللت أحبك وأتذكرك رغم الفراق والهروب عني بعيدًا بعيدًا، وأنا أحتضن وأذوب داخل جسدك الأملس، الخالي من أي خشونة شعيرات الرجولة التي كان يعايرك بها السيد الكبير تحت ادعاءات نقص معايير الذكورة من وجهة نظره، أنت لمستي الأولى، أنتظرك في كل شروداتي الكئيبة وأنا أمارس قسوة الوحدة وتحقيق الأمنيات، ومهما هلكت نفسي الشقية داخل هذا أو ذاك، فلمساتهم جميعًا لا تشفي غليلي، لا تملأ رمقي الروحي، لأن ببساطة كل هذه الأداءات، تفتقد قلب الزيتونة الطازجة والشهية، لمساتك الحنونة واحتضانك الطاهر والبريء من كل حسابات البشر، إنها المحبة والذكريات التي بيننا لا غير، والتي تكمن في أغوار روحي وجسدي كنقوش محفورة في عمقي لن تزول إلا بموتي

وتحلل جسدي وفتاتي في فم الدود ، ولأن الحب في عرف عائلة آل مصباح جريمة وعار لا يُمحى ولا يُغتفر لمرتكبه فقدتك وفقدت نفسي إلى الأبد، مع هروبك مع حبيبتك وعشيقتك ورفيقة النضال في الحزب و اتحاد الجامعة، وكل شيء للعلاج من نتوءات الحريق المتفرقة في جسدك والزواج والارتباط للأبد بابنة إلياس النصرانية التي لها أقرباء في أمريكا، فرَّق بينكما الدين في وطني، ولم يفرق بينكما الحب والعشق.. نعم يا محمد ناصر لا تنكر ذلك أخذتك مني العاشقة النصرانية وحرمتني من حضنك الواسع، وقبلتك الصباحية التي كانت تجعل أيامي تسير سير الوئام والتلاقي والسعادة مع روحي المهمومة حتى و أنا أدفس رأسي في صدرك المنخور بجروح يخشاها كل من يراها، ويستغفر الله ليخفي اشمئزازه من رؤية الظاهر من أجزاء متفرقة شوهتها النيران اللعينة مثل الرقبة، كف اليدين والقدمين لتتلقى كلمات الشفقة يا ناصروليس محمد ناصر.

- يا عيني يا بني... دا إنت شايل كتير... ربنا يشفيك ويزيح عنك.

- أي والله... ربنا يعافيك يا ابني علشان خاطر شبابك.

رغم كل التأوهات والحسرة والشفقة، عشقت الطفلة كاستيلا هذا الصدر، وهي تلمسه بكل شجاعة وجرأة وتتحسس جروحه ليهدأ باله المنهك بكفي يديها الصغيرتين، والتي امتنعت عن فعل أي شيء، غير أن تمسح وتحك فيهما روحة وذهابًا في حركات

دائرية لتختصر جروحه، وتأمرها أن تسكن بعيدًا عن كهف الألم، وإن استطاعت أن تلتهم كل جروحه كالترياق المسموم وتبصقه دماءً حتى تنقيه من سموم الألم المشتعلة لفعلت بكل قوة وحماس، ثم تسقيه بعضًا من العصائر لتطفئ ظمأه، وجفاف الحلق من جراء تناوله الأدوية الكثيرة، وهو كالدمية بين ملمس أصابعها التي تنشل قطنًا وماءً باردًا به قطع مكعبات ثلجية تدعك اللحم البارز من جسد لحمه الملتهب بعد أن طالته النيران فبدا كلحم نيء لم ينضج بعد مائل إلى الاحمرار، سببه قراره الطائش وعراك واختلاف دومًا مع السيد الكبير، الذي لا يراه ابنًا مناسبًا بتاتًا له، بعد قرار أرعن من السيد الكبير بزواج التفاحة الأولى من ابن عمتها فور أن جاءته وشاية من مخبر العائلة حنفي بطة الذي أخبره، وأوصاه بملاحقة سلوك البنات بل حتى الابن الوحيد محمد ناصر، لم يسلم من التقارير اليومية التي تذهب للشندويلي شفهيًا، يتغاضى عن بعضها، بأخذ أوامر وهم يتناولون الغذاء في الوقت الذي حدده، هذا الموعد الإلزامي الذي يتقابل فيه رب الأسرة مع سلة التفاح وقد هرب محمد ناصر من هذا الموعد لأنه مشغول في الجامعة ولا يستطيع الحضور، وبعد دخول التفاحة الأولى والثانية الجامعة فزن به، والبقية مرغمون ومضطرون صمتًا للطعام وسماع الأوامر الجديدة والمحظورات من أشياء لاحظها الشندويلي مع بقاء دوام الجدة سكينة والأم، تفجرت المشادة حين علم أن

التفاحة الأولى على علاقة وتعارف ومقابلات مع أحد أصدقاء الأخ، في كلية الإعلام، جامعة القاهرة، حتى لفتت الأنظار ووصلت رائحتها إليه، في مدينة بني سويف رغم بعد المسافة، عن طريق المخبر الشرس، والذي يحيط ويجوب كل مكان وينعق كالغراب على ضحاياه.في ليالي المرض الحالكة الطويلة أحيانا ما تنهار ناريمان وتتساءل في حيرة وحزن تهمهم لنفسها المعذبة:

- هل هذا كان قرارًا سهلًا لهذه الدرجة يا أخي أن تفعله؟ أن تشعل النيران في جسدك، ماذا أوعزت لك المخيلة الطائشة؟ ربما أن تثبت أنك مازلت ابن عائلتك الهمام القوي رغم اعتراف الشندويلي وكل كبار العائلة أنها لا ترى فيك أي وجاهة أو سلطة بمسالمتك وطيبتك وانكفائك على كتبك، مع أصدقاء حزب التجمع الوحدوي التقدمي فرع بني سويف، في جلسات المقاهي جاء المناضل وذهب المناضل، وفي سريرتهم المخبوءة يتلمظون بسخرية وتبرم :ابن السيد الكبير حسن عبد الرحيم الشندويلي محمد مصباح شيوعي:

- تصور"الدنيا ياما هاتورينا وتعمل فينا عشنا وشفنا".

ربما كانت نظرات المكايدة والمعايرة من الشندويلي ووجهة نظر العائلة لك بقلة القيمة وتفاهة وجودك، هي دافعك الأهوج لطيشك الذي حدث، رغم أنك الابن الوحيد لحسن الشندويلي على ست بنات، كل هذا ما أسقطك في حسابات اللوم والعتاب ولفت الأنظار.

لا شك ياأخي كانت الفعلة شائنة وحمقاء بينما أنت تراها في وقتها تعبيرًا عن قهرك وكمدك منهم جميعاً، ولكن كيف كيف؟ يا أخي تحالفت مع شيطان النيران وكان هذا القرار الأهوج، ماذا كنت تريد أن تثبت للشندويلي ؟ لأبيك المتعجرف والقاسي عليك وعلى كل أفراد أسرته تحت صلف اسم العائلة المزعوم، ما وجه الشهامة والتمرد الذي استحضره خيالك والنيران تأكل جسدك وروحك... على العموم يا أخي لست بأي حال وسط آلامك ونزفك المحزن تستطيع أن ترد على تساؤلاتي، ما حدث كان وبقيت آثاره تؤكد رعونتك العمياء بل وببعض التظاهر لحبك لي أبصرك ضاحكًا، متفائلًا قائلًا لي:

- لا تقلقي يا نونو سيمر كل شيء مع الصبر والزمن.. هدئي من روعك طفلتي كاستيلا، وتشير لي أن تنثني يداي إلى نتوءات الجروح في صدرك وبطنك.

ترتعش يد كاستيلا الصغير، ويصدر عنها آهة عميقة ورهيبة فيبدو كنداء الحب والعزاء، وهي تبذل جهدًا فوق احتمال البشر لتتصالح مع التوجع المكتوم الذي تشعر به، وألم رؤية العينين الذابلتين من عذابات لهب النيران في الجسد والعقل والروح ، وقد شحب لون محمد ناصر ذابلًا منهكًا، وهي تهدهد بشجن كل هذا بدموع منهمرة صامتة ساخنة تعاند بها توهج تلك النيران اللعينة وقد انمحت ملامح الطفلة البسيطة التي كانتها قبل قليل، وكبرت فجأة عدة سنوات، ليرتسم على وجهها تكشيرة

حزينة وعصبية من جراء تلمس وحك النتوءات البارزة في جسده، وحينما تشعر بالتعب، وتراخي أعصاب كفي يديها، وتململ من الحركات الدائبة والدائمة، ترقد بجانبه جسدًا هزيلًا، صدرها يشهق صاعًدا وهابطًا من نهدين صغيرين، لا يعرفان التأرجح بعد فوق إليتها التي تشبه عروسة بلاستيكية، تجهل حسابات الزمن العسير البعيد على إدراكها في ذاك الوقت، وهي تسير بحذائها الضاحك والباكي، ليحاكي براءة طفولية تخربشت بكارتها وعفويتها بجروح أشبه بجروح أخيها العنتري، وتأتيها غيبوبة من هول ما يحدث بتوجع وذهول حتى يبدوان كتمثالين حجريين، لكن الأكيد أن ما حدث سيبقى محفورًا في ذاكرتهما إلى الأبد، وسيذكرانه كحادث عاصف كما لون غمامة من الكآبة تنسدل على عيني ذكرياتهما تتخللها صور متقطعة للمسات نونو البلسمية لعذاباته التي يعانيها بسبب عجزه عن تغيير ما حدث ومحوه من الذاكرة المفجوعة ، لكن ربما في أفضل الأحوال سيحاولان تجاوز التعاسة لا غير وحين يتألم محمد ناصر من احتكاك ما يرتديه بأجزاء اللحم الزائد من معيار الجسد الطبيعي تدقق نونو النظر، وهو يحك بيده تلك النتوءات الغائرة بعصبية ودون إرادة من خلال قميصه أو بيجامته التي بهت لونها الحقيقي من إنزيمات يفرزها الجسد المتورم كخفاش استقر في بدنه ولن يخرج بسهولة، تدرك الطفلة كاستيلا أنه يبكي بحرارة الحسرة والندم من لذته الملوثة

بالهرش اللاإرادي كمنشار ينشر أجزاءه، حتى يعاند هذا الحرقان الملعون فتستحيل أعصابه حطامًا وهي تكرر مقولتها العابثة وتتفوه باسمه المركب ناقصًا:

- تحمل.. تحمل يا ناصر... ربنا معك.

لكن ناصر يغرز أظافره أكثر بتعمد، وتختلط بقطرات دم تفتق عنوة هرشه وحكه المستمر، تمسك نونو يده بقوة، تحاول بها أن تقاوم سرية الآلام التي تعيشها معه بوهن حتى تقول بعصبية وحدة:

- لأ يا محمد لأ يا ناصر حرام عليك نفسك،نَمْ نَمْ و أنا أدعك لك جسمك بقطن وماء ساقع.

حيث أنت مسترخ، ومستسلم لرغبة النوم العصية، وكل اللحظات التي تمر عليك من استقبال صدمات كهربائية مروعة متوالية، تنشل نونو القطن من جردل صغير، به قطع ثلجية مكعبات، من مقتنياتها الطفولية كانت تصحبها في رحلات المصايف مع العائلة، وأمام رؤيتها بفرح وسعادة للبحر الواسع الأزرق الجميل، تجلس على الرمال، تملأ وتفرغ الجردل الصغير بالرمل، وتبني قلاعًا، وبيوتًا وأحلامًا داخل عالمها الخاص على شاطئ بحرها المغرمة به، وتهفو وتشتاق إليه بحنين لا ينتهي، فلا يوجد مثله في مدينتها الصغيرة، رغم أنهم اعتباطًا يطلقون على مجرى النيل البحر، ويوجد شارع باسم شارع البحر خطأ، وكلما غاب البحر الحقيقي عن نظرها لفترات طويلة، تنظر إلى الجردل

الصغير، وتتخيل أمواج البحر الهادرة وهي تهدم القلاع والأحلام المستوحاة من الرمال. وماؤه يسويها أرضًا، بل وتدوسها أقدام المصطافين بكل قسوة، فتصرخ نونو غضبًا وتبكي، ثم تنشط بإصرار لتعيد الكرة مرة ثانية وثالثة، بعد ذلك بدهاء طفولي، تحضر المقص لتقص أظافره التي في لحظات شرسة تتحول إلى جني مارد لا يرحم من أجل تمزيق هذا اللحم وهو يهيم على وجهه شاحبًا وهزيلًا في ليالي الأرق، ونهارات المذلة والكآبة تسكره على مضض، والقطن المبلول المثلج يهدئ من وجل الرغبة الهستيرية في الهرش والحك دومًا، حينئذ يصير هاجس المأساة لديها لا يطاق وهي ترجوه بنظرات مختلة قائلة:

- لا تيأس يا ناصر لا تيأس يا محمد، أنا نونو أنا الطفلة كاستيلا.

- لا أحتمل أن أراك هكذا، فأنا ما زلت بعد صغيرة أن أتحمل قسوة كل هذا الأمر، فلتشفق عليَّ، ولا تدخل غياب التائهين بمحنة المرض والألم المزمن الدامي، لا تغب عني غياب ثدي أمي منذ أن ولدت، بل أنا فقدتها و أنا بعد نطفة لم تختر وجودها أو بعثها إلى الحياة.

رغم أن نونو طوال طفولتها كانت مغمورة بإطراءات الناس وهم يثنون على جمالها ولطفها، وبعض أصدقاء أبيها كانوا يجلسونها على ركبهم ويقبلون وجنتيها ضاغطين بقوة، مطيلين التقبيل، كانت نونو مغتبطة بذلك الاحتفاء، ولا تنفر من خشونة شعر

لحاهم أو شواربهم، وإن لم تكن تفطن بعد إلى نفحات اشتهاءاتهم المستترة عبر القبلات، واحتضانها ومداعباتها لوخز قطارهم لها سهوًا أو قصدًا ، رغم كل هذا لم تنس يومًا مأساة ولادتها، حيث كانت ناريمان الشاويش رقم ستة وأخر العنقود، الذي كان الأمل الأخير فيه، لتنجب أمها الولد الذكر حامل اسم العائلة من صلب الشندويلي، بعد أن فقد هذا في محمد ناصر الذي كان من الزوجة الأولى اختيار أبيه، التي لم تستطع تحمل نزقه وطيشه ولسانه السليط، وعصبيته الزائدة، دمه حار وفائر على أتفه الأسباب كالتوابل الحارقة، ففرت هاربة إلى أهلها في مركز الواسطى التابعة لمحافظة بني سويف وتزوجت بآخر من الوجه البحري، تركت البلد نهائيًا، لتمحو كل أثر لها مع الزوج الأول، وسافرت لتعيش مع زوجها الجديد، فقد كان الابن البكري لتاجر موبيليا ثري في محافظة دمياط؛ حتى تقطع أي أواصر لعشرة الشندويلي المرة التي لم تطقها أكثر من أربعة شهور وطلقت، بينما أم التفاحات الست تحملت أكثر من أربعين عاماً، مثل شعب مصر البائس، المقهور، تحمل حقبة ثلاثة حكام وقد عاش شبابه وطموحه وآماله في كنف الحاكم الأول وهزاله وترنحه لمدة أربعين عامًا مع الحاكمين الآخرين أربعين عامًا من الذل، والفساد والانسحاق المزري لكل آدمية أي مواطن فقير وغلبان وتعيس مثل الأم،والآخرين والأخريات، يالا... بطولتك وشجاعتك أيتها الأم المصرية التعسة الحظ من

يوم أن حكم عليك القدر أن تكوني من هذا الشعب وتلك البلد المنكوبة في تاريخها.

بعد أن تركت زوجة الشندويلي الأولى طفلها الرضيع خلاصًا وكرهًا من عشرته، والتي لا تطاق مثل وجه الجحيم، طلقها فورًا منتزعًا منها محمد ناصر، حتى رؤيته بعد أن باع ما بقي من الأرض، ليشيد بناء منزل الرعب ٢١ في مدينة بني سويف، وترك قريته بني أحمد التابعة لمركز ببا بمحافظة بني سويف خاصة أنه أتم دبلوم البريد، وجاء تعيينه في البوسطة العمومية في شارع عبد السلام عارف في مدينة بني سويف، ورشح له أحد أصدقائه في البوسطة، الأم الحاصلة على دبلوم المعلمات وتعمل مُدرسة للمرحلة الابتدائية في مدرسة الدواوين عند قلب محطة السكة الحديد في المدينة، وتقطن مع أهلها في شارع كبير متفرع من حي منطقة بني سويف الجديدة يسمى الجيار، وتلعب الصدفة في أن تختار الجدة سكينة الأرض الجديدة أيضًا في شارع الجيار تحت رقم منزل ٢١ بينما منزل عائلة أم التفاحات رقم ٣١ على امتداد شارع الجيار حيث منزل السيد الكبير في أول شارع الجيار وآخره الرقم الآخر، تظلل بدايته شجرة كافور عتيقة وله امتداد تسلك من خلال فتحاته على حي الجزيرة المرتفعة وعبد السلام عارف والأباصيري وفتحة أخرى على شارع الكنيسة الكبيرة أكبر كنيسة في المدينة في حي مقبل الشهير بسكنى أغلبهم مسيحيون ثم تدلف منه إلى شارع البحر، ثم

شارع المحطة الشهير وشارع الخضار والرياضي. كانت ناريمان تسكن في وسط بؤرة تقودها إلى قلب المدينة بين انثناءاته ودهاليزه التي تعرفها جيدًا بكل يسر ورشاقة، ليشهد شارع الجيار في أوله رقم ٢١ وآخره ٣١ تاريخاً ممتداً للعائلة بين الأفراح والانكسارات والحوادث التي لا ينساها أفراد عائلة آل مصباح التي كانت تفكه وحديث الجميع بأعمال السيد الكبير حسن الشندويلي وأبنائه السبعة الذين ورثوا الجنون والتعجرف والتسلط والشطط في مواجهة حياتهم الوعرة على مدار حوالي خمسين عامًا منذ ولادة الابنة الكبرى الدكتورة نوال مصباح، وإن كان يسبقها المناضل محمد ناصر بعد هروبه الكبير إلى أمريكا مع عشيقته النصرانية بنت إلياس أبيها صاحب أشهر محلات الذهب في المحافظة كلها.

تروي كاستيلا العفريته مأساتها قائلة :

- تجسدت نطفتي في رحم أمي في بدء سبتمبر ١٩٧٠ وكان يومًا مشؤوما في حياة أمي ليس فقط لأن أبي توعد وهدد، إنها لو أنجبت بنتًا سادسة سيكون طلاقها وختام حياتها معه، بل أيضًا لأن الطبيب أخبرها أنها لن تنجب مرة أخرى، ومن الضروري إزالة للرحم لأن به ورماً خبيثاً ونزفاً متقطعاً ربما لا يثبت حتى هذا الحمل المنحوس، مضت أيام وليالٍ طوال لشهور الحمل، تدعو ربها، وترجو النجاة من إنجاب طفلة خشية تنفيذ الحكم عليها بالفشل والخيبة في إنجاب الذكر للسيد الكبير،

والذي يزجرها بنظرات التهديد، والتأنيب في كل لفتة، نعم لقد بكت أمي بكاءً موجعًا وعصبيًا لأنها ستفقد مكمن أنوثتها وتزيل الرحم بمجرد وضعها لهذا المولود إذا شاء له القدر أن يتم وسط هذا الحمل غير المستقر بالمرة، ومما زاد الطين بلة، و أفقد أمي النطق تقريبًا طوال فترة الحمل، والذي بخر كل قدرتها على تحمله إلى إخراجي كرهًا وبأمر الطبيب في اليوم الأول من الشهر التاسع دون إتمامه، أثناء حملي أيضا فجأة فقدت أمي النطق فعليًا عندما تلقت خبر وفاة الزعيم جمال عبد الناصر مع نهاية شهر أيلول الأسود فقد كانت تعشقه وتضع له صورة تذكارية في المحفظة مع عدة صور أخرى صغيرة ، وهي فتاة في الدبلوم ولأمها و أبيها وإخوتها وبناتها وهن رضيعات أو طفلات في مراحل عمرية مختلفة، في بدء الأمر عجبنا من بكائها المنتحب، والمتشنج من ذهول الصدمة، وتائهة عن أي تحكم في زمام أمر نفسها، وقد امتلأ بها حس المأساة الذي لا يطاق ولا يحتمل، وشعرنا بأن عينيها خابيتان وزائغتان كمن أصابته لوثة العته والخبل، و أنفاسها محبوسة وقد تحشرجت وكأن عائقًا يمنعه من المرور وهي لساعات تستجمع كل قواها لتخبرنا بما تشعر به كالبكم تصرخ دون جدوى وقد استخدمت يديها للإشارة، وأخيرًا سقطت غائبة عن الوعي، حتى تفهمنا أنها تعاني آلامًا مبرحة ولا تستطيع التعبير عن ذلك، وبعد إحضار الطبيب، أخبرنا أنها صدمة فجائية أفقدتها النطق مؤقتًا، وبالعلاج

والراحة التامة دون القيام بالأعمال المنزلية، ستعود إلى طبيعتها، حينئذ أدركت أن تاريخ ١٩٧٠/٩/١ هو بدء التعاسة في حياتي المخبوئة في رحم أمي إلى أن انبثقت إلى الحياة في ١٩٧٠/٤/١ هو تمام التعاسة في حياتي.

وتسترسل ناريمان قائلة:

- كانت الجذور لجدتي هانم العايقة أم أورطة بحلقة ذهبية، والكحل الساخن من محافظة المنيا، مركز مغاغة بينما عاشوا في قرية (إلا) التابعة لمركز ببا الذي يتبع محافظة بني سويف وجدي بطل حرب اليمن ، بجانب محل الجزارة عمل أيضًا تاجر خضار بعد رحيله إلى مدينة بني سويف، وأجر الأرض لابن عمه الفلاح في قريته يزرعها ويأخذ منه الخضار ومن آخرين، بعد أن اشترى دكانًا كبيرًا في شارع الرياضي، ومنزلاً في منطقة بني سويف الجديدة التي كانت في ذاك الوقت أرضاً زراعية ويمر من خلالها شق مائي يطلق عليه ترعة بني عطية وصولًا لمنطقة البحر التي بها أكبر اتساع لمجرى النيل جغرافيًا من شريط نهر النيل الممتد في الدلتا والوادي، كانت المنطقة خالية تمامًا من البشر، وليس لها أي ملامح من السكنى والعمار وتتخللها ترعة تفصل منطقة بني سويف الجديدة عن بقية المناطق في بني سويف القديمة بأحيائها الراسخة مثل الرحبة، الغمراوي، الدهشوري، شارع الرياضي، والمرماح، قرر جدي أن يرتقي بأبنائه، ويدفن فيهم كل طموحه في التعليم

والوظيفة الميري، طموح جيل هذا الزمان بعد ثورة ١٩٥٢ وآليات العدالة الاجتماعية، والمشروع القومي والوطني الذي استنهض الجميع من أبناء الشعب المصري وفتح باب الأحلام والطموحات لديهم، حصلت أمي على دبلوم المعلمات من مدرسة المعلمات في مدينة بني سويف، والتي أغلقت بعد ذلك لانتشار الجامعات والكليات المتخصصة والمتعددة دون بقية أخواتها البنات، أما أخواها الصموت والمتحدث فقد عملا موظفين في مكتب تموين بني سويف الرئيسي، بعد أن حصلا على الابتدائية وعينا على الدرجة الخامسة، وعاشت وتألقت الابنة الصعيدية ابنة الجزار وتاجر الخضار في كنف الحكم الناصري، وقد حصلت على ما يعادل البكالوريا والعيشة الموسرة، وباتت تتشبه بزميلاتها في اختيارات موديلات (نماذج الأناقة والجمال للفنانات شادية وصباح وفاتن حمامة ومريم فخر الدين، وغيرهن بارتداء الفساتين القصيرة الضيقة والواسعة، والمفتوحة عند الصدرودون الأكمام من أجود أنواع القماش وأحدث التصميمات من شكوريل ورومني وباتا وصيدناوي وعمر أفندي مع انتقاء تسريحات الشعر والذوق الرفيع من عند أتيليه عايدة المعروف، وهذه غير عايدة رفيقة عمرها في الدراسة والعمل التي كانت تسكن في حي مقبل بجانب الكنيسة المطرانية التي يقولون إنها من أصل يهودي لأبوين مصريين ولدا وعاشا في مصر حتى وفاتهما، ترص أمي الفساتين

في الكنبة الثالثة في حجرة استقبال الزوار وتكسوهن بأكياس بلاستيكية، وتنقعهن في ماء اللافندر والزهرة من وقت لآخر حتى تعود لهن روح حياتهن القديمة وتغلق الخزانة بقفل وتحتفظ بمفتاحه على بندول الساعة الضخمة في الصالة حتى لا يصل له أحد من أحفادها وبناتها مع ألبوم صور أبيض وأسود لأسرتها وزميلاتها في المدرسة وصور لعايدة وصديقات أخريات متنوعة وهن يرتدين هذه الفساتين التي لا أعلم ما ألوانها بالضبط لكنها تبدو فاتنة في حضور الأبيض والأسود القديم، والأكيد في ألوانه الحقيقية التي كانت بهن عليها، ولا تعرفه غيرها، فتشير لي دائمًا أن لون هذا الفستان كذا وهذا الحذاء كذا وهذه الحقيبة كذا، وتتباهى بنوع القماش واسم الموديل واسم تسريحة الشعر... ثم تأمرني بحزم أن أذهب إلى الحارة عند أم نرجس الدلالة التي تبيع الكحل المصنع من اللبان الدكر المر، وتبيع لجدتي بواقي القماش لتحيك منه الملايات والغيارات والكوافيل والبناطيل والفساتين للتفاحات الست، وأجلس مبتهجة مع نرجس التي تكره الحارة، أنتظر الكحل الساخن حتى تفرغه أمها في مكاحل فرعونية الشكل لأمي وجدتي وأصر أن تضع لي الكحل الطازج قبل أن أعود بهما ، ويراني الشندويلي، فيصفعني قائلًا:

- حتى تبكي ويسيح الكحل وتحرمي وضعه يا غبية مازلت صغيرة.

فتدفعه جدتي قائلة بعصبية:

- لِمَ تضربها؟ عيناها حلوة تضع الكحل براحتها يا حسن، فاهم؟

ثم تخف حدة توتر أمي شيئًا فشيئًا مع الذكريات وهي تقول بتنهيدة طويلة وعميقة في ليالي الثرثرة وتأمل الذكريات ؛ التي باتت بيننا كثيرًا في منزل أشباح التيوليب ٣١، بعد زواج البنات ووفاة السيد الكبير والجدة سكينة، وهجران أمي عن منزل الرعب ٢١ بالطلاق وهجراني عن يحيى دون طلاق، ولم يبق غير كلينا في بيت الأشباح، أخيرًا تقول بهدوء:

- الحمد لله ربنا هدانا، ولبسنا طويل، وتحجبنا ياناريمان، مش باقي غير زيارة بيت الله، ومقابلة وجه كريم على خير.

بينما لا أذكر على لسان أخي الذي كان يكره اسمه المركب محمد ناصر ولا ينتمي إليه بتاتًا ولا أعرف إلا استياءه ونفوره من تلك الحقبة الناصرية، التي كان في عهده عام ١٩٦٥ في أعقاب حل المنظمات الشيوعية وما سبقها، حتى بات النظام جادًا فيما يعنيه بعدم السماح له بالحركة أو الوجود كمنبر منفصل، وما روته أروى صالح في (كتابها المبتسرون عن دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية) "رغم كل المرارة التي يكنها أبناء جيلي اليساريون بشكل أو بآخر تجاه عبد الناصر ونظامه وزمنه لا يستطيعون الإفلات من الحنين لذلك الزمن بالذات، ليس فقط لأنه الزمن الذي شهد اندلاع حركتهم الطلابية ومولدهم

المدوي كجيل، أول جيل لليساريين تصفق له مصر المحروسة بأسرها ، ولكن أيضًا لأنه وربما كان ذلك أهم، لا يتصور في الو اقع وجوده خارج هذه الخريطة التي يدينها بالذات، الخريطة التي يحدها شرقًا المعسكر الاشتراكي وغربًا المعسكر الرأسمالي وفي الوسط بل القلب حركات التحرر الوطنية في العالم الثالث".. " وكلما استغرقت في قراءة هذا الزخم الهائل من نبض تاريخ اليسار في مصر الذي دفع الآلاف من النساء والرجال فيه سنوات عمرهم وفي بعض الأحيان حياتهم من أجل مبادئ آمنوا بها وقناعات دافعوا عنها إلى اللحظات الأخيرة منذ أواخر الثلاثينات بعد انهيار الحزب الشيوعي القديم حزب ١٩٢٣ رغم الدور الكبير الذي لعبه حينذاك وعضويته في الكومنترن والنضال والكفاح والعودة مع تأسيس حدتو في صيف ١٩٤٧ التي تعتبر نقطة فاصلة في تاريخ الحركة اليسارية حتى التوقف الدامي في ١٩٦٥ وحل المنظمات الشيوعية بعد خروج مناضليها من اعتقال دام واستمر خمس سنوات يدق في رأسي كمسمار النعش سؤال يؤرقني ليلًاو نهارًا: لماذا انتهت حركة بهذا الحجم وتلك التضحيات الجسام على ذلك النحو المأساوي والعبثي في الوقت نفسه أمام تلك الملحمة البطولية والدراما الهائلة التي عاشها الشيوعيون المصريون ؟!" كنت أقرأ مذكرات لويس عوض وفتحي عبد الفتاح ومحمود الورداني وفخري لبيب وسعد زهران وغيرهم من المناضلين عن لحظات سرد كفاحهم

في سجن الواحات وأوردي و أبو زعبل، و أبكي بكاءً مريرًا على هذا النضال الذي استمر لسنوات، دون أي حصاد يجني ثمارًا لهذه الأرواح التي تمزقت أجسادها تحت لهيب العروسة والخازوق وكل ألوان العذاب التي تفوق احتمال البشر فيُدمي قلبي ويشتعل جوفي لهيبًا من الحسرة والدموع الحارة من ويلات الآلام المتخيلة "إن هذا هو الجيل الذي قبض ثمن وطنيته قبل أن يدفع ثمنها"، كما قال لي بمرارة شيوعي قديم ممن شهدوا مجزرة عبد الناصر للشيوعيين عام ١٩٥٩، "لذلك فبرغم افتراضنا الماركسى أو على الأصح الهيجلي، بكل ما فيه من ميتافيزيقية بأننا كجيل يحمل مفاتيح مستقبل العهد التاريخي الذي يعيشه نمثل نفي زمن عبد الناصر، النقيض الذي يملك سكة تجاوزه". إلا أنني أرى أنه من النتائج الصادمة لي بدهشة بعد كل هذه السنوات من التأمل أنني بت أمقت هذا الحنين الممزوج بطعم الوحل ، بل ويعد هذا أهم و أبشع أخطاء عبد الناصرمن وجهة نظري، رغم كل نعرات اليسار الشيوعي والناصري أو القومي بصفة عامة الذين كانوا يهتفون في السجون والخوازيق في مؤخراتهم تحت شعار الهدف العظيم قضيتنا الوطنية واحدة ،كما تقول الكاتبة أروى " كان من نتائج صدمة الالتقاء بأجيال تالية إدراكي، الذي اتسع تدريجيًا بعد ذلك، إن وعي ينتمي للماضي الذي أتعرض له بالنقد وحتى الإدانة أكثر مما كنت أظن بكثير، ذلك الوعي الذي يتعامل مع

الحاضر كنوع من الخطأ التاريخي - على حد تعبير أحدهم - تمامًا كما يعامل التاريخ كجوهر الروح المطلق آلات لجيلنا من هيجل عبر ماركس".

ربما كان الجميع على حق، وربما على خطأ، لكن الأكيد والباقي في ذاكرة أخي فخره الشديد، أنه حصاد الرفيق شبل إسماعيل عضو منظمة بني سويف، المناضل الجماهيري بها وأحد الكوادر المهمة، الذي تم القبض عليه هو والرفيق لويس إسحاق عضو اللجنة المركزية ومسؤول القطاع الشمالي في الصعيد أثناء جنون الحملة التي قام بها عبد الناصر لبتر وسحق الشيوعيين تمامًا، وأكثر ما نالني من هذا السوء هو التشهير الشعبي بين البسطاء والعامة، والادعاء بأن الشيوعيين ليس لهم دين أو ملة وناس كفرة، تسربت تلك المقولات كالنار في الهشيم، إن هؤلاء الناس ضد الله والدين، بعيدًا عن كل القيم والمبادئ التي يطمح إليها النضال اليساري، وبالطبع بمجرد صداقتي لهالة شلبي ثم أميمة كراوية والأستاذ الفاضل نور السويفي وزواجي بيحيى التصقت بي التهمة كاملة ونعتني أبي وجميع إخوتي بأني شيوعية كافرة لأني أنتمي لفرقة الأصدقاء وحضوري اجتماعاتهم و أنشطتهم الفنية والثقافية بشكل عام، وإن كانت الأمور لها مناحٍ مختلف لارتباطي باليسار الحر عامة دون تقنين كما أراد لي يحيى والأستاذ نور السويفي والناشطة الحقوقية هالة شلبي والتروتسكية العملاقة الدكتورة أميمة كراوية، رغم

كل هذه النتائج الصادمة لي بدهشة ، إلا أنني أدركت أيضًا، بدون أي دهشة فعلاً أنني أمقت حضوري إلى هذا العالم كما مقتته أمي وأبي اللذين فقدا حلمهما للأبد في إنجاب الذكر، وقد تعسف القدر في قهر أمي، وانتهاكها، وانهيارها بعد إزالة الرحم، وهو ينزف دماً شهورًا بعد ولادتي، وفقدت نبض أنوثتها وشهوتها وفرصة الإنجاب وتحقيق أمنية السيد الكبير المجنونة في الولد ليحمل اسم عائلة آل مصباح من عصبه ولدنه الذكوري المتباه، وبات رحمًا أجوف كالمغارة القاتمة، أشبه بكهف معتم، فارغ كئيب لا يشي برعشات ونبضات الأنثى الحية، وقد ترهل واتسع من كثرة الإنجاب وتم إزالته، فمهما دخله قضبان ذكورية لا ينتشي أو يشعر بلذة الشهوة، والألم المباغت يأتيها من حين لآخر بدموع لاهبة مدرارة، حتى باتت تتمخط الدماء من أنفها وهاجس الفقدان لديها لا يحتمل ، وباتت عصبية إلى حد جنوني في بعض الأحيان، وهي تتقبل الواقع الجديد، تنعي حظها وتنكمش روحها كسيرة، وقد تحملت كثيرًا، وفقدت سمرة وجهها الجميل ببريقه المضيء، وقصت شعرها الأسود الطويل رغم أنف الشندويلي الذي كان يعترض دومًا على تشذيب أطرافه، حتي تذكرت الحسنة التي منحها لها زعيمها المحبوب عبد الناصر، العمل وأصدقاء العمل والتفاني به، حتى وصلت إلى أعلى مراتبه قبل خروجها على المعاش، وقد وصلت مديرًا عامًا أول في مديرية التربية

والتعليم في مدينة بني سويف.وكما تنعي الأم حظها، تنعي ناريمان قدرها العبثي دون ذنب لها:

- ربما كرهتني يا أمي دون أن تصرحي بذلك، وإن كنت عبرت عن ذلك بأن تجاهلتني تمامًا، وحرمتني من أي رعاية منك، وقد جف ثدياك أو مللت الرضاعة ومشاعر الأمومة، فأنا نذير الشؤم في حياتك بمولدي، مات جمال عبد الناصر، مات حلم السيد الكبير، مات مكمن أنوثتك، آه يا أمي هل لك أن تسامحيني، لماذا جئت بي لأكون شاهد عيان على عذاباتك ؟! كيف أساعدك لتتجاوزي آلامك ومخاوفك، اللعنة على الحظ الذي يقودنا متعثرين ؛ والخوف مسلط على أفكارنا، كيف لي أن أعيدك لأزمنة الفرح والتألق، أنا المخلوقة الضعيفة ؟! أحمل مع وجودي فناء حياة الآخرين، آه يا أمي أهذا ذنبي في الحياة الذي لا يُغتفر ؟! والذي لازمني وجلب لي كل المحن والمصائب والأحزان التي عشتها وما زلت أدفع أثمانها مضاعفة، أرجوك يا أمي أن تسامحيني في عبث القدر معي ومعك، وتعفو عني حتى ألتقط أنفاسي وأعيش بسلام لروحي الممزقة بأحلام المعتوهين وهذه الطريق الطويلة من الكوابيس، لا أجد الراحة في النوم ولا في اليقظة، وأنا أحس أن جذعًاً رهيباً يجثم على صدري.. أرجوكِ يا أمي، لكنه في نهاية الأمر.. رغم كل ما كان وحدث، رغم جزعي و لعنتي أخاف، أخاف، جداًّ.. جداً أن أفقدك وأرغب في البقاء معك إلى الأبد، لتحميني وأحميكِ من كل سوء، ولم يعد

معنا إلانا نسهر على راحتنا ونومتنا، ونقضي أيامًا سعيدة معًا، فأنا صنيعتك ولعنتك في آن واحد، وقد أصبحت رفيقة حياتي، والصديقة اللامشروطة والعزيزة والأمينة ؛ ليعزز وجودي في هذا العالم الموحش.

أبعاد التمييزفي الفضاء الروائي
نموذج رواية (شقراء البصرة)
١للروائي العراقي عبد الزهرة عمارة
بقلم الأديبة هدى توفيق

تطرح رواية شقراء البصرة بعد الإهداء مباشرة سؤال هام يتطلب تأويل و اقتراحات سردية داخل الفضاء الروائي؛ لأنه يؤدي ضرورة إبداعية هامة تتعلق بالعلاقة بين الدال والمدلول لتوجيه النص إلى فهم العوالم التي تصبح منكشفة عبر وجود كل المظاهر المتاحة وتفصح عنها في عالم ذي مغزى. لذلك ربما علينا أن نتأمل في أي سؤال يمليه الإبداع الذي يقدم أسئلته وينتظر الإجابة ، أو كما يقول دريدا في مقاله " خارج العمل "؛ التي – تتعارض بصفة خاصة مع تصور الأدب المتعارف علية:
(لماذا ينبغي على " الأدب " أن يظل يشير إلى ما ينفصل بالفعل عنه – عمَّا جرى تصوره والإشارة إليه تحت اسمه . أو عما يدمره تدميرا لا هوادة فيه ، ولا يكتفي بمجرد الروغان منه ؟).(p. 3 Dissemination).(٢).

وبالتالي تلك العلاقة بين هذا السؤال ذلك اللغز الذي لابد من تفكيك شفراته وبين المدلول المختفي وراءه، هي تشبه بالضبط العلاقة بين السرد وحدثه. والسؤال هو: هل جمال المرأة نعمة

أم نقمة ؟ لاشك أن الإجابة المباشرة لا تعنينا ؛ لأننا نبحث عنها في داخل هذا العمل السردي بشكل خاص ؛ فالأدب لا ينبغي أن يظل يشير إلى ما ينفصل بالفعل عنه كما أشار دريدا ، ويخالف التصور المعتاد إليه بل ويصل به إلى حد التدمير تدميرًا لا هوادة فيه . وخاصة إذا علمنا أن الإجابة على هذا السؤال المطروح: هل جمال المرأة نعمة أم نقمة ؟ وراءه مأساة إنسانية كبيرة عاشتها بطلة الرواية الحقيقية الدكتورة ياسمين ناظم ، وكل من حولها بسبب جمالها الصارخ وظهر في إبداع كامل وساحر من خلق الله. وكأنها تحاكي لوحة فنية رائعة ومبهرة دون خطأ ولو سهوا. من الشعر الأشقر والعيون الزرق والبشرة البيضاء المحمرة، والتفاصيل الأخاذة والمثيرة التي تثير الدهشة والتساؤلات .

ورغم أن ناريمان يعقوب المسيحية اسمها وديانتها الحقيقية من أم وأب لبناني قتل في الحرب الأهلية اللبنانية، وعلى اثره هربت الأم من جحيم الحرب مع مجموعة من اللبنانيين والعراقيين على متن طائرة عراقية أقلتهم إلى البصرة والطفلة ناريمان ورثت نفس ملامح الأم. أي أنها في النهاية عربية من بلد شقيق في محيط الوطن العربي، وليست من بلد أوروبية مثلا لتتعرض لهذا التمييز الذي جلب العديد من الأحداث المؤسفة لها ولغيرها في مدينة البصرة. التي بصدفة قدرية تولد فيها وتنشأ وسط أسرة عراقية ، وتنمو وتترعرع في ثقافته وعاداته

وتقاليده وتتعلم وتتزوج وتنجب ، وقد تحولت من ناريمان يعقوب المسيحية إلى ياسمين ناظم المسلمة على يد السيدة سوزان العاقر رئيسة الممرضات في قسم التوليد والنسا مع وزوجها السيد ناظم الممرض في مستشفى كبير في البصرة ذوات البشرة السمراء الداكنة. التي أتساءل هل لون بشرة السيدة سوزان والسيد ناظم اللتان أصبحا والديها هما سبب كل تلك المأساة والعناء الذي عاشت فيها البطلة ياسمين ؟ أم أنه قدر في كل الأحوال كانت ستعيشه، لأنها شقراء ومختلفة عن الو اقع والمجتمع العراقي. وقد أقنعت الممرضة سوزان الأم الحقيقية روزلين بعد أن ولدتها تلك الطفلة الجميلة أن تتركها ترعاها وتربيها وتعطيها مبلغ كبير من المال تسافر به إلى أي بلد أوروبية مع طفليها الآخرين، وأن طفلتها أمانه لديها عندما تستقر أمور الأم في حياتها الجديدة. و افقت الأم اللبنانية وسافرت إلى أوروبا التي عرفنا بعد ذلك أنها الدنمارك. وتركت طفلتها تبدأ حياة شائكة ومريرة بسبب لونها الأشقر مع أبوين ذات بشرة سمراء داكنة. ليتحول جمال ياسمين إلى نقمة فوق تصور الجميع مما ألت إليه الأمور لبعضهم من قتل ، أو سجن ، أو خلل عقلي والكثير من الأحداث التي تفوق التصور من فرضية هذا الجمال الصارخ وتجليات أبعاد ومظاهر هذا التمييز في مدينة البصرة. وقد بدأ تأثيره عليها وعلى من حولها منذ ولادتها والجميع يندهش من جمال هذه المولودة، وأنها توحي بأنها كائن

مختلف دفع الأم سوزان تأخذ إجازة من العمل وبيع منزلها وشراء منزل جديد في مكان بعيد عن عيون الحاسدين. وغيرهم ممن يشكون في نسب هذه الطفلة الفاتنة، وكلما كبرت ياسمين تعرضت للكثير. في عمر الثالثة حاولت سيدة سرقتها من أمها في المنتزه بعد أن فتنت بجمالها وطلتها الجذابة التي أغوت السيدة لحد سرقة الطفلة حتى اكتشف أمرها ، ودخلت السجن لولعها بالطفلة ياسمين. وعندما تبدأ عمر السادسة بداية دخول المدرسة تحرج مديرة المدرسة الأم سوزان ، وتظن أنها الخادمة وتسألها عن الأم الحقيقية بسبب اختلاف لون البشرة الواضح بينهما. وتتصاعد الأحداث في حياة ياسمين في المرحلة الثانوية عندما تُعجب بها مدرسة العربي وتطلب أن تذهب لبيت والديها لتخطبها لابنها، ولكن عندما تشاهدهما بتلك البشرة السمراء الداكنة تتفاجأ وتستغرب وتعبر عن استيائها الشديد وتنصرف غاضبة، وقد ملأها الشك من نسب عروسة المستقبل بل وتنشر تلك الشائعة في المدرسة ، وتنهار ياسمين من همسات زميلاتها والجميع أنها ربما تكون لقيطة أو تبنوها وليس معروف والديها. وتستطيع الأم سوزان أن تحتويها وتعدها أنها ستخبرها بالحقيقة بمجرد أن تنهي المرحلة الثانوية وتتفوق وتدخل كلية الطب وتنقلها لمدرسة أخرى؛ لتتجاوز رؤية الجميع وتحقق هدفها الحقيقي أن تنجح وتتفوق على الجميع. ولكن رغم جمال وقوة شخصية ياسمين وفرحتها بالالتحاق بكلية الطب كما

تمنت تتوالى الأحداث في ملاحقتها في الجامعة داخل دائرة واسعة من أطياف مختلفة . وتتوالى الأحداث بشكل مأساوي وفادح الثمن لتفرض قتامة هذا التميز المستدعي من مجرد لون البشرة والعيون الزرق والشعر الأشقر؛ وتتحول تلك المجردات المادية إلى كينونة تنقل مجريات الأمور بشكل عبثي وغريب وتلقي بالعديد من الأشخاص في أفخاخ مصيرية سيئة للغاية ، وتنهي حياتهم بكل قسوة وعنف لا مثيل له ، وتبدو كحالة جماعية أن تنفر هذا الجمال والاختلاف الواضح لحد كبير، وياسمين دون ذنب لها تواجه كل شرورهم التي تكون مرة بالحسد والغيرة والحقد، ومرة بالشك والارتياب من أصولها. بل ومحاولة اغتصابها وكسرها عنوة كما دبرت لها زميلتها سميرة الثرية في الكلية. تلك الخطة الشريرة عندما قامت بدعوتها إلى منزلها ومحاولة تخديرها؛ ليقوم أخوها بتنفيذ الخطة لولا أن أنقذها الله في اللحظات الأخيرة. وكأنهم لا يحتملون وجود هذا الجمال الصافي الكامل دون أن يقوموا بتشويهه، وربما بتره من المجتمع بمشاعر من الضغينة والكره لاغير، وهكذا أيضا كان معادل الحب لينطبق المثل الشائع "ومن الحب ما قتل". في كلا الحالتين شقراء البصرة تعاني معاناة شديدة ليس فقط لتعرضها لأحداث مؤسفة، ولكن أيضا لما يحدث للأخرين من كوارث حياتية بسببها سواء كان بالكره أو الحب. فمعاناة ياسمين تتجاوز آلام البشر العادية. والسبب إلهي وقدري أنها

جميلة جمال فاتن وطاغ. حتى عندما عشقها ابن خالتها إلى حد الجنون كان حب خاطئ؛ لأنه فاشل في الدراسة ويعاقر الخمر ويعمل ميكانيكي سيارات في الحي الصناعي في البصرة. ورفضته الأم والابنة رفضًا تامًا لأن كلاهما طريقهما مختلف. فياسمين نموذج العلم والجمال التام بشخصيتها القوية والمثقفة والواثقة بنفسها وقدراتها. لكنه استمر يلاحقها حتى بعد أن تزوجت وأنجبت وتوفي زوجها ،وظلت ترفضه لاقتناعها أنه لا يصلح لها في كل الأحوال سواء فتاة أو سيدة أو حتى أرملة. لكنه متهور ومجنون وحاول قتلها وأصيب بلوثة وهستيريا حبه ودخل مستشفى الأمراض العقلية. ودخلت ياسمين المستشفى في حالة حرجة للغاية حتى شفيت وعادت إلى الحياة وكرهت نفسها بعد أن علمت ما حدث لابن خالتها . وانهارت وحطمت كل أدوات الزينة والمكياج وهي تبكي وتندب حظها لكل من أحبوها أو حتى كرهوها وحاولوا الانتقام منها كما حدث لزميلتها سميرة التي قتلها أخوها بسبب أنها وقعت في المحظور مع زميلها وأصبحت حامل والتي في السابق حاولت أن تفعل في ياسمين نفس الموقف. فعاقبها الله بالقتل وأخوها بحكم السجن المؤبد.

ومع المسار الروائي تتعدد تلك اللحظات والشواهد المؤثرة في دورة الحياة؛ لتجسد تلك اللحظات إحالة قوية وفعالة التأثير تهدف إلى خدمة الشخصية الأبداعية عن مدى الوعي بالذات. وتشريح وتفكيك تلك التفاصيل بالبحث في عمق وجوهر هذه

الشخصيات من أجل معرفة تلك الذوات ، وإضاءة الأحداث ووضع تصورات عن تلك الهوية الشخصية . كما أشار (جوناثان كالر): (تُعد اللحظاتُ ذاتية الإحالة لحظاتِ جوهرية غالبًا في تأسيس هوية النص الأدبي ، شأنها شأن معرفة الذات والوعي بالذات الأساسيين في تصورات الهُوية الشخصية).) (p.11.(٣). بمعنى أن كل هذا البناء السردي من أحداث وحواري طاله ويتلاعب به محرك واحد داخل ملعب اللون الواحد؛ ليؤجج نهج التمييز الغير منطقي بكل أشكاله وعو اقبه الخطيرة والمصيرية لكل شخص على حدا. حتى نشعر بهذا اللون وقد تحول إلى لعنة أو أسطورة غير مبررة من وجهة النظر العاقلة والموضوعية في تفهم الأمور. وخاصة أن ناريمان يعقوب فتاة عربية. ولولا تلك الحرب التي نشبت في لبنان ما قتل أباها ،ولا هربت الأم ولا جاءت شقراء البصرة التي أحضرت التاريخ الماضي المؤلم للحرب والنتائج المترتبة عليها ويدفع ثمنها الأبرياء. وجغر افيا مكان جديد في بلد أخرى لم تستطع تقبل واحتواء كل هذا الجمال والنور البهي داخل بيئة لديها ثقافة وعادات وتقاليد لها تصورات مختلفة وشائكة عن كيف تكون بشرة الأطفال عندما يولدون. لإما تلاحقهم العيون بالحسد والغيرة وتمتد مشاعر المغاير الغير مستحب إلى ما هو أقرب من العنصرية وراء ستار الريبة والشك أمام كل مختلف. ولو كان مجرد اختلاف ظاهري وشكلي لأقصى درجة. لأن ياسمين كانت

من الداخل فتاة مطيعة وبارة بوالديها ومهذبة وذو خلق وملتزمة دينيا وعمليا ولديها من قوة الإيمان والضمير ما يجعلها أية في الجمال والعقل. وكل ما تتعرض له ناريمان مجرد تمييز لوني أخرق ولا معنى له إلا في عقول هؤلاء البشر الحمقى من وجهه نظر العقل.

وبين تلك الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٧٤م إلى موعد لقاء الراوي العليم بالأم السيدة سوزان صاحبة تلك الحكاية الحقيقية في عام ٢٠١٨م في القطار السابعة مساءً ببغداد كابينة رقم ٢٨ المتجه إلى البصرة. الروائي لدية موعد هام بدعوة من أحد زملائه، والأم سوزان في رحلة عودة إلى بيتها مع البطل الثاني زوجها السيد ناظم والبطلة الثالثة محور الرواية الدكتورة ياسمين طبيبة اختصاص نساء وتوليد في مدينة البصرة. التي كرست كل حياتها للعمل وتربية ابنتها الوحيدة.

هناك إحالة هامة كانت بمثابة الشرارة التي فجرت كل تلك الاستلهامات السردية بتدفق لغوي ورؤية كاشفة تشف عن رؤية ثاقبة. وقد انساب الحوار بين السارد الواقعي بشخصه وصفته الحقيقي بأنه قاص روائي، وكان يقرأ في رواية عزازيل للكاتب المصري يوسف زيدان وقام باخبارها بحكاية الرواية وأنها رواية حقيقية وبها ولو قدر من الخيال والجهد الأدبي، وهذا من وجهة نظره أفضل في الأعمال الإبداعية. لأن القصص الحقيقية غالبا قليلة وقصيرة. لكن السيدة سوزان رغم أنها

معجبة بالرواية، وتلك الحكاية التاريخية وما بها من خيال وإبداع . لكن ترى أن الحكايات الحقيقية أحيانا أيضا تتفوق على الخيال ولا تحتاج له، لأنها مكتملة العناصر ورغم اختلاف الآراء بين الروائي الحقيقي والسيدة سوزان. لكن ياسمين ناظم تلك المرأة الحقيقية التي جسدت شقراء البصرة أشعر أن بها هذا التعالق الروحي والعقلي الذي لا يختلف في مغزاه مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة وقد تلاقت روح العالمة هيباتيا التي حاولت ان تتحرر بالعلم والاجتهاد وتكون مختلفة عن هؤلاء الغوغاء المسيحين الذين قتلوها بتحريض من البابا في الاسكدرية. بينما يأتي الراهب هيبا من منطقة أخميم في صعيد مصر ليدرس اللاهوت والطب ثم يتوجه إلى فلسطين ثم إلى دير قريب من أنطاكيا ويعيش صراع نفسي طويل مع العقيدة حتى يتحرر تماما من جميع مخاوفه. ويترك الدير باحثا عن الطريق الذي يريد السير فيه بدون شكوك أو هواجس أو استسلام. هكذا أصبحت شقراء البصرة فاذا كانت هيباتيا تحررت بالموت والراهب هيبا بالرحيل عن الدير والتحرر من كل مخاوفه هكذا أيضا شقراء البصرة تحررت من لعنة هذا الجمال الصارخ ، وكل مباهج الحياة وأهدت عقلها وروحها وجمالها ووقتها وثراءها وكل ما تملك للبحث والدأب والعمل من أجل خدمة وانقاذ حياتهن وتوليدهن أبناء الحياة التي وهبها الله لهن من خلال عملها واخلاصها لوجه الله. وهذا هو معنى الجمال الحقيقي.

لا شك أن اختيار الروائي لرواية عزازيل كانت بمثابة كشف موجه بقصد إبداعي لتفعيل اللحظات الذاتية في هذا البحث الشائك عن الهوية الشخصية، وهل هي مجرد لون للبشرة أم روح قوية ومثقفة أم رسالة عالية القيمة؟! وأن الجمال من الممكن أن يكون نقمة عندما تتلقفه مخالب مجتمع محدود وصارم التصور أمام رؤية الآخر. ومن المطنقي والطبيعي أن يكون الجمال نعمة من نعم الله التي لا تحصى علينا؛ لأنه منحة وهبة تستحق أن نحافظ عليها ونستخدمها استخدام صحيح ومفيد كما فعلت الطبيبة ياسمين ناظم التي تعرضت للظلم والقهر من الجميع حتى أقرب الناس إليها مثل العالمة هيباتيا التي حرض بابا الاسكندرية على قتلها، والراهب هيبا التي حاولت الوثنية اوكتافيا اغواءه وياسمين التي حاول أسمره قتلها. لكن جميعهم تحرروا بالبحث والعلم وقوة الايمان.

الهوامش:

١- رواية (شقراء البصرة) ، عبد الزهرة عمارة – ط١: ٢٠١٩م ، دارنشر أمارجي للطباعة والنشر – العراق.

٢-	انظر المصدر: التفكيك والأدب :" هيدجر – بلانشو-دريدا". تأليف: بتموثي كلارك.ترجمة : حسام نايل ، الناشر: مؤسسة هنداوي – ٢٠٢٣م.ص:١٣٥

٣-	(م.ن) ص:١٩

الفصل الرابع

الصور

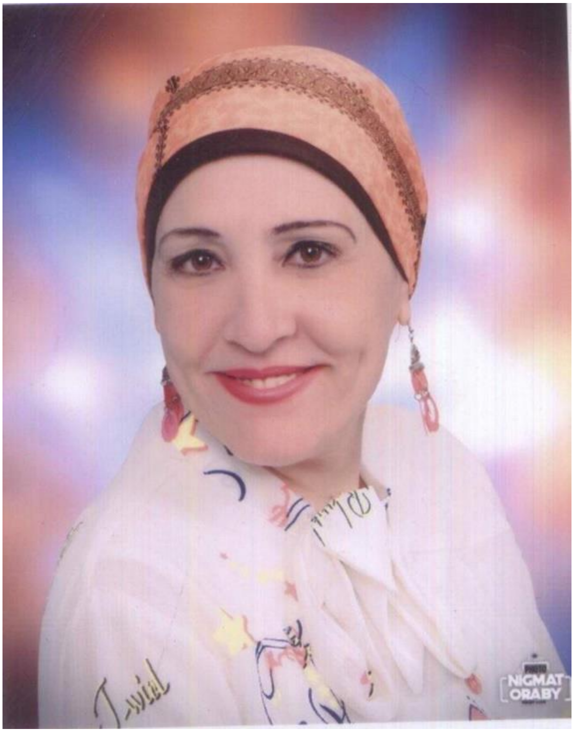

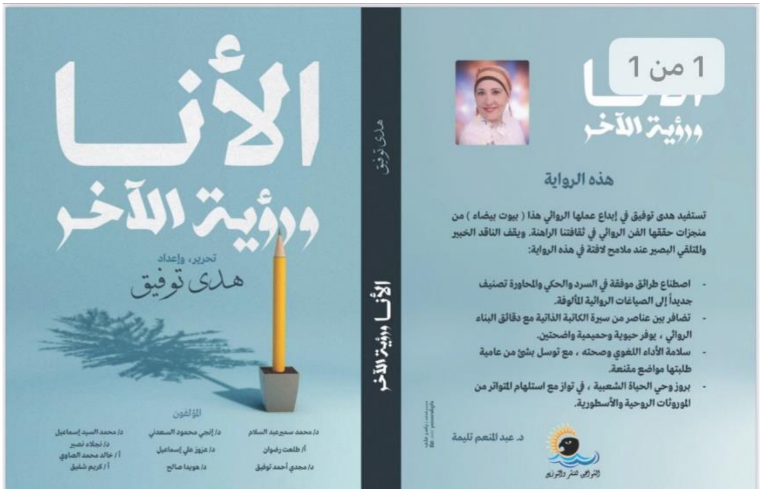
1 من 1
ورؤية الآخر
هذه الرواية
تستفيد هدى توفيق في إبداع عملها الروائي هذا (بيوت بيضاء) من منجزات حققها الفن الروائي في ثقافتنا الراهنة. ويقف الناقد الخبير والمتلقي البصير عند ملامح لافتة في هذه الرواية:
- اصطناع طرائق موفقة في السرد والحكي والمحاورة تصنيف جديداً إلى الصياغات الروائية المألوفة.
- تضافر بين عناصر من سيرة الكاتبة الذاتية مع دقائق البناء الروائي ، يوفر حيوية وحميمية واضحتين.
- سلامة الأداء اللغوي وصحته ، مع توسل بشئ من عامية طلبتها مواضع مقنعة.
- بروز وحي الحياة الشعبية ، في تواز مع استلهام المتواتر من الموروثات الروحية والأسطورية.
د. عبد المنعم تليمة
الأنــا ورؤية الآخر
هدى توفيق
الأنــا
ورؤية الآخر
تحرير، وإعداد
هدى توفيق
المؤلفون
د/ محمد سمير عبد السلام
أ/ طلعت رضوان
د/ مجدي أحمد توفيق
د/ إنجي محمود السعدني
د/ عزوز علي إسماعيل
د/ هويدا صالح
د/ محمد السيد إسماعيل
د/ نجلاء نصير
أ/ خالد محمد الصاوي
أ/ كريم شفيق

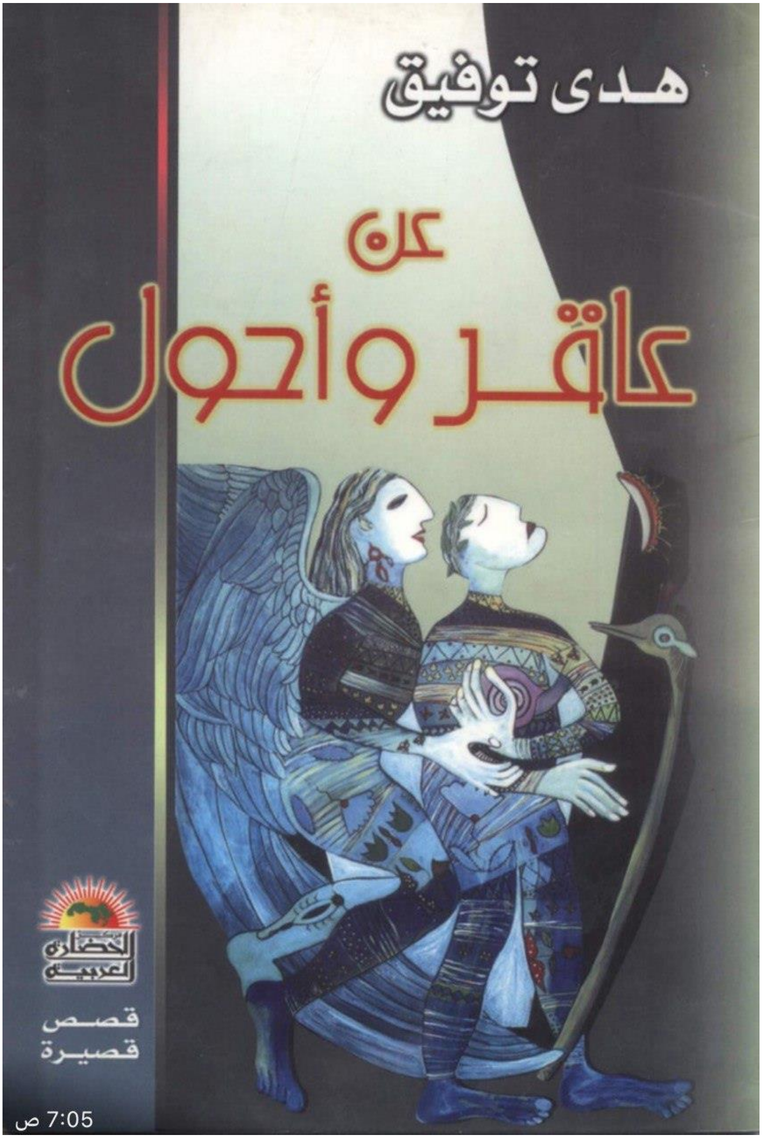
هدى توفيق
عن
عاقر وأحول
الحضارة العربية
قصص
قصيرة
7:05 ص

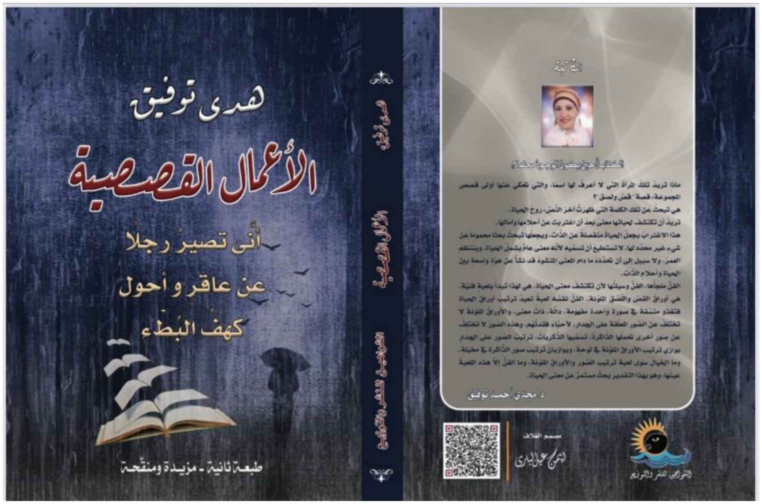
هدى توفيق
الأعمال القصصية
أنى تصيرُ رجلا
عن عاقر و أحول
كهفُ البَطْء
طبعة ثانية - مزيدة ومنقحة

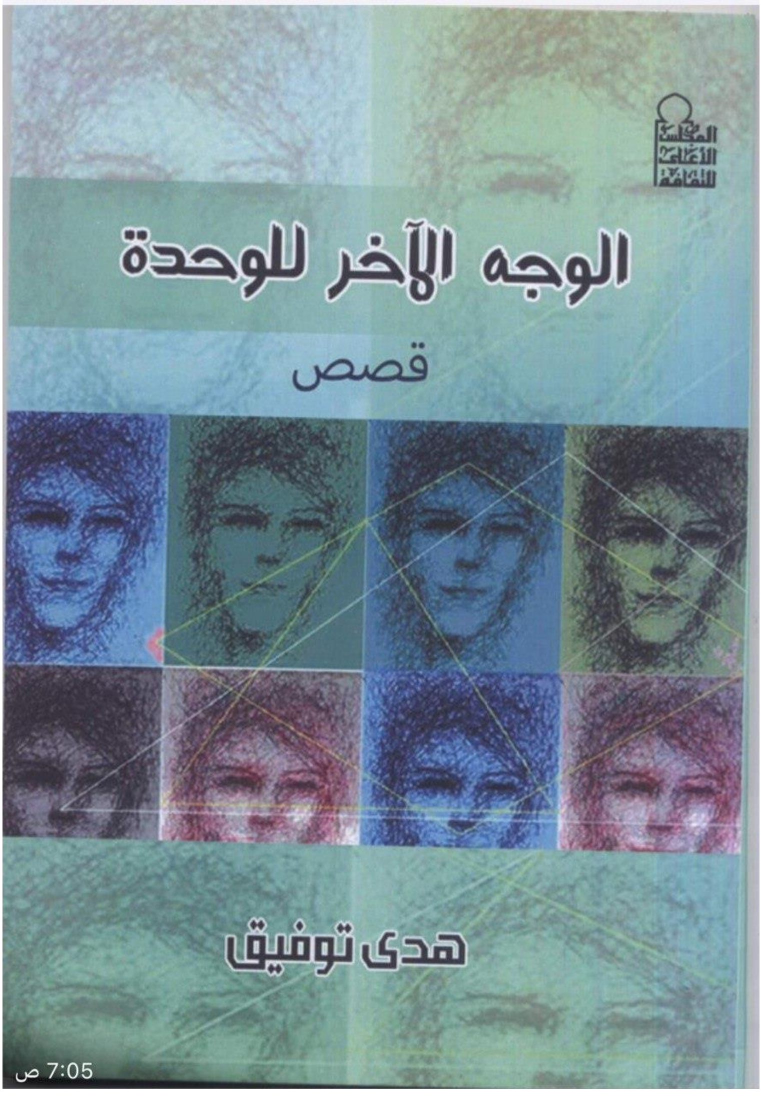
المجلس الأعلى للثقافة
الوجه الآخر للوحدة
قصص
هدى توفيق
7:05 ص

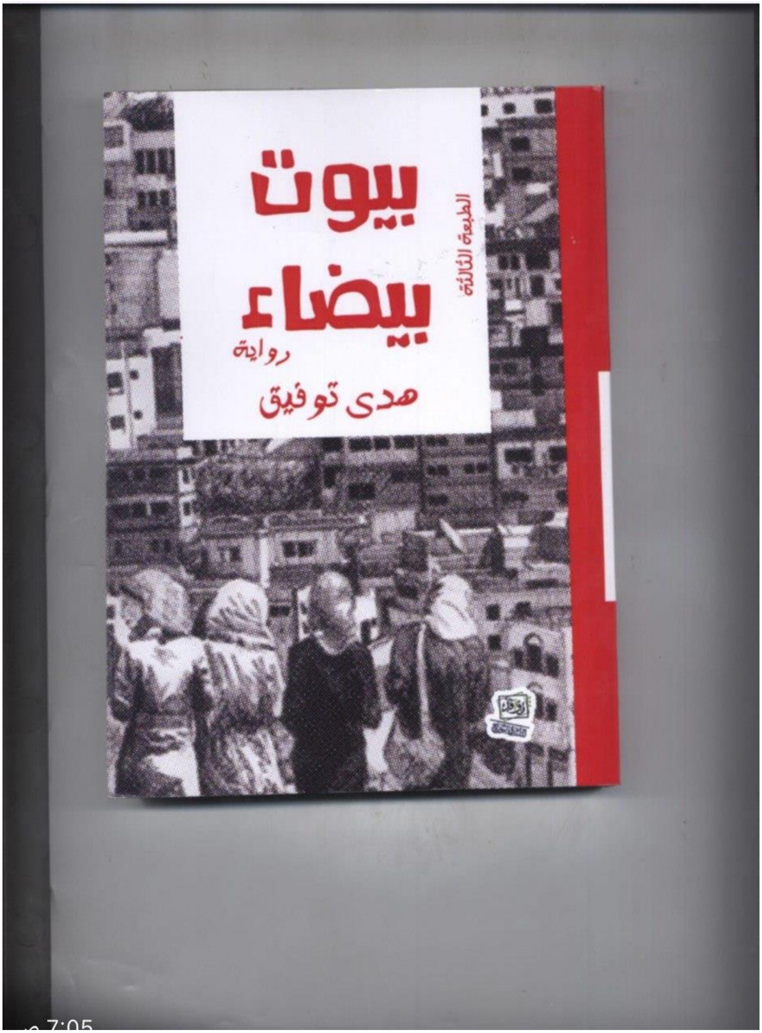
بيوت
بيضاء
رواية
هدى توفيق
الطبعة الثالثة

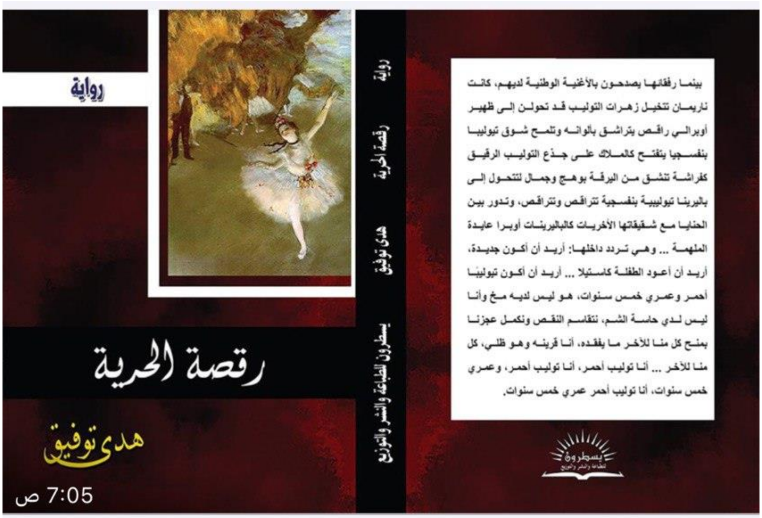
بينما رفقائها يصدحون بالأغنية الوطنية لديهم، كانت ناريمان تتخيل زهرات التوليب قد تحولن إلى ظهير أوبرالي راقص يتراشق بألوانه وتلمح شوق تيوليبيا بنفسجيا يتفتح كالملاك على جذع التوليب الرقيق كفراشة تنشق من اليرقة بوهج وجمال لتتحول إلى باليرينا تيوليبية بنفسجية تتراقص وتتراقص، وتدور بين الحنايا مع شقيقاتها الأخريات كالباليرينات أوبرا عايدة الملهمة ... وهي تردد داخلها: أريد أن أكون جديدة، أريد أن أعود الطفلة كاستيلا ... أريد أن أكون تيوليبيا أحمر وعمري خمس سنوات، هو ليس لديه مخ وأنا ليس لدي حاسة الشم، نتقاسم النقص ونكمل عجزنا بمنح كل منا للآخر ما يفقده، أنا قرينه وهو ظلي، كل منا للآخر ... أنا توليب أحمر، أنا توليب أحمر، وعمري خمس سنوات، أنا توليب أحمر عمري خمس سنوات.
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع
رواية
رقصة الحرية
هدى توفيق
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع
رواية
رقصة الحرية
هدى توفيق
7:05 ص

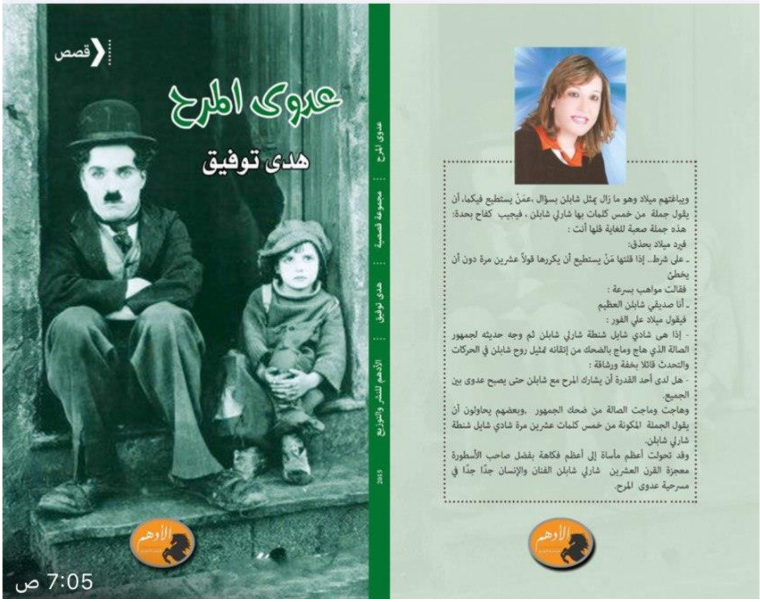
ويباغتهم ميلاد وهو ما زال يمثل شابلن بسؤال ،عمَنْ يستطيع فيكما، أن يقول جملة من خمس كلمات بها شارلي شابلن ، فيجيب كفاح بحدة:
هذه جملة صعبة للغاية قلها أنت :
فيرد ميلاد بحذق:
ـ على شرط.. إذا قلتها مَنْ يستطيع أن يكررها قولاً عشرين مرة دون أن يخطئ
فقالت مواهب بسرعة :
ـ أنا صديقي شابلن العظيم
فيقول ميلاد علي الفور :
- إذا هى شادي شايل شنطة شارلي شابلن ثم وجه حديثه لجمهور الصالة الذي هاج وماج بالضحك من إتقانه تمثيل روح شابلن في الحركات والتحدث قائلا بخفة ورشاقة :
- هل لدى أحد القدرة أن يشارك المرح مع شابلن حتى يصبح عدوى بين الجميع.
وهاجت وماجت الصالة من ضحك الجمهور ،وبعضهم يحاولون أن يقول الجملة المكونة من خمس كلمات عشرين مرة شادي شايل شنطة شارلي شابلن.
وقد تحولت أعظم مأساة إلى أعظم فكاهة بفضل صاحب الأسطورة معجزة القرن العشرين شارلي شابلن الفنان والإنسان جدًا جدًا في مسرحية عدوى المرح.
الأدهم
عدوى المرح | مجموعة قصصية | هدى توفيق | الأدهم للنشر والتوزيع | 2015
قصص
عدوى المرح
هدى توفيق
الأدهم
7:05 ص

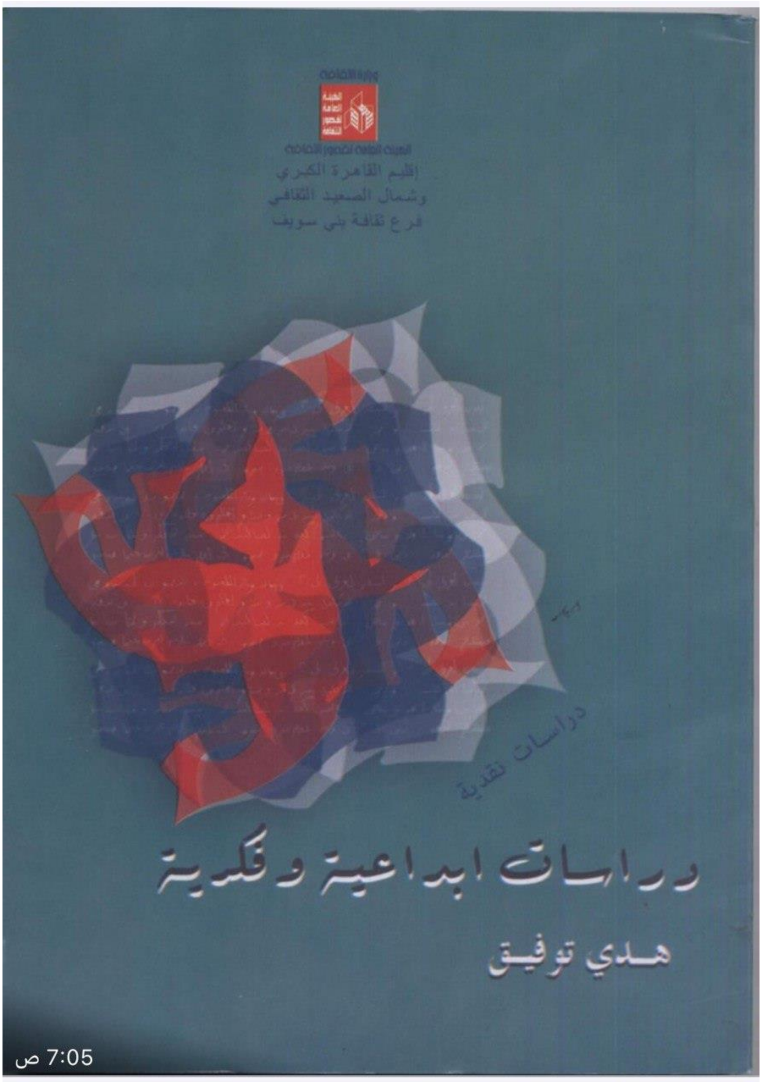
وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبري
وشمال الصعيد الثقافي
فرع ثقافة بني سويف
دراسات نقدية
دراسات ابداعية وفكرية
هدي توفيق
7:05 ص

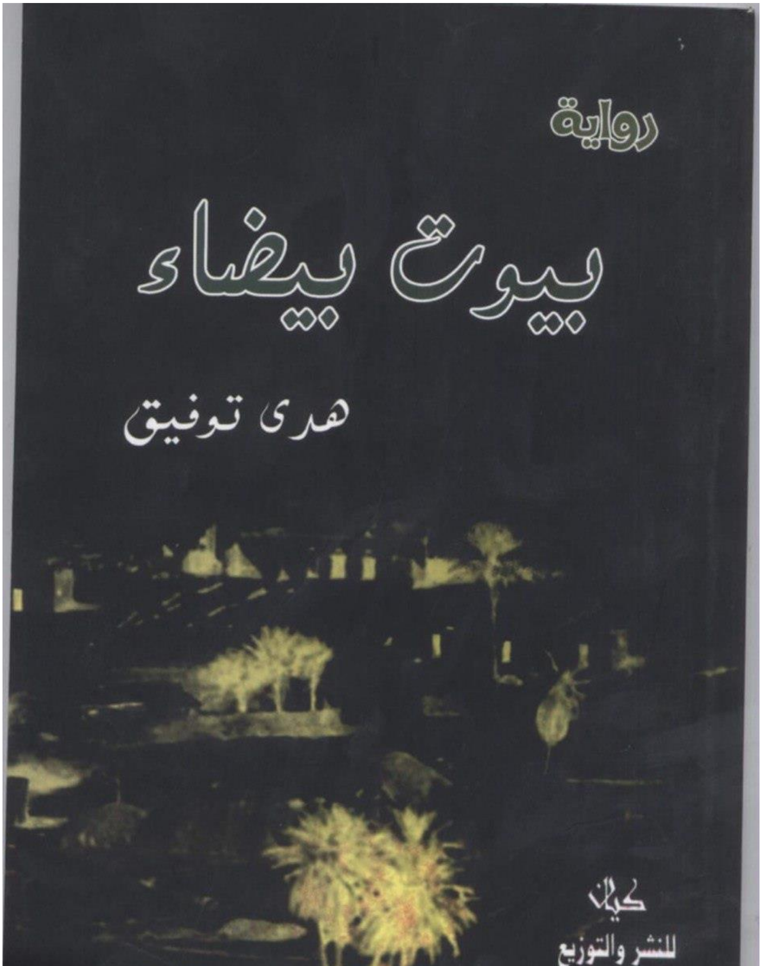
رواية
بيوت بيضاء
هدى توفيق
كيان
للنشر والتوزيع
7:05 ص

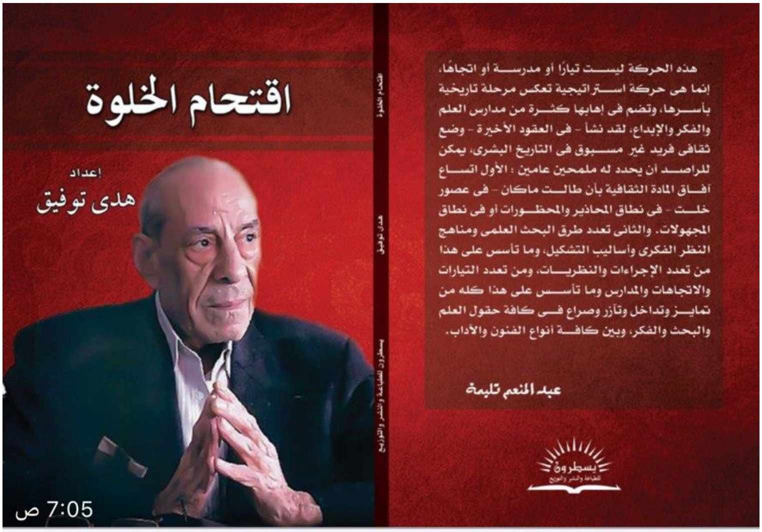

اقتحام الخلوة
إعداد
هدى توفيق
7:05 ص
هذه الحركة ليست تيارًا أو مدرسة أو اتجاهًا، إنما هى حركة استراتيجية تعكس مرحلة تاريخية بأسرها، وتضم فى إهابها كثرة من مدارس العلم والفكر والإبداع. لقد نشأ - فى العقود الأخيرة - وضع ثقافى فريد غير مسبوق فى التاريخ البشرى، يمكن للراصد أن يحدد له ملمحين عامين : الأول اتساع آفاق المادة الثقافية بأن طالت ماكان - فى عصور خلت - فى نطاق المحاذير والمحظورات أو فى نطاق المجهولات. والثانى تعدد طرق البحث العلمى ومناهج النظر الفكرى وأساليب التشكيل، وما تأسس على هذا من تعدد الإجراءات والنظريات، ومن تعدد التيارات والاتجاهات والمدارس وما تأسس على هذا كله من تمايز وتداخل وتآزر وصراع فى كافة حقول العلم والبحث والفكر، وبين كافة أنواع الفنون والآداب.
عبد المنعم تليمة
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

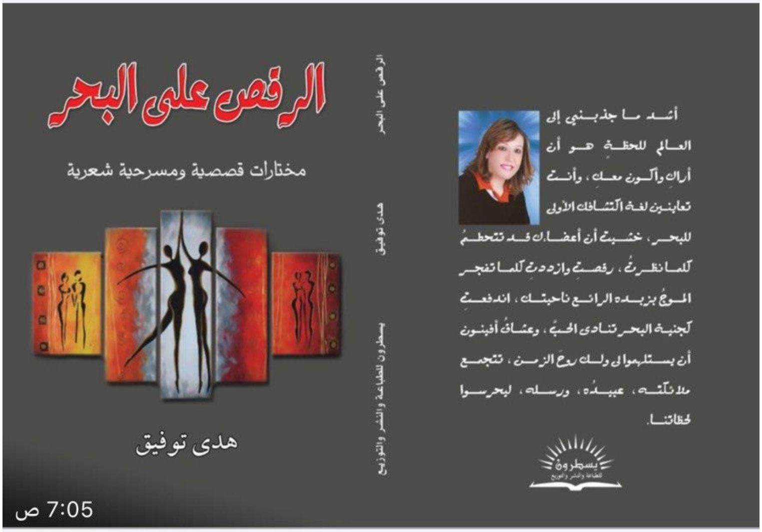

الرقص على البحر
مختارات قصصية ومسرحية شعرية
هدى توفيق
7:05 ص
أشد ما جذبني إلى العالم للحظة هو أن أراك وأكون معك، وأنت تعاينين لغة اكتشافك الأولى للبحر، خشيت أن أعضاءك قد تتحطم كلما نظرت، رقصت وازددت كلما تفجر الموج بزبده الرائع ناحيتك، اندفعت كجنية البحر تنادى الحب، وعشاق أفينون أن يستلهموا لى ولك روح الزمن، تتجمع ملائكته، عبيده، ورسله، ليحرسوا لحظاتنا.
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رؤى ثقافية
هدى توفيق
مصر للقراءة والمعرفة
7:05 ص
هاملت كصورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت وكأنها تسائلك: أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثنى عما تظن ويفسر لنا هذا الفنان الكبير شخصه الهاملتي المأسوي بإستدعاء أقاويل شكسبير شكسبير قد خلقنى خلقا جديدا وأودع روحي من النفاذ ما أزال أشقى به .
مأساة هاملت : ما مأساة هاملت كما تدعى الأقاويل؟، فمن قائل أنها مأساة جنون ومن قائل إن هى إلا شهوة انتقام وكم اتهمه البعض بالعجز والتردد، وفى الحق أنهم مخطئون ليست مأساة هاملت كما يدعي هؤلاء ولكن أعتقد كما يخبرنا شيخ النقاد بحق (شيخ النقاد الدكتور محمد مندور) هى مأساة رجال الفكر، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شىء فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة، وتشعبت بهم أوجه الرأى، فتحطمت بين أيديهم حياتهم التى اتخذوها موضعا للدرس والتحليل، ألا ترى أن بسطاء الناس كيف لايرون من الأشياء إلا جانبا واحدا فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا، بينما تلمح العقول الكبيرة فى كل أمر ألف جانب وجانب، فما تزال أحيانا حائرة مترددة حتى تقف فى مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم .

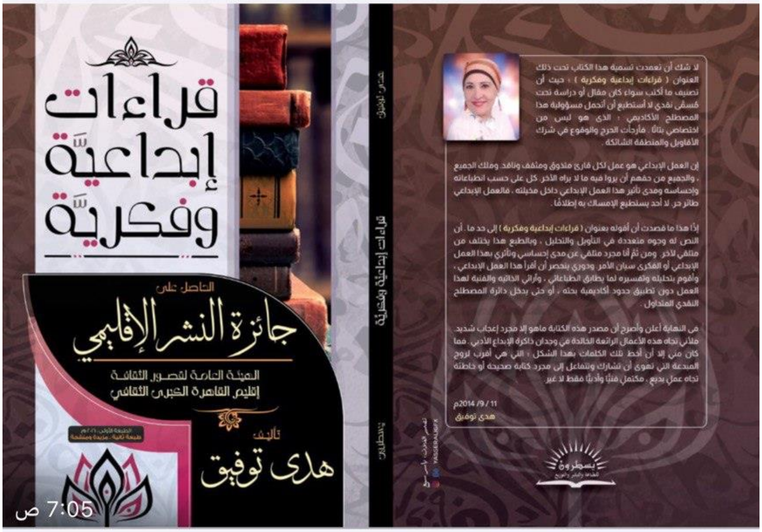
قراءات إبداعية وفكرية
الحاصل على
جائزة النشر الإقليمي
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى الثقافي
تأليف
هدى توفيق
7:05 ص
قراءات إبداعية وفكرية
هدى توفيق
يسطرون
لا شك أن تعمدت تسمية هذا الكتاب تحت ذلك العنوان (قراءات إبداعية وفكرية) ، حيث أن تصنيف ما أكتب سواء كان مقال أو دراسة تحت نسق نقدي لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية هذا المصطلح الأكاديمي ؛ الذي هو ليس من اختصاصي بتاتًا . فأرجأت الحرج والوقوع في شرك الأقاويل والمنطقة الشائكة .
إن العمل الإبداعي هو عمل لكل قارئ متذوق ومثقف وناقد. وملك الجميع . والجميع من حقهم أن يروا فيه ما لا يراه الآخر. كل على حسب انطباعاته وإحساسه ومدى تأثير هذا العمل الإبداعي داخل مخيلته . فالعمل الإبداعي طائر حر. لا أحد يستطيع الإمساك به إطلاقًا .
إذًا هذا ما قصدت أن أقوله بعنوان (قراءات إبداعية وفكرية) إلى حد ما . أن النص له وجوه متعددة في التأويل والتحليل ، وبالطبع هذا يختلف من متلقي لآخر. ومن ثم أنا مجرد متلقي عن مدى إحساسي وتأثري بهذا العمل الإبداعي أو الفكرى سيان الأمر. ودوري ينحصر أن أقرأ هذا العمل الإبداعي ، وأقوم بتحليله وتفسيره لما يطابق انطباعاتي . وأرائي الذاتية والفنية لهذا العمل دون تطبيق حدود أكاديمية بحتة ، أو حتى يدخل دائرة المصطلح النقدي المتداول .
في النهاية أعلن وأصرح أن مصدر هذه الكتابة ماهو إلا مجرد إعجاب شديد. ملأني تجاه هذه الأعمال الرائعة الخالدة في وجدان ذاكرة الإبداع الأدبي . فما كان مني إلا أن أخط تلك الكلمات بهذا الشكل ؛ التي هي أقرب لروح المبدعة التي تهوى أن تشارك وتتفاعل إلى مجرد كتابة صحيحة أو خاطئة تجاه عمل بديع . مكتمل فنيًا وأدبيًا فقط لا غير
11 /9/ 2014م
هدى توفيق
يسطرون

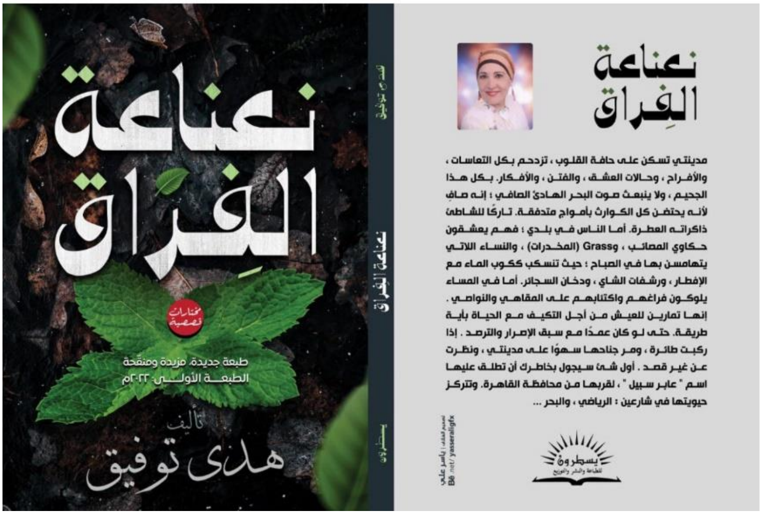
نعناعة
الفِراق
نعناعة الفِراق
مختارات قصصية
طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة
الطبعة الأولى: ٢٠٢٢م
تأليف
هدى توفيق
يسطرون
نعناعة
الفِراق
مدينتي تسكن على حافة القلوب ، تزدحم بكل التعاسات ، والأفراح ، وحالات العشق ، والفتن ، والأفكار. بكل هذا الجحيم ، ولا ينبعث صوت البحر الهادئ الصافي ؛ إنه صافٍ لأنه يحتضن كل الكوارث بأمواجٍ متدفقة. تاركًا للشاطئ ذاكراته العطرة. أما الناس في بلدي ؛ فهم يعشقون حكاوي المصائب ، وGrass (المخدرات) ، والنساء اللاتي يتهامسن بها في الصباح ؛ حيث تنسكب ككوب الماء مع الإفطار ، ورشفات الشاي ، ودخان السجائر. أما في المساء يلوكون فراغهم واكتئابهم على المقاهي والنواصي . إنها تمارين للعيش من أجل التكيف مع الحياة بأية طريقة. حتى لو كان عمدًا مع سبق الإصرار والترصد . إذا ركبت طائرة ، ومر جناحها سهوًا على مدينتي ، ونظرت عن غير قصد . أول شئ سيجول بخاطرك أن تطلق عليها اسم " عابر سبيل " ، لقربها من محافظة القاهرة. وتتركز حيويتها في شارعين : الرياضي ، والبحر ...
يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع
تصميم الغلاف | ياسر علي
Bē .net/ yasseraligfx

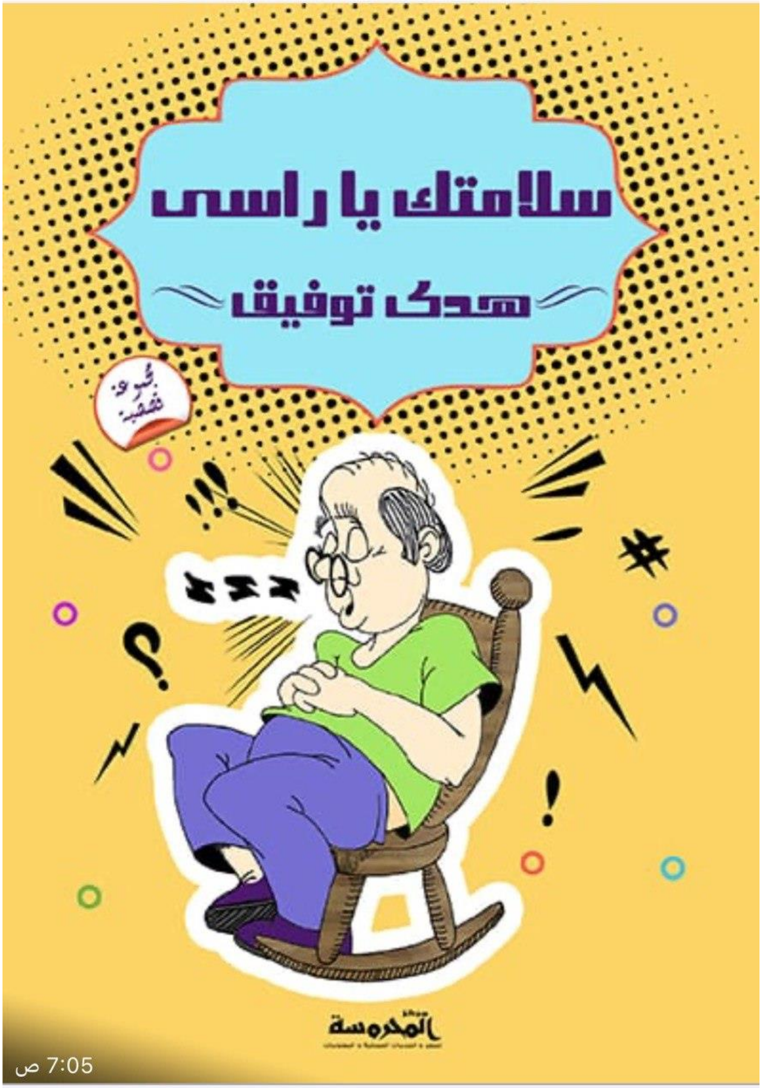
سلامتك يا راسى
هدى توفيق
مجموعة قصصية
المحروسة
7:05 ص

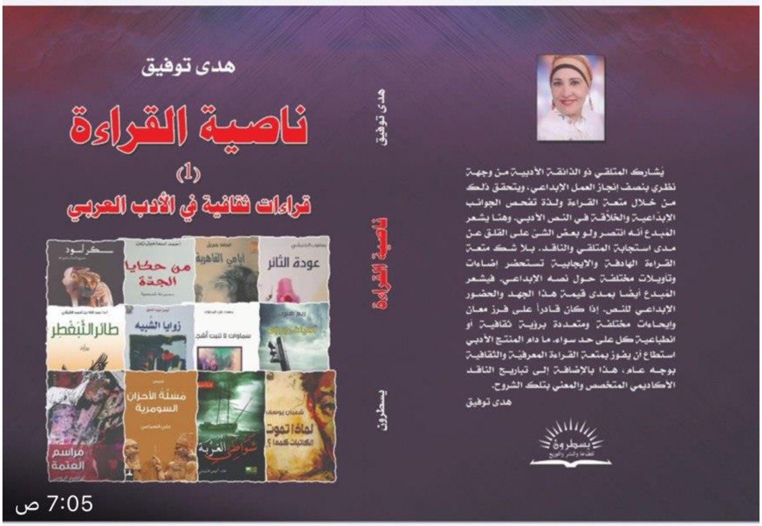
هدى توفيق
ناصية القراءة
(1)
قراءات ثقافية في الأدب العربي
هدى توفيق
ناصية القراءة
يسطرون
يُشارك المتلقي ذو الذائقة الأدبية من وجهة نظري بنصف إنجاز العمل الإبداعي، ويتحقق ذلك من خلال متعة القراءة ولذة تفحص الجوانب الإبداعية والخلاقة في النص الأدبي. وهنا يشعر المبدع أنه انتصر ولو بعض الشئ على القلق عن مدى استجابة المتلقي والناقد. بلا شك متعة القراءة الهادفة والايجابية تستحضر إضاءات وتأويلات مختلفة حول نصه الإبداعي. فيشعر المبدع أيضا بمدى قيمة هذا الجهد والحضور الإبداعي للنص. إذا كان قادراً على فرز معان وإيحاءات مختلفة ومتعددة برؤية ثقافية أو انطباعية كل على حد سواء. ما دام المنتج الأدبي استطاع أن يفوز بمتعة القراءة المعرفية والثقافية بوجه عام، هذا بالإضافة إلى تباريح الناقد الأكاديمي المتخصص والمعني بتلك الشروح.
هدى توفيق
يسطرون
عودة الثائر
أيامي القاهرية
من حكايا الجدة
زوايا الشبيه
طائر التنغطر
سماوات لا تنبت أشجارا
مسلة الأحزان السومرية
شواطئ الغربة
لماذا تموت الكاتبات كمدا؟
مراسم العتمة
7:05 ص

2
ناصية القراءة
قراءات ثقافية فى الادب العربى
الكاتبة
هدى توفيق
الكاتبة هدى توفيق
قراءات ثقافية فى الادب العربى
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع
الكاتبة
هدى توفيق
نخلة وبيت
إيماءة قلب

حذاء سيلفانا
هدى توفيق
مجموعة قصصية
7:05 ص
هدى توفيق
حذاء سيلفانا
مجموعة قصصية
أثناء انهماكها في الترتيب والتوضيب والتنسيق ونثر حبات النفتالين لتحمي الملابس من العتة ، والعطن ، قفز القطان سمبا وبيتي على الشوفرينه ينظران إليها بتمرد ، بعد فعلتها المتعسفة من وجهة نظرهما مع بيتي ، فقد كانت بيتي حاملاً وسمبا لا يتحمل فراقها ، ويريد مضاجعتها في كل الأوقات ، فما كان من شامة التي تساند شوق سمبا وتتعاطف مع ولهه وحبه لبيتي، بأن ذهبت ببيتي إلي الطبيبة المختصة برعايتهما ، وعقمت بيتي ب 350 جنيهاً ، بحيث يمارس سمبا معها دون أن ينجبا ، وإن كانت شامة في البدء تريد أن تخصي سمبا ، حتي تتخلص نهائياً من مصدر الإنجاب لكن الطبيبة حذرتها إذا أخصته ، الكيس في الخصية سيمتلئ ويتراكم ، وربما يسبب له سرطاناً ، وطبعاً رفضت شامة تماماً هذا الحل البشع الإجرامي .
الكُتبي

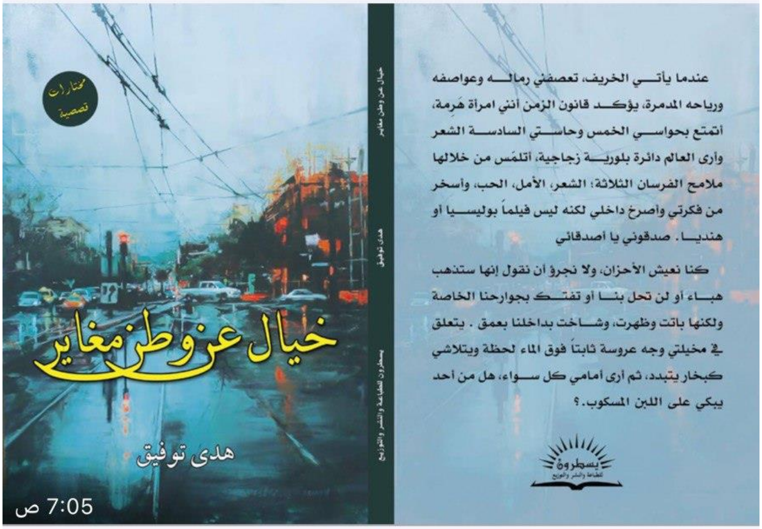

مختارات قصصية
خيال عن وطن مغاير
هدى توفيق
7:05 ص
خيال عن وطن مغاير
هدى توفيق
يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع
عندما يأتـــي الخريف، تعصفني رمالـــه وعواصفه ورياحه المدمرة، يؤكـــد قانون الزمن أنني امرأة هَرِمة، أتمتع بحواســي الخمس وحاســتي السادســة الشعر وأرى العالم دائرة بلوريـــة زجاجية، أتلمَس من خلالها ملامح الفرسان الثلاثة؛ الشعر، الأمل، الحب، وأسخر من فكرتي وأصرخ داخلي لكنه ليس فيلماً بوليســيا أو هنديــا . صدقوني يا أصدقائي
كنا نعيش الأحزان، ولا نجرؤ أن نقول إنها ستذهب هبــاء أو لن تحل بنــا أو تفتـــك بجوارحنا الخاصة ولكنها باتت وظهرت، وشــاخت بداخلنا بعمق . يتعلق في مخيلتي وجه عروسة ثابتاً فوق الماء لحظة ويتلاشي كبخار يتبدد، ثم أرى أمامي كل ســواء، هل من أحد يبكي على اللبن المسكوب.؟
يسطرون

الفهرس

المقدمة ٩
الفصل الأول : السيرة الذاتية ١١
الفصل الثاني : دراسات نقدية ١٦
الفصل الثالث : نماذج من نتاجها الأدبي ٨٧
الفصل الرابع : الصور... ٤٠٣
الفهرس ٤١٩

بطاقة تعريفية

المهندس عبد الزهرة عمارة

روائي وقاص وباحث علمي

ولد عام ١٩٥١ في مدينة العمارة مركز محافظة ميسان جنوب العراق

حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الاليكترونية - كلية الهندسة من جامعة بغداد عام ١٩٧٦

رئيس تحرير مجلة أمارجي السومرية

رئيس تحرير مجلة عروس الآداب

رئيس الرابطة العراقية للقصة القصيرة جداً

عضو نقابة المهندسين العراقية بدرجة مهندس استشاري

اصدر الكتب التالية

الكتب الأدبية

الروايات

١. غدا سأرحل !
٢. عاشقة من كنزا ربا
٣. أنفلونزا في بغداد

٤. لا وقت للدموع

٥. كلاب في الظلام

٦. دماء في بحيرة الاسماك

٧. الخدم في إجازة

٨. بغداد لا تنام

٩. فادية

١٠. في انتظار القمر

١١. شقراء البصرة

١٢. أعشقك حتى آخر العمر

١٣. جرذان القصور

١٤. غابة من اللصوص

١٥. وهج الصبا

١٦. عازفة التشيللو

١٧. تحت سماء كازبلانكا

القصص

١. الشمس تشرق في عيون النساء

٢. آنسات بابل

٣. قطة في الطريق

٤. متى تخلع العمامة

٥. السكرتيرة والخريف

الكتب العلمية

١. نظام الفيديو المنزلي
٢. صيانة الأجهزة المنزلية
٣. الأسس الفنية في إصلاح التلفزيون الملون
٤. رحلة مع ويندوز ٩٨
٥. الطرق الحديثة في صيانة اللابتوب
٦. المهارة الفنية في إصلاح الموبايل
٧. الجديد في صيانة الموبايل

كتب أخرى

١. انطولوجيا الرواية العراقية في المهجر
٢. الموجز في الرواية العراقية المعاصرة
٣. انطولوجيا القصة القصيرة النسوية العراقية
٤. ضفاف الرافدين للقصة القصيرة العربية
٥. الجنائن المعلقة للشعر العربي
٦. الجنائن المعلقة للقصة القصيرة العربية
٧. قيثارة سومر للشعر العربي

٨. شهرزاد في بغداد (سيرونصوص)
٩. شهريار في بغداد سيرونصوص
١٠. بو ابة عشتار للقصة القصيرة العربية
١١. عطر السرد في بلاد الر افدين (قصص قصيرة جدا)
١٢. عطر السرد في بلاد الشام (قصص قصيرة جدا)
١٣. عطر السرد في بلاد النيل (قصص قصيرة جدا)
١٤. ١٥٠ أيقونة عربية (قصص قصيرة جدا)
١٥. الحسين شمعة لا تنطفئ
١٦. الطريق الى كربلاء

- أصدر مجلة أمارجي السومرية وهي مجلة شهرية تعني بالأدب العربي عام ٢٠١٧ وأصبح رئيس تحريرها
- أصدر مجلة عروس الآداب وهي مجلة شهرية تعني بالقصة القصيرة جداً عام ٢٠٢٠ وأصبح رئيس تحريرها

المهندس الحقوقي جمعة الكندي

كاتب وناقد

- ولد في مدينة بغداد عام ١٩٦٠

- تخرج من كلية الهندسة في جامعة بغداد وحصل على شهادة البكالوريوس في هندسة النفط عام ١٩٨٥

- حصل على شهادة البكالوريوس في القانون من كلية القانون والسياسة من جامعة بغداد عام ٢٠٠٦

- عضو نقابة المهندسين العراقية بدرجة مهندس استشاري

- عضو نقابة المحامين العراقية

- رئيس مجلس ادارة مجلة أمارجي السومرية

رئيس تحرير مجلة أصفاد القانونية

هذا الكتاب هو مشروع ثقافي تتبناه مؤسسة أمارجي للثقافة والأدب والفنون بالتعاون مع دار أمارجي للطباعة والنشر إضافة الى الرابطة العراقية للقصة القصيرة جداً..

يتناول هذا الكتاب سيرة حياة علم من أعلام الساحة الأدبية ورمز مميز أثرى المكتبة العربية بمؤلفاته من الشعر أو القصة أو الرواية أو النقد .

كما أوردنا نماذج من نتاجه الأدبي ودراسات نقدية لمنجزاته الأدبية أضافة الى التكريمات التي حصل عليها طيلة فترة مسيرته الأدبية .

وخصصنا الفصل الأخير الى صور أغلفة الكتب والمهرجانات التي اشترك فيها الأديب .

دار امارجي
للطباعة والنشر – العراق